

126

تحقيقه
الدكتور ابراهيم الكيلاني

هناك أبو الوردية

أخلاق الصاحب بن عباد وابن العميد
لأبي حسان التوحيدي



3 1142 01332 5512



New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

DUE DATE	DUE DATE	DUE DATE
<p>Bobst Library</p> <p>SEP 13 1995</p> <p>CIRCULATION</p> <p>OFF-SITE RETURN SHELF</p>	<p>DUE DATE</p> <p>RETURNED</p> <p>AUG 10 2010</p> <p>APR 12 2010</p> <p>BOBST LIBRARY CIRCULATION</p> <p>BOBST LIBRARY</p>	<p>Bobst Library</p> <p>AUG 4 1996</p> <p>CIRCULATION</p> <p>REC'D</p>

Return to Off-Site
Place on Off-Site Return Shelf

DO NOT COVER

Abū Hayyān al-Tawhīdī, 'Alī ibn Muḥammad.

/ Mathālib al-wazīrayn /

مَثَالِبُ الْوَزِيرَيْنِ

أخلاق الصاحب بن عباد وابن العميد

لأبي حيان التوحيدي

عني بتحقيقه

الدكتور إبراهيم الكيلاني

نشر وتوزيع

دار الفكر بدمشق

A. R. BULLOCK,
ISLAMIC BOOKS
62 KELBORNE RD., OXFORD, U.K.

DS

288

.6

.A2

c.1

حقوق الطبع وإعادته محفوظة للمحقق

أبو حيان التوحيدي

٣١٠ هـ - ٤١٤ هـ

« فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة
ومكنة » .

يا قوت : إرشاد الأريب ٦/١

« ربما كان التوحيدي أعظم كتاب النثر العربي
على الإطلاق » .

آ . متر : الحضارة الإسلامية في

القرن الرابع الهجري ٣٩٤/١

٢ - عصر التوحيدي :

عاش أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي في القرن الرابع
الهجري زمن بني بويه ، وهم جماعة من الفرس حكموا العراق وجنوبي فارس
زهة قرن ونيف ، فكان من الطبيعي أن يصاب العربي في عهدهم بنكسة وأن
تكون الغلبة للقومية الفارسية ، وأن يسود المذهب الشيعي ويتوغل في شرق
الامبراطورية العباسية المفككة وغربها ، وأن يؤدي ذلك الى صراع عنيف بين
السنين الذين كان يساندهم الأتراك وبين الروافض الذين كان يساندهم البويهيون .
وكان هؤلاء على ما لهم من مزايا معروفين بالسطوة والجبروت والقسوة حتى امتلأ
تاريخهم بأخبار الويلات والمآسي حلت بالناس من جراء الفوضى التي سادت
أيام حكمهم .

٢ - إن هذا الانحطاط السياسي كان يقابله رقي عقلي ، وكان من نتائج انقسام الدولة العباسية الى دويلات أن عمد أمراؤها سواء لأسباب سياسية أو بدافع حب الظهور أو تشبهاً ببنغداد إبان عزها الى تشجيع الحركة العلمية ورعاية أهل الفكر والأدب ، وبعد « أن كان نصير العلم الخليفة أو وزيره أو بعض عماله في بلد واحد أصبح نصراؤه في هذا العصر عدة ملوك وأمراء ووزراء في أشهر مدن العالم الاسلامي » فداكل قطر من اقطار المملكة مركزاً هاماً من مراكز الثقافة العربية فعرفت الحركة العلمية التي رعاها الخلفاء العباسيون شيئاً من الاستمرار .

وبالرغم من تشيع البويهيين ، ومن بقظة القومية الفارسية فإن هذين العاملين لم يحولا دون اتعاش الفكر العربي ، فقد كان كثيرون من البويهيين ووزرائهم على جانب من الثقافة حتى أصبح أساس الاختيار للوزارة عندهم شيئان : « القدرة الادارية والقدرة البلاغية » وعرف هذا العهد وزراء احتلوا مكانة مرموقة في تاريخ الأدب والبيان العربيين منهم : أبو الفضل بن العميد وولده أبو الفتح والصاحب بن عباد الذي جعل داره مجمعاً لجماعات الكتاب والمنشئين والمتكلمين والمتفلسفين والقراء حتى قال أبو حيان التوحيدي يصف مجلسه : « وهل عند ابن عباد إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ويتصايحون ! » ومن هؤلاء الوزراء الوزير المهلب الذي كان « غاية في الأدب والمهبة لأهله » وبهاء الدولة أبو نصر سابور بن اردشير ، وابن سعدان وزير صمصام الدولة وهو القائل يفخر بأهل مجلسه على زميليه المهلب وابن العميد « والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، وانهم لأعيان الفضل ، وسادة ذوي العقل ، وإذا خلا العراق منهم فرقن على الحكمة المروية ، والأدب المتهادي ، أتظن أن جميع ندماء المهلب يفون بواحد من هؤلاء ، أو تقدّر أن جميع أصحاب ابن العميد يشبهون أقل واحد منهم ! »

بل هذا استدعى نبوغ كثيرين من العلماء والفلاسفة والفقهاء والمحدثين والمفسرين والمتصوفة فعمّ النشاط العلمي مدناً في العراق وفارس كبغداد والبصرة والكوفة والري وأصفهان وشيراز وسيراف ، على أن بغداد على ما أصيبت به من ضعف وتضاؤل سياسي ظلت محتفظة الى حدٍ ما ببقايا مجدها القديم ولم يخطيء متر حين قال : « إن جميع الحركات الروحية في مملكة الاسلام كانت تتلاطم أمواجها في بغداد ، وكان فيها لجميع المذاهب أنصار » .

٣ - كانت الحالة الاجتماعية في أواخر القرن الثالث شبيهة بالحالة السياسية من حيث الفوضى وفقدان الاستقرار ، وكان من أبرز مظاهر هذا الاضطراب تباعد في الطبقات الشعبية وسوء توزيع للثروة العامة ، وفشو الاستغلال والترف والبدخ في الطبقات العليا على حساب الطبقات الدنيا حتى أصبح الناس كما يقول مسكويه : « بين هارب جالٍ ، الى مظلومٍ صابر ، الى مستريحٍ لتسليم ضيعته الى المقطع ليأمن شره وبوائقه » وتعد آثار التوحيدي صدى أميناً لحالة البؤس التي انحدر اليها الناس ومن بينهم المفكرون وأهل الأدب والمعرفة وهم الجديرون بحياة كريمة شريفة ، فقد كان ابو سليمان السجستاني المشهور « بحاجة ماسة إلى رغيث ، وحوله وقوته قد عجزا عن أجرة مسكنه ووجبة غدائه وعشائه » وكان أبو سعيد السيرافي « عالم العالم ، وشيخ الدنيا ، ومقنع أهل الارض على حد تعبير تلميذه التوحيدي ينسخ في اليوم عشر ورقات بعشرة دراهم ليعيش » وكان سيد الفلاسفة يحيى بن عدي النصراني « يكتب في اليوم والليلة مائة ورقة وأكثر » وكان المعافي بن زكريا النهرواني ذا « أنسةٍ بسائر العلوم » شاهده التوحيدي في جامع الرصافة « وقد نام مستدبر الشمس في يومٍ شاتٍ ، وبه من أثر الفقر والبؤس أمر عظيم ، مع غزارة علمه ، واتساع أدبه ، وفضله المشهور » وقد زاد الحالة سوءاً كثرة الضرائب واشتداد وطأة الاقطاع ، وفرض

الرسوم ، واشتطاط عمال البويهيين من جند وقواد ومتصرفين في تحصيل الأموال ، واحتكار قوت الفقراء والاعتداء على الناس ومصادرتهم حتى ثارت الطبقات الفقيرة أكثر من مرة وخاصة في عهدي عضد الدولة وصمصام الدولة ، وقال المقدسي يصف حال العراق سنة ٣٧٥ : « إنه بيت الفتن والغلاء ، وهو في كل يوم الى الوراء ، ومن الجور والضرائب في جهد وبلاء » .

٤ - كان من الطبيعي أن تتأثر الآداب والفنون بهذا التدهور الاقتصادي فتجمع الأدباء والمفكرون وأهل المعرفة على أبواب الخلفاء والامراء طلباً للرزق والمثالة ، وكثر التزاحم بينهم في جوار تسوده الدسائس والمؤامرات والوشايات والتملق مما أبعاد الأديب عن المثالية والترفع عن الدنيا فحصر جهوده في الوصول الى المجد والثروة والشهرة فحقت العاطفة الصادقة ، وغلب التكلف والمبالغة على الأدب ، وتلون بلون الشحذ والضراعة والاستعطاف، وآمن الناس بالخطوط والطوالع والنجوم والرزق المقسوم فذموا الزمان والفقر وعدوه مصدر كثير من الشرور والآفات حتى قال أبو حيان التوحيدي وهو الذي اکتوى بنار الحرمان طوال حياته الطويلة : « لحا الله الفقر ، فانه جالب الطمع والطبع ، وكاسب الجشع والضرع ، وهو الحائل بين المرء ودينه ، وسدّ دون مروءته وأدبه وعزة نفسه » وهو القائل أيضاً : « غدا شبابي هرماً من الفقر ، والقبر عندي خير من الفقر » ولذا قويت في هذا العصر زعنة التصوف والتوكل ونما أدب الكدبة الذي يمثله المقامة .

٥ - ملحمة عن حياة أبي حيان التوحيدي

ولد أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي سنة ٣١٠ هـ من أبوين فقيرين ، وصرف القسم الأكبر من حياته في بغداد حيث تلقى العلم على أيدي

أشهر أساتيد عصره كأبي سعيد السيرافي (٢٤٨ هـ - ٣٦٧ هـ) الذي علمه النحو وغيره من أنواع المعرفة الشائعة في عصره كعلوم القرآن والفقه والفرائض والحساب والكلام والبلاغة والشعر والعروض والقوافي ، كما أطلعه في سن مبكرة على أسرار علم التصوف ، وقد تأثر التوحيدي بآراء أستاذه وأفكاره إلى حد بعيد . ودرس التوحيدي أيضاً علم الكلام والمنطق والعربية على علي بن عيسى الرماني (٢٩٦ هـ - ٣٨٤ هـ) وهو أحد أئمة اللغة والأدب والمتكلمين على طريقة المعتزلة ، والتوحيدي مدين لأستاذه بتكوينه العقلي والمنطقي . ودرس التوحيدي الفقه الشافعي على أساتذة ثلاثة : القاضي أبي حامد المرورودي المتوفى سنة ٣٦٢ هـ وهو « من أئمة الفقه الذي لا يشقّ غباره » وأبي بكر محمد بن علي القفال بن اسماعيل الشاشي المتوفى سنة ٣٦٥ هـ وكان « محدثاً ، فقيهاً ، أصولياً ، لغوياً ، شاعراً » ، والقاضي أبي الفرج المعافي بن زكريا النهرواني (٣٠٥ هـ - ٣٣٩ هـ) « أعلم الناس بفقه مذهب الطبري ونصرته والدفاع عنه » .

ودرس التوحيدي الفلسفة والمنطق على أبي زكريا يحيى بن عدي الذي انتهت إليه « رئاسة أهل المنطق في زمانه » كما درس الحكمة والمنطق على أبي سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني وهو من أعظم علماء زمانه ، وكان هؤلاء يجتمعون حوله لمناظراته ، وكان التوحيدي كثير الملازمة لأستاذه والأخذ عنه وتدوين كلامه ، ومن يتصفح كتاب « المقابسات » يجد أن أغلب المحاورات والمناظرات التي دوّنها التوحيدي هي من أحاديث أستاذه السجستاني .

وهناك أساتذة آخرون كان أثرهم فيه أقل ممن تقدّم ذكرهم .

وهكذا قيض للتوحيدي أن يتصل بأكبر علماء عصره مما أكسبه ثقافة موسوعية نرى آثارها ماثلة فيما وصل إلينا من آثاره .

٦ — قضى التوحيدي حياته شريداً طريداً تارة ، ومنزويماً تارة أخرى ، ولم يعرف الهدوء والاستقرار إلا في فترات قصيرة ، ويبدو أنه طوّف في كثير من البلدان ، في الحجاز والعراقين والجبل والحجاز ، وقضى أكثر أيام عمره « متنقلاً من بلد إلى بلد ، يقف على الأبواب ، ويخالط الصوفية والغرباء » . ولذا كثرت الفجوات في مراحل حياته وخفي علينا كثير من المعلومات التي تعين المدارس على تأريخ سيرة متصلة الحلقات .
توفي التوحيدي سنة ٤١٤ هـ في مدينة شيراز ودفن فيها .

٧ — اتصاله بكبراء عصره

كان لاتصال التوحيدي بكبراء عصره أثر كبير في ظروف حياته وتواجه الأدبي . فكان أول من اتصل بهم الوزير أبا محمد الحسن بن محمد المهلبى (٢٩١ - ٣٥٢ هـ) وزير معز الدولة . وكان المهلبى « جامعاً لأدوات الرئاسة » يعطف على الأدباء وأهل العلم ، شديد التعصب على أعداء الشيعة ، بعيداً عن روح التسامح ، فلم يلق التوحيدي صدرًا رحباً منه نظراً لموقف التوحيدي من الشيعة والرافضة ، وتذكر إحدى الروايات أنه نفاه من بغداد « لسوء عقيدته وزندقته وانحلاله » ، وقد اضطر التوحيدي إلى الاختفاء واحتراف مهنة الوراقة على كره منه لمهنة فيها « ذهاب العمر والبصر » .

٨ — ثم بدا للتوحيدي الرحيل إلى أبي الفضل بن العميد ، وكان من ألمع شخصيات عصره عالماً وأدبياً وسياسة مما « بهر به أهل زمانه » حتى أذعن له العدو ، وسلم الحسود ، ولم يزاحمه أحد في المعاني التي اجتمعت له ، وكان التوحيدي يأمل من اتصاله بالوزير الفوز بالهدوء

والاستقرار بعد غربة وتشرد ، غير أنه لم يفز منه بما كان يؤمل ، ولعلّ ابن العميد آلمه اعتداد التوحيدي بنفسه واستطالته عليه وهو - أي التوحيدي - صوفي السمّ والهيئة « غرّ » ، لا هيئة له في لقاء الكبراء ومحاوره الوزراء ، وفي ابن العميد « أمية الفرس وعظمة السلطان » فاحتقره وازدراه ، فكان من رد الفعل عند التوحيدي تأليفه رسالة المثالب التي طعن فيها بابن العميد مظهرأ عيوبه ونقائصه ، ثم اتصل بعد ذلك بأبي الفتح بن العميد ، فلم يكن نجاحه عنده بأحسن من نجاحه عند أبيه ، فأفرد له في رسالة مثالب الوزيرين مقاطع كثيرة طعن فيها بأدبه وخلقه حتى تداخل الاسمان في الرسالة وصعب أحياناً التمييز بينهما .

ولا شك في أن التوحيدي كان مدفوعاً بهواه وحقده في هجومه على ابن العميد وابنه وقدّما ينجو الإنسان من سلطان الغايات لأن الهوى كما يقول التوحيدي نفسه « مقيم لاث ، والرأي مجتاز عارض ، ولا بدّ للهوى أن يعمل عمله ، ويبلغ مبلغه ، وله قرار لا يطمئن دونه » كما أن الزام « لا يسلم إذا ذمّ من الإسراف تعنتاً لصاحبه ، وحملأ عليه بالانحاء الشديد ، والقول الشنيع ، والنداء الفاضح ، والحديث المخزي ، وجربأ مع شفاء الغيظ وبرد الغليل » .

وبعد فإن التوحيدي لم يكتب ما كتب في ثلب الوزيرين إلا بتأثير إخفاقه في نيل عطاء ابن العميد والفوز برضاه بعد طول الرجاء والتأميل والخدمة لأن « جرعة الحرمان - على حدّ قوله - أمرٌ من جرعة التكل ، وضياع التأميل أمضٌ من الموت ، وخدمة من لم يجعله الله لها أهلاً أشدّ من الفقر » .

٩ - عند صاحب بن عبّاد

في سنة ٣٦٧ هـ توجه التوحيدي من بغداد إلى مدينة الريّ للوقوف
بياب صاحب بن عبّاد ، وكان هذا يومئذٍ من كبار وزراء بني
بويه ، وله شهرة ومقام في المجالين الإداري والأدبي . وكان التوحيدي
قصد صاحب كما يقول « بأمل فسيح ، وصدر رحيب » وهو في
« بقية من غرب الشباب ، وبعض ريمانه » « فأناخ في فئائه مع شدة
العدم والانفاض والحاجة المزعجة عن الوطن ، وصفر الكف عما يسان به
الوجه ، وبعد ترده إلى بابه في غمار الغادين والرائحين والطامعين
الراجين ، وصبره على ماكلّفه نسخته حتى نشب به تسعة أشهر خدمة وتقرباً
وطلباً للجدوى منه ، والجاه عنده ، مع الضرع والتعلّق ببعض ما فارق من
أجله الأعزّة ، وهجر بسببه الاخوان » .

ماذا كانت عاقبة هجرة التوحيدي إلى صاحب بن عبّاد ؟ الاخفاق التام ،
لأن كل شيء في نفسيّتي الرجلين يحمل على التباعد والتضاعف والجفاء ، ويفسر
التوحيدي ذلك بقوله : « ولكني ابتليتُ به ، وكذلك هو ابتلي بي ،
ورماني عن قوسه معزقاً ، فأفرغتُ ما كان عندي على رأسه مغيضاً ،
وحرمني فازدريته ، وحقرني فأخزيتُهُ ، وخصّني بالخبيّة التي نالت مني ،
فخصصته بالغيبة التي أحرقتهُ ، والبادي أظلم ، والمتصف أعذر » .
ويمضي التوحيدي في تسويغ سلوكه مع صاحب بن عبّاد بقوله : « ولئن كان
منعني ماله الذي لم يبق له ، فما حظر عليّ عرضه الذي بقي بعده ، ولئن كنت
قد انصرفت عنه بنحفي حينين لقد لصق به من لساني وقلمي كلّ عار وشنار
وشين ، ولئن لم يرني أهلاً لنائله وبرّه ، إني لأراه أهلاً لقول الحق فيه ،

ونتـ ما كان اشتمل عليه من مخازيه ، ولئن كان ظنّ أن ما يصير إليّ
من ماله ضائع ، إني لأيقن الآن أن ما يتصل بعرضه من قولي شائع .

ولا ريب في أن التوحيدى معذور فيما فرط منه لأنه فقير ، مدفوع إلى
المبالغة والشطط في حالتي السخط والرضى ، وصاحب الفقر - كما يقول
التوحيدى - « إن مدح فرط ، وإن ذم أسقط » .

ولذا لم يترك التوحيدى طريقاً للطعن بالصاحب والإساءة إلى سمته إلا سلكها ،
طعن في خلقه ، وأدبه ، وعلمه ، وعرضه ، فهو جاهل وبخيل وغبي ورقيع
وسخيف وسفك للدماء ، وغدار ، وقليل الوفاء والذمة ، كما أنه لم يبدع
أسلوباً من أساليب الوصف والتشنيع إلا اعتمد عليه في مهاجمة خصمه وجعله
موضِعاً للهزء والسخرية والضحك ، فكان التوحيدى وهو « المحبول على الغرام
بثلب الكرام » قد عبأ موهبته الفنية ، وقدرته البيانية وثقافته الواسعة ليكشف
مساوىء الصاحب الذي أساء إليه وردّه خائباً بعد ثلاث سنوات من الانتظار
كانت عقباها كما يقول التوحيدى : « واني فارقت بابه سنة سبعين وثلاثمائة راجعاً
إلى مدينة السلام بغير زادٍ ولا راحلة ، ولم يعطني مدة ثلاث سنين درهماً واحداً ،
ولا ما قيمته درهمٌ واحد ، فاحمل هذا على ما أردت ، ولما نالني منه هذا
الجرمان الذي قصدني به ، واحفظني عليه ، وجعلني من جميع غاشية وردّه
فرداً ، أخذت أملاً ذلك بصدق القول عنه في سوء الثناء عليه والبادي أظلم » .

كان من أثر هذه الخصومة مع الوزيرين هذه التحفة الأديبية الثمينة التي
أودعها على حد تعبيره « نفسه الغزير ولفظه الطويل والقصير » والتي يرجع إليها
فضل السبق إلى نشرها .

١٠ - رسالة مثالب الوزيرين

تعددت أسماء هذه الرسالة فهي مثالب الوزيرين وثلب الوزيرين عند ابن خلكان، ودم الوزيرين وأخلاق الوزيرين عند ياقوت الرومي ، وثلب الوزيرين عند طاش كبري زاده ، وورد عنوانها في المخطوطة «رسالة أبي حيان التوحيدي في أخلاق ابن العميد والصاحب بن عباد» ، ووصفها أبو حيان نفسه في كتاب الامتاع والمؤانسة فقال مخاطباً ابن سعدان الوزير : « على أني عملت رسالة في أخلاقه وأخلاق ابن العميد وهي تجزّع في دست كاغذ فرعوني^(١) ، ويظهر ان أبا حيان قد أضاف إليها نصوصاً جديدة لأن ما وصل إلينا أكثر مما وصفه مؤلفها. وقد ظلت هذه الرسالة مفقودة ، فلم نعرف عنها إلا مقاطع ذكرها ياقوت في إرشاد الأريب في ترجمة أبي حيان التوحيدي ، والصاحب بن عباد ، وأحمد ابن محمد بن ثوبة ، واعتقد المستشرق مرجليوت في مقاله عن التوحيدي في دائرة المعارف الاسلامية « أن هذه الرسالة محفوظة في القسطنطينية ، وأن مطبعة الجوائب وعدت بنشرها » .

١١ - العثور على الرسالة

إني من المولعين بأبي حيان ، ومن أشد المتبعين لآثاره حساسة ، وقد ظلت زمناً أتشوق للعثور عليها حتى عدت ذلك من أمنيات العمر إلى أن قبض لي القدر أحد المستشرقين وهو السيد مارك بيرجه Marc Bérge الذي عثر عليها مصادفة، وكان يعرف مبلغ تعلقي بأبي حيان وحرصني على نشر آثاره فصور المخطوطة وأهدانيها فأليه شكري الخالص وشكر القراء والمعجبين بأدب التوحيدي على هذه الهدية القيمة .

(١) تجزّع : تجزأ ، الدست : أربع وعشرون ورقة ، الكاغذ : الورق ، فرعوني : مصري .

١٣ - وصف المخطوطة

وهي محفوظة في مكتبة أسعد افندي في استانبول تحت رقم ٣٥٤٢ ضمن مجموعة يبدأ رقم صفحاتها من ٤٣ ب الى ٩٢ ب ويتراوح عدد سطورها بين ٢٠ سطرأ و ٣٢ سطرأ وخطها نسخي ، عادي ، متداخل ، ويظهر ان المخطوطة كانت مهمة في الأصل وقد ضبطها أحد مقتنيها ببحر يخالف الخبر الأصلي مما جعل قراءتها عسيرة ومهمة المحقق صعبة .

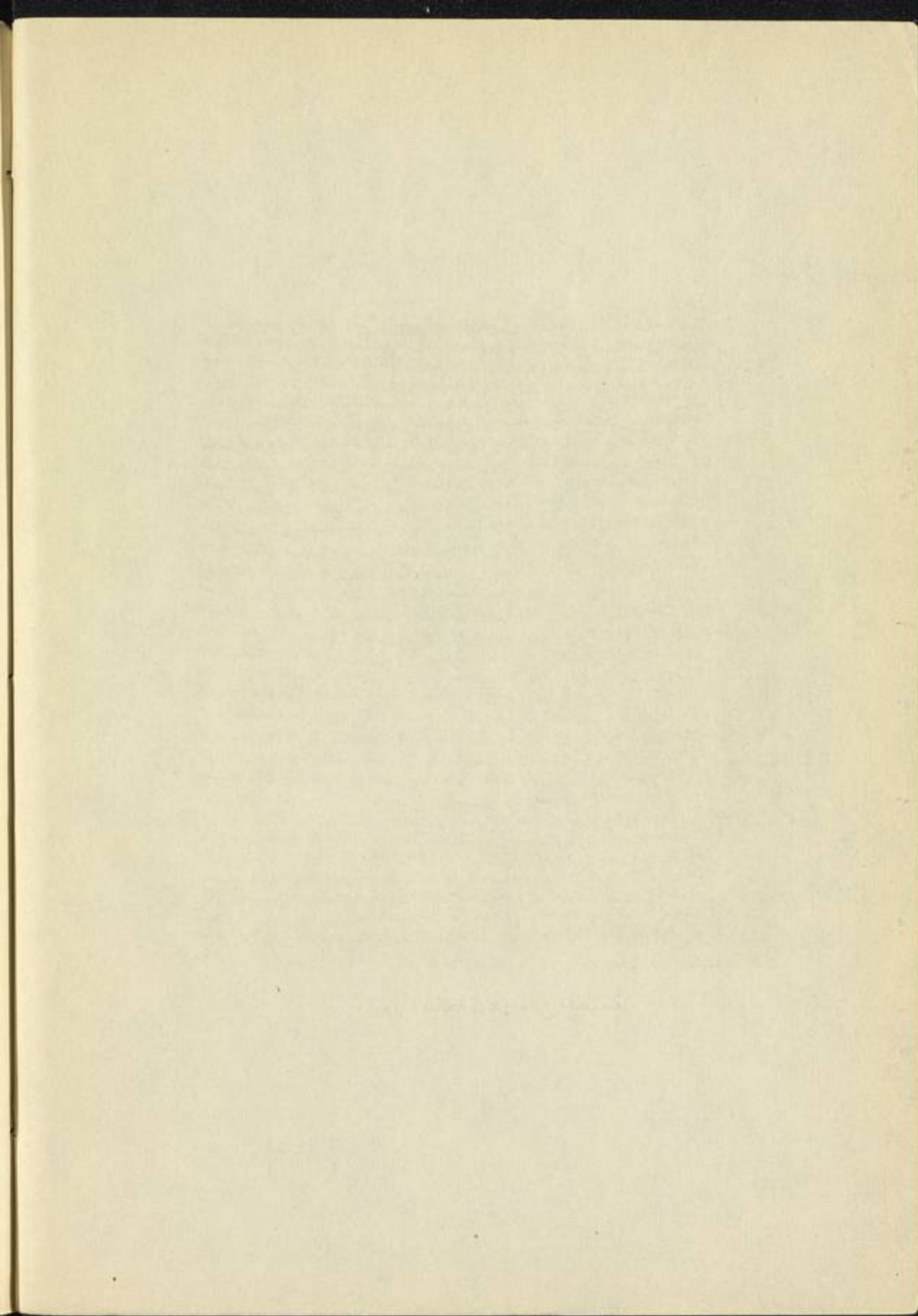
١٤ - طريقة التحقيق

كانت عنايتنا في التحقيق موجهة الى النص ولذا لم نشأ اثقاله بالحواشي والتفاسير والملاحظات . وقد اعترضتنا أثناء التحقيق مقاطع وجمل وكلمات غامضة فلم نقف عندها مقرين بالعجز عن حلها بل حاولنا جهدنا اعطاء حل هادانا اليه اجتهادنا تاركين للقارىء الحكم على خطئه أو صوابه .

أما ما ورد في الرسالة من جمل وأبيات وأخبار بذئثة يستنكرها التهذيب والحياء فلم نشأ حذفها أو التصرف بها حرصاً على الأمانة والتزاهة العلميتين . سدّد الله خطانا ووقفنا الى ما فيه خدمة تراثنا ولقنتنا العربية الخالدة .

دمشق في ٢٥ ايلول (سبتمبر) ١٩٦١

الدكتور ابراهيم الكيلاني



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[قال أبو حيان التوحيدي :]

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله الطيبين ،
[أب] أمتك الله بنعمته عليك ، وتولاك بحسن معونته لك ، وألهمك حمده ،
وأوزعك شكره ، ومنحك صنعه وتوفيقه ، وألبسك عفوه وعافيته ،
وأوصل إليك رأفته ورحمته ، وصرف رغبتك إلى ما خلص عندك نفعه
عاجلاً ، وحلت لك ثمرته آجلاً ، وعرفك ما في الغيبة والفرية^(١) من
المهجنة والشناعة ، وما في إظهار العيب والتنديد من العار والتباعة^(٢) ، وما في
الإعراض عن أعراض الناس من السلامة والفائدة ، وما في مباقاتهم^(٣) ومقاربتهم
والتوقير لهم من الراحة والعائدة^(٤) ، حتى لا تأتي ما تأتي إلا وأنت واثق بماقبتك
ومرجوعه ، ولا تدع ما تدع إلا وأنت محسوم الطمع من خيره ومردوده ،
وحتى لا تتكلف إلا ما في وسعك وطاقتك ، ولا تكلف أحداً إلا ما له
طريق إلى طاعتك وإجابتك ، وعنده الحججة القوية في تقديم أمرك ، والبلوى^(٥)
فما يتجمله لك ، ويتوخى فيه مسرتك ، ويقصد به جذلك وغبطتك ، ويصير
بالصبر عليه من أوليائك وشيعتك ، ولا يخرج معه إلى محادثتك ومخالفتك لأمر

(١) الفرية : الكذب واختلاقه .

(٢) التباعة : ما ترتب على الفعل من الخير والشر إلا أن استعماله في الشر .

(٣) لم تقف على هذا المصدر في المعاجم التي بين أيدينا ولعل أبا حيان يريد من « المباقة »

المفاعلة من الإبقاء على الصفة .

(٤) في الأصل : « والفائدة » .

(٥) البلوى : الاختبار .

يُعوز ، وحادث يعرض ، وعطن يضيق ، وبال يتحرك ، وطباع تخور ،
وحاسد يطعن ، وعدو يعترض ، وجاهل يتعجرف ، وسفيه يتهانف (١) ،
وصدر يخرج ، ولسان يتلجلج ، بل يتلقى أمرك بالقبول ، وينشط لخدمتك
بالتأميل ، ويرى أن ما يناله من رضاك فوق ما يبذل فيه جهده لك ، وما
يحزره من ثوابك أضعاف ما يبرزه من كدحه عندك ، وما ينجو به من عتبك
واستزادتك يوفي على ما يتعلق بسعيه في مرادك ، وما يعزّ به في الثاني من
إحسانك أردّ عليه بما يبذل في الأول من اقتراحك ، وما يقوّى به من اليقين
والطمأنينة في كرامته عندك أكثر مما يضعف به من الترنح والشك في
بواره عليك .

[باب في أدب النفس]

وهذا باب يرجع إلى معرفة الأحوال إذا وردت مشتبهة مستهمة ، وعواقب
الأمر إذا صدرت مستتيرة متوضحة ، وثمره هذه المعرفة السلامة في الدنيا ،
والكرامة في الآخرة ، وبهذه المعرفة يصح الفرق والموازنة ، ويميز ما اختلف
فيه مما اتفق عليه ، وما ترجح من الاختلاف والاتفاق ، ولم يبق عند الامتحان
والنظر على ساق . وهذه حال لا تستفاد إلا بقلة الرضا عن النفس ، وترك الهوينا
في التشاور والتخاير ، وبجانبه الوكيل كيف دار الأمر ، وأين بلغت الغاية .
وأنت حفظك الله إذا نظرت إلى الدنيا وجدتها قائمة على هذه الأركان ، جارية
على هذه الأصول ، ثابتة على هذه العادة ، فكل من كان نصيبه من الكيس

(١) يتهانف :: يضحك ضحك المستهزئ .

والحزامة أكثر ، كان قسطه من النفع والعائدة أوفر ، وكل من كان حظه من العقل والتأييد أنزر ، كانت تجارته فيها أخسر ، وعاقبته منها أعرس. وهذا الباب جماع المنافع والمضار ، وبه يقع التفاوت بين الأخيار والأشرار ، وبين السفلة وذوي الأقدار ، وهو باب ينتظم الصدق والكذب في القول ، والخير الشر في الفعل ، والحق والباطل في الاعتقاد ، والعدل والجور فيما عم ، والاخلاص واليقين فيما خص ، والراحة والسكون فيما بان ووضع ، والقناعة والصبر فيما نأى ونزح .

ومتى تمت هذه المعرفة ، واستحكمت هذه البصيرة كان الإقدام على ثقة بالظفر والنكول عن الاطلاع على الغيب . وهذه معان من أبصرها نقدها ، ومن نقدها أخذ بها وأعطى ، وكان فيها أنفذ من غيره وأمضى ، / وهناك يحكم لغوره بالبعد ، ولصدره بالسعة ، ولصيته بالظيرورة ، ولطباعه بالكرم ، وخلقه بالسهولة ، ولعوده بالصلابة ، ولنفسه بالمرارة ، ولوجهه بالطلاقة، ولشباته بالخلابة . ومتى عاشرت مَنْ هذا نعتة وحديثه ، نَعَمَّتْ معه ، وسامت عليه ، وسعدت به ، وكرمت لديه ، وكان حظك من خللاته ومجاورته الغبطة به والغنيمة بجماله .

[١٢]

[الانسان الكامل]

وأني لك مَنْ هذا وصفه وخبره ، ومن لك بالمرء الذي لا بعده مع اضطراب دعائم الدنيا ، وتساقط أركان الدين . والأول يقول :
« وكيف التماس الدرر والضرع يابس (١) »

* * *

(١) البيت للمرقش الأكبر والشطر الأول :

تعاللتها وليس طي بدرها ...

تعاللتها : أخذت علاقتها يريد سيرها مرة بعد مرة أي ساعة يرفق بها وساعة يجهدا ، أخذها من العلل وهو الشرب الثاني . طي : طلي وإرادتي . درها : لبها. (المفضليات ٢٧/٢)

« وما لامرئٍ عما قضى الله من رجلٍ »

* * *

« وليس لرجلٍ حطئه الله حاملاً »

* * *

« إن البريء من الهنات سعيدٌ »

* * *

« وما خيرٌ سيفٍ لم يؤيد بقائمه (١) »

* * *

« ... ولكن أين بالسيف ضارب (٢) »

* * *

« الله يرزق لا كيسٌ ولا حمقٌ »

* * *

« والبرُّ خيرٌ حقيبةِ الرجلِ (٣) »

* * *

(١) من قصيدة لبشار بن برد وصدرة :

وما خير كف أمسك الفل أختها

(الديوان)

(٢) تمام البيت : فهذي سيوف يا صدي بن مالك

حداد ولكن أين بالسيف ضارب

كما ورد الشطر الثاني في رواية ابن الفراء :

كثير ولكن أين بالسيف ضارب

راجع : أمالي ابن الشجري ٢٦٧/١ ومعاني القرآن للقراء ٦٤/١

(٣) صدر البيت : الله أمنح ما طلبت به « شرح ديوان الحماسة ١٦٢/٣ »

ولقد أجاد الخزومي أبو سعد (١) في قوله :

« اصطلاح السائلُ والمسؤولُ »

« ليس إلى مكرمة سبيلُ »

« غال بإخوان الوفاء غولُ »

« كل امرئٍ بشأنه مشغولُ »

بعد الآخر حين يقول :

أرى الناس شتى في النجار وإن غدتْ

خلائقهم في اللوم واحدةَ الشجرِ

وقد زادني عتْباً على الدهر أني

عدمتُ الذي يُعدي على حادثِ الدهرِ

وهذا كثير ، والداء فيه مُتفاقم ، والقولُ عليه مُعاد مملول .

[الشعراء والحكمة]

فإن قلت: هؤلاء شعراء ، والشعراء سفهاء ، ليسوا علماء ولا حكماء ، وإنما يقولون ما يقولون والجشع بادٍ منهم ، والطمع غالب عليهم ، وعلى قدر الرغبة والرغبة يكون صوابهم وخطأهم ، ومن أمكن أن يُزْحَرْحَحَ عن الحق بأدنى طمع ، ويُحمل على الباطل بأيسر رغبةٍ ، فليس ممن يكون لقوله آتاء ،

(١) أبو سعد الخزومي : واسمه عيسى بن الوليد من شعراء العباسيين عاصر دعبلاً وجرت

بينها مهاجاة « الفهرست ٢٣٥ ، الموشح ٣٤٧ ، الأغاني ١٨/٥٠ » .

أو لحكمته مضاء ، أو لقدره رفعة ، أو في حلقه طهارة ، ولهذا قال القائل :
لا تَصْحَبَنَّ شاعراً فإنه يَهْجُوكَ مجاناً ، ويطري بَشْمَنَ ، وهذا لأنه مع الريح ،
أين مالت به مال ، يتطوَّح مع أقل عارض ، ويحجب أول ناعق ، ويشيم
أي برق لاح ، ولا يبالي في أي واد طاح ، قد جمع دبنه ومروءته في قرن
تهاوناً بهما ، وعجزاً عن تدبيرهما ، فهو لا يكثرث كيف أجاب سائلاً ، وكيف
أبطل مجيئاً ، وكيف ذم كاذباً ومتحامللاً ، وكيف مدح موارباً ومخاتلاً ،
فلا تفعل فذاك عمك وشب ابنك ، فإن رسول الله صلى الله عليه [وسلم] قد
قال : إن من الشعر لحكماً ، وقال : وإن من البيان لسحراً ، وكيف
لا يكون ذلك كذلك وفيه مثل قول لييد (١) :

إن تقوى ربنا خير نَقَلٌ وبإذن الله ربني وعجل (٢)

[الشعر والنثر]

والشعر كلام ، وإن كان من قبيل النظم ، كما أن الخطبة كلام ،
وإن كان من قبيل النثر ، والانتثار والانتظام صورتان للكلام في السمع ،
كما أن الحق والباطل صورتان للمعنى ، وكذلك المثل في السمع ،
وليس الصواب مقصوراً على النثر دون النظم ، ولا الحق مقبولاً بالنظم
دون النثر ، ومارأبنا أحداً أغضى على باطل النظم ، واعترض على حق

(١) هو لييد العامري « ٠٠ - ٤١ هـ » أحد الشعراء الفرسان في الجاهلية ، أدرك
الاسلام وسكن الكوفة وكان من المعمرين وهو من أصحاب المعقات.

(٢) مطلع قصيدة . راجع الديوان ص ١١ طبعة بروكلمان ليدن ١٨٩٢
Die Gedichte Des Lebid Leiden 1892

النثر ، لأن النثر لا ينتقص من الحق شيئاً ، وما أحسن ما قاله
القائل (١) :

وإنما الشعر لب المرء يعرضه
على المجالس إن كيباً وإن حمقاً
وإن أشعر بيت أنت قائله
بيت يقال إذا أنشدته صدقاً

وهذا باب لا يفيد الإغراق فيه إلا ما يفيد التوسط والقصد ، فلا وجه مع
هذا للاطالة ، ولا يكون سبباً للملالة .

[أسباب تأليف الرسالة]

وهذه الجملة - أكرمك الله - أنت أحوجتني إليها ، وجشمتني
صعبها ، حتى نشبت (٢) بها قائماً وقاعداً ، وتقلبت في حافاتها مختاراً ومضطراً ،
وتصرفت في فنونها محسناً ومسيئاً لما تابعت إلي من كتاب بعد كتاب ،
تطالبني في جميعه بنسخ أشياء من حديث ابن عباس وابن العميد وغيرهما ممن
أدركته في عصري من هؤلاء منذ سنة خمسين وثلاثمائة إلى هذه الغاية ،
وزغمت أني قد خبرت هذين الرجلين من غمار الباقيين ، ووقفت على شأنهما ،
واستبنت دخائلهما ، وعرفت خوافي أحوالهما ، وغرائب مذاهبهما وأخلاقها ،

(١) البيتان لحسان بن ثابت الأنصاري راجع الديوان طبعة البرقوقي ١٩٢٩ ص ٢٩٢

(٢) نشب بالشيء : تعلق به .

ولعمري قد كان أكثرُ ذلك إما بالمشاهدة والصحبة ، وإما بالسماع
والرواية من البطانة ، والحاشية ، والندماء ؛ وذوي الملابس وقلت : ينبغي
أن تضيف إلى ذلك ما يتعلق به ، ويدخل في طرازه ؛ / ولا يخرج عن الإفادة [٢ب]
بذكرة ؛ والاستفادة من نشره ؛ فإن ذلك يأتي على كل ما تنوق إليه النفس
من كرم ولؤم ، وزيادة ونقص ، وورع وانسلاخ ، ورزاة وسخف ،
وكينس وبله ، وشجاعة وجبن ، ووفاء وغدر ، وسياسة وإهمال ،
واستغاف ونطف^(١) ، ودهاء وغفلة ، وبيان وعي ، ورشاد وغيا ،
وخطأ وصواب ، وحلم وسفه ، وخلاعة وتمالك ، ونزاهة ودنس ، وفضاظة
ورقة ، وحياء وقحة ، ورحمة وقسوة .

[التزام الصراحة]

وقلت : ولا يجليء موقع ذلك كله ، ولا يعضب وردّه ، ولا يغزر
عدّه ، ولا ينقاد السمع له ، ولا يُراح القلب به إلا بعد أن تدع المحاشاة
وأنت مقتدر ، وتفارق المحاشاة وأنت متبصر ، وإلا بعد أن تترك العدو
والحاسد يتقدان بغيظهما اتقاداً ، ويرتدان على أعقابهما ارتداداً ، فإن
التيّة في هذا الفن مجزعة مضرعة ، وركوب الردع فيه
مأثرة ومفخرة ..

[وضع الأمور في نصابها]

وقلت .والعامّة تقوله :: من جعل نفسه شاة دقّ عنقه الذئب ، ومن

(١) النطف : الرية والفساد .

صيرت نفسه نخالة أكله الدجاج ، ومن نام على قارعة الطريق دقته الخوافر
دقاً ، والكبر في استيفاء الحق من غير ظلم ، كالتواضع في أداء الحق من غير
ذل ، وكما أن المنع في موضع الإعطاء حرامان ، كذلك الإعطاء في موضع
المنع خذلان ، كما أن الكلام في موضع الصمت فضل وهذر ، كذلك السكوت
في موضع الكلام لسكنة وحصر .

[نتائج الاحسان والاساءة]

وكما أن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها ، كذلك النفوس
طبتت على بغض من أساء إليها . والجَبَلُ (١) والطبع وإن اختلفا في اللفظ
فإنهما يجتمعان في المعنى ، وكما أن الحب نتيجة الإحسان ، كذلك البغض نتيجة
الإساءة ، وكما أن المنعم عليه لا يتها بنعمته الواصلة إليه إلا بالشكر لوأهبها ،
كذلك المساء إليه لا يجد برد غلته ولذة حياته إلا بأن يشكو صاحب الإساءة ،
وإلا بأن يهجو المانع ويذم المقصر ويثلب الحارم ، وينادي على الخسيس
الساقط ، والنذل المهابط في كل سوق ، وفي كل مجلس ، وعند كل هزل وجد ،
ومع كل شكل وضد ، ميزان عدل ، ووزن بقسط ، ونصف مقبولة ،
وعادة جارية على وجه الدهر .

وقلت أيضاً : ومن وجع قلبه وجعك ، وألم عنته ألمك ، وحرم
حرمائك ، وخيب خيبتك ، وجرع ما جرعتة ، وقصد بما قصدت
به ، وعومل بما شاع لك ، قال وأطال ، وكرّر وسير ، وأعاد

(١) جبله : خلقه وفطره .

وأبدأ^(١) ، وعرض وصرّح ، ومرّض وصحّح ، وقام وقعد ، وقرب
وبعد ، وإنّ عيناً ترقد على الضيم للعمى أحسن بها ، وإنّ نفساً تقر على الخسف
لموت أولى بها من حياتها .

[العتب على ابن العميد]

وقلت : أما سمعت قول العاتب على ابن العميد في رسالته حين قال الحق له .
قال : وليعلم المرء وإن عزّ سلطانه ، وعلا مكانه ، وكرّمت حاشيته وغاشيته ،
وملك الأعنة ، وقاد الأزمة ، أنه ينعم له في الحمد على الحسن ، والذم على
القبیح ، وإن الخوف يرتاب من ورائه ، كما يقرّع المأمون في وجهه ، فأعلامها
حالاً أكثرهما عند التقصير وبالاً ، وهذا باب يعرفه من الناس من ساس الناس .
وهذا الكاتب يعرف بالأشل .

[ذكر محاسن الوزيرين ومساوئهما]

وقلت أيضاً : ولست أسألك أن لا تذكر من حديثها إلا ما كان جالباً
نفعها ، أو داعياً إلى الزرابة عليها ، وباعثاً على سوء القول والاعتقاد
فيهما ، بل تضيف إلى ذلك ما قد شاع لهما ، وشهرَ عنهما ، من فضائل
لم يثقلنهما^(٢) فيها أحدٌ في زمانهما ولا كبيرٌ ممن تقدمهما ، فإن الفائدة
المطلوبة في أمرها ، وشرح حديثهما ، تأديب النفس ، واجتلاب الأنس ،
وإصلاح الخلق ، وتحليص ما حسنَ مما قبُح ، وتسليط النظر الصحيح

(١) في الأصل : أبدى .

(٢) ثلث « كضرب » كان ثلثهم .

مع العدل المحمود فيما أشكل ، واشتبه بين الحسن المطلق والقبح المطلق .

[التوفيق بين المعنى والمبنى]

وقلت : مما ينبغي أن لا تغفله ولا تذهب عنه ، وتطالب نفسك بالتيقظ فيه ، أن تجمع له باب اللفظ والمعنى في الصدق والكذب ، فإنك إن حرقت / في هذا بعض التحريف ، وجزفت بعض التجزيف ، خرج معنك من أن يكون فخماً نبيلاً ، ولفظك من أن يكون حلواً مقبولاً ، لأن الأحوال كلها في صلاحها وفسادها موضوعة دون اللفظ الموثق ، والتأليف المعجب ، والنظم المتلائم ، وما أكثر ما رُدَّ صالح معناه لفساد لفظه ، وقُبِلَ فاسد معناه لصلاح لفظه .

[صلاح الماضي]

وقلت : انما نهيتك على هذا شفقة عليك ، وحرصاً على أن لا يكون لمعنتٍ وعائبٍ طريقٌ إليك ، وأنت بحمد الله مستوصى^(١) لا تحوج إلى تنبيه بعنف ، وإن أحوجت إلى إذكاء بلطف . وقد كان البيان عزيزاً في وقت البيان ، والنصح غريباً في وقت النصح ، والدين مستظرفاً في وقت الدين ، إذا الحكمة معانقة بالصدر والنحر ، مقبلة بكل شفّة وتغر ، مخطوبة من جميع الآفاق ، يقرع من أجلها كل باب ، ويجرق على

(١) في الأصل : مستوصى .

فأثما كلُّ ناب . والأدب متنافس فيه ، محروسٌ على الإكثار (١) منه
مع شُعبه الكثيرة ، وطرائقه المختلفة ، والدين في عرض ذلك مذبوبٌ عنه
بالقول والعمل ، مرجوعٌ إليه بالرضا والتسليم ، مقنوعٌ به في
الغضب والحلم .

[فساد الحاضر]

فكيف اليوم وقد استحالت الحال عجباء ، وملك الغنى والثراء الرؤساء
والعلماء ، وقل الخائض فيما كسب زيادة ، أو نفى نقيصة ، وأورث عزاً
وأعقب فوزاً .

[حسن الاستعداد للقول]

وقلت : ولكن ذلك كله — إذا نشطت له مقصوراً غير مبسوط ، أو
بين المقصور والمبسوط — فإنه إن زاد على هذا التحديد طال ، وإذا طال
مُلٌّ ، وإذا مُلٌّ نظيرٌ إلى صحيحه بعين السقيم ، وحكم على حقه بلسان
الباطل ، وتخييل القصد فيه إسرافاً ، والعدل فيه جوراً ، وعند ذلك يحول
عن بهجته ومائه ورونقه وصفائه .

وجميع ما قلته — حاطك الله — وأتيت به ، وسجبت ذيلك عليه ،
ورفلت أعطافك فيه ، قد سمعته وفهمته وطويته في نفسي ، وبسطته وجمعته
بذهني وفرقتة ، ونظمته عندني وثرته ، ولست جاهلاً به ولا ذاهلاً عنه
ولكن من لي بمتاد ذلك كله وبالتأني له ، وبالقدرة عليه ، وبالسلامة فيه
إن فاتتني الغنيمة فيه مع صدري الضيق وبالي المشغول ، ومع رزوح الحال ،

(١) في الهامش : استكثر .

وفقد النصر ، وعدم القوت ، وسوء الجزع ، وضعف التوكل ، نعم ومع
الأدب المدخول ، واللسان الملجلج ، والعلم القليل ، والبيان التزّر ، والخوف
المانع ، وإني لأظن أن الطائع لك في هذه الخطة ، والحبيب عن هذه المسألة
قليل النقيّة (١) ، سيء البقية ، ضعيف البدية والروية ، لأنه يتصدى لما
لا يبي به ، ولا يتسع له ، ولا يتمكن منه ، فإن وفي واتسع وتمكن لم
يسلم على كثير ممن يقرأ كلامه ، ويتصفح أمره ، ويقص أثره ،
ويطلب عثرته .

[موقف الناس من المدح والذم]

لأن الناس في نشر المدح والذم ، وفي بسط العذر واللعوم على آراء مختلفة
ومذاهب متباينة ، وأهواء مشتتة ، وعادات متعاندة ، على أنهم بمد شدة
جدالهم ، وطول مراتبهم رجلا ن : متمصب لمن تدمه وتعييه وتنت (٢) القبيح
عنه ، فهو يغفر له جميع ما يسمع منك ، صادقاً كنت أو كاذباً ، معرضاً
كنت أو مفصلاً . أو متعصب على من تمدحه وتركّبه ، وتفضله وتنتي عليه ،
فهو يرد عليك كل ما تدعيه ، محققاً كنت أو محرفاً (٣) موضحاً كنت أو
مزخرفاً ، ولذلك قال بعض علماء السلف الصالح : هما أمران مثواك
بينها : راض عنك ، فهو يمنحك أكثر مما هو لك ، وساخط عليك
ينقصك من حقك ، فرم (٤) ما ثلم الباغى بفضلة الراضي ، يعتدل بك

(١) النقية : مؤنث التي وهي الكلمة .

(٢) نت الخبر ينته : أفشاه .

(٣) في الأصل مجرفاً .

(٤) رمه يرمه رماً ومرمة : أصله .

الأمر ؛ والشاعر قد فرغ من هذا المعنى وسيّره في قريضه المشهور المتداول حيث يقول :

وعين الرضا عن كل عيبٍ كليله

ولكن عين السخط تبدي المساويا (١)

على أن هذا الشاعر قد أثبت العيب ، وإن كان قد وصفه بكلول العين عنه ، ودل على المساوية وإن كان السخط مبدئياً .

[الهوى والرأي]

وهذا لأن الهوى مقيم لاثب ؛ والرأي مجتاز عارض ؛ ولا يسد للهوى أن يعمل عمله ، ويبلغ مبلغه ، وله قرار لا يطمئن / دونه ، وحده هو أبداً يتعداه ويتجاوزه ، وله غول تضلُّ ، وتمساح يتلعل ، وثمان إذا فح (٢) لا يبقى ولا يذر ، والرأي عنده غريب خامل ، وناصر مجهول . وقال بعض الحكماء : فضل ما بين الرأي والهوى أن الهوى يخصُّ ؛ والرأي يعمُّ ؛ والهوى في حيز العاجل ، والرأي في حيز الآجل ، والرأي يبقى على الدهر ؛ والهوى سريع البيود كالزهر ، والرأي من وراء حجاب ، والهوى مفتوح الأبواب ، ومدد الأطناب ، ولذلك قال أيضاً بعض العرب ويقال هو عامر ابن الظرب (٣) : الرأي نائم والهوى يقظان ، فأرقدوا الهوى بفضافة ، وأيقظوا الرأي بلطافة . وقال الشاعر :

[٣]

(١) الشعر لعبد الله بن معاوية الأغاني ١٢/٢٣٣

(٢) في الأصل : فح .

(٣) عامر بن الظرب العدواني : حكيم ، خطيب في الجاهلية كانت العرب لا تعدل فيه فهاً ولا بحكمه حكماً وهو أحد المعمرين في الجاهلية وكان يقال له ذو الحلم .

كم من أسير في يدي شهواته

ظفر الهوى منه بجزم ضائع

وقال أعرابي : لم أر كالعقل صديقاً معقوقاً ، ولا كالهوى غدواً معشوقاً ،
ومن وفقه الله للخير جعل هواه مقموماً ، ورأيه مرفوعاً .

[الاسراف في المدح والذم]

وإذا كان الهوى - أبقاك الله - على ما وصفنا ، وعلى وراء ما وصفنا ،
فما لا نحيط به وإن أطلنا ، فمتى يخلو المادح إذا مدح من بعض الافراط تقريباً إلى
مأموله وخلافة (١) لعقله ، واستدراً لكرمه ، وبعثاً على تنويله وتخويله .
وهذه حال مصحوبة في المدوح إذا كان أيضاً غائباً أو ميتاً ، أو متى يسلم
الذام إذا ذم من بعض الاسراف تمتاً لصاحبه ، وحملاً عليه بالانحاء (٢)
الشديد ، والقول الشنيع ، والنداء الفاضح ، والحديث الخزي وجرياً مع شفاء
الغيظ وبرد الغليل .

[الحرمان والتأميل]

لأن جرعة الحرمان أمر من جرعة الشكل ، وضياح التأميل أمض
من الموت ، وخدمة من لم يجعله الله لها أهلاً أشد من الفقر ، وإنما يُخدم
من اتصب خليفة لله بين عباده بالكرم ، والرحمة ، والتجاوز ، والصفح ،
والجود ، والنائل ، وصلة العيش ، وبذل مادة الحياة ، وما يصاب به روح
الكفاية ؛ وحرمان المؤتمل من الرئيس ككفران النعمة من التابع ؛ ورحى

(١) الخلافة : الخديعة باللسان .

(٢) أمحى عليه باللائحة : أقبل عليه بها .

الحرب في هذا الموضوع راكدة ، والقراع عليه قائم ، والخطابة في دفعه وإثباته واسعة ، والتمويه مع ذلك معترض ، والاعتداد مردود ، والتأويل كثير ، والتزويل قليل .

[الحرمان والشتم]

ولقد رأيت الجرجرائي^(١) وكان في عداد الوزراء ، وجلة الرؤساء ، وإنما قتله ابن بقيّة^(٢) لأنه نعم^(٣) له بالوزارة . يقول للحاتمي أبي عليّ ، وهو من أدهياء الناس : إنما تحرم لأنك تشتم ، فقال الحاتمي^(٤) : وإنما أشتّم لأنني أحرم ، فأعاد الجرجرائي قوله ، فأعاد الحاتمي جوابه ، فقال : ثم ماذا ؟ فقال الحاتمي : دع الدّست قائمة وإن شئت عملناها على الواضحة قال : قل !

[المادح والمدوح]

قال الحاتمي : تقطع هذا ألا يسمموا مدائحهم ولا يكثرثوا بمراتبهم ، وأن يعترفوا لنا بجزية الأدب ، وفضل العلم ، وشرف الحكمة كما أخذ بناألبهم

(١) هو محمد بن الفضل الجرجرائي . تولى الوزارة زمن المتوكل من سنة ٢٣٢ هـ إلى ٢٣٦ هـ . توفي حوالي ٢٥٠ هـ . ورد ذكره في الامتاع والمؤانسة للتوحيد ٢١٧/٣

(٢) هو محمد بن بقيّة نصير الدولة ، خدم معز الدولة بن بويه واستوزره ابنه عز الدولة وهو الذي سمل عينه سنة ٣٦٦ . ولما ملك عضد الدولة بغداد طلبه وألقاه تحت أرجل القبلة وصلبه سنة ٣٦٧ هـ ، وفيه قال ابن الأنباري قصيدته المشهورة :

« علو في الحياة وفي الممات »

(٣) النعم : الكلام الحفي ومنه : نعم .

(٤) هو أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي صاحب الرسالة الحاتمية توفي سنة ٣٨٨ هـ .

بعظمة الولاية ، وفضل العمل ، وبسط اليد ، وعرض الجاه ، والاستبداد .
بالتنعم ، والطاق والرواق ، والأمر والنهي ، والحجاب والبواب ، وأن
يكتبوا على أبواب دورهم وقصورهم : يا بني الرجاء ابدوا عنا ، ويا أصحاب
الأمل اقطعوا أظفاركم عن خيرنا وميرنا ، وأحمرنا وأصفرنا ، ووفروا
علينا أموالنا ، فلسنا زناح لثركم^(١) في رسالة تجبرونها ، ولا لنظمكم في
قصيدة تخيرونها . ولا نمتدّ بلازمتكم لمجالسنا ، وترددكم الى ابوابنا ،
وصبركم على ذل حجابنا ، ولا نهش لمدحكم ، وقريضكم ، ولا لثنائكم
وتقريظكم ، ومن فعل ما زجرناه عنه ثم ندم فلا يلومن إلا نفسه ،
ولا يقلعن^(٢) إلا ضرسه ، ولا يخمشن^(٣) إلا وجهه ، ولا يشقن^(٤)
إلا ثوبه .

[ثمن المدح]

وإن من طمع في موائدنا يجب أن يصبر على أوابدنا ، ومن رغب في
فوائدنا نشب^(٢) في مكائدنا ، فاما إذا استخدمونا في مجالسهم لوصف
محاسنهم ، وسير مساوئهم ، والاحتجاج عنهم ، والكذب لهم ، وأن نكون
ألسنة نفاحة عنهم ، فليثيبوا على العمل ، فان في توفية العيال أجورهم قوام
الدنيا ، وحياة الأحياء والموتى . فان قصرنا بعد ذلك في إعادة الشكر
وإبدائه ، وتعميق الثناء وإفشائه ، فانهم من منعنا في حيل ، ومن الإساءة
الينا في سعة .

(١) في الأصل « ليركم » وهو تصحيف .

(٢) نشب : لقي شراً .

[العطاء والمنع]

فرأيت الجرجرائي حين سمع هذا الكلام النقي ، وهذه الحجة
البالغة وَجَمَّ ١١ ساعة ثم قال : لعمري إذا جئنا إلى الحق / ونظرنا فيه بعين لا
قذى بها ، ونفس لا لؤم فيها ، فإن العطاء أولى من المنع ، والتنويع أولى من
الحرمان ، والخطأ في الجود أسلم من الصواب في البخل ، لأن الصواب في البخل
خفيٌّ جداً ، وقل من يعرفه ، والخطأ في الجود حلٌّ جداً وقل من يكرهه .
وأنا أقول : قد صدقَ هذا الرجل الجليلُ في هذا الحرف
صدقاً لا تماري فيه .

[٤ أ]

[بين التوحيدى ومسكويه]

ولقد جرى بيني وبين أبي علي مسكويه (١) شيء هذا موضعه . قال مرة : أما
ترى إلى خطأ صاحبنا - وهو يعني ابن العميد - في إعطائه فلاناً الف دينار ضربة
واحدة ، لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق . فقلت له بعدما أطال
الحديث وتقطع بالأسف : أيها الشيخ أسألك عن شيء واحد وأصدق فانه لا مدب
للكذب بيني وبينك ، ولا هبوب لريح التمويه علينا ، لو غلط صاحبك فيك بهذا
العطاء وأضاعه وأضاعه أضاعته أكنت تتخيله في نفسك محطئاً ، ومبذراً ،

(١) سكت وعجز عن التكلم .

(٢) أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مؤرخ وفيلسوف اشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق
والتاريخ والأدب والانشاء . صحب عضد الدولة البويهى وأشرف على خزانه كتبه . وكان
مسكويه معاصراً للتوحيدى وله مؤلفات كثيرة أهمها تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، وتهذيب الأخلاق .
توفي سنة ٣٢١ هـ . راجع الامتاع والموانة ٣٥/١

ومفسداً أو جاهلاً بحق المال . أو كنت تقول : ما أحسن ما فعل وليته أربي عليه ! فإن كان ما تسمع على حقيقته فاعلم ان الذي بدد مالك ، وردد مقالك إنما هو الحمد وشيء آخر من جنسه ، فأنت تدعي الحكمة ، وتكلم في الأخلاق وتزيف منها الزائف ، وتختار منها المختار ، فافطن لأمرك واطلع على سرّك وشرك.

[البذل والمنع]

هذا ذكرته - أبقاك الله - لتبين أن الخطأ في العطاء مقبول ، والنفس تفضي عليه ، والصواب في المنع مردود ، والنفس تقلق منه ، ولذلك قال المأمون وهو سيد كريم ، وملك عظيم ، وسائس معروف : لأن أخطيء باذلاً أحب إلي من أن أصيب مانعاً . والشاعر يقول : (١)

لا يذهبُ العرفُ بين الله والناس

وإن كان يكفر النعمة بعض من أنعم عليه بها ، إنه ليشكرها كثير ممن لم يتلمظ^٢ حلاوتها ، ولم يطعم فتاتة^٣ منها ، ولم يسغ^٤ جرعة من غدیرها ، ولم يسحب ذبلاً من أذبالها . وصدر هذا الكلام شبيه بشيء لا بأس بروايته في هذا الموضع ، وإن لم يكن من قبيل ما طال القول فيه ، وتوالى التفسر به .

(١) البيت للحطيمه والشرط الأول :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

(٢) لظ وتلمظ : أخرج لسانه بعد الأكل أو الصرب فمسح به شفتيه ، أو تتبع بلسانه

بقية الطعام بين أسنانه بعد الاكل .

[الطاعة والتوفيق]

قال المأمون^(١) لأبي العتاهية^٢ : إذا قال الله لعبيده لِمَ لِمَ تطعني؟ أي شيء يكون من جوابه؟ فقال : يقول : يارب لو وفققتي لأطعتك . قال : فان الله يقول : لو أعطيتي لوفقتك . قال أبو العتاهية : فان العبد يقول : لو وفققتي لأطعتك ، أيكون ما يحتاج العبد إليه نسيئة ، وما يطالبه الله به نقداً ؟ قال المأمون : فما يقطع هذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين اصرف عنه فان الدست قائمة .

[المحاسن والمساوىء]

وأرجع فأقول : وما خلا الناس منذ قامت الدنيا من تقصير ، واجتهاد ، وبلوغ الغاية ، وتصور عن النهاية، وتشارك في المحامد والمذام ، والمساوىء والمحاسن ، والمناقب والمثالب والفضائل والرزائل ، والمكارم والملائم ، والمنافع والمضار والمكاره والمسار ومن بعض ما يكون للقائل فيه مندوحة ، والمشاغب به استراحة ، وللناظر فيه متسع ، وللسامع مستمتع . وأحسنهم حالاً وأسعدهم جِداً ، وأبلغهم ميمناً ، وأرجهم بضاعة من كانت محاسنه غامرة لمساويه ، ومناقبه ظاهرة على مثالبه ، ومادحه أكثر من حاجيه ، وعاذره أنطق من عاذله ، والمحتج عنه أنبه من المحتج عليه ، والنافع عنه أصدق من النافع فيه ، وليس العمل على عدد هذه وهذه ، ولكن على أن لا يكون مع صاحب المحاسن من الخصال اللثيمة وما يجبطها ، ويبتاحها ، ويختلمها ، ويأتي عليها ، وإن صغر جرم تلك الخلة ، وخمل

(١) الخليفة العباسي ابن هارون الرشيد « ١٧٠ هـ — ٢١٨ هـ »

(٢) اسماعيل بن القاسم بن سويد العبدي الشاعر العباسي المشهور « ١٣٠ هـ — ٢١١ هـ »

اسم تلك الخصلة ، وأن يكون مع صاحب المساويء من الخلال الكريمة وما يعطيها
ويُسبل الستر عليها ، ويعين الزائد عنها ، ويبيض وجه الناصر لها ، ويُمدُّ باع
المتطاول إليها . وكما وجدنا السيئات يجطن الحسنات ، وكذلك قد وجدنا الحسنات
يُذهبن السيئات .

[الدين والخلق والعلم]

والعمو الذي عليه المعول والغاية التي إليها الموثل في خصال ثلاثٍ هن دعائم العالم ، وأركان
الحياة ، وأمّهات الفضائل وأصول مصالح الخلق في المعاش والمعاد ، وهن : الدين والخلق
والعلم . بهن يعتدل الحال ، ويتهى إلى الكمال ، وبهن تملك الأزمنة ، وينال أعزُّ
ما تسمو إليه الهمة ، وبهن تؤمن الفوايل ، وتحمد العواقب ، لأن الدين 'جماع'^(١)
المراشد والمصالح ، والخلق نظام الخيرات والمنافع ، والعلم رباط الجميع ، ولأن
الدين بالعلم يصح ، والخلق بالعلم يطهر ، والعلم بالعمل يكمل ، فمن سلم دينه من
الشك والالتهاء^(٢) ، وسوء الظن والمرء ، وثبت على قاعدة التصديق بمواد اليقين
الذي / أقر به البرهان ، وطهر خلقه من دنس الملل ، ولجأ الطمع ، وهجنة
البخل ، وكان له من البشر نصيب ، ومن الطلاقة حظ ، ومن المساهلة موضع ،
وحظي بالعلم الذي هو حياة الميت ، وحنّتي الحي ، وكال الانسان ، فقد برز بكل
فضل ، وبان بكل شرف ، وخلا عن كل غباوة ، وبرىء من كل معاينة ، وبلغ
النجد الأشرف ، وصار إلى الغاية القصوى .

ولم أذكر لك العقل في هذا التفصيل وهو أولهن ، وبه تم آخرهن ، وعليه

(١) جماع : كل ما تجمّع وانضم بعضه إلى بعض .

(٢) اللهاء : المنازعة والممانعة والمعاداة .

مجرى جميع ما افتن القول به ، لأنه موهبة الله العظمى ، ومنحته الكبرى ، وباب السعادة في الآخرة والأولى ، وكان ما عداه فرعاً عليه ، ومضموماً إليه ، لأنه متى عدمه الإنسان الحي الناطق فقد سقط عنه التكليف ، وبطل عليه الاختيار وصار كبعض البهائم العاملة ، وكبعض الشخوص المائلة ، وبه يعرف الدين ، ويقوم الخلق ، ويقتبس العلم ، ويلتمس العمل الذي هو الزبدة . وقد يعدم العمل والعقل موجود ، وقد يفقد الخلق والدين ثابت ، فليس الأصل كالفرع ، ولا الأول كالثاني ، ولا العلة كجلوب العلة ، ولا ما هو قائم كالجوهر كما هو دائر كالعرض . فهذا أضربت عن ذكره ، وغنيت عن الاستظهار به ، وإذا تمت فائدة الكلام ، فما زاد عليه لنو ، وإذا استقر فيه المعنى ، فما ألم به فساد .

[أنصباہ الناس من الاركان الثلاثة]

والناس - هداك الله - من هذه الخصال التي ميّزتها ، والخلال التي نصصت القول فيها على أنصباہ مختلفة ، وهم فيها على غايات متنازحة ، بالقلة والكثرة ، والضعف والقوة ، والنقصان والزيادة ، ومن أجلها يتموختون بالحمد على الاحسان ويخدمون بالشكر على الجميل ، ويحییون بالنصائح الخالصة ، ويحبون بالقلوب الصافية ، ويثنى عليهم بالقرائح النقية ، والطويات المأمونة ، ويذب عنهم بالنيات الحسنة ، والألسنة الفصيحة ، ويعاونون عند الشدائد الحادثة ، والنوائب الكارثة ، والأمور الهائلة ، والأسباب الغائلة ، بالمال المدخور ، والنصح المنخول ، ويُدفع عنهم بالأيدي الباطشة ، والأقدام الثابتة ، والأرواح العزيزة ، والأنفس الكريمة .

[جزاء التقصير]

وكذلك يركلون على التقصير باللائمة ، ويحيثون على اللوم بالآبدة^(١) ، ويذمّون على التهاون بكل فاقرة^(٢) ، ويطوّقون بكل خزي ومعرة ، ويواجهون بكل شعاء مفضّعة^(٣) ، ويُغتَابون بكل فاحشة منكرة ، ويرمّون بكل ساقطة ولاقطلة ، ويحرّقون بكل نار حامية ، ويقذفون بكل منجّلة مندية . فهذا جمهور الخبر عن حال المجتهد إذا أحسن وحال المسيء إذا قصر ، وهم وإن كانوا على هذا السياق ثابتين ، ولهذا المنهاج سالكين ، فإنهم ينزعون إلى أصول حديثة وقديمة ، وأعراف كريمة وليّمة .

[السعادة في العطاء]

والمجدود من بينهم من لا ث الله يبافوخه الخير ..
وعقد بناصيته البركة ، وجعل يده ينبوع الافضال والجلود ، وعصم طباعه من الخساسة والدناءة ، وكفاه عار البطالة والعثالة^(٤) ، ونزّاهه عن الإسفاف والندالة ، وهذا كله ثمرة البصيرة الباقية ، والنية الحسنة ، والضمير المأمون ، والغيب السليم ، والعقد المؤرّب^(٥) ، والحق المؤثر وإن كان مرّاً ، والأدب الحسن وإن كان شاقاً ، والعفافة التي أصلها الطهارة ، والطهارة التي أصلها النزاهة . ومن عجن الله طيبته بهذا الماء ، وروّح عنه بهذا الهواء ، وأطلق نفسه في هذا الجو ،

(١) الآبدة : الداهية يبقى ذكرها أبدأ .

(٢) الفاقرة : الداهية الشديدة فكأنها تكسر فقر الظهر ..

(٣) في الأصل مفضعة وهو تصحيف ومفضعة من فضع الود كبح هشمه ..

(٤) عثل يشل عثلاً : كان كبيراً وغليظاً ضخماً .

(٥) أرب : أحكم ووثق .

وقلّبه على هذا البساط ، وسقاه بهذا النوء فقد أيده بروح القدس ، ووصله بلطيف الصنع ، وأكمل عليه النعمة الجليلة ، وأبانه بالشرف المحسود ، وميزه بالمزية التامة ، وخصه بـ **بِحَيْمٍ** ^(١) الأنبياء ، وألبسه جلابب الأصفياء ، وآتاه ضرائب الصالحين ، وأحضره توفيق المهديين المرضيين .

[دواعي القول]

وقد صح - حفظك الله - عندي ، ووضح لي أن الذي هاجك على هذا المعنى حتى حركتني له ، وطالبتني به ، ولم ترض مني إلا بالمبالغة والاستقصاء ، وإلا بمبادلة الأعداء وذوي الشر ، اجتماعنا في مجالس العلماء ، أو تلاقينا على أبواب الحكماء والأدباء أيام كنت أفكّك ^(٢) الحديث النادر ، واللفظ الحسن ، وأضحك سنك بما ملّح وحرّ ، وأزيدك في خلال ذلك خبرةً بالدهر وأهله ، واعتباراً بالزمان وتصرفه ، وافتح عليك باب المؤانسة ، وأصف لك أخلاق الناس ، وما يفترقون به ويجتمعون عليه من غرائب الأمور ، وطرائف الأحوال ، أيام كان عود الشباب رطيباً ، وورق الحياة نضيراً ، وظل العيش ممدوداً ، ونجم الزمان متوقداً ، ومقترح النفس مواتياً ، وروض المني خضلاً ، ودرّ النعمة متصلاً ، وداعي الهوى مشعراً ، أيام رأسك في **فَيْتَانٍ** ^(٣) وأنت كالصعّدة ^(٤) تحت السنان ، / شِطاطك ^(٥) معجب ، وحديثك معشوق ، وقربك ممتنى ، والليل بك قصير ،

[٥]

(١) الحيم (بالكسر) السجينة والطبيعة بلا واحد .

(٢) فكّه : أطعم الفاكهة وأطرف بملح الكلام وأطربه .

(٣) الفيتان : حسن الشعر طويته .

(٤) الصعّدة : القناة المستوية المستقيمة .

(٥) الشطاط : الطول وحسن القوام أو اعتداله .

والنهار عليك مقصور ، والعيون اليك طوامح ، والمواذل دونك نوافح ، وذلك زمان مضى فانقضى ، فإما غويّاً وإما رشيداً ، وكان الوقت يقتضي ذلك ويسعه ، والحال تواتيه وتحمله ، والمذر يقع لطالبه وملتمسه ، لكي إذا نظرت إلى أملي المتعلق بك ، وطمعي الحائم عليك ، ورجائي المذبذب (١) حولك ، وحالي التي جعلك الله كافلها وراعيها ، وجامعها ومصلحها ، وناظم ما انتثر منها ، ومؤلف ما انتثر عنها ، رأيت البدار إليّ يغنيك أدباً محموداً ، وحظاً مُدرّكاً ، والتراخي عن طاعتك حراماً حاضراً ، وعتباً مؤلماً .

[مساويء الطمع]

وهكذا صنع الطمع ، فقل لي : ما أصنع إن رد اعتذارني بعض من يسره عياري ، ويسوؤه استمرارني ، وليس إلا الصبر ، فانه مفتاح كل باب مرتج ، وبرود كل حرّان ملهج ؟ وما زال الطمع قديماً وحديثاً ، وبدءاً وعوداً يضرع الخد الصقيل ، ويرغم الأنف الأشم ، ويعقر الوجه المفدى ، ويفضن العارض المتدّي ، ويحني القوام المهتز ، ويدنس العريض الطاهر .

[مساويء الفقر]

ولما الله الفقر ، فإنه جالب الطمع والطبّع (٢) ، وكاسب الجشع والضرع (٣) ، وهو الحائل بين المرء ودينه ، وسدّ دون مروّته وأدبه وعزة نفسه . ولقد صدق الأول حيث قال :

(١) في الأصل « المذبذب عليك حولك » عليك هاهنا زيادة من الناسخ .
(٢) الطبع : الصدأ والدنس والعيب والجمع أطباع .
(٣) الضرع : الذل والهوان .

وقد يَقْصُرُ القَلْبُ الفَتَى دُونَ هِمِّهِ

وقد كان لولا القلْبُ طِلاعَ أنْجِدِ

وما كذب الآخر حيث يقول :

إذا المرء لم يقن الحياء إذا رأى مطامع نيل دنسته المطامعُ

إذا قل مال المرء قل صديقه وأهوت إليه بالعيوب الأصابعُ

وأجاد الآخر حين قال :

أزرى بنا أنا شالت نعماتنا والفقيرُ يزري بأحسابِ وألبابِ

وما أملح قول الأعرابي في قافيته :

ما بال أم حبيش لا تكلمنا إذا افتقرنا وقد نثري فنتفقُ

وصدق ، لأنها إذا لحفته على الفقر رغبت عنه ولم توصله وفركته (١)

واختارت عليه .

وما أحسن ما قال بعد هذا في وصف سيرته وحسن عادة أهله فإنه قال :

إنا إذا حطمة حثت لنا ورقاً (٢) 'نمارس العودَ حتى ينبت الورقُ'

وصاحب الفقر إن مدح فرط ، وإن ذم أسقط ، وإن عمل صالحاً أحبط ،

وإن ركب شيئاً خلط وخبط ، ولم أر شيئاً أكشف لغطاء الأديب ، ولا أنشف

لماء وجهه ، ولا أذعر لسرب حياته منه ، وإن الحرَّ الأثف ، والكريم المتعيف (٣)

من مقاساته والتجلد عليه ، لني شغل شاغل وموت مائت .

(١) فرك : أبغض وقيل هو خاص يبغضه الزوجين . والفارك المرأة التي تبغض زوجها والمفرك : الزوج المبغض .

(٢) الحطمة والحطمة : السنة الشديدة لأنها تحطم كل شيء ، حث الشيء : فركه وقشره ، والنسي : حطه وأنزله . نمارس : الممارسة شدة العلاج . والبيت لذي الحرق الطهوي .

راجع : الاصعيات : ص ١٣٣ .

(٣) المتعيف : المتشائم .

[التوحيدى وممدوحه]

وعلى ما قدمت من هذه الكلمات ، وأطلت به هذا الباب فقد امتثلت أمرك
وسارعت اليه ، وأرجو أن تهب لي فيه رضاك إن وقع موقعه الذي أملتته ،
وتهديني إلى عين الصواب إن زل عن حدك الذي حددته ، وما غايه أملي به ،
وقصارى همتي منه إلا أن أكون سبباً قوياً فيما جاز لك الشكر مني ، وأوفر
عليك الحمد غني ، وأذاقك حلاوة مدحي وتمجيدى والشاعر يقول :

العرف أصل يُجبتى من فرعه الثمرُ الحميدُ
يبلى الفتى في قبره وفعاله غصنُ جديدُ

وسأجمل قصدي نحو السلامة إذا غلبني اليأس من النعمة ، وأضيف إلى من
الحديث فوائد كبيرة ، واجتهد مُعذراً ، واقتصى معذوراً ، وأحكم متكرماً ،
وأقول ما أقول رائيماً وراوياً ، على أني لا أثق بانخاطر إذا طاش ، ولا باللسان
إذا همز (١) ، ولا بالقلم إذا استرسل ، ولا بالهوى إذا اشتمل وسوّل ، فإن
الهوى يُعمي ويصم ، ولعل النيط يجرح ويُجهز .

[التزويد والتقصير في المدح والذم]

وهذه آفات متداركة لا سبيل إلى التفصي (٢) منها والسلامة عليها (٣) ، وذلك
لأن الكلام في حمد من يُحمد ، وذم من يُذم، إن غنى تنميماً دخله التزويد ،
والتزويد مقبلي وإن أرسل على غراره شأنه التقصير ، والمقصر معجز ،
ولأن يدخله التقصير فيكون دليلاً على الإبقاء أحب إلي من أن يدخله

(١) همز : اغتاب .

(٢) تفصي : تخلص من خير وشر والفعل فصي .

(٣) كذا في الأصل .

التزبد فيكون دليلاً على الإرباء ، على أن من وصف كريماً أطرب ،
ومن أطرب طرب ، والطرب خفة وأريحية ، تستفز أن الطباع ،
وتشبهان الحصيف بالسخيف . فأما من حدث عن لثيم فإن أساس
كلامه يكون على الغيظ ، والغيظ نار القلب ، وخبث اللسان ،
وتشيع القلم .

[التوحيد والوزيران]

فكيف الانصاف في وصف هذين الرجلين على هذين الحدين مع سرف
الهوى ، ووقدان الغيظ ، وعادة الجور ، وداعية الفساد ،
وصارفة الصلاح .

وهذه أعراض لا يحصى منها ولا أمان / من اعترائها ولا راقى من
تعاورها ، وبعض هذا يهتك ستر الحلم وإن كان كثيفاً ، ويفتق جيب
التجمل وإن كان مكفوفاً ، ويُخرج إلى الجهل وإن كان العلم
يقبحه متقدماً .

[٥٥]

وكنت هممت ببعض هذا منذ زمان فكبح عنائي عن ذلك بعض
أشياخنا ، وقصر إرادتي دونه ، وزعم أن الاختيار الحسن ، والأدب
المرضي ينهان عنه ، ولا يجوز انخوض فيه ، لأن الغيبة ، والقذع ،
والمعضية^(١) ، والتقيح ، والسب المؤلم ، والكلام الفاشر ، والمكاشفة
بالعلامة ، والشتيمة بلا مراقبة ، ليست من أخلاق أهل الحكمة ولا من
دأب ذوي الأخلاق الكريمة . وقد قال بعض الحكماء : لا تكونن
الأرض أكرم منا للسر ، ومن اعتاد الوقعة في الأعراض ومباداة الناس

(١) القذع : الحناء والفحش . المعضية : البهتان والكلام القبيح .

بالسفة ، وتلهم بكل ماجاش في الصدور ، وتذرع به اللسان ، فليس
ممن يُذكر بخير ، أو يرجى له فلاح ، أو يؤمن معه عيب .

قال : وهل الحلم إلا في كظم النيظ ، وفي تجرع المضض ، وفي
الصبر على المرارة ، وفي الاغضاء عن الهفوات ، ومن لك بالمهذب الندب^(١) الذي
لا يجد العيب اليه محتطى . والاول يقول :

ولست بمستبقٍ أحاً لا تلمه

على شعثٍ ، أيُّ الرجال المهذب^(٢)

وقيل : لو تكاشفتم ما تدافتم ، ولو تساوتيم ما تطاوعم ، ولا بد من
هنة تفتخر ، ومن تقصير يحتمل ، والاستقصاء فرقة ، وفي المسألة
تجيب ، ومن ناقش في الحساب فقد رغب عن سجاجة الخلق ، وحسن الملكة ،
وإيثار الكرم .

وهذا الذي قاله هذا الشيخ الصالح مذهب معروف ، وصاحبه
حميد لا يدفعه من له مسكة من عقل وسيرة صالحة في الناس ، وأدب موروث
عن السلف ، ولت هذا القائل وُلِي من نفسه هذه الولاية ، وعامل
غيره بهذه الوصية ، وليته بدأ بهذا الكلام وما شاكبه^(٣) الرئيس
الذي قد أخرج تابعه الى هذا العناء والكد ، وإلى هذا القيام والتعوُّد ،
لا ! ولكنه رأى جانب البأس المحروم ألين ، وعذل المنتجع المظلوم
أهون ، وزجر المتلذذ بما ينشئه ويستريح به أسهل ، فأقبل عليه واعظاً ،
وأعرض عن ظالمه محايياً .

(١) الندب : السريع إلى الفضائل الظريف النجيب .

(٢) البيت للناييه الذياتي من قصيدة مدح بها النعمان بن المنفر .

(٣) شاكبه مشاكبة وشكاهاً : شابهه وشاكله وقاربه .

وبعدُ فصاحب هذا القول وادعُ غير 'محفظ' ، وموفورٌ غير مُنتَقَص ، وناعم البال غير مُتَعَبِّط ، وصحيح الجناح غير مَهِيض ، ولو شيك بحدِّ قتادة لكننا نقف على عربكته كيف تكون ، وعلى شكيمته كيف تثبت ، وكنا نعرف ما يأمر به ممَّا يأتمر عليه ، وليس بردُ العافية من حرِّ البلاء في شيء .

[أبو سعيد الحسن ومروان بن المهلب]

ولما وقعت الفتنة بالبصرة أيام المهلب^(١) كان أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يُثبِط الناس عن الوثوب مع بني المهلب في قتال أهل الشام . وقام بذلك مقاوم شقَّت على مروان بن المهلب ، فقام مروان ذات يوم خطيباً وحثَّ الناس على الجِد والانكماش^(٢) ثم عرض بالحسن فقال : بلغني أن هذا الشيخ الضَّال ، الطالح ، المرآئي ، يُثبِط الناس عن الطلب بحقنا ، والله لو أن جاره نزع من خُصِّ داره قصبه لظلَّ أنفه راعفاً ، ودমে واكفاً ، وقلبه لاهفاً ، ولسانه قارفاً ، ويُنكر علينا أن نطلب مالنا ، وكلاماً غير هذا غادرناه قادرين لأنه لا وجه للاطالة به ، ولا أقول أن مروان بن المهلب أحق بما قال من الحسن ولكن الحسن تكلم على مذهب النسأك، ومروان قابل ذلك بمذهب الفتاك .

(١) المهلب بن أبي صفرة (٥٧ - ٨٣ هـ) من أمراء العراق ولي البصرة وحارب الأزارقة الحوارج ثم ولاء عبد الملك بن مروان خراسان ومات فيها وله أخبار ووفائع كثيرة .

(٢) الانكماش : الاسراع .

[المتوسط والمتناهي]

وفي الجملة أبقاك الله ، ليس المضطر كالمختار ، ولا المجروح كالسليم ،
ولا الموفور كالموتور ، ولا كل حكم يلتزم المتوسط في حاله يلتزم المتناهي في
حاله ، ومتى كان عافاك الله التابع كالتبوع ، والآمل كالأمل ، والمستميح
كالمنعم ، والمغبوط كالمرحوم ، والمدرك كالمحروم ، هذا في منقطع الثرى ، وذلك
في 'قلّة' (١) المزن .

[رسالة للجاحظ]

هذا عمرو بن بحر أبو عثمان (٢) وهو واحد الدنيا ، كتب رسالة
طويلة في ذم أخلاق محمد بن الجهم (٣) ، ومدح أخلاق ابن أبي دؤاد (٤) وبالغ
في الوصفين ، وخطب على الرحلين ، ولم يترك قبيحة إلا أعلقها محمداً ، ولا حسنة
إلا منحها أحمد ، وحتى جعل ابن الجهم مع إبليس في نصاب واحد ، وابن
أبي دؤاد مع ملك في نقاب واحد (٥) وهكذا عمل من طب لمن حب ،

(١) الفلة : أعلى الرأس والجبل وكل شيء .

(٢) الجاحظ .

(٣) محمد بن الجهم البرمكي القاضي . راجع :

G. Lecomte Mubammad b. al gahm al Barmaki in

Arabica V - 1958 263 — 241 .

(٤) ابن أبي دؤاد (١٦٠ هـ - ٢٤٠ هـ) القاضي المعتزلي المشهور قال عنه أبو العيناء :
« مارأيت رئيساً قط أفصح ولا أنطق من أبي دؤاد » كان المعتمد يستشير في جميع
أمره وجعله قاضي قضائه واتصل من بعده بالواثق والمتوكل . وتوفي في بغداد .

(٥) يقال : فرخان في هاب ، يضرب للمتشابين .

إذا غضب فصب أو رضي فمدح وأطرب ، وما أحسن ما دلّ على هذا
المذهب أشجع / السلمي^(١) بفحوى كلامه ، فانه قال :

أعني لوم إن مدحت معاشراً
خطبوا إلي المدح بالأموال
يتزحزون إذا رأوني مقبلاً
عن كل منكباً من الإجلال^(٢)

وإذا لم يكن عليه لوم في مدح الحسن اليه ، وكذلك لا عتب عليه
في ذم المسيء اليه ، نعم وأفاد أبو عثمان في رسالته فوائد لا يخفى مكانها على
قارئها ، وقام فيها مقام الخطيب المصقع ، والشهيم النافذ^(٣) ، والناصر المدلّ ،
والمنتقم المستأصل ، فهل قال أحد ممن له يد في الفضل ، وقدم في الحكمة ،
وعرفان بالأموال ، وقوله معدود فيما يقال ، وحكمه مقبول فيما يثبت ويزال ، بشس
ما صنع ، وساء ما أتى به ، بل تهادوه ، وحفظوه ، واستحسنوه ، وتأدبوا به ،
وخذوا على مثاله ، وإن كانوا وقموا دونه .

[أخلاق الناس]

ولم صنف الناس المناقب والمثالب ، ولم نشروا أحاديث الكرام والثمام ؟
وكثير من الناس — عافاك الله — لا غيبة لهم ، أو في غيبتهم أجر ، وقد وقع

(١) أبو الوليد أشجع بن عمرو السلمي ، شاعر عباسي كان معاصراً لبشار بن برد ولد
باليامة ونشأ بالبصرة ومدح البرامكة واقطع إلى جعفر بن يحيى البرمكي فوصله بالرشيد . مات
أشجع حوالي سنة ١٩٥ هـ .

(٢) البيتان في ديوان المعاني للمسكري ١٧/٣ وروي الأول :

لا تغفلوني في مديحي معشراً
خطبوا المديح إلي بالأموال
(٣) السيد النافذ الحكم .

في الخبر عن النبي ﷺ : أذكروا الفاسق بما فيه ، كي يحذره الناس . وحدثنا
برهان الصوفي قال : ذم بشر الحافي ^(١) بخيلاً ثم قال : إن البخيل لا غيبة له .
قيل : وكيف ؟ قال : لقول رسول الله ﷺ : يا بني سلمة من سيدكم ؟ قالوا :
الجد بن قيس على بخئل فيه . قال : فأبي داء أدوى من البخل ؟ فذكره وليس
هو بالحضرة .

[ابن فرخان شاه وأبو العيناء]

وهذا عيسى بن فرخان شاه ^(٢) عُرِل عن الوزارة ، وكان مستخفاً بأبي العيناء ^(٣)
فوقف عليه أبو العيناء وقال : الحمد لله الذي أذل عزتك ، وأذهب سطوتك ،
وأزال مقدرتك ، وأعادك إلى استحقاقك ومنزلتك ، فلئن أخطأت فيك النعمة
لقد أصابت منك النعمة ، ولئن أساءت الأيام بإقبالها عليك ، لقد أحسنت
بإدبارها عنك ، فلا أنفذ الله لك أمراً ، ولا رفع لك قدراً ، ولا أعلى لك ذكراً .
فهل قال أحد بئس ما صنع ؟ وليس للراضي عن المحسن أن يطالب المساء إليه بأن
يكون في مسكة ، وعلى حال اعتدالة ، لأن بينها في الحال مسافة لا يقطعها الجواد
المبرز ^(٤) ولا الريح العصفوف .

(١) أبو نصر بشر بن الحارث بن علي المعروف بالحافي (١٥٠ هـ — ٢٢٧ هـ) من كبار
الصالحين والزاهدين توفي ببغداد .

(٢) أبو موسى عيسى بن فرخان شاه وزير المتوكل العباسي ثم المعتز من بعده . روى له
التوحيد كلاماً في الصداقة والصديق ١٦٣

(٣) محمد بن القاسم أديب فصيح ظريف (١٩١ هـ — ٢٨٣ هـ) .

(٤) في الأصل المبر ، والمبرز هو الأول في حلبة السباق وكذلك السابق والمجلى
(حلبة الفرسان) .

[محمد بن طاهر]

وذُكر محمد بن طاهر^(١) عند أبي العيَّان فقال: ما دخلتُ عليه قط إلا ظننت أنه من طلائع القيامة ، قصير القامة ، مشؤوم الهامة ، خرج من خراسان وهو أميرُها ، ويطمع فيها وهو طريدُها . ويَبني على أسير الصَّغار ، ويطليق الهزيمة !

[رسالة لابن دينار]

ووجدت رسالة لأبي العباس عبد الله بن دينار على ما قدمت القول فيه ، وأنا أرويهما على وجهها لأنها مفيدة، رواها لي المنصوري القاضي بأرجان، أولها : إن في الشكر وإن قلَّ وفاءً بحقِّ النعمة وإن جلَّ ، بل أقول إن الشاكر للنعمة وإن أظنَّ وأسبَّ ، لا يلحق شأوَ المتديء بها ، ولا يخرج بأقصى سعيه من أداء حقه فيها ، لأن نعمته صارت سبباً لشكره ، داعيةً لذكره ، فلهذا فضل سبِّها ، وموقعها ، وفضلها ، فإن الشكر من أجلها ، وأنها حيث حلَّتْ عائدةً ببناء جميل ، وثواب جزيل ، ولا خلاف بين الحكماء أن الجالب خير من المجلوب ، والفاعل خير من المفعول ، ومن لي بشكرك وأنت الذي لا قصدك بالرغبة بلغت بي ما وراء المحبة ، وناديتك فأجبت من قريب ، ولذتُ بك فأزلت بالسر والترحيب فلمَ ممتَ مني شعناً ، ورعيت لي سبباً ، لولا رعايتك لكان رثماً ، ووفرت عليَّ نعمة الجاه واليد ، وقرمت لي مقام الرُّكن والسند ، فأصبحت لي على الدهر مُعيناً ، ومن أحداث الزمان ملاذاً حصيناً ، وما زلت بكل خير

(١) محمد بن طاهر الخزازي أمير خراسان سنة ٢٤٨ هـ وتوفي في بغداد سنة ٢٩٨ هـ .

قميناً^(١) ، وجددت لي أملاً كان أخلقَ ، وأمسكت مني بالرمق ، وتلقيتَ
دوني نبوة من عاتبك واستزادك ، وجفوة من تغيّطك فكادك ، في حين عزّ
الشفيق ، وخذل الشقيق ، وجار الزمان ، وتواكل الإخوان ، فكشف الله بك
تلك الغموم المطبّقة ، وسكّن برأيك مني نفساً قلقة ، فأنا في قصوري عما أوجبه
الله عليّ لك كما قال الشاعر :

لو أن عمري الفُ حولٍ وقد بُدلتِ الساعةُ بالدهرِ
وكان لي الفُ لسانٍ لما نطقتُ من شكرك بالعُشرِ

فشكر الله لك ما أتيت ، وتولى جزاءك على ما تحريت ، وكافأك بأحسن
مانويت ، ولا أخلاك من أمل يُناط بك تحقيقه ، وظنّ يُصرفُ اليك فتصدقه ،
وشكر يوفّر عليك فتستحقه ، وصان لك من النعمة رهنها ، وبلغك أقصى
ما تؤمل منها ، وتفضل عليك بما لا تحتسب فيها ، / وكل ما فصلناه من الدعاء
لك بما يرغب المرء في مثله ، فوهب الله لي فيك ، ووهبه لك في كل أسبابك.

[٦ب]

فأما فضائلك والمواهب المقسومة لك ، فقد قادت اليك مودّات القلوب ،
ووقفت عليك خبيثات الصدور ، وارتهنت لك شكر الشاكر ، وردّت اليك
نُفرة النافر ، وحاطت لك الغائب والحاضر ، وأقمحت^(٢) عنك لسان المنافر ،
وقصرت دونك يد المتناول ، وطامنت لك نخوة المناضل ، وأوفت بك على درجة
الأدب ، والهمة ، والرئاسة ، فبلغك الله ذرى المحبة والأمل ، ووقفك لصالح
القول والعمل ، ولا زالت الحرية معمورة بطول عمرك ، والمكارم مؤيدة
بدوام تأييدك ، ولا برحت أيامك محفوفة بالهن والسعادة ، ونعمتك مقرونة

(١) جديراً .

(٢) أفتح : رفع رأسه وغض بصره .

بالناء والزيادة ، ووقاك الله بعينه من الأعين ، وحاطك يده من أيدي الحن ،
وفدك من النوائب والأحداث والنكب . من قد قفئت به عين النعمة ،
واتضعت بمكانه رتبة الهمة ، فلا يصدر عنه أملٌ إلا بنجحية ، ولا يضطر
اليه حر إلا بمحنة ، إن أوتمن غدر ، وإن أجار أخفر ، وإن وعد أخلف ،
وإن قدر اعتسف ، وإن عاهد نكث ، وإن حلف حنث ، تصدأ بمجاورته
الأفهام ، وتصطرخ منه الدولة والأقلام ، سيان قلم أو قعد ، وغاب أو
شهد ، إن كشفته كسفت عن علاج فدم يُقضى له بكل خسة ودم ، لم
يقف للحرية على ريع ولا رسم ، ولا عرف مكرمة في بقطة ولا حلم ، أسوأ
الناس صنيعاً ، وأشدهم بالدناءة ولوعاً ، لم يسلك إلى المجد طريقاً ، ولا وجد
يوماً من الجهل مفيقاً ، أولى الناس بستم وقذف ، وأجدرهم بمجانة
وسخف ، ينطق قبج خلقه عن سوء خلقه ، ويدل بركاكة عقله على لؤم
أصله ، إذا اكتفتته الحوادث لوى عنها شذقه ، وإن لزمه الحق لواه ومحقه ،
وقد وفر الله حظه من الفدامة كما قصر به في القامة ، فهو بكل لسانٍ
مهجو ، ولكل حرٍّ عدو ، وإن عوتب على الزهو والتيه أقام فيهما على
تماديه ، يلوث عتمته على دماغ فارغ ، وحمق ظاهر ساطع ، فهو في آخر حالاته
عند نفسه كما قيل صورة ممثلة ، أو بهيمة مبهمة .

[هجاء الصاحب]

وصلت هذا الفصل بقول فاضت به النفس بمد امتلائها ، وجاشت به
بعد ترده فيها ، وما اضطرني اليه إلا تتابع المكره من جهته ، والشر الذي
لا يزال يتعمقني به ، وانه حين وجد غيرة اهتبلها ، ولما رأى الفرصة اتهمها ،
ولم يرض حتى حسر عن الذراع يداً ، فكشف القناع ، وجرّد العداوة

والتعصب ، وأظهر التسلط والتغلب ، وأنا أعتذر من أن أصل مخاطبتي لك
بمثله ، وإن كنت أجعله بمنزلة اللهو الذي أستعين به على الحق ، والهزل الذي
أستريح به من الجد . وقد قيل : من لم يذمهم السيء لم يحمد الحسن ، ومن
لم يعرف للاساءة مفضلاً لم يجد عنده للاحسان موقفاً ، وعلى أنني لست أدري
أميلي اليك أصدق أم انحرافي عنه أوثق ؟ ورغبتني فيك أشد أم زهدي فيه
أوكد ؟ ومودتي لك أخلص أم أنا على مصارمته أحرص ؟ وسكوني اليك
أتم أم نبوتي عنه أحكم ؟ وأنا على ذمه أطبع أم في حمدك أبدع ؟ كما لست
أدري ، أحظك من الهمة والمرورة أجزل أم حظه من الدناءة والقلبة أجل ؟
ومكانك من الحرمة^(١) والكرم أرفع ، أم محلها فيها أوضع ؟ وكيف يُقرن بك
أو يساوى ، وما أتأملك في حال من الأحوال إلا وجدتك فيها حساماً قاضياً ،
وشهاباً ثاقباً ، وعوداً صليماً ، ورأياً عند معضل الخطوب مصيباً ، في شمائل
حلوة عذاب ، وأخلاق معجونة بأداب ، لا تتجافى عن مكرمة ، ولا تخجل^(٢)
لدى أمل بجرمة ، ولا تؤودك الخطوب إذا اعتورتك ، ولا تكاءدك^(٣)
الجهات إذا اكتفتك ، قد تعرفتك الأيام بحالتي النعمى والبلوى ، فكشفت منك
عن أمضى من الدهر عزماً ، وأرزن من رضوى حلماً ، وأثبت من الليل جناناً ،
وأسمح من صوب الغمام ندىً ، وأمنع من السيف جانباً ، وأعز من كليب وائل
صاحباً ، / وما أتأمله في حال من الأحوال إلا وجدته برّفاً كاذباً ، ورأياً عازباً ،
وركاً ظاهراً ، ونذالة وافرة ، وهيئة خسيصة ، ونفساً على اللم حبيسة ، لم
ينشأ منشأ أدب ، ولا راضته أولية حسب ، فهو دهره على وجل وذعر ، إن
صال فعلى القريب الداني ، وإن همّ فبمضلات الأمانى ، فليس تتجاوز صولته عبده

(١) الحرمة : ضبط الأمر والأخذ فيه بالثقة .

(٢) تكاءد الأمر: شق عليه .

ولا يخاف عدوه كيده ، قد جمع إلى قبح الخبر بشاعة المنظر ، وإلى دمامة الخلق
سوء الخلق ، إذا فكر المفكر فيما أوتي من الحظ ، ومُنح من الحال أيقن بملوء
الجهل وفوز قدحه ، وإكداء الباطل وكساد ربحه ، هو والله كما قال
الشاعر :

عدوٌ لمولاه (١) عدوٌ صديقه وتلك التي يأتي اللئيم من الفعلِ
مقلمةٌ أظفاره عن عدوه على أقربيه ظاهر الفحش والجهلِ
وما أخطأ بوجه المشوّه قول الحمدوني (٢) : كأنّ دماميل جمعت فصور
وجهه منها .

والمعجبُ كل المعجب ، والحديث الذي عندي سيّان فيه الصدق والكذب ،
ما تظهره من الانحراف والازورار على ما بي عنه من السلوة والاصطبار ، وما محله
فيما يأتيه إلا محل أم عمرو وما قيل فيها :

ألا ذهب الحمارُ بأم عمروٍ فلا رجعت ولا رجع الحمارُ
بل هجوه والله الفائدة التي يجب في مثلها الشكر ، والأحدوث التي يحسن
فيها الذكر ، فأما غضبه وتفتيته فغضب الخليل على اللجُم الدِلاص (٣) . وأنا أقول
فيه كما قيل :

فإن كنتَ غضباناً فلا زلت راغماً
وإن كنت لم ترغب إلى اليوم فاغضبِ
والله لو كانت له مثل أياديك التي لها مني موقع القطر في البلد القفر ، ولطف
محل الوصل يعقب التصارم والهجر ، لا وجدني محتماً له أذى ، ولا مغضياً له

(١) في الأصل : مولاه .

(٢) ورد ذكره في البصائر والنخائر ٧٤/١ .

(٣) الدلاص : اللينة البراقة .

على قذى ، ولو كان تخوفه إياي بمثل إعراضك الذي أدناه يُقلق الوساد ،
وَيمرض الفؤاد ، لا ألقاني له معتباً ، ولا إليه معتذراً ، فكيف وهو من لا يجب له
حق الصنعة ، ولا ذمام أدب ، ولا ذمار معرفة ، لم أسر برضاه لما رضي فأساء
بفضبه وقد غضب ، ولا نفعتني إقباله فيضرتني إعراضه ، لأنه بحمد الله كما قلت :

فتي إن برض لا ينفعك يوماً وإن بغضب فإنك لا تبالي

لست والله أحفل به ، أقبل أم أدبر ، وسكن أم نفر ، ولا أبالي بحالتي
سخطه ورضاه ، ولا بأولي أمره ولا بأخراه ، فأدام الله له سورة النبوة
والإعراض ، وأعانته على الجفوة والإقباض ، ولا أخلاه من الغضب والامتعاض
فقد رضينا بذلك فيه حظاً ، واكتفينا به فيه وعظماً .

[ابن مكرم وأبو العيناء]

وأخبرنا المرزباني (١) عن الصولي (٢) قال : كتب ابن مكرم الكاتب إلى أبي
العيناء : لست أعرف طريقاً للمعروف أحزن ولا أوعر من طريقه إليك ،
ولا مستزراً أقل زكاءً ، ولا أبعد من ثمره خير من مكانه عندك ، لأن
المعروف يضاف منك إلى جنب دنيء ، ولسانٍ بذيء ، وجهل قد ملك عتاتك ،
وشغل زمانك ، فالمعروف عندك ضائع ، والشكر لديك مهجور ، وإنما غابتك في
المعروف أن تحوزه ، وفي موليه أن تكفره .

فكتب إليه أبو العيناء : بسم الله الرحمن الرحيم :

(١) محمد بن عمران المرزباني (٥٢٩٦-٥٣٨٤) العلامة البغدادي المشهور صاحب التصانيف
الكثيرة وأهمها الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء . ومعجم الشعراء .
(٢) أبو بكر الصولي من كبار علماء الأدب والمؤلفين والنقاد . توفي في البصرة
سنة ٥٣٥ هـ .

وأنت كما قال الآله فإنما

أتيت بلفظٍ ضعفه فيك موجدٌ

أما بعد : فقد وصل إلي كتابك ، سبك وعرك^(١) ، ولقد كان لك في سديفٍ وبفا ، ما يشغلك عن البذا ، ولكن الله إذا أراد بقومٍ سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال ، وأنت امرؤٌ تزعم أنك من أهل ما ذارايا^(٢) وهناك حلت بك الخزايا ، من غير تقصٍ لأهلها ، ولا دفع لفضلها ، لأنك تجها وتشنؤك ، وتنتمي إليها وتدفعك . وإن امرءاً مكرماً أبوه لجدير عند الفخر أن يعفر فوه ، وأما أمك امرأة من المسلمات الغافلات ، والغفلة مقرونة بالخير ، والعجب لك ولأخيك أنك لا تنيك ولا تنيك ، فعلام غررتم الحرائر ، واستهديتم المهاثر^(٣) ، وأتم قوم تلقفون ما تأنفون ، والله أعلم بما توقعون ، وفيهم خطبتهم النساء وأتم تخطبون ، وكيف تقدم المهور مع حاجتكم إلى الذكور ، ثم أظهرتم حب النساء ، وبكم عرف النساء ، وكيف ادعيتم في الحرب الطعان ، وأتم معشرٌ تخيرون للأذقان ، ولكم في كل يوم دفاع ، ومعتركٍ جماع ، ثم تلقون وقماً للصدور ، والزماح / في أعجازكم تمور^(٤) ، وقد طبتم أنفساً بأن أضحت نساؤكم عند جيرانكم ، ورجالكم عند غلمانكم ، فإذا سيبتموهن بالزناه سيبتنكم بالبغاء ، وقد لعمرى أظهرتم الدف ، وتقرتم الدف ،

[٧ب]

(١) عره : ساءه ووطخه بشر .

(٢) قرية بالقرب من البصرة ويرجع ياقوت أنها بالقرب من واسط .

(٣) المهيرة من النساء : الحرة الغالية المهر .

(٤) تمور : تموج وتضطرب .

وأكثرتم الطمن ، وادعيتم الآثار (١) ، فلما احتيج منكم إلى اللقاء ،
وتنجز منكم الوفاء ، انهزم الجمع ، ووليم الدبر ، فقبحاً لكم آل مكرم ،
قبحاً يُقيم ويلزم :

فلستم على الأعقاب تدمي كلومكم

ولكن على أعجازكم يقطر الدم

فيا بؤس العروس وإزارها الذي لم يُحبل ، وفرعها الذي لم يُبلل ، وللظبية
الغريبة وطرفها القتتان ، وقولها للأتراب: أما لآل مكرم زباب ، وقد زعمت
النساء ، غير ما إفك ، أنك وأباك وأخاك جندٌ ماهنالك مهزوم من الأباط .
وذكرت أنك لا تعرف للمعروف طريقاً أحزن ولا أوعر من طريقه إلي ،
ولا مستزرعاً أقل زكاء ، ولا أبعد من ثمره خير من مكانه عندي ، فلو كان
ما وصفت على ما ذكرت لا لحقك كفر إنعام ، ولا شكر إحسان
لقصور جدتك عن الفضل ، وهمك عن الأفضال ، بلى أستغفر الله ! لو
وجدت فضلاً لوجهت به إلى العاملين عليها ، أعني أمّ الفلك ، القاضية عليك
بالهلسك ، وأين أنت فيلحقني اكرامك ، أو ينالني إنعامك ، هيهات !
جل الأمر عن الحزن ، وعفى السيلُ والعطن ، ولكنك يا أبا جعفر ،
وأنتى لك بجعفر ، لا يعرف للجهاج طريقاً أسهل مأتى ، ولا أقرب مأخذاً من
طريقه اليك ، وحلوله عليك ، هذا مع دنس أثوابك ، ووضر أطرافك ،
وتن ارواحك . وزعمت أن المعروف يحصل مني في حسب دنيء ، ولسان
بذيء ، فانظر ، لك الويلات ! كيف ارتقيت ، وإلى من تعديت ، وهل
فوق رسول الله صلى الله عليه [وسلم] مفخر ، وهل عن خلف الله مرغب ،
ولولا عدل سلطاننا ، وفضل أحلامنا ، وأن الاقتدار يمنع الحر من

(٣) الأثر والأثر : أثر الجرح والجمع آثار وأثور .

الانتصار مع دَفْئِكَ (١) عن المجازاة ، وسقوطك عن الملاحاة ، لاصطلمك
مني الاعتزام ، فاشكر لؤمك إذ نجاك ، وخصمك إذ رفع قدره عنك ،
وأما البذاء ، فما اعتذرُ اليك من أقماع اللئيم ، وتعظيم الكريم ،
ولذلك أقول :

إذا أنا بالمعروف لم أثن صادقاً
ولم أشتم الجيسَ اللئيم المذمماً
فقيم عرفتُ الخيرَ والشرَّ باسمه
وشقَّ ليَ الله المسامعَ والغما

[من رسالة للجاحظ]

وأما الجاحظ فإنه يقول في رسالة : سألتني - أبقاك الله - عن فلان
وأنا أخبرك بالأثر الذي يدل على صحة الخبر ، وبالواضح الذي يدل على الخفي ،
والظاهر الذي يقضي على الباطن ، فتفهم ذلك رحمك الله ، ولا قوة
إلا بالله ، فمن ذلك أني رأيتُه وهو في جيرانه كالحيضة^٢ المنسية ، وكلهم يعرفه
بالأبنة (٣) ، وله غلام مديد القامة ، عظيم الهامة ، ذو ألواح وأفخاذ ،
وأوراك وأصداغ ، أشعرَ القفا ، يلبس الرقيق من الثياب ، ويشابر على
العطر ودخول الحمام ، ويتزيّن ، ويقلم الأظفار ، وكان مع هذه الصفة
المدبرَ لأمره ، والمشفعَ لديه ، والحاكم على مولاه دون بنيه وأهله وخاصة ،
والصارف له عن رأيه إلى رأيه ، وعن إرادته إلى هواه ، وكان أكثر

(١) الدفن : الستر والمواراة .

(٢) الحيضة : خرقه الحائض .

(٣) الأبنة : العيب والحدق .

أهله معه جلوساً ، وأطولهم به خلوة ، ولا يبيت إلا معه ، وإذا غضب .
حزنه^(١) غضبه ، وطلب رضاه ، وكان أيام ولايته لا يتقدمه قريب
ولا بعيد ، ولا شريف ولا وضيع ، إن ركب فهو في موضع صاحب الحرس
من الخليفة ، وإن قعد في موضع الولد السار ، والزوجة البارة ، وإن
التوت على أحد حاجة كان له من وراثتها ، وكانت أهون عليه من خلع نعليه ،
يبت في لحافه ، فحكمتنا عليه بهذا الحكم الظاهر ، ولا حكم القضاة
بالتسجيل ، وتجليدها في الدواوين ، ولا كالأقرار بالحقوق وشهادات المدول .

[تحذير العتي]

وكتب العتي^(٢) الى صديق له يحذره رجلاً ويصف ، فقال: إحذر فلاناً ،
فإن ظاهره برّ ، وغيبه عداوة ، وإن أفشيت اليه حديثك وضعه عند
عدوك ، وإن كتمته إياه سبّك عند صديقه ، لا يصلح لك عند نفسه حتى
يفسدك عند غيره ، وهو / صديقك بما يلزمك من حقه ، وعدوك بما يضيع
من حقه عليك ، إن دنوت منه أذاك ، وإن غبت عنه اغتابك ، يطلع
كرم صاحبه بأذاه ، فإن غسله بالأعتاب أعاد بالعتب ، وإن تركه عيّر به ،
السلامة منه أن لا تعرفه ، فإن عرفت فهو الداء ، إن تداويت لم ينفعك ، وإن
تركته قتلك . أخلط الناس جده بهزله ليمنعك ما في يده منع هزل ، ويغلبك
على ما في يدك مسألة جدّ .

(١) حزنه : أحزنه .

(٢) محمد بن عبد الله أديب شاعر وراوي للأخبار توفي سنة ٢٢٨ هـ راجع :

الفهرست ١٧٦ .

[بين أبي هفان وابن مكرم]

ووجدت أيضاً رسالة لأبي هفان (١) الى ابن مكرم وهي :
أما بعد يا ابن مكرم ضد اسمه ، وخطيئة أبيه وأمه ، ياسبئة العار على
سببته ، ولعنة ابليس على لعنته ، ما أظنك من 'نطفة' ، ولا كانت لواضعتك
عُدرة (٢) ، أفرغك من سَلْجحة على سَلْجحة، وأجراك من أمك من فَفْححة الى
فَفْححة (٣) فأنت كما قال الشاعر :

لعنة الله على نَتْنِهِمَا

شعرتين احتككتا في طَلْبِهِ

أولئك زنية ، وآخرك أبنة (٤) ، فكلتكَ لعنة في لعنة ، تقصع القمل
بأسنانك ، وتمسح 'مخاطك بلسانك ، وتستنزّل منيئك بينانك ، ومني'
غيرك بمجازك (٥) . عبدك يصفعك ، وخدامك يقمعك ، وكلبك يقطعك (٦) ،
وصديقك يقطعك ، نفْسُك 'فساء ، وجسمك خراء ، وريقك ماء
العُدرة (٧) ، وكلُّ خلاك قذرة ، وأنت للأحرار عِيَاب ، وبين الكرام

(١) عبد الله بن أحمد بن حرب أبو هفان المهزبي العبدي الشاعر ، كان من أهل البصرة
وسكن بغداد وكانت له منزلة كبرى في الأدب . راجع : تاريخ بغداد ٩/٣٢٠ ،
سمط اللآلئ ٣٣٥ .

(٢) العُدرة : البكارة .

(٣) الففحة : حلقة الدبر وواسعها ، وراحة الكف .

(٤) الأبنة : العيب .

(٥) العجان : الاست والقضيب المدود من الحصية إلى الدبر .

(٦) لطفه : لحمه بلسانه وضرب مؤخره برجله .

(٧) العُدرة : ماء الفائط .

تَمَام ، أنت للأدباء حاسد ، وللعلماء شاتم ، وبالجليليس هامز ، وفي المحسن
اليك غامز ، 'تظهر جورك ، وتعمدى طورك ، مَهينٌ في نفسك ، 'عرّة في
جنسك ، حالفٌ في كل حق وباطل ، كذوبٌ على الجادّ والهازل ، تطلب
أن تهجا ، وتستدعي أن 'تزنّي ، وقد سبق القول في مثلك مع ندالة فعلك
ولؤم أصلك .

أما المهجاء فمدقّ عرضك دونه
والمدح عنك كما علمت جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك إنه
عرضٌ عززت به وأنت ذليل^(١)

فأنت يابن الكشخان^(٢) القرنان ، الديوث الصفعان ، عثق لاسن الشيطان ،
لا لوجه الرحمن ، فالهجاء من أن يعذب بك في أمان ، فأنت بعز لؤمك
في سلطان ، معرفتك تشين ، وقطيعتك تزين ، وذكرك سبّة ، وقتلك
'قربة ، لا يحصي الخلق عيوبك ، ولا يثبت الحفظ لذنوبك ، أنت بالله
'مشرك ، وفي خلقه مهتك ، نقصك مفروض ، ودينك مرفوض ، وبكل
قيح منموت ، وعند العالم ممقوت ، أحسن آدابك الزندقة ، وأفضل حالاتك
الصدقة ، نذل الأبوة ، رذل الأخوة ، عدو المروّة ، لم تؤمن بنبوة ،
ولم تعرف بفتوة ، تقصد الكريم بسبابك ، فيذلك بترك جوابك ، جئت
بأمّ من حمام الدجال ، توازي بها أمهات الرجال ، لا صوم ، ولا صلاة ،
ولا صدقة ، ولا زكاة ، لا تفتسل من جنابة ، ولا تهمّ بإنابة ، عقوقك
بأيك أنه غير من يدعيك ، لقاتلك أرفع الدرّج ، وما على قاذفك من حرج ،

(١) البتآن مسلم بن الوليد الديوان ٢٤٢ ليدن ١٨٧٥ .

(٢) الكشخان : الديوث .

وكل ذلك بالآيات والحجج ، الحدّ لتارك وصفك ، والنار للمطنب في
مدحك ، ولقارىء مثالبك وكاتب معانيك ثواب مُعتق الرقاب ؛ يوفى
أجره بغير حساب ، قلّه فيك من الثواب ، أكثر مما لك من العقاب ، لك
خُلقت سقر ، ومن أجلك يعذب البشر ، أحسن في عينك من القمر ،
ما 'تستدخله من الكمر^(١) ، تعيب المؤمنات والمؤمنين ، وتقذف المحصنات
والمحصنين ، إذ ليسوا لك بآباء ، ولست لهم في عداد أبناء ، فأنت كما
قال الشاعر :

مغرىً بقذف المحصنا

تِ لست من أبنائها

آتفُ للعلم الذي حويته ، وأغارُ على الشعر الذي رويته ، فأنت وإن
غلطت بكلمة طريفة ، أو حجة حكيمة ، أو نادرة مليحة ، اعتباراً للسامع ،
وفكرة للعاجب ، سفيه على إفراط قدرك ، حسود على شدة بجزرك^(٢) ،
ووقاع على قاتل ذفر^(٣)ك ، تمازح فلا تحسن ، وتجاب وتدعن ، إن
تركت عبثت ، وإن عبثت بك استغبت ، فمثلك كمثلكم إن تحمل عليه
يلث ، أو تتركه يلث ، فاستمع لكلام يشبهك في الأنام ، يا عيب المعائب ،
ويا شين المحاضر والمعائب ، فلك المثل الأسفل ، والقياس الأزل ، والشبه
الأنزل . كما قيل :

وأدعوك للأمر الذي أنت شينُه

على شينِه يا فاضحاً للفضائح

(١) الكمر (محرّكة) رأس الذكر والجمع كمر .

(٢) البخر : رائحة الفم الكريهة .

(٣) الذفر : شدة الرائحة النتنة .

[رسالة العروضي في ابن مقلّة]

[ب٨] / وجدت رسالة أفادنيها أبو محمد العروضي^(١) لابن حماد في ابن مقلّة أبي علي^(٢) يمزقه فيها ، ويذكر حساسة أسله ، وسقوط قدره ، ولؤم نفسه ، وفحش منشأه ، تركت تخليدها في هذا المكان .

[حمد المحسن وذم المسيء]

وكذلك تركت غيرها هرباً من التطويل . وبعد : فحمد المحسن ، وذم المسيء أمران جاريان على مر الزمان مذ خلق الله الخلق ، وعلى ذلك يجري إلى أن يأذن بفنائته ، وهو عز وجل أول من حمد وذم ، وشكر ولام ، ألا تراه كيف وصف بعض عباده عند رضاه عنه فقال : « نِعِمَّ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوْأَبُ^(٣) » ، وقال في آخر : « إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ^(٤) » ، وعلى هذا فإنه أكثر من أن نبليغ آخره ، ثم انظر كيف وصف آخر عند سخطه عليه وكراهته لما كان منه فقال : « هَمَّازٍ مَشَاءٍ^(٥) بِنَمِيمٍ . مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُؤْتَدٍ^(٦) أُنِيمٍ . عُتْلٌ^(٧) بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ^(٨) » ، وهذا فوق ما يقول مخلوق في مخلوق .

(١) أبو محمد العروضي : راجع ما ذكره صاحب تاريخ الحكماء ص ٢٢٤

(٢) محمد بن علي بن الحسين بن مقلّة أبو علي وزير وشاعر وأديب يضرب بحسن خطه المثل . ولد في بغداد سنة ٢٧٢ ثم امتحن بقطع يده ولسانه توفي سنة ٣٣٨ هـ

(٣) سورة ص .

(٤) سورة مريم .

(٥) سورة القلم .

وقال الحسن البصري (١) : الهمّاز : العيَاب ، ومشَاء نيم : ينقل الكلام القبيح ،
متاع للخير : بخيل ، معتدٍ أئيم : ظلوم نيم ، عتل : جاف ، والزيم : الدعي .
قال أبو سعيد السيرافي (٢) : العتلُّ : تراه من قولهم : جيء بفلان يُعتلُّ إذا
غلظ عليه ، وعنّف به في القود ، وكيف يأثم الإنسان في غيبه من كان قلبه
نغلاً بالنفاق ، وصدرة مريضاً بالكفر ، ونفسه فائضة بالتأفة (٣) ، ووجهه مكسواً
بالصفاقة ، ولسانه ذرباً بالفحش والبذاءة ، وسيرته جارية على الكيد والعداوة ،
وعشرته ممقوتة بالنكد والرداءة ، وقد أثنى الله على واحد ولعن آخر ، وحطّ هذا
إلى الحش (٤) ، ورفع ذلك إلى العرش ، وعاتب ، وأثب ، ولام ، وذم ، وكذلك
رسوله ﷺ ومن تقدمه من الأنبياء والمرسلين ، والأولياء المخلصين ، وعلى هذا
فورق السلف الطاهر ، والصحابة العلية ، وهم القدوة والعمدة ، واليهم يتهى
في كل حال ، وعليهم يعتمد في كل أمر ذي بال ، فمن ذا يزري على هذا المذهب إذا
خرج القول فيه معضوداً بالحجة ، ممدوداً بالمعذرة ، معقوداً بالنصفة ، وكان فيه
برد الغليل ، وشفاء الصدور وتخفيف الكاهل من ثقل الغيظ على أجمل وجه
وأسهل طريق ، مع مسامحة ظاهرة ، وتغافل عريض .
وقيل لبعض الصالحين : أي شيء ألدّ ؟ قال : ركوب هوى وافق حقاً ، وإدراك
شهوة لا تلم ديناً ، وقضاء وطر لا يخيف مروءة ، وبلوغ مراد لا يسير قالة قبيحة .

-
- (١) أبو سعيد الحسن بن يسار البصري ولد بالمدينة سنة ٢١ هـ إمام أهل البصرة وكبير
علمائها وقصائدها ونسائها المشهورين . توفي بالبصرة سنة ١١٠ هـ .
(٢) الحسن بن عبد الله ولد سنة ٢٨٤ هـ من كبار النحاة والمتكلمين المعتزلة وهو من
أساتذة أبي حيان التوحيدي وعليه درس النحو واللغة والتسوف توفي سنة ٣٦٨ هـ .
(٣) التأفة : شدة الغضب والسرعة إلى الشر .
(٤) الحش : بفتح الحاء وضمة البستان ، وهو أيضاً المخرج لأنهم كانوا يقضون حوائجهم
في البساتين .

والمذهب الأول هو مذهب الزهاد والمتأبدين وأصحاب الورع والمتعبدين ،
ونحن قد بيّنا الأصل في هذا الباب فليس بنا حاجة الى التكرير ، وكيف يلزمننا
حلم من يتعجرف في قوله ، ويختار على رأيه ، ويعترض بجوره ، ونحن قد اقتدينا
بالله رب العالمين ، وجرينا على عادة الأنبياء والمرسلين ، وأخذنا بهدي عباد الله
الصالحين ، وإنما أشكل القول في هذا المذهب على قوم مدحوا الصمت ، وكرهوا
كثيراً من القول . وقليل الكلام عندهم فضل ، وكثيره هُجْر ، وفيه اللغو الذي
يجب أن يتجنب ، والحشو الذي لا ينبغي أن يُعتاد . وهؤلاء قوم - أكرمك الله -
لا يعرفون فضل ما بين التفييق ^(١) المذموم ، والبلاغة الحمودة ، والتشدق ^(٢)
المكروه ، والخطابة الحسنة ، وما هو من باب البيان المشتمل على الحكمة ،
وما هو من باب العي ^(٣) الشاهد بالهجنة ^(٤) ، ومتى كان ذكر المهتوك حراماً ،
والتشديق على الفاسق منكراً ، والدلالة على النفاق خطأً ، وتحذير الناس من
الفاحش المتفحش جهلاً ؟ هذا ما لا يقوله من قد قام بالموازنة وبالمكايلة ، وعرف
الفرق بين المكاشفة والجمالة ، وإنما غزر الأدب ، وكثر العلم ، وجزلت
العبرة ، وانبعجت ^(٥) العبر ، واستفاضت التجارب لما وقفوا عليه من أبناء الناس
وقصصهم وأحاديثهم ، في خيرهم وشرهم ، وفي وفائهم وغدرهم ، والحسن الذي شاع عنهم ،
والقيبح الذي لصق بهم ، والمكارم التي بقيت لهم ، والفضائح التي ركبت عليهم .
والدنيا دار عمل ، فمن عمل خيراً ذُكر به ، وأكرم من أجله ، ولحظ
بطرف الوقار ، وصين عرضه عن لصوص العار والشنار ، وألحق بأصحاب

(١) تفييق في الكلام : توسع فيه .

(٢) التشديق : لي الشدق للتقصح .

(٣) الهجنة من الكلام : العيب أو القبيح أو ما يبيبه الانسان .

(٤) انبعج علي بالكلام : تدفق .

التوفيق ومن له عند الله الوزن الراجح ، والوجه المُسفر ، ومن عمل شراً ليم عليه ، وأهين من أجله ، ونظر اليه بعين المقت ، وألصق بعرضه كل خزي ، وبيع بثمان ينقص لا بثمان يزيد ، والجزاء وإن كان مؤخراً إلى الدار الآخرة لأهله فإن بعض ذلك قد عجل لمستحقه ، ولهذا قال الله عز وجل / في تنزيله : « ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ^(١) » .
والذي ذكرته عن الجاحظ ^(٢) فليس هو أول من اقتضبه وسنّه ، وقد سلف فيه قوم كرام ، وخلف عليه ناس من جِلَّة الناس .

[١٩]

[رسائل]

أنا قرأت رسالة لابن المقفع ^(٣) في معائب بعض آل سليمان بن علي الهاشمي ،
وكذلك أصبت رسالة لسهل بن هرون ^(٤) في مثالب الحراني ^(٥) ، ورأيت أيضاً

(١) سورة المائدة .

(٢) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إمام البيان العربي وواضع أسس النثر الفني ، ولد في البصرة سنة ١٦٣ هـ وتوفي فيها سنة ٢٥٥ هـ ، له مؤلفات كثيرة في مقدمتها الحيوان والبيان والتبيين .

(٣) عبد الله بن المقفع إمام الكتاب والمترجم وواضع أسس الكتابة الفنية ولد سنة ١٠٦ هـ ومن آثاره المشهورة : كلبلة ودمنة والأدب الكبير والأدب الصغير واليتمية ، قتل في البصرة سنة ١٤٢ هـ .

(٤) سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس ولي البصرة وعمان والبحرين لأبي جعفر المنصور وتوفي بالبصرة سنة ١٤٢ هـ .

(٥) سهل بن هارون بن راهبوت أبو عمرو الدستيميسي من كبار الكتاب والبلغاء وواضعي القمص ، تولى رئاسة « خزنة الحكمة » زمن المأمون وكان شعوبياً يتعصب للعجم على العرب ضاعت آثاره كلها ولم يبق منها سوى رسالة في « البخل » أوردها ابن عبد ربه في العقد الفريد . توفي سهل سنة ٢١٥ هـ .

(٦) سنان بن ثابت بن قرة الحراني أبو سعيد طبيب عالم من حران ، نشأ وتوفي في بغداد سنة ٣٣١ هـ .

رسالة لسعيد بن حميد (١) في فضائح علي بن هشام ، وحتى الصولي بالأمس ذم
بعض بني المنجم في رسالة له .

وحدثنا حمزة المصنف عن أبي الحسن البغدادي قال : كتب أبو العيناء إلى
أحمد بن أبي دؤاد : أما بعد فالحمد لله الذي حبسك في جلدك ، وأبقى لك الجارحة
التي بها تنظر الى زوال نعمتك .

قال وهي طويلة . قال: وقال أبو العيناء : لولا أن القدر، يُعشي البصر ، لما
نهي ولا أمر .

ومن غريب هذا الفن رسالة لأبي العباس محمد بن يزيد (٢) في خبائث
الحسن بن رجاء .

ورأيت أيضاً رسالة للعمري في رقعات الفضل بن سهل (٣)
ذي الرياستين .

[الشعراء والصدق]

وأما الشعراء وأصحاب النظم، وأرباب المدح والهجاء، والثلب والحمد، والتشنيع
والتحسين ، فهو كالطمّ والرّم (٤) ، لا يكسبون إلا بهذا المذهب ، ولا

(١) أبو عثمان سعيد بن حميد من الكتاب المترسلين والشعراء ولد ببغداد وتولى ديوان
الرسائل للمستعين العباسي ، توفي سنة ٢٥٠ هـ

(٢) محمد بن يزيد أبو العباس المعروف بالمبرد ، أحد أئمة الأدب والعريفة في زمنه ولد
ببغداد سنة ٢١٠ هـ وتوفي فيها سنة ٢٨٦ هـ ، أشهر كتبه « الكامل » .

(٣) الفضل بن سهل السرخسي وزير المأمون « ١٥٤-١٧٨ هـ » .

(٤) الطم : الماء والبحر والعدد الكثير . الرم : الثرى . ويقال : جاء بالطم والرم
أي بالبحري والبري، أو بالرطب واليابس، أو بالتراب والماء، أو بالمال الكثير .

بيشون إلا على هذا الاختيار ، ولهم الهجاء المنكر ، والقول المخزي ،
والقدح المؤلم ، واللفظ الموجه ، والتعريض الذي يتجاوز التصريح ، والتصریح
الذي يجمع كل قبائح ، وأمرهم أظهر من أن ندل عليه ، وشأنهم أبين من أن
نردد القول فيه .

وإنما المدار على الصدق في القول ، وعلى تقدير الحق في العقد ، وقصد
الصواب عند اشتباه الرأي ، وغلبة الهوى .

فأما قول أبي الحرث 'جئین' (١) ، وقد سئل عنمن يحضر مائدة محمد بن
يحيى (٢) . وجوابه : الملائكة . قيل له : إنما نسألك عنمن يأكل معه قال : الذباب ،
فإن هذا من باب الملاح والمجانة ، وليس من قبل الصدق في شيء ، وإن
كان بعض الصدق مشوباً ، وبعض الحق ممزوجاً ، ولا بأس ولا حرج فإن
ذلك القدر لا يقلب الصدق كذباً ، ولا يُحيل الحق باطلاً ، وأين المحض من
كل شيء ، والخالص من كل خير ؟ ، إنك إن رُميتَ ذاك في عالم الكون
والفساد ، ودار الامتحان والتكليف مع هذه الطبائع المختلفة ، والنواصر
المتازجة ، والأسباب القرية ، رمت محالاً ، ورائم المحال خابط ، وطالب الممتنع
خائب ، ومحاول مالا يكون مكدوداً معنياً ، ومحدود معرّياً ، ومرجمه
إلى الندم ، وغايته الأسف الذي يشجو النفس ، ويتمرّس الفؤاد ، ويوجع القلب ،
ويضاعف الأسي ، وربما أفضى إلى العطب .

(١) أبو الحرث جين وفي رأي صاحب القاموس جيز ، من أهل الأدب والدعابة ، كان
معاصراً للجاحظ ، راجع أخباره في الأغاني ١/٣٧ ، ١٧/٦ .

(٢) هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي المتوفى في بغداد سنة

[غرض رسالة الوزيرين]

قد ذكرنا - حاطك الله - جملة من القول رأينا تقديمها والاستظهار بها قبل أخذنا فيما أنشأنا له هذا الكلام قصداً لفلّ حدّ الطاعن ، وحبساً لمادة الحاسد ، وتعلماً للجاهل ، وارشاداً للمستجير ، واحتجاجاً على من يُبدلُه بحفظ اللسان ، وكتبان السر ، وطبي القبح ، ومسالمة الناس ، واغتفار المنكر ، وهو مع ذلك في قوله كالأسد في غيله (١) ، والنمر في أشبهه (٢) ، والثعبان في وجاره ، حتى إذا غمز غمزة ، أو وخز وخزة ، رأيت معاقده حله متحللة ، وذخائر صبره منتهبه ، وكظمه الذي كان يُبدل به مفقوداً ، وجلده الذي كان يدعيه باطلاً .

وما أكثر من يتكلم على السلامة من النفس والمال ، وطيب القلب ، ورخاء البال ، وعند موآاة الأمور وطاعة الرجال ، ومساعدة المراد بالحكمة البالغة ، والموعظة الحسنة ، وبالنظر الدقيق ، واللفظ الرقيق ، حتى إذا التوت عليه حال ، وتسرّ دون مراده أمر ، وعرض في بعض مطالبه تعقّد سمعت له هناك ، زخرة ونخرة ، وضجرة وكفرة ، كأن لم يسمع بالحلم والتحمل ، والصبر والتصبر ، يخرج من فروته عارياً من الحلم والكظم ، بادي السوء بالبذاء والجهل كما يخرج الشعر من العجين .

ولعلّ ما نزل به ، وحلّ عليه لم يرزأه زبالاً (٣) ، ولا مسح عنه عذاراً ، وهذا هو اللثيم الذي بلغك ، والساقط الذي سمعت به ، والله تعالى يقول :

(١) الفيل : موضع الأسد .

(٢) الأشب : كثرة الشجر حتى لا يجاز فيه .

(٣) الزبال : ما تحمله النملة في فمها يقال « ما أصاب منه زبالاً أي شيئاً » .

« لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ »^(١) وروى أصحابنا عن ابن عباس أنه قال: معناه: إلا من لم يكرم في ضيافته، فإن كان هذا التأويل صحيحاً وهذا الوجه معروفاً فأنا / ذلك المظلوم ، ولا بد لمن ظلم من أن يتظلم ، وكيف يكون المظلوم إذا انتصر ظالماً والله يقول : « وَلَمَنْ اتَّصَرَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ »^(٢) ، ولو كان المظلوم إذا تظلم ظالماً لكان الظالم إذا ظلم معذوراً ، وكما هجَّن الله لوم المحسن فكذلك حسن توبيخ المسيء، وكما أثاب على تركية من كان طاهراً كذلك أجر على جرح من كان مدخولاً ، ألا ترى أن التقرب إلى الله بمداوة أبي جهل وذمه ولعنه ، وذكر لؤمه وخساسته كالتقرب إلى الله بولاية أبي بكر ومدحه والترحم عليه وذكر فضله وبلائه ونصرته .

[ب٩]

وهذا مستمر في خبر أبي جهل بمن عادى الله ورسول الله ﷺ كما أنه مستمر في غير أبي بكر ممن أطاع الله ورسوله ، وإتمام الأمور بعواقبها، والمذاهب بشواهدها ، والنتائج بمقدماتها ، كما أن الفروع بأصولها ، والأواخر بأوائلها والسقوف بأساسها .

[نزاهة التوحيد وحياده]

ولست أدعي على ابن عبَّاد ما لا شاهد لي فيه ، ولا ناصر لي عليه، ولا أذكر ابن العميد بما لا بينة لي معه، ولا برهان لدعواي عنده ، وكما أتوخى الحق عن غيرها أن أعرض حديثه في فضل أو نقص كذلك أعاملها به فيما عرفنا بين

(١) سورة النساء .

(٢) سورة الشورى.

أهل العصر باستعماله، وشهرا فيهم بالتحلي به . لأن غايته أن أقول ما أحطتُ به .
خُبراً ، وحفظته سماعاً .

[صفات الوزيرين]

وسهلٌ عليّ أن أقول: لم يكن في الأولين والآخريين مثلها ، ولا يكون إلى
يوم القيامة من بعثهما، اصطناعاً للناس ، وحلماً عن الجهال ، وقياساً بالثواب
والعقاب ، وبذلاً لقضية المال ، ولكل دخر من الجواهر والعقد ، وأنها بلغنا
في المجد الذروة السماء، وأحرزا في كل فضل وعلم قصب السبق ، وأن أهل
الأرض كانوا لهم ، وخضعوا لفعالها ، وأن النقص لم يشننها بوجه من الوجوه ،
وأن العجز لم يعترها في حال من الأحوال ، وأنها كانا في شعار إمام الرافضة
وعصمته المعروفة ، وأن الاستثناء لم يقع في وصفها في حال ، لا في الصناعة
والمعرفة ، ولا في الأخلاق والمعاملة ، ولا في الرئاسة والسياسة ، ولا في
الأبوة والعمومة ، ولا في الأمومة والخوولة ، وإن الولادة مرت على شرف
الحنّة ، والمنشأ جرى على كرم المولد ، فالجوهر فائق في الأصل ، والمجد
عميم في الفرع ، والنصاب مقومٌ بالقديم المذكور ، والخير شامل في الحديث
المشهور ، والنجابة معروفة عند الولي والعدو ، والعرق نابض بكل فعل
رضي ، والغور بعيد على التأمل ، والامر كله عالٍ عن المتناول ، وأنه كما
يقال لهذا ابن العميد لنباهة أبيه ، كذلك كان يقال لذلك ابن الأمين لخير كثير
كان فيه ، وإن العميد وإن كان مقدماً في الكتابة ، فقد كان الأمين معظماً في
الديانة، والكتابة صناعة تدركها الخلوقة ، والديانة حلية لا تزداد إلا الجدة ،
وتلك الدنيا وهي زائلة ، وهذه الآخرة وهي باقية . والله تعالى يقول :

« وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى » (١) ، وما عند الله باق ، على أن الأمين كتب لركن الدولة كما كتب العميد لصاحب خراسان ، والأمين كان ينصر مذهب الأشناني (٢) تديناً وطلباً للزلفى عند ربه ، والعميد كان يعمل لمجلمته ، وإن قلت كان الأمين معلماً بقرية من قرى طالقان الديلم .

قيل : وكان والد العميد نخالاً في سوق الخنطة بقم ، فدع هذا ونظيره ، وإنك متى أردت أن تحصي صنائع ابن العميد وابن عبّاد أردت عسراً ، ومتى آثرت أن تحصل فضائلها حاولت ممتنعاً ، وانها كانا بالسياسة عالمين ، ولأولياء نعمها ناصحين ، وإلى الصغير والكبير متجيبين ، وعلى القاضي والداني حديدين ، ولأموالهما بأذلين ، ولأعراضها صائنين ، وفي مرضاة الله دائبين ، وعلى هدى أهل التقي جاريين ، ومن كل دنس ونطف (٤) بعيدين ، زهين ، وأنهما لو بقيا لنزل عليها الوحي ، ولتجدد بها الشرع ، وسقط بمكانها الاختلاف ، وزال بنظرها ما فيه الأمة من هذا العيش النكد ، والشؤم الشامل ، والبلاء المحيط ، والغلاء المتصل ، والدرم العزيز ، والكسب الدنس ، والخوف الغالب ، ولكانت الارض تخرج أثقالها ، وتلفظ كنوزها ، ويستغني من ألم الفقر أهلها ، ومن فضيحة الحاجة أربابها ، ويعود ذوي الدين ناضراً ، وخامل المروءة نبياً .

(١) سورة النبأ .

(٢) راجع : الأوراق للصولي أخبار الرازي والمتقي ٢٣٤

(٣) لعله القاضي أبو الحسين عمر بن الحسن بن مالك الشيباني الذي ذكره صاحب

الفهرست ص ١٦٦

(٤) نطف : الشيء فسد ونطف الرجل : اتهم بريئة وتلطيخ بيب .

[احتمال تكذيب التوحيد]

[١٠] ولكن قد يسمع هذا الكلام مني / من شاهدهما ، وتبطن أمرهما ،
وخبير حالهما ، وعرف مالهما فلا يتأسك عن زجري وخسئي (١) وإسكاتي ،
ومفتي ، ولا ينهنهه شيء عن مقابلتي بالتكذيب واللوم ، ولا يجد بداً من أن
يردّ قولي في وجهي ، ولا يسهه إلا ذلك بعد ازدرائي وتجيبي ، ولا يلبث أن
يقول : انظروا إلى هذا الكذب الذي ألفه ، وإلى هذا الزور الذي فوفه (٢) ،
والباطل الذي وصفه ، والحق الذي دفعه بسبب ثوب لعله أخذه ، أو درهم ثني
عليه كفه ، أو حاجة خسيصة قضيت له ، يبلغ به قلة الدين وسوء النظر فيما يتعقب
بالتقبيح والتحسين أنه يمدح واحداً مقدوقاً بالزندقة والكفر ، ويقرّظ آخر
معروفاً بالإحاد والسخف ، ويصف بالجوذ من كان أبخل من كلب على عقبي
صي (٣) ، ويدعي العقل لمن كان أحق من دُغة (٤) ، ومن أظلم ممن يصف السفينة
بالحصافة ، واللئيم بالكرم ، والمتعجرف بالأناة ، والعاجز بالكفاية ، والناقص
بالزيادة ، والمتأخر بالسبق ، والعزيز بالرفق ، والبخيل بالسخاء ، والوضع
بالملاء ، والوقاح بالحياء ، والجبان بالفناء ، ولا يكون حينئذ لقولي قابل ،
ولا لحكمي ملتزم ، ولا لنصيبي مرجوع ، ولا لسعيمي نجيح ، ولا لصوابي
مختار ، ولا لجِدائي مستمع . وفي الجملة لا يكون لدعواي مصدّق .

(١) خساً الرجل الكلب : طرده وأبعده .

(٢) مفوف : مطرز ومنقوش وموشى .

(٣) العتي : شيء يخرج من بطن المولود حين يولد قبل أن يأكل وهو أسود لزج كالغراء

يقال : « أحرص من كلب على عتي صبي » .

(٤) دُغة بنت مفتح : امرأة عجلية يضرب بها المثل في الحق .

[التوحيدى والصاحب]

ولعمري لو اقلبت عن ابن عبّاد بعد قصدي له من مدينة السلام، وإن اخطى
بفنائه مع شدة العدم والإنفاض، والحاجة المزعجة عن الوطن ، وصفر الكف عما
يصان به الوجه ، وبعد ترددي إلى بابه في غمار الغادين والرائحين ، والطامعين
الراجين ، وصبري على ما كلفني نسخه، حتى نشبت به تسعة أشهر خدمة وتقرباً
وطلباً للجدوى منه ، والجاء عنده مع الضرع والتعلق ببعض ما فارقت من أجله
الأعزة، وهجرت بسببه الاخوان ، وطويت له المهامه والبلاد، وعلى جزء مما كان
الطمع يدندن حوله ، والنفس تحلم به ، والأمل يطمئن اليه ، والناس يعذرونه
ويحققونه لكنت لإحسانه من الشاكرين ، ولإساءته من الساترين ، وعند
ذكره بالخير من المساعدين المصدقين ، وعند قرنه بالسوء من الذابّين الممتعضين
والشاعر يقول :

ومن يُعطَى أثمان المحامد يُحمد

والآخر يقول :

والحمد لا يشتري إلا بأثمان (١)

والآخر يقول (٢) :

وإنّ المجد أوله وعوده

وإنك لن تنال المجد حتى

ومصدر غبه كرم وخير

تجود بما يضمن به الضمير

(١) البيت لحاجب بن حبيب الأسدي وصدره :

والمعطيان ابتغاء الحمد مالهما

المفضليات ١٧١/٢

(٢) الآيات لعمر بن الأهمّ راجع المفضليات ٢١٠/٢ طبعة دار المعارف ١٣٦٢ هـ .

غبه : عاقبه . الخير : الكرم .

بنفسك أو بملكك في أمور^(١)
يَهَابُ رُكُوبَهَا الْوَرَعُ الدُّثُورُ
والآخر يقول^(٢) :

والحمدُ لا يُشْتَرَى إِلَّا لَهُ ثَمَنٌ
مَا يَصْنُ بِه الْأَقْوَامُ مَعْلُومٌ
وَالْجُودُ نَافِيَةٌ لِلْمَالِ مَهْلِكَةٌ
وَالْبَخْلُ مُبْقٍ لِأَهْلِيهِ وَمَذْمُومٌ^(٣)

وقال آخر :

وَمَنْ لَا يَصْنُ قَبْلَ النِّوَافِدِ عَرَضَهُ
فِيحْرَزُهُ يُعْرَرُ بِهِ وَيُخْرِقِي
وَمَنْ يَلْتَمِسُ حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ
يَصْنُ عَرَضَهُ مِنْ كُلِّ شَنْعَاءٍ مُؤَبِقٍ

[دَوَافِعُ حَقْدِ التَّوْحِيدِيِّ]

ولكني ابتليت به ، وكذلك هو ابتلي بي ، ورماني عن قوسه مُعْرِقاً^(٤) ،
فأفرغت ما كان عندي على رأسه مَغِيظاً ، وحرمني فازدريته ، وحقرتني
فأخزيتني ، وخصني بالخيبة التي نالت مني ، فخصصته بالغيبة التي أحرقتني ،
والبادئ أظلم ، والمتتصف أعذر ، وكنت كما قال الأول :

(١) رواية المفضليات: بمالك . الورع : المتحرج . الدثور : الحامل التؤوم .
(٢) الأبيات لعقمة بن عبدة في المفضليات ٢٠١/٢
(٣) رواية المفضليات باق .
(٤) أعمرق : صار عريقاً في الكرم ويقال في التؤوم أيضاً .

وإن لساني شهده يُستفى به

أَجَلٍ وَعَلَى مِنْ صَبَّهَ اللَّهُ عَلَقَمُ

ولئن كان منعي ماله الذي لم يبق له ، فما حظر عليّ عرضه الذي بقي
بعده ، ولئن كنت انصرفت عنه بخفيّ جنين لقد لصق به من لساني وقلبي
كلّ عار وسنار وشين ، ولئن لم يرني أهلاً لنائله وبرّه ، إني لأراه أهلاً
لقول الحق فيه ، ونث^(١) ما كان اشتمل عليه من مخازيه ، ولئن كان ظنّ
أن ما يصير أليّ من ماله ضائع ، إني لأيقن الآن أن ما يتصل بعرضه من
قولي شائع ، والحساب يخرج الحاصل من الباقي . والنظر يميز الصحيح من
السقيم ، والاعتبار يفرد الحق من الباطل ، والمنصف في الحكم يعذر المظلوم
ويؤلم الظالم والشاعر يقول :

فإن تمنعوا ما بأبياتكم

فلن تمنعونا إذن أن نقولا

وقال آخر :

فيا قومنا لا تظلمونا فإنتنا

زى الظلم أحياناً يشلّ ويخرج

وتترك أعراض الرجال كأنها

فريسة لحم ليس عنها مهجيج^(٢)

وقال آخر^(٣) :

إن الذي يقبض الدنيا ويديسطها

إن كان أغناك عني فهو يغنيني^(٤)

(١) نث : أفضى .

(٢) هجج الرجل : رده عن الشيء .

(٣) هو ذو الأصبغ العدواني في مفضليته ١٦٠/١

(٤) رواية الفضليات : سوف يغنيني .

ماذا عليّ وإن كنتم ذوي رَحْمِي
ألاّ أُحِبَّكُمْ إذْ لم تُحِبُّونِي
/ يا قوم ! إن حصاتي ذات معجبة^(١) على العدو ، فخلوم وخلوتي . [١٠٠ ب]
وقال آخر :

لئن طيبت نفساً عن ثنائي إنني
لأطيبُ نفساً عن نذائك على عسري
فلستُ إلى جدواك أعظمَ فاقةً
على شدة الإعسار منك إلى شكري
وروى الخزنبلي^(٢) عن ابن الأعرابي^(٣) قال : مدح زياد الأعجم^(٤) بعض
المهال فخرمه ، ورأى لُكنته فاستحقره ، فدخل وأنشده :
وكنّت إذا ما عامل عَقَّ أمّه
ولم يحْمِها مني أبحت حماها
كسوتهما بُردين من يمينية
إذا ألبسا كانا بطيئاً بلاهما
وأجهل الناس في ارتفاع منزلته من ظنّ أن عرضه في خفارة قدرته ،

(١) معجبة : قوة وصلابة .

(٢) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عاصم التميمي روى عن ابن السكيت كتاب
السرقات « الفهرست ١٠٨ » .

(٣) محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي لنوي ونسابة وراؤ وعالم بالشعر ، ولد بالكوفة
سنة ١٥٠ هـ ومات بسامراء سنة ٢٣١ هـ .

(٤) زياد بن سليمان الأعجم شاعر ولد ونشأ في اصفهان وانتقل إلى خراسان ومات فيها
سنة ٨٥ هـ ، كان معاصراً للهلب بن أبي صفرة وله فيه مدائح ومراث ، وكان هجاءاً ، وسمي
الأعجم لعجبة في لسانه .

وأن المقدم عليه متعرضٌ لنكيره ، وخيرٌ من هذا الظن أن يحتمل ألم مفارقة المال لبعض الميسور حتى لا يُقرَفَ بشيء ، لا غاسل له ، ولا نافع عنه .

ما الذي ربح اليزيدي^(٢) حين آسَدَ^(٣) الشاعر الذي حرمه على نفسه حتى قال فيه شيئاً شافياً لقليله منه بما بقي على است الدهر^(٤) وذلك قوله :

بنو اليزيدي في أدبارهم شعورٌ
قد شاب بما عليه تحلب الكمرُ
أما حُبَيْشَة منهم فهو ممتحن
من البغاء بما لم يمتحن بشرُ
بوده أن كل الناس من حُمُرٍ
وكل جارحة في جسمه ذكُرُ

والله للخروج من الطارف والتالد أسهل من التعرض لهذا القول والصبر عليه ، وقلة الاكتراث به . ولهذا بكت العرب من وقع الهجاء ، كما تبكي الثكلى من النساء ، وذلك لشرف نفوسها وزاهتها عن كل ما يتخون جمالها ويعيب فعالها .

(١) قرف فلاناً : عابه واتهمه .

(٢) أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد من كبار علماء الغيبة والادب

« ٢٢٨ - ٣١٠ هـ » .

(٣) آسد : هيج وأغرى .

(٤) أست الدهر : قدمه .

[التوحيدى وابن العميد]

ومما 'يختل'^(١) به الرئيس ، ويذهل عليه أنه ينظر إلى جماعة بين يديه
قد أحسن إلى كل واحد منهم وقرّب به وأعطاه واختصه بشيء وأبانه بحال .
وإذا رأى واحداً بعد هؤلاء لا نباهة لقدره ، ولا جاهرة لمنظره ، أو
لا شهرة لاسمه ومنصبه حقره ، وثنى طرفه عنه ، وأغضاه دونه ، ولم يهش
لذكره ورؤيته ، واعتقد أنه ليس بذى محل يُبالي به ، ولا يبين في 'غمار'
الباقيين ، أو يجب على ذلك المحروم أن يذكره بما هو أغلب عليه وأشهر عنه ،
وأن يعدّ نيلَ غيره كرمًا قد عمّ ، وإن كان إخفاقه وحده لؤماً قد
خصّ . وهذا موضع يُشكل قليلاً ، وتطول فيه الخصومة بين الآمل
والمأمول ، على أن الكرم والاحتجاج لا يجتمعان ، واللؤم والاحتيال لا يفترقان.
وقد ألمّ الشاعر بطرف من هذا المعنى بقوله :

إن تكلمتُ لم يكنْ لكلامي
موقعٌ والسكوت ليس بمُجندٍ
فأبني لي ، أكلُّ هذا التواني
في جميع الاحوال أم فيّ وحدي
أم ترى ما اصطغته عند غيري
واجبٌ أن أعدّه لك عندي

(١) ختل : خدع .

[شروط السؤدد]

والذي أقول غير محتشم ولا مراقب أن السؤدد لا يكون إلا باحتمال
خصال من الصبر والحلم والتكروم والبذل والمطاء والتفقد، وهن أثقل ما يعاينه
الزائر بأمله ، والفقير برجائه ، والشاعر بطعمه ، والمتجع بزيارته .
اللهم إلا أن يكون السيد يجري في هذه الاخلاق والشيم على الهوى فيُعطي
من كان أخف روحاً عنده وأحلى شمائل ، وألطف فضلاً ، وأغْيَر (١)
قولاً ، فهذا ليس عليه من ثقل السؤدد شيء، لأنه قد ميّز ما يخف عليه
مما يتقبل ، وما يتصل بنفسه مما ينبو عنه ، وما هذا من السؤدد إذا كان
صريحاً تاماً ، عريقاً في شيء ، بل السؤدد ما قال أبو الاسود الدؤلي (٢)
لعبيد الله بن زياد (٣) : إنك لن تسود حتى تصبر على شرار الشيوخ النجر (٤).
وهذا الكلام كالثلث، وقال الشاعر :

لا تحسب المجد تمرأ أنت آكله

لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبيرا

وقيل لعدي بن حاتم ° : من السيد ؟ قال : الأحمق في ماله ،

-
- (١) أعارت الفسيدة : سارت والاعارة السيرورة .
(٢) ظالم بن عمرو الدؤلي الكتاني واضع علم النحو . وله ديوان شعر ، مات بالبصرة
سنة ٦٩ هـ .
(٣) عبيد الله بن زياد بن ظبيان من فتيان العرب كان مقرباً من عبد الملك بن مروان وهو الذي
قتل مصعب بن الزبير ثم ثار على الحجاج مع ابن الجارود مات في عمان سنة ٧٥ هـ .
(٤) النجر : الأصل والحسب .
(٥) عدي بن حاتم صحابي رئيس قومه في الجاهلية والاسلام أسلم سنة ٩ للهجرة وشهد
فتح العراق وشهد الجمل وصفين والنهروان مع علي بن أبي طالب يروى له ٦٦ حديثاً في الصحيحين
مات سنة ٦٨ هـ .

الذليل في غرمة المطرَح لحقده ، المعنيُّ بأمر جماعته فليس يسود المرء إلا بعد أن يسهر من أوّل ليله الى آخره فكراً في قضاء الحقوق ، وكفّ السفاه ، وازدراع المحبّة في القلوب ، وبعث الألسنة على الشكر .

[معاملة الناس بالمثل]

وفي الجملة . من جهل حَقك فليس يلزمك ان تعترف له بحقه ، ومن لم ينظر فيما لك عليه لم يجب عليك أن تنظر فيما له عليك . وقد قال رسول الله صلى الله عليه [وسلم] : لا خير لك في صحبة من لا يرى لك مثل ماترى له .

وقد قيل : تواضع للمحسن اليك وان كان عبداً حبشياً ، واتصف بمن اساء اليك وان كان حراً قرشياً . ومن صفات الكريم ما قال الشاعر :

إن الكريم من تلفت حوله

وإن اللئيم دائم الطرف أقود

وقال آخر :

لما الله اكباناً زناداً^(١) وشرنا

وأيسرنا عن عرض والده ذباً

رأيتك لما نلت مالاً وعصنا

زمان ترى في حدّ أنيابه شعباً^(٢)

جعلت لنا ذنباً لئمنع نائلاً

فأمسك ولا تجعل غناك لنا ذنباً

/ وقال آخر :

نال الفنى بعد فقرٍ فاستغاث به

كما استغاث بياقي ريقه الشـرق

[١٨٨]

(١) كبا الزند : لم يور .

(٢) كذا في الأصل ولعلها «شعبا» والشعب: أسنان السفود التي يفرز فيها اللحم للاشتواء .

مثالب (م ٥)

[التزام التوحيد للبرهان والعيان]

وإذا احتججت بالعيان في وصف هذين الرجلين في الكرم واللؤم فقد رفعت
المرية ، وإذا أقتت الشاهد على الدعوى فقد منعت من اللائمة ، وإذا أريت
الضرورة فقد بلغت الغاية .

وأى حَفَقَةَ للقلب بعد اليقين ، أم أي وحشة للنفس بعد الاستبصار ، أم
أى تَقِيَّةَ على المحتج إذا وصل البرهان ، أم كيف يستجيب من الحق وإن كان
مراً ، أم كيف يعتذر من الصدق وإن كان موجعاً هذا ما لا يكلفه حكيم ،
ولا يأمر به مرشد ، ولا يبحث عليه ناصح . وهذا مبدأ الخبر في حديث ابن
عباد على ما يتفق من ترتيبه ووضعه غير آخذ في أهبة ، ولا محتفل بتقدمة .

[رقاعة الصاحب وسخفه]

فأول ما أذكركه من ذلك ما أدل به على سعة كلامه ، وفصاحة لسانه ،
وقوة جأشه ، وشدة منته . وإن كان في فحواه ما يدل على رقاعته ، واتسكاث
مريرته ، وضعف حويله ، وركاكة عقله ، وانحلال عقده . ولما رجع من
همذان سنة تسع وستين وثلاثمائة بعد أن فارق حضرة عضد الدولة استقبله الناس
من الري وما يليها واجتمعوا بساوة^(١) ودونها وفوقها وكان قد أعد لكل
واحد منهم كلاماً يلقاه به عند رؤيته وأين كانوا يقعون منه ، وأين كانوا يبيتون
عنده ، وهذا الذي ذهب به في الإعجاب والكبر ، وبمته على احتقار الناس ،
وتركه في التيه المصل . فأول من دنا منه القاضي أبو الحسن الهمداني وهو من

(١) مدينة بين الري وهمذان .

قرية يقال لها أسداباذ^(١) ، فقال له : أيها القاضي ما قارفتك^(٢) شوقاً اليك ، ولا فارقتني وجداً عليك ، ولقد مرت بعدك مجالس كانت تقتضيك ، وتخطبك وترتضيك ، ولو شهدتني بين أهلها وقد علوتهم بياني ولساني وجدلي لأنشدت قول حسان بن ثابت في ابن عباس^(٣) ورأيتي أولى به منه ، فإن حسان قال :

إذا ما ابن عباسٍ بدا لك وجهه رأيت له في كل مجتمعةٍ فضلاً^(٤)
إذا قال لم يترك مقالاً لقائلٍ ملتقطاتٍ لا ترى بينها فصلاً^(٥)
كفى وشفى ما في النفوس فلم يدع

لذي إربةٍ في القول جدّاً ولا هزلاً^(٦)

سموت إلى العليا بغير مشقة

فقلت ذراها لا دينياً ولا وغلاً^(٧)

ولذكرت أيضاً أيها القاضي قول الآخر وأنشدته، فإنه قال فيمن وقف موقفي،
وقرف مقرفي^(٨) ، وتصرف متصرفي وانصرف منصرفي ، واعترف له
معترفي :

(١) أسداباذ : قرية تبعد مرحلة واحدة عن همدان نحو العراق .

(٢) المقارنة : المحالطة .

(٣) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي الصحابي الجليل لزم الرسول صلى الله

عليه وسلم وروى عنه الأحاديث الصحيحة توفي بالطائف سنة ٦٨ هـ .

(٤) لم يرد هذا البيت في الديوان انظر ديوان حسان بن ثابت ٣٥٩

(٥) ملتقطات : متخبرات .

(٦) إربة : حاجة .

(٧) الوغل : النذل الضعيف الساقط .

(٨) قرفه : اتهمه وعابه .

إذا قال لم يترك مقالاً ولم يقف
لعيٍّ ولم يشنر اللسان على هُجْرٍ
يصرفُ بالقول اللسان إذا اتحي
وينظر في أعطافه نظر الصقْرِ.

ولقد أودعتُ صدرَ عضد الدولة ما يطول به التفاته إليّ ، وبيد حسرة
عليّ ، ولقد رأيتُ ما لم يرقبه مثله ، ولا يرى بعده شكله ، فالحمد لله الذي
أوفدني عليه على ما يسرُّ الوليَّ ، وأصدرني عنه على ما يسوء العدوَّ .

أيها القاضي ! كيف الحال والنفس ، وكيف الامتاع والأنس ، وكيف
المجلس والدرس ، وكيف القرص والجرس ، وكيف الدس والدعس ،
وكيف الفرس (١) والمهرس (٢) ، وكاد لا يخرج من هذا الهديان ، لتهيجه
واحتداه ، وشدة خيالاته وغلوائه ، والهمذانيُّ مثل الفأرة بين يدي السننور
قد تضاءل وقمؤ (٣) لا يصعد له نفسٌ إلا تبرع تذللاً وتقللاً ، هذا على
كبره في مجلسه ، مع نذاته في نفسه . ثم نظر إلى الزعفراني ، رئيس اصحاب
الرأي (٤) فقال : أيها الشيخ سرّني لقاؤك ، وساءني عناؤك ، وقد بلغني
عدواؤك (٥) ، وما يتخيَّله اليك خيلاؤك ، وأرجو أن أعيش حتى يردَّ عليك

(١) الفرس : القتل .

(٢) المهرس : الدق الشديد .

(٣) قمؤ : ذوى وصغر .

(٤) الزعفراني رئيس فرقة الزعفرانية وهي فرقة من التجارية أتباع الحسين بن النجار الذين
وافقوا أهل السنة في أصول والقدرية في أصول واقردوا بأصول . راجع : الفصل في الملل
والأهواء والنحل ٥١/٢ ، والامتاع والمؤانسة ٧٨/٢ .
(٥) العدو : الشغل يصرفك عن الشيء .

غلاؤك ، ما كان عندي انك تقدم على ما أقدمت عليه ، وتتهي في عداوتك
لأهل العدل والتوحيد إلى ما انتهيت إليه ، ولي معك إن شاء الله نهار له ذيل ،
وليل يتبعه ليل ، وثبور^(١) يتصل به ويل ، وقطر يدوم معه سيئل و
وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار . قال الزعفراني : حسبنا الله ونعم الوكيل ؛ ثم
أبصر أبا طاهر الحنفي فقال : أيها الشيخ ما أدري أشكوك أم أشكو اليك ؟
أما شكواي منك فلأنك لم تكاتبني بحرف ، حتى كأننا لم نتلاخظ بطرف ،
ولم نتحافظ على إلف ، ولم نتلاق على ظرف ، وأما شكواي اليك ، فهو أنني
ذممت الناس بعدك ، وذكرت لهم عندك ، وعرضت بينهم ودك ، وقدمت
عليهم زندك ، ونشرت عندهم غرائب ما عندك ، فاشتاقوا اليك بتشويقي ،
واستصفوك بتروبي ، وأثنوا عليك بتنميتي وتروبي . وهكذا عمل الأجباب
إذا نبات^(٢) بهم الركاب ، والتوت دونهم الاعناق ، واضطرت في صدورهم
نار الاشتياق ، فالحمد لله الذي أعاد الشعب ملتئماً ، والشمل منتظماً ،
والقلوب وادعة ، / والأهواء جامعة ، حمداً يتصل بالزيد ، على عادة السادة
مع العبيد ، عند كل قريب وبعيد .

[١١ب]

ثم التفت إلى ابن القطان القزويني الحنفي ، وكان من ظرفاء العلماء فقال:
أيها الشيخ كدت والله أحلم بك في اليقظة ، وأشتمل عليك دون الحفظة ،
لأنك قد ملكت مني غاية المكانة والحظوة ، والله ما أسفت بعدك ريقاً
إلا على جراض ، ولا سلكت بعدك طريقاً إلا على مضض ، ولا وجدت
للظرف سوقاً إلا بالعرض ، سقى الله ربعا أنت ساكنه بنزاهتك ، وطبعاً أنت

(١) الثبور : الهلاك والحسران .

(٢) نبات ونبؤ : خرج من أرض إلى أرض .

طابنه (١) بيراعتك ، ومغرساً (٢) أنت أينعته^٣ بنباهتك ، وأصلاً أنت فرعه بفقاھتك . وقال للعباداني : أيها القاضي ! أيسرك أن أشتاقك وتسلو غني ، وأن أسألَ عنك فتنسلُ مني ، وأن أكتبك فتتغافل ، وأطالبك بالجواب فتتكاسل ؟ وهذا ما لا أحتمله من صاحب خراسان ، ولا يطمع مني فيه ملك من ساسان ، متى كنت مندبلاً ليد ، ومتى نزلت على هذا الحد لأحد ، إن انكفأت إلي بالعدر انكفاء ، وإلا اندرأت عليك بالمعدل اندراء ، ثم لا يكون لك معي قرار بحال ، ولا يبقى لك بمكاني استكثار إلا على وبالٍ وخبال . ثم طلع أبو طالب العلوي فقال : أيها الشريف ! جعلت حسناتك عندي سيئات ، ثم أضفت إليها هئات بعد هئات ، ولم تفكر في ماض ولا آت ، أضعت العهد ، وأخلفت الوعد ، وحققت النحس ، وأبطلت السعد، وحملت (٤) سراباً للحيران ، بعدما كنت شراباً للحرّان ، وظننت أنك قد شبت مني ، أو اعتضت عني ، هيات ! وأني لك بمثلي ، أو من يعثر في ذيلي ، أوله نهار كنهاري ، أو ليلٌ كليلي ، وهل عائض مني وإن جلّ عائض ، أنا واحد هذا العالم ، وانت بما تسمع عالم ، لا إله إلا الله وسبحان الله . أيها الشريف ! ابن الحق الذي وكّدناه (٥) أيام كادت الشمس عنا تزول ، والزمان علينا يصول وأنا أقول ، وانت تقول ، والحال بيننا تحول ؟ سقى الله ليلة تشيعك وتوديعك ، وأنت متتكّر

(١) في الأصل غير منقوطة ورجحنا طابنه ، وطابنه : واقفه .

(٢) المغرس : موضع الغرس .

(٣) في الأصل ينعه .

(٤) حلت : تحولت .

(٥) وكّد يكد كوداً : أصاب والعقد : أوثقه .

تسكراً يسوء الولي ، وأنا متفكر تفكراً يسُرُّ العدو . هذا ونحن متوجهون
إلى ورّامين (١) خوفاً من ذلك الجاهل المبهين ، يعني بالجاهل المبهين ذا الكفاءتين
حين أخرجه من الري بعد أن ألبَّ عليه ، وكاد يُؤتي على نفسه الخبيثة ،
وهو حديث له فرّش (٢) ، وما أنا بصددٍ يمنع من اقتصاصه ، ولعله يجري على
وجهه فيما بعد ، ولقد ظلم بقوله ، وكان بالجهل والمهانة أحق ، وسيمر ما يدل
على قولي ، ويصحح حكمي ، ويبيّن لك أنه لم يكن معه إلا الجسد المساعد
فقط ، وما في ذلك تشيع وإيهام ، وتمويه وكذب ، وبُهِتٌ ووقاحة .
ثم نظر إلى أبي محمد كاتب الشروط فقال : أيها الشيخ ! الحمد لله الذي
كفانا شرّك ، ووقانا عرّك (٣) ، وصرف عنا ضرّك ، وأرانا فيتحك (٤)
وحرّك ، دبّبت الضراء لنا ، ومشيت الخمر (٥) علينا ، ونحن نجيس لك
الحديس (٦) ، ونصيفك بالالبابة والكيس (٧) ، ونقول : ليس مثله ليس ،
وأنت في خلال ذلك تقابلنا بالويح والويس (٨) ، لولا أنك قرّحان (٩)
لسقط العشاء بك منا على سرّحان (١٠)

(١) بليدة من نواحي الري تبعد عنها ثلاثين ميلاً .

(٢) فرش : ببط وتوسيع .

(٣) العر : السوء .

(٤) فيحك : الفيح : خصب الريع في سعة البلاد . ويقال : أفح عنك من

الظهيرة : أبرد .

(٥) الخمر : الخائنة ، يقال : « هو يدب لنا الضراء ويمشي له الخمر » لمن ختل صاحبه .

(٦) حاس يجيس : الشيء : خلطه والجل : فتله .

(٧) البابة : العقل . الكيس : العقل والظرف والفتنة .

(٨) ويح : كلمة ترحم وتفجع . ويس : بمعنى ويح .

(٩) القرحان : من أصابه القرح .

(١٠) السرّحان : الذئب .

[الصاحب وابن أبي خراسان]

وقال لابن أبي خراسان الفقيه الشافعي : أيها الشيخ! ألغيت ذكرنا عن
السانك ، واستمررت على الخلوة بانسانك ، جارياً على نسيانك ، مستهتراً بفتيانك
وافتنانك ، غير عاطفٍ على إخوانك وأخذانك ، لولا أني أرعى قديماً قد
أضعتَه ، وأعطيك من رعايتي ما قد منعتَه ، لكان لي ولك حديث ، إما طيب
وإما خبيث ، خلقتك محتسباً ، فخلفت مكتسباً ، وتركتك أمراً بالمعروف ،
فلحقتك ركباً للمنكر ، قد يفيل^(١) الرأي ، ويخببُ الظنُّ ، ويكذبُ
الأمَلُ . . وقد قال الأول :

ألا ربُّ مَنْ تَغْتَشُّهُ لك ناصحٌ
ومؤتمنٌ بالغيبِ وهو ظنِّينٌ

[الصاحب والشادباشي]

ثم نظر إلى الشادباشي فقال : يا أبا علي ! كيف أنت وكيف كنت ؟
فقال : يا مولانا لا كنتُ إن كنتُ أدري كيف كنت ، ولا لا كنتُ إن
كنتُ أدري كيف لم أكن . فقال : اغربُ يا ساقط يا هابط ، يا من
يذهب إلى الخائض بالغائض ، ليس هذا من نحت يدك ، ولا هو مما نشأ من عندك ،
هذا لمحمد بن عبد الله بن طاهر أوله :

كبتَ تسأل عني كيف كنت وما
لا قيتُ بعدك من غمٍّ ومن حزن

(٧) فال يفيل فيؤلة وفيلاً : الرأي أخطأ وضعف .

لا كنتُ إن كنتُ أدري كيف كنتُ ولا
لا كنتُ إن كنتُ أدري كيف لم أكن

[صورة هزلية]

وكان يُنشد وهو يلوي رقبته ، ويحفظ حدقته ، وينزّي أطراف
منكبيه ، ويتسايل ويتمايل كأنه الذي يتخبطه الشيطان من المس ،
ثم قال يا أبا علي ! لا تعول على أير في سراويل غيرك ، لا أير
إلا أير تمطّي تحت عاتك ، فانك إن عولت على ذلك خانك وشانك ،
وفضح حالك^(١) وما نك .

[الصاحب والغلام]

ثم نظر الى غلام قد بقّل^(٢) وجهه كان يُتهم به على الوجه الأقيح ،
فالتوى وتقلقل وقال : أدن يا بني ! كيف كنت ، ولم حملت على نفسك هذا
العناء ؟ وجهك هذا الحسن لا يُتبدل للشحوب ، ولا يُمرض للفحات
الشمس بين الطلوع والغروب ، أنت يجب أن تكون في بذلة بين حجلة^(٣)
/ وكلة ، ترّاح بك العلة وتعلّ فيك القلة^(٤) ، وتشفى منك الغلة^(٥) .

[١٧٢]

(١) في الأصل : خانك .

(٢) بقّل وجه الغلام : خرج شعره .

(٣) حجلة : « محرّكة » كالتفة ، وموضع يزين بالتياب للعروس .

(٤) القلة : النهضة من علة أو فقر .

(٥) الغلة : العطش أو شدته .

[الصاحب وفيروزان المجوسي]

هذا آخر حديث الاستقبال ، وقد حذفتُ منه أشياء كثيرة من رقاعاته ، لأن الغرض غير مقصور على فن واحد من حديثه . وقال يوماً في دار الإمارة لفيروزان المجوسي ، وكان الخرائطي حاضراً ، في شيء نابذه عليه : إنما أنت محشّ محشّ محش ، لا تهش ولا تبش ولا تمتش ، فقال له فيروزان : أيها الصاحب! برئت من النار إن كنت أدري ما تقول ، إن كان من رأيك أن تشتمني فقل ما شئت بعد أن أعلم ، فإن الغرض لك ، والنفس فداؤك ، لست من الزنج ولا من البربر ولا من الغز^(١) ، كلمنا بما نعقل على العادة التي عليها العمل ، والله ما هذا من لغة آبائك الفرس ، ولا لغة أهل دينك من هذا السواد، فقد خالطنا الناس فما سمعنا منهم هذا النمط ، وإني أظن أنك لو دعوت الله بهذا الكلام لما أجابك ، ولو سألته لما أعطاك ، ولو استغفرت الله به ما غفر لك ، وحقيق على الله ذلك . فقال الخرائطي : أيها الصاحب ! والله لقد صدق فلا تغضب ، فليس كلُّ من وثق بأنه لا يرجع في قوله وفعله ركب ما يحمق فيه ، شاهداً وغائباً ، فقام عنهما خزيان بردّ ريقه حقداً عليهما ، وكان ذلك سبباً كبيراً في فساد أمرهما .

[رأي الزعفراني في الصاحب]

وقلت للزعفراني الشاعر ، وكان من أهل بغداد : أصدقني أيها الشيخ عن هذا الانسان كيف وجدته في طول ما عجمت عوده ، وتصفحت أخلاقه ، وخبرت دُخلته ، فقال : وجدته كليل الكرم ، حاد

(١) الغز : جنس من الترك .

اللؤم ، رقيعَ الظاهر ، مريبَ الباطن ، دنسَ الجيب ، مثيراً من
الغيب ، كأنه خلق عبثاً ، مما مليء خبثاً ، سفهه ينفي حكمة خالقه ، وغناه
يدعو إلى الكفر برازقه ، وأنا أستغفر الله من قولي فيه ونفاتي معه ، ولعن
الله الفقر فهو الذي يَحْبُلُ المروءة ويقدم في الديانة، ولو كان لي بينداد قوت
يحفظ عليّ ماء الوجه ما صبرت على هذا الرقيع البارد ، والمجنون المطاع
ساعة . ولكن ما أصنع ، قد قلبت أمري ظهراً لبطن ، مالي إلى الرزق باب
إلامنه وأنشدت :

والرزق كالوسميّ ربّتمّا عدا
روض القطا وسقى مهامه جلق
فاذا سمعتَ بحولٍ متألّه
متأدبٍ فهو الذي لم يرزق
والرزق يُخطيء باب عاقل قومه
ويبيت بوأباً لباب الأحمق

وأنشد أيضاً :

الرزق قد يأتيك في وقته
والحرص لا يُغني ولا يُجدي
كم قاعدٍ يلبغ مأموله
وطالبٍ مضطربٍ يُكدي
فاسترزقِ الرازق من فضله
وارض بما يوليئك من رفق
وثق بحسانٍ له واسع
فكذا عادته عندي

وأشدد القرميسيني^(١) قال : أنشدنا علي بن سليمان الأخفش لشاعر :

قد يرزق المرء لم تعب رواجه
ويحرم الرزق مَنْ لم يؤتَ من تعبِ
يا ثابتَ العقلِ كم عاينتَ ذا أدبِ
الرزقُ أعدى له من ثابتِ الجربِ
وإني واجدٌ في الناسِ واحدةً
الرزقِ والنُّوكِ مقرونانِ في نسبِ^(٢)
وخصلة قلِّ فيها من يُنازعني
الرزقِ أروغ شيءٍ عن ذوي الأدبِ^(٣)

[رأي المسيني في الصاحب]

وقلت للمسيني : ما قولك في ابن عبّاد ؟ فقال : له في الخلاعة قرآنٌ
مُعجز ، وفي الرقاعة آية منزلة ، وفي الحسد عرقٌ ضارب ، وفي الكذب
عارٌ لازب ، لا يترع عن المساوىء إلاً ملئاً ، ولا يأتي الخبير إلا كسلاً ،
ظاهره ضلالة ، وباطنه جهالة ، وليس له في الكرم دلالة ، ولا في الاحسان
إلى الأحرار آلة . فسبحان من خلقه غيظاً لأهل الفضل والأدب ، وأعطاه
فيضاً من المال والنشب .

(١) راجع : الامتاع والموانسة ١٣٤/١

(٢) النوك : الحق .

(٣) راغ : حاد وذهب هبنا وهبنا .

[رأي الخوارزمي في الصاحب]

وقلت لأبي بكر الخوارزمي الشاعر^(١) وكان قد خبره : كيف وجدت الصاحب وقد أعطاك وأولاك وقدّمك وآثرك ، وسفر لك إلى عضد الدولة وهو اليوم شاه الملوك ، حتى ملأت عيابك^(٢) تبراً ، وحقائبك ثياباً ، ورواحلك زاداً ؟ فقال : دعني بما هنالك والله إنه لخوارزمي في المكارم ، صباراً على الملائم ، زحافاً إلى المآثم ، سماعاً للنائم ، مقدماً على العظام^(٣) ، يدعو إلى العدل والتوحيد ، ويدعي الوعد والتخليد ، ثم يخلو باستعمال الأمور ، ويشتمل على الفسوق والفجور ، ويسمي وهو بور ، ويصبح وما على وجه نور .

[أبو بكر الخوارزمي]

وكان الخوارزمي من أفصح الناس ، ما رأينا في العجم مثله ، وإنما نؤله الصاحب ما نؤله ، وخوؤه ما خوؤه ، لأنه كان أذكاه^(٤) عينا على محمد بن ابراهيم صاحب الجيش بنيسابور ، واستملى فيه أخبار المشرق ، وبهذا المعنى استدر له من ملك بغداد بواسطة ابن يوسف ، وكان الظاهر أنه إنما يُعطيه لأدبه ، ويُحيزه لشعره ، ويصطفيه لفضله .

-
- (١) محمد بن العباس الخوارزمي أبو بكر من أئمة الكتاب والشعراء العلماء . كان ثقة في اللغة ومعرفة الأنساب ، ولد في خوارزم وتوفي في نيسابور سنة ٣٨٣ هـ .
(٢) العيبة : الزنبيل من آدم وما تجعل فيه الثياب كالصندوق .
(٣) العظيمة : النازلة الشديدة .
(٤) أذكى : أذكى عليه العيون أي أرسل عليه الجواسيس .

[رأي الزعفراني في الصحاب]

ولقد قلت للزعفراني : أرى الخوارزمي سيء الرأي في ابن عباد مع ما يصل إليه منه ، فما السبب ؟ فقال : ابن عباد سيء السياسة / لصنائه ، وذلك أنه يعطي الانسان عطية ما ثم يلوه بجفاء يتمنى معه لنقط النوي في السكك . والمُصْطَنعُ الكريم هو الذي يكون اصطناعه بلسانه ، فوق اصطناعه بيده ، وإني أهدئك ببعض ما عامل به الخوارزمي ليصح لك القياس عليه ، والعجب منه .

[الخوارزمي والصحاب]

حضر الخوارزمي يوماً وجرى حديث القافة (١) . فقال الخوارزمي: دخل محرز المدلجي على رسول ﷺ ونظر إلى أقدام أسامة وزيد فقال : هذه أقدام بعضها من بعض ، وصحف البائس كما يصحف الناس العلماء فمن دونهم . وكان ابن عباد على بركة فما زال يدور حول البركة وهو يصفع الخوارزمي ويقول محرز بجيأتي إلى أن رَعَفَ (٢) الخوارزمي وتنحى وخرج ، فهذا وما دانه هو الذي كان يُفسد به ما يفعله من الخير والبر .

[رأي أبي الطيب النصراني في الصحاب]

وحدثني بذكر أبي بكر عينا بخراسان أبو الطيب النصراني وكان على السر عند مؤيد الدولة ، وكان يعرف من مخازي ابن عباد عجائب ، سمعته يقول :

(١) القائف : من يعرف الآثار والجمع قافة .

(٢) رَعَفَ الرجل : خرج الدم من أفه .

لو بُحِثُ بما في نفسي من حديث هذا المأبُون لتصدَّعَ الجبل ، ولتقلَّعَ الجنْدَلُ .
وكان ابن عبَّاد شديد السُّفَه ، عجيب المناقضة ، سريع التحوُّل من هيئة
إلى هيئة ، مستقبلاً للأحرار بكلِّ فِرْيَةٍ (١) وفاحشة . كان يقول للانسان
الذي قدم عليه من أهل العلم : تقدِّمُ يا أخي وتكلمُ ، واستأنس ،
واقترح ، وانبسط ، ولا تُرْعِ (٢) ، واحسبني في جوف مُرَقَّعة ،
ولا يهلك هذا الخشم والخدم ، وهذه الغاشية والحاشية ، وهذه المرتبة
والمسببة ، وهذا الطاق والرواق ، وهذه المجالس والطنافس ، فان سلطان
العلم فوق سلطان الولاية ، وشرف العلم أعلى من شرف المال ، فليفرخ روعك (٣) ،
ولينعم بالك ، وقل ماشئت ، وانصر ما أردت ، فليست تجد عندنا إلا
الانصاف والاسعاف والاتحاف والاطراف ، والمقاربة والمواهة ، والمؤانسة
والمقاسه ، وعلى هذا التزبد ومن كان يحفظ ما يهذي به في هذا وغيره ،
حتى إذا استقى ما عند ذلك الانسان بهذه الزخارف والحيل ، وسال الرجل
معه في حدوده على مذهب الثقة ، وركب في مناظرته ، ردَّعَه وحاجَه ،
وراجعه وضايقه ، وسا كعه (٤) ووضع يده على النكتة الفاصلة ، والأمر
القاطع ، تَنَمَّرَ له ، وتَنَعَّرَ (٥) عليه ، واستحصد (٦) غضباً ، وتلظى
لهباً ، وقال بعد وثبتين أو ثلاث : يا غلام خذ بيد هذا الكلب إلى الجبس

(١) الفرية : الكذب واختلاقه .

(٢) لا ترع : لا تحف .

(٣) ليذهب رعبك . افرخ الروع : انكشف .

(٤) سكَع : مشى على غير هداية . ورجل سكَع : متحير .

(٥) نفر الرجل على فلان : غلا جوفه عليه غضباً .

(٦) استحصد الرجل : غضب .

وضعه فيه بعد أن تصبّ على كاهله وظهره وجنيبه خمسمائة عصاً فإنه معاندٌ ، ضدٌّ ، يحتاج إلى أن يشدَّ بالقد (١) ، ساقطٌ هابطٌ ، كلب نباحٌ ، متعجرفٌ وقاحٌ ، أعجبه صبري وغرّه حلمي ، ولقد أخلف ظني ، وعدت على نفسي من أجله بالتوبيخ ، وما خلق الله العضا باطلاً ، ولا ترك خلقه هاملاً ، فيقام ذلك البائس على هذه الحال التي تسمع ، على أن مسموعك دون مشاهدتك لو شاهدت ، ومن لم يحضر ذلك المجلس لم يرَ منظراً رقيقاً ، ورجلاً رقيقاً قد عامل بما وصفت الجريري (٢) غلام ابن طرارة ، والحامدي (٣) الشاعر الوارد عليه من البصرة ، وأبا زيد الكلابي وغيرهم .

[رأي ابن العميد في الصاحب]

وكان أبو الفضل، أعني ابن العميد، إذا رآه يقول : احسبوا أن عينيه ركبتا من زئبق ، وعنقه عمل بلولب . وصدق لأنه كان ظريف الثني والتلوي ، شديد التفكك والتفتل ، كثير التعوُّج والتموُّج في شكل المرأة المومسة ، والفاجرة الماجنة ، والخنث الأشمط .

[رأي الصاحب في الطب]

وسمعت أبا الفضل المروزي يقول له يوماً : لو وضع في خزانة الكتب

(١) القد « بكسر القاف » السير يقد من جلد غير مدبوغ يقيد به الأسير .

(٢) في الأصل الحريري وكذلك في تاريخ الحكماء للقفطي والصواب ما أثبتناه نسبة إلى مذهب ابن جرير الطبري .

(٣) ورد ذكره في تنمة اليتيمة ٢٧/١

لوقوف شيء من الطب لكان ذاك باباً من المنافع الحاضرة ، والفوائد المعجّلة ، والخير العام . فقال على حدّته وجنونه : الطبُّ يا أبا الفضل سلّمٌ إلى الخلد ، ولقد أسررت في هذا القول حسّواً في ارتقاء (١) ، أنت مهندس وأنت منهم ، ويكفي منك في هذا المعنى ما هو دون هذا ، فأنزل الهروي ، وكان جباناً ، وأخذ يتلافى ما فرط منه .

قال أصحابنا بالري : كيف يسوّغ له أن يقول هذا ، وهو يشاور الطبيب في كل غداة ، ويعتمد على الطب في كل عارض ، ويجمع الكتب فيه ، ويرجع إليه .

[الصاحب وعلم النجوم]

قالوا : وليس هذا بأعجب من عيبه لعلم النجوم ، وذمه لأهله ، وهو لا يفارق التقويم ، ولا يخلو يوماً من النظر فيه مرات ، لأنه كان لا يركب إذا وجد نحساً ، هذا على تقليده فيه ، لأنه ما كان يعرف حرفاً من علم النجوم ، لا على طريقة من ينظر في أحكامه ، ولا على مذهب من يختاره لهيئته ، فهل رأيت بهتاً أشدّ من هذا ، / ومناقضة أقيح من هذا ، يذمّ شيئاً في الظاهر ، ثم يجه في الباطن ، ويزهد غيره في شيء وهو يؤثّر . وكان من ضعف عقله يقول : يجوز أن يكون الفلك من سلجّم (٢) أو جزر أو فجل . قال هذا للصاغاني أبي (٣) حامد ونحن حضور ، وهو مع هذا

[١٦٣]

(١) اسر حسواً في ارتقاء : مثل يضرب للماكر الخادع .

(٢) سلجّم « كجعفر » نبات .

(٣) ورد ذكره في الامتاع .

العقل السخيف يطلب كتب الأوائل ، ويجمعها وينظر فيها ، ويشتهي أن
يفتح فاتح عليه شيئاً منها في السر وعلى وجه التهجين ، لا على وجه التقبل .
ويقول في أبي الحسن العامري ^(١) قال : الحراني كذا وكذا وإذا خلا
تظر في كتبه ومصنفاته وكان أحدها من أبي الحسن الطيبي الطبري طيب
ركن الدولة .

[قلة دين صاحب]

وكان مع هذا المذهب الذي يُدلّ به وبسميه العدل والتوحيد قليل
التوجه إلى القبلة ، قليل الركوع والسجود ، وكان مع حفظه الغزير عليه
مؤونة في تلاوة آية من كتاب الله عز وجل إذا أراد أن يستدل بها في المناظرة
والجدل ، أو يذكر وجهاً من وجوها في المذاكرة ، ولم يكن عليه طابع العبادة
ولا سيء التألهين .

[مساوىء صاحب]

وكان مع ذلك سفاكاً للدماء ، قتالاً للنظر والأكفء ، وكان شديد
الحسد لأهل الفضل والدراية ، ولأصحاب الحفظ والرواية ، وكان جليلاً
حسده لمن كتب فأحسن الخط ، وأجاد اللفظ ، وتأتى للرسم ، وملح في
الاستعارة ، وكان إذا سمع من إنسان كلاماً منظوماً ، ومعنى قوياً ، ولفظاً
مسنجوعاً ، وشرأ مطبوعاً ، وبياناً بليغاً ، وغرضاً حكيماً ، انتقص طباعه ،

(١) محمد بن يوسف أبو الحسن العامري ورد ذكره في مواضع عدة من المقابسات
والامتاع والمؤانسة ، ويقول عنه التوحيدي « انه من أعلام عصره » .

وذهب عليه أمره ، وتبدد حلمه ، وزال عنه تماسكه ، والتهب كأنه نار ، واضطرب كأنه شرار ، وحدث نفسه بقتله أو نفيه ، أو إغرامه^(١) وابعاده وحرمانه .

[رأي التميمي الشاعر في الصاحب]

وقلت للتميمي الشاعر المصري المعروف بالرغيب : كيف ترى هذا الرجل أعني ابن عبّاد؟ فقال : طويل العنان في اللؤم ، قصير الباع في الكرم ، وثاباً على الشر ، مقعداً عن الخير ، كافرأً بالنعم ، متحراً بالنقم ، جباهاً بالمكروه سفيهاً في الجملة ، خليعاً في التفصيل . فقلت : أين هو من صاحبكم بمصر أعني ابن كلس؟ فقال : ذاك رجل له دار ضيافة وله زوار كالقطر ، لا يعرف مَحْكاً ولا لجأً ، ولا مجادلة ، ولا كيداً ، ولا مخاتلة ، يُعطي على القصد والتأميل ، والرجاء والتسوّج ، والطمع والطلب ، وسائر الوسائل عنده بعد هذه الاوائل فضل يستحق به الزيادة ، وليس هناك امتحان ولا محاسبة ، ولا احتجاج ولا تعسير . المال مصبوب ، والخازن قائم ، والمفرق مجرف^(٢) ، والنداء عال ، والواصل موصول ، والمؤمل مشكور ، والراحل شاكر ، ووزارة ذلك نيابة عن خلافة ، ووزارة هذا خلافة عن عمالة .

[عطاء الصاحب]

هل ترى هاهنا صلة ترتفع عن مائة درهم إلى الف ؟ أليس أنبل من ورد

١٠ . أغرمه : ألزمه بوفاء الدين .

(٢) جرف جرفاً جرفة : ذهب به كله أو أخذه أخذاً كثيراً .

عليه البديهي^(١) وهو شيخه في العروض ، وعنه أخذ القوافي وفتحه وهداياته؟ قال الشعر، هل زاده في طول مقامه إلى رحيله على خمسة آلاف^(٢) درهم تفاريق ، وإن أقل ضيف بمصر يصير اليه مثل هذا في أول يوم . وقد سألت جماعة من سادة الناس عنه ، وحصلت عن كل واحد منهم جواباً سيمر بك فيما يستقبل ، واذكر هاهنا أشياء حدثني بها بطاتته وخدمه .

[حديث أبي بكر الجرفادقاني]

حدثني الجرفادقاني أبو بكر ، وكان كاتب داره قال : يبلغ من سُخْنَةِ^(٣) عين صاحبتنا أنه لا يسكت عملاً لا يعرف ، ولا يُسالم نفسه فيما لا ينبغي به ، ولا يكمل له ، ويظن أنه إن سكت عنه نُطِنَ لنقصه ، وإن احتال وموّه جازاً ذلك وخفي واستتر ولم يظهر ، ولم يعلم أن ذلك الاحتيال طريق إلى الإغراء بمعرفة الحال . وصدق القائل : كاد المرعب يقول خذوني . قلت له : وما الذي حدّك على هذه المقدمة ؟ قال: قال لي في بعض هذه الأيام : ارفع حسابك فقد أخزرتهُ وقصرتَ فيه ، واغتنمتَ سكوتي وشغلي بتدبير الملك ، وسياسة الأولياء والجند ، والرعايا والمدن وما عليّ من أعباء الدولة ، وحفظ البيضة^(٤) ، ومشاركة الأطراف النائبة والدانية ، باللسان والقلم والرأي والتدبير والبسط والقبض ، والابرام

(١) علي بن محمد أبو الحسن البديهي الشاعر ، راجع ترجمته في اليقظة ٣٠٩/٣ وفي تاريخ بغداد ٨٣/١٢ .

(٢) في الأصل : « خمسة آلاف » .

(٣) سخنة العين : تقيض قرتها . وقرت عينه : هدأ واطمأن .

(٤) البيضة : ساحة القوم وحوزة كل شيء .

والنقض ، وما على قلبي من الفكر في الأمور الظاهرة والغامضة . وهذا
لعمري باب مُطمع ، وإمساكي عنه مفرج بالفساد مُولع ، فبادر عافاك الله
إلى عمل حساب بتفصيل باب باب تبين فيه أمر داري وما يجري عليه دخلي
وخرجي . قلت له : وهذا كله تثبيت قوله هات حسابك بما تراعيه ،
قال : إي والله ! ولقد كان أكثر منه وإنما اختصرته . وصدق هذا
الكتاب ، كان يأخذ طرفاً من الحديث فيمدّه إلى الملل بالغمثاة والجهل
والهذّر^(١) . قال أبو بكر : فتفردت أياماً وحررت الحساب على قاعدته
وأصله والرسم الذي هو مألوف بين أهله ، وحملته إليه فأخذه من يدي وأمر
عينه فيه / من غير تثبيت أو فحص أو مسألة ، ثم حدف به إلي وقال : [١٣ب]
أهذا حساب ؟ أهذا كتاب ؟ أهذا تحرير ؟ أهذا تقرير ؟ أهذا تفصيل ؟
أهذا تحصيل ؟ والله لولا أنني قد ربيتك في داري ، وشغلّت بتجريبك
ليلي ونهاري ، ولك حرمة الصبا ، ويلزمني رعاية الآباء لأطمئنتك هذا
الطومار^(٢) ! وأحرقتك بالنفط والنار ، وأدبت بك كل كاتب وحاسب ،
وجعلتك مثلة لكل شاهدٍ وغائب ، أمثلي نيموه عليه ، ويطمع
فيما لديه ، وأنا خلقت الكتابة والحساب ، والله ما أنام ليلة إلا وأحصل
في نفسي ارتفاع^(٣) العراق ، ودخل الآفاق ، أغرك مني أني أجرتك
رسنك ، وأخفيت قبحك ، وأبديت حسنك ، غير هذا الذي رفعت ،
واعرف قبل وبعد ما صنعت ، واعلم أنك من الآخرة قد رجعت ، فزد
في صلاتك وصدقك ، ولا تمول على قبحتك ، وصلابة حذقك ، قال :
فوالله ما هالني كلامه ، ولا أحلك في هذيانه ، لأنني كنت أعلم جهله

(١) سقط الكلام ورديته .

(٢) الطومار والطامور : الصحيفة والجمع طوامير .

(٣) كذا في الأصل .

بالحساب ، ونقصه في هذا الباب ، فذهبت وأفسدت ، وقدمت وأخرت ، وكأبدت وتمممت ، ثم رددته إليه فنظر فيه ، ثم ضحك في وجهي وقال : أحسنتَ بارك الله عليك ، هكذا أردت ، وهذا بعينه طلبت ، ولو تغافلتُ عنك في أول الأمر لما تيقظتَ في الثاني ، فهذا كما ترى ، إعجابٌ منه كيف شئت !

[شتم الصاحب للأبهري]

ومن رقاعاته أيضاً : سمعته يقول يوماً ، وقد جرى حديث الأبهري المتكلم ، وكان يُكنى أبا سعيد فقال : لعن الله ذلك الملعون ، المأبون^(١) ، المأفون^(٢) ، جاءني بوجه مكلّح^(٣) ، وأنف مفلطح^(٤) ، ورأس مسفتح^(٥) ، ودقن مسلّح ، وسُرْم^(٦) مفتّح ، ولسان مبلّح^(٧) ، يكلمني في مسألة الأصلح . فقلتُ له : اغرُبْ عليك غضبُ الله الأترَح ، الذي يلزم ولا يبرح . بالله يا أصحابنا ! حدثوني أهذا عقل رئيس أو بلاغة كاتب ؟ أو كلام متماسك ؟ لمَ تجنونَ به ، وتتهالكون فيه ؟ وتقيظون أهل الفضل

(١) أبنه : اتهمه وعابه والأبنة : العيب والخذ .

(٢) أفن وأفن أفناً : ضعف رأيه .

(٣) كلح وجهه : تكشر في عبوس وكذلك الكلوح .

(٤) فلتح القرص : بسطه وعرضه ورأس فلتاح ومفلطح ومفرطح : عريض .

(٥) سفح : سفك وأراق .

(٦) السرم : الدبر .

(٧) بلح : ييس وجف .

به . هل هناك إلا الجدة الذي يرفع من هو أنذل منه ، ويضع من هو أرفع منه .

ولقد حدثت بهذا الحديث أبا السلم الشاعر فانشدني لشاعر :

سبحانَ من أزلَ الدنيا منازلها
وصيرَ الناسَ مَشْنُوءاً ومَرموقاً
فعاقلٌ فظنُّ أَعْيَتَ مذاهبهُ
وجاهلٌ خَرِقَ تَلْقَامَ مَرموقاً
كأنه من خليج البحر مُعْتَرِفٌ
ولم يكن بارتزاق القوتِ مَحْقُوقاً
هذا الذي تركَ الأبوابَ حائرةً
وصيرَ العاقلَ التَّحْرِيرَ زنديقاً

[حديث المأموني]

وحدثني المأموني عند روايتي هذا الحديث : سمعته أنا يقول على غير هذا الوجه قال : جاءني فلان بهامة مُسَطَّحة ، وأرنبه مُفْلَطَّحة ، ولحية مُسْرَّحة ، وفقحة مُسْلَحة ، وجهه موقَّحة ، وجملة مقبَّحة ، يناظرني في المصلحة ، فممت والله أن أصلبه على باب المسلَّحة ، وباب المسلَّحة بالرعي سوق معروفة . وهذا الكلام الثاني هو الأول ، يسفق^(١) ويؤذي ، ويصبح ويهذي ، ويوم ويدعي ، وقاحة وجهلاً ، وازدراء للناس ، وحقراً لكل من يرى من أهل الفضل والأدب والحُرمة والحسب ، وكان كلفه بالسجع

(١) سفق وجهه : لطمه .

في الكلام والعلم عند الجِدِّ والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه في
هذه البلاد .

[صاحب السجع]

قلت للمسبني : أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك أنه
لو رأى سجمة تنحلُّ بها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتاج
من أجلها إلى 'غرم ثقيل، وكُلْفَة صعبة ، وتجشم أمور ، وركوب أهوال
لكان يخفُّ عليه أن لا يُفرجَ عنها ويخْلِها ، بل يأتي بها ، ويستعملها، ولا يعبأ
بجميع ما وصفت من عاقبتها .

وقال علي بن القاسم الكاتب : السجع لهذا الرجل بمنزلة العصا
للأعمى ، والأعمى إذا فقدَ عصاه فقد أقعدَ ، وهذا إذا ترك السجع
فقد أفحم .

[استرقاع ابن العميد صاحب]

وقلت للخليلي : كيف كان ابن العميد أبو الفضل يقدم هذا ويرشحه ،
وهذا عقله ولفظه وشمائله ؟ فقال : كان يسترقه ويضحك منه ، ولا
يغتاظ ، لأنه كان تحت تدييره ، والرقاعة الخالية من القدرة مقبولة ، وإنما
تضاعف اليوم حديثه في الرقاعة لأنه أصبح بسيط اللسان بالدولة ، مُطاع الأمر
في القرب والبعيد . ونموذ بالله من جنون موصول باقتياد الأمور ،
وطاعة الرجال .

[أبو الفضل بن العميد]

وكان يقول : هو مع هذا الطيش والخفة والتفتل والتثني أفضل من أيه ،

فإن أباه كان ثوراً خوَّاراً ، وحميراً نهاقاً ، وكان أيضاً يقدح ^١ ابنه أبا الفتح ، ويبعثه على الحركة والنطق ، وكان أيضاً مظنوناً به وهو غلام ما بقلَّ وجهه . قال : وأسباب الجَدِّ عجيبة ، وكما لا يدري الانسان من أين تحقق ذلك ، كذلك لا يدري من أين يُنال .

[ابن العميد والصاحب]

قلت للخليلي : أما كان ابن العميد يسمع كلامه ؟ قال : / بلى ، وكان يقول : سجعهُ يدل على الخلاعة والمجانة ، وخطه يدل على الشلل والزمانة ، وصياحهُ يدل على أنه قد غلبَ بالقهار في الحانة ، وما نظرت إليه قط في وقت إلا خِلْتُ أنه قد سقاه الغباوة دواء مذساعة ، وهو أحقُّ بالطبع إلا أنه طيب ، وإن كان له يوم تضاعفُ حَمَقه ، وذهب طيبه ، وضرَّ أهل التَّعم والمروءات والأدب بالحسد والكِبْر والإعنت.

[طالع الصاحب]

قلت للخليلي : هل عرفتَ طالعه ؟ قال : حدثني أصحابنا منهم المرّوي أن طالعه الجوزاء « كط » ، والشعرى اليبانية « كظ » وكان زُحْدُهُ في الحادي عشر في الحمل « كح » ، والقمر فيه « بط » ، والشمس في السنبلة « نج » ، والزهرة فيها « بي » ، والمشترى في الميزان « كد » ، والمريخ في العقرب « ن » وسهم السعادة في القوس « يد » ، وسهم الغيب في الجدي « يذ » ، والرأس في الثالك في الأسد « با » . قال : وخفي عليَّ عطارِد ، وذكر أنه ولد سنة ثلاثمائة وستٍ وعشرين من الهجرة لأربع عشرة

(١) قدح في عرضه : طعن في عرضه وعابه وتنقصه .

ليلة بقيت من ذي القعدة « روزشروس » « من ماه شهرير » قلت : فأين ولدك ؟
فقال : كان عندنا أنه ولد بطالقان ، وقال لنا قوم بل بإصطخر ، وقال
لي غير الخليلي : كان عطارد في السنبلة « ط . ي » .

[التوحيدى عند الصاحب]

و كنت بالري سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، وابن عباد بها مع مؤيد الدولة
قد وردا في مهمات وحوائح ، وعقد ابن عباد مجلس جدل ، وكنا نبيت عنده في
داره بياب سين ، ومعنا الضرير أبو العباس القاضي ، وأبو الجوزاء الرقي ،
وأبو عبد الله النحوي الزعفراني وجماعة من الغرباء .

[الصاحب والشاب السمرقندي]

فراى ليلة في مجلسه وجهاً غريباً صاحب مرقعة ، فأجب أن يعرفه ويعرف
ما عنده ، وكان الشاب من أهل سمرقند زعم أنه يعرف بأبي واقد الكرايسي ،
فقال له : يا أخ ! انبسط واستأنس وتكلم فلك منا جانب وطيب ومشرب
رؤي ، ولن ترى إلا الخير . بيم تعرف ؟ قال : أعرف بدقائق ، قال :
تدق ماذا ؟ قال : أدق الخضم إذا زاغ عن الحق ، فلما سمع هذا تنكّر
وعجب ، لأنه فجيء بيديعة ، فقال له : دع ذا [و] تكلم قال : أتكلم
سائلاً ؟ والله ما بي حاجة إلى مسألة ، أم أتكلم مسؤولاً ؟ فوالله إني لأكسل
عن الجواب ، أم أتكلم مقررأ ؟ فوالله إني لأكره أن أبدد الدر في غير موضعه ،
وإني لكما قال الأول :

لقد عجمتني العاجات فلم تجد

هلو عاً ولا لين الحسة في العجم

وكاشفت أرقاماً فأبدت وصمهم

وما للأعادي في قتلي من وصم

فقال له : يا هذا ما مذهبك ؟ قال : مذهبي ألا أقرّ على الضيم ، ولا أنام على الهون ، ولا أعطي صمتي لمن لم يكن وليّ نعمتي ، ولم يصلّ عصمته بعصمتي . قال : هذا مذهب حسن ، ومن هذا الذي يأبى الضيم طائفاً ، ويركب الهون سامعاً ؟ ولكن ما نحلّثك التي تنصرها ؟ قال : نحلّثي طوية صدري ولست أتقرب بها إلى مخلوق ، ولا أنادي عليها في سوق ، ولا أعرضها على شاك ، ولا أجادلُ عليها المؤمن . قال : فما تقول في القرآن ؟ قال : وما أقول في كلام رب العالمين الذي يعجز عنه الخلق إذا أرادوا الاطلاع على غيبه ، وبمحتوا عن خافي سرّه ، وعجائب حكته ، فكيف إذا حاولوا مقابلته بمثله ، وليس له مثلٌ مظنون ، فكيف عن مثل مُتيقّن ؟ قال ابن عباد : صدقت ، ولكن أمخلوق هو أم غير مخلوق ؟ فقال : إن كان مخلوقاً كما تزعم فماذا ينفعك ؟ وإن كان غير مخلوق كما يزعم خصمك فماذا يضرّك ؟ فقال : يا هذا أبهذا العقل تناظر في دين الله ؟ وتقوم على عبادة الله ؟ إن كان كلام الله ينفعني إيماني به وعملي بحكمه ، وتسليمي لمشابهه ، وإن كان كلام غيره ، وحاشا لله من ذلك ، ضرّني . فأمسك عنه ابن عباد وهو مغيب ، ثم قال له : أنت لم تخرج من خراسان بعد ، فكث الرجل ساعة ثم نهض ، فقال له ابن عباد : إلى أين يا هذا ، قد تكسّر الليل ، بت هاهنا . قال : أنا بعد لم أخرج من خراسان كيف أبيت بالري ، وخرج فارتاب به ابن عباد فقفّاه بصاحب له ، ووصّاه بأن يتبع خطاه ، ويبلغ مداه من حيث لا يظنّ له ، ولا يراه ، فمأراغ الرجل عن باب ركن الدولة حتى دخل ووصل في ذلك الوقت الفاتت إليه ، فقيل لابن عباد ذلك فطار نومهُ من

عينه وقال : أيُّ شيطان هبط علينا ، وأحصى ما كنا فيه بيننا ، وبلغ أربه منا ،
وأخذ حاجته من عندنا بلسان سليط ، وطبع مرید.

[ركن الدولة والخراساني]

فحدثني الهروي وكان بيت عند ركن الدولة أن ركن الدولة قال
للخراساني : كيف رأيت ابنا ؟ قال : رأيت وجهه وجه خنزير ، وعقله عقل
سنور ، وكلامه كلام مبرسم ، وحركته حركة مخرت ، ونظره نظر
فاجر ، ورأيه رأي موسوس ، وأعضائه أعضاء مفلوج . ولقد عشنا
وتعشى معنا فما زال / يذكر القدر والخبز ، والأدم والبوارد ، والفضائر^(١)
والمطابخ، حتى عرقت جباهنا من الحياء والانخزال ، واسترخت أيدينا من
الخجل ، فقال له ركن الدولة : لو علمت أنك هكذا تنقلب عن مجلسه لما
أذنت لك في لقائه، ولكن قد فات . قال الهروي : وكان هذا الكرايسي عيناً
لركن الدولة بخراسان ، فلذلك كان قريباً منه ، وكان أحد رجالات الدنيا ،
ولم يتمكن من مكائده .

[مقارنة بين الصاحب وابن العميد]

وقلت للخليلي : بما انفرج ما بين هذا الرجل أعني ابن عباد وصاحبكم، أعني
أبا الفتح ذا الكفاءتين؟ فقال : كان صاحبنا غيراً ، صعب القياد ، شديد
الزهو ، وهذا على رقاوته التي ترى ، ولم يكن بينهما عاقل يرأب المصدوع ،
ويصل المقطوع ، ويرفع الموضوع ، ويضع المرفوع ، ويرد هذا عن حدته
(١) الفضائر : مفردا غضارة ، وهي الفصعة الكبيرة .

بلسانه ، ويكف ذلك عن تبه واعتنانه (١) ، وقد كان ركن الدولة يكتفهما بظله ، ويكفهما بفضله ، ويخفف لهما جناح إحسانه ، ويمزج بينهما في استخدامه، ويجمعهما على طاعته بصحة رأيه ، وحسن مداراته ، ونفوسهما على ذلك تعالي ، وصدورهما تفيض ، والألسنة تكي ، والحواجب تتغامز ، والشفاه تلتوي ، والأعين تحتلج ، والوشاة تدب ، والزمان يعمل عمله ، فلما مضى سائسها تفارقا الفرحة ، وتنازعا الرتب ، فكان ما كان . قلت : ما الذي كان ينقم هذا من ذلك ، وذلك من هذا ؟ فقال : كان صاحبنا يقول : أشد ما علي أن خصمي معلم مأبوت ، وكان هذا يقول : كيف أسامي حدثاً صغير الرأس ، كليل اللسان ، قليل المهمة ، الخير عنده حرام (٢) ، والدرهم في نفسه رب ؟ وكان ينشد فيه :

فتى يمنع الطعام لا يمنع الحرم
فجمع النساء الخيل ، والمطبخ الحرم

فهذا هذا .

[كتابة الصحاب]

قلت لأبي عبيد الكاتب النصراني ببغداد ، وكان سهل البلاغة ، حلو اللفظ ، حسن الاقتضاب ، غريب الإشارة ، مليح الفصل والوصل : كيف ترى كتابة ابن عباد ؟ فقال : هي شوهاء ، فيها شيء في غاية التبع ، وفيها شيء في غاية الركاكة ، وبينها فتورٌ راكدٌ بمذاهب المعلمين الخلق المتعاقلين أشبه منها بمذاهب السلف الأولين من الكتاب وأصحاب

(١) العتن : عنته يعتنه : دفعه دفعاً شديداً غنياً ، واعتن على غريمه : اذاه وتشدد .

(٢) في الأصل « حر » ولعل الصحيح ما أثبتناه .

الدواوين . قال : السجع الذي يلجج به هو مما يقع في الكلام ، ولكن ينبغي أن يكون كالطراز في الثوب ، والصنفة^(١) في الرداء ، والخط في القصب^(٢) ، والملح في الطعام ، والخلال في الوجه ، ولو كان الوجه كله خالاً لكان مقلياً . قال : وبديمه في هذا الفن لا يستر ركاكته في سائر فنون الكلام ، فان فنون الكلام محصلة على التقريب بين البدد والسجع ، والوزن وما يسميه قوم تجنيساً وتطبيقاً . قال : ومنها شيء يجب أن يسمى المسلسل وأمثله في كلام أبي عثمان موجودة . ثم قال : والذي ينبغي أن يُهَجَّرَ رأساً ، وُيرَغَّبَ عنه جملة التكلف والاعلاق ، واستعمال الغريب والعويص ، وما يستهلك المعنى أو يُفسده أو يُجِيلُه ، وينبغي أن يكون الغرض الأول في صحة المعنى ، والغرض الثاني في تَحْيِيرِ اللفظ ، والغرض الثالث في تسهيل النظم وحلاوة التأليف ، واجتلاب الرونق ، والاقتصاد في المواخاة ، واستدامة الحال ليستمر الثاني على الأول ، والثالث على الثاني ، وأن تتوقى الفضاء الذي يعرض بين الفصل والفصل . قلت : ما معنى الفضاء ؟ قال : عدم الرباط بين المتقدم والمتأخر وهو النبوء العارض في النفس عند سماعه وتحصيله : قال والمُجَنَّةُ التي ليس بعدها هجئة ، والركاكة التي ليس فوقها ركاكة الولوع بالغريب وما يُشكَل فيه الاعراب ويتجاذبه التأويل ، فان هذا وما شاكلة كلفة على النفس عند سماعه ، ومؤونة على الطبع عند تحييره ، ومشقة على اللسان عند اللفظ به .

(١) في الأصل الصنيفة والصنفة : حاشية الرداء والثوب أو جانبه الذي لا هذب له أو الذي فيه هذب .

(٢) القصب : ثياب ناعمة كتان .

[الأسلوب المثالي]

ثم قال : فخيرُ الكلام على هذا التصفح والتحصيل ما أيده العقلُ بالحقيقة ، وساعده اللفظ بالرفقة ، وكان له سهولة في السمع ورَّع في النفس ، وعذوبة في القلب ، وروح في الصدر ، وإذا ورَدَ لم يُججِب ، وإذا صدر لم يُنس ، وإذا طال لم يُمل ، وإذا قصر لم يُحقر ، له غنَجٌ كغنج العين ، ودلٌّ كدل الحبيب ، ولذة كلذة الغناء ، وانقياد كانقياد الذليل ، وتيه كتيه العزيز ، وجمش كجمش^(١) الغانية ، ووقار كوقار الشيخ ، وحلاوة كحلاوة العافية ، ولين كلين الصيب^(٢) ، وأخذ كأخذ الحجر ، وولوج كولوج النسيم ، ووقع كوقع القطر ، وريح كريح العطر ، واستواء كاستواء السطر ، وسبك كسبك التبر ، يجمع لك بين الصحة والبهجة والتمام ، فأما صحته : فمن جهة شهادة العقل بالصواب ، وأما بهجته : فمن جهة جوهر اللفظ ، واعتدال القسمة ، وأما تامه : فمن جهة النظم الذي يستعير من النفس شغفها ويستثير^(٣) من الروح كلقها .

[١٦٥]

[أنواع الكتاب]

ثم قال : قال ابن الربيعة : الكتاب سبعة : الكامل ، والأعزل ، والمبهم ، والرِقاعي ، والمخيل ، والمخلط ، والسكيت^(٤) .

(١) الجمش : الصوت الخفي .

(٢) الصيب : الصبوب والعسل الجيد .

(٣) السكيت : آخر خيل الحلبة ، وإنما قيل له سكيت لما يعلو صاحبه من

الذلل والسكوت .

فأما الكامل : فهو الذي له في الانشاء والاملاء حظ .
والأعزل : الذي 'يملي ولا يكتب .
والمبهم : الذي يكتب ولا 'يملي .
والرقاعي : الذي يبلغ في الرقاع حاجته ، ولا يصلح لعظم الكتابة .
والخيل : الذي له عارضة ، وبيان ، ورواية ، وانشاء ، ويُعرف بالآداب ، ولا طبع له في
الكتابة ، وإذا كان عاقلاً صلح لمنادمة الملوك .
والخُلُط : الذي 'يرى له في الكتاب الواحد بلاغة " جيدة ،
وفدامة (١) عجيبة .
والسُكَيْت : المتخلف المتبذل ، وربما جاء بالكشيء المحتمل إذا
تعنى (٢) فيه .

[مكان الصاحب]

قلت له : فمن أيهم ابن عبّاد ؟ قال : هو مُشْكل ، لا يجوز أن تهضمه
فتضعه في أسفل سافلين ، ولا يجوز أن تغلط فيه فترفعه إلى أعلى عليين ،
ثم تضعه بين هذين أين شئت ، على أنه على كل حال 'جبلي' ! قلت له : قد
استمرّ قولك بما لو كان تصنيفاً لك لساغَ وبقي تمامه في كلمة ، هذا وقت
المسألة عنها ومعرفة الحال فيها ، قال : 'قل' فقد استرسلنا في الحديث
وتبائسنا كل ضمير .

(١) القدم : العي عن الكلام في ثقل ورخاوة وقلة فهم وفطنة .

(٢) عنا يعنو : بذل مشقة .

[رأي في القرآن]

قلت : كيف ترى كتابنا، أعني القرآن، وأنت رجل قد أشرفت على غاية هذا الباب ، واستوعبت جميع ما فيه ؟ قال: ذلك كلام ليس فيه أثر للصنعة ، ولا علامة للتكلف ، وهو كلام منسكب انسكاباً ، وجارٍ جرياً ، يزيد لطفه على الطبع بقدر ما يزيد الطبع على التصنع ، قليله كثير ، وكثيره غزير ، ومعناه أقوم من لفظه ، ولفظه أرسق من وزنه ، ووزنه أعدل من نظمه ، ونظمه أحلى من نثره ، وبمجموعه أهي من مفرقة ، ومفرقة أطرف من مجموعته ، وبعضه أغرب من كله ، وكله أعجب من بعضه ، وهو شيء يستوي فيه تعجب الجاهل وتخير العالم ، ويستعلي الذهن ، ويستغرق الفهم ، ويحجب الروية عن الإدراك ، ويردّها إلى البديهة في التسليم . وهذا يصح ويبين لمن كان ذا أداة تامة ، وعقل ثابت ، وعلم غزير ، وطبع سجيح (١) ، وبصرٍ بالجواهر صحيح ، ومعرفة بالصورة والصورة ، وتمييز بين الحال والحال، ورفق (٢) فيما تريد البيان عنه ، لا تحمله ما لا يطيق ، ولا تحتمل له ما لا يجب ، ويكون في جميع ذلك كالطيب الحاذق ، والناصح المشفق .

قلت له : أفما يكون هذا كله ، وما هو عتيدُ عندك داعياً إلى الايمان به ، والتصديق لصاحبه ؟ فقال : أتراني لا أنصح لنفسي في قضاء الحق عنها مجتنباً للسعادة ، كما أنصح لها في اقتضاء الحق لها مكتسباً للزيادة ؟ بلى والله ! ولكن وراء هذا ما يُشكل ، ويُعضل ، ويُطول ، ويُمل .

(١) السجيح : اللين السهل .

(٢) الرفق بالكسر : ما استعين به .

وكان هذا الرجل ممن يدون كلامه كما يدون كلام أبي هلال الصائغ^(١) ، [قال ينصح] صاحباً له : يا هذا انفع صاحبك على كل حال وإن ضرك ، وزينته وإن عرك ، وحسن به ظنك وإن عرك^(٢) .

[ولع الصاحب بالسجع]

وما يدل على ولوع ابن عباد بالسجع ، ومجاوزة الحد فيه بالافراط ، قوله يوماً : حدثني أبو علي بن بش ، وكان من سادة الناس . جعل السين شيئاً .

ومر في الحديث وقال : هذه لفة ، وكذب ، وكان كذوباً . وكان أبو مالك مرة^(٣) بين يديه ، [فقال له :]^(٤) إنما أنت خط وخط فقط ، وقبت^(٥) أطرافه بجر كاته تخشاً وتأثناً .

وقال لعبد الله المعلم وقد أنشده : يا عبد الله أنت طويل النفس ، عتيق القوس ، شديد المرس . وقال لشيخ من خراسان في شيء جرى . والله لولا شيء لقطعتك تقطيعاً ، وبضعتك تبضيعاً ، ووزعتك توزيعاً ، ومرعتك تمزيعاً ، وجزعتك تجزيعاً ، وأدخلت في حر أمك ، ثم وقف وقفة وقال : جميعاً .

(١) أبو اسحاق ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن زهرون الصائغ ولد سنة ٣١٣ هـ .
تأبقة عصره في الأدب والانشاء تولى دواوين الرسائل زمن البويهيين كان متعصباً لدين الصابئة
وكان الصاحب بن عباد يجه ويتعصب له توفي سنة ٣٨٣ هـ .

(٢) يبدو أن في الأصل قصاً .

(٣) في الأصل « أنت » ولعله غلط من الناسخ .

(٤) في العبارة قص ولعل الصحيح ما أثبتناه .

(٥) كذا في الأصل .

وملح هذه الحكاية ينثر في الكتابة ، وبهاؤها ينقص بالرواية دون مشاهدة الحال ، وسماع اللفظ ، وملاحه الشكّل في التحرك والتثني ، والترنح والتهادي ، ومدّ اليد ، وليّ العنق ، وهزّ الرأس والاكتاف ، واستعمال جميع الاعضاء والمفاصل .

وقلت لابن القصار الفقيه : لو ناظرته ، وكان يذهب مذهب القلاسي . فقال : الرجل كلف بالذهب ، والكلف لا يفهمك ما يقول استكباراً عليك ، ولا يفهم ما تقول استحقاراً لك .

[صورة هزلية]

وطلع عليّ يوماً في داره ، وأنا قاعد في كسر رواق أكتب له شيئاً قد كادني (١) به ، فلمّا أبصرته قمت قائماً ، فصاح بجليق مشقوق أقعد فألور أقون أحسّ من أن يقوموا لنا ، فهمت بكلام فقال لي الزّعفرانيّ الشاعر : احتمل فإن الرجل رقيق فغلب عليّ الضحك ، واستحال الغيظ تعجباً من خفيته وسخفه لأنه قال هذا وقد لوى شدقه ، وشنّج أنفه ، وأمال عنقه ، واعترض في انتصابه ، وانتصب في اعتراضه ، وخرج في مسك مجنون / قد أفليت من دير جنون . والوصف لا يأتي على كنه هذه الحال لأن حقائقها لا تدرك إلا باللحظ ، ولا يُوتى عليها باللفظ ، أفهذا كله من شمائل الرؤساء ، وكلام الكبراء ، وسيرة أهل العقل والرزانة؟ لا والله ! وتربّأ لمن يقول غير هذا .

(١) كآده بالشيء : كلفه به .

[مخازي صاحب]

وسمعت الخثعمي الكاتب ، كاتب علي بن كاته يقول : مارأيت في طول عمري ، مع علو سني ، وكثرة تجاربي ، وشدة تتبعي رجلاً أجمع للمخازي والمقايح والرقعات والجهالات والحساسات والفواحش والخبائث من ابن عبّاد ، أفيلد الناس رأياً إذا ارتأى ، وأنكلكم عن الخصم إذا تراءى ، وأقلهم وفاء لمن جعله الله ولي نعمته ، وأوقحهم وجهاً مع كل إنسان ، وأحدثهم لساناً بكل خنّي وفحش ، وأحسدّم نظير ، ولن دون النظير ، وأسعاهم بالفساد على الصغير والكبير ، وأخطبهم^(١) على الدين وأضرّهم للمسلمين ، وأفجرهم من بين العالمين . فقلت له : ما الذي يمدّه على ما هو فيه ، وبأي شيء يطرد له ما هو عليه ؟ فقال : لم يبقَ فيمن فوقه من يتقدّم ، ولا فيمن دونه من يزاحم ، فقد خلا له الجو فهو بيض ويصفر ، ويتمطّي ويَبُوع^(٢) ، ويقول سبماً في ثمان ، لم يذلّ لأحد وذلّ له كلُّ أحد ، وأمر كل إنسان وما نهاه إنسان ، وضرّع إليه كلُّ محتاج وما احتاج إلى غيره ، نشأ على البطر والحُبُون^(٣) ، وعلى الخلالة والمجون ، فهذا وأشباهه فسدت أخلاقه ، وساء أدبه ، وبدؤ لسانه ، ووقع وجهه ، وغلط في نفسه غلطاً شديداً ، وأعجب برميته إعجاباً بعيداً ، وهكذا يفسد كلُّ من فقّد الخطّيء له إذا

(١) كذا في الأصل ولعلها من الخطب ، وهو الأمر المكروه .

(٢) باع ، يبيع : بسط يده ومد باعه .

(٣) رجل أحبب : منتفخ البطن خلقه أو من داء ، وبه حين وقد أجنبه كثرة أكله

أو داء اعتراه وخرجت به جيون وهي دمايل مقيحة .

أخطأ ، والموبخ له إذا أساء ، والمقوم له إذا اعوج ، لا يسمع
إلا : صدق سيدنا ، وأصاب مولانا ، وما له في الزمان ثانٍ ، ولم
يُعرف فيمن تقدم له نظير ، رجل هذه المملكة الواسعة العريضة على ماترى
من التمكّن والاستلاء وهو لا يحصل شيئاً من خراجها وعمارتها ،
ولا ينظر في مصلحتها ومفسدتها ، ولا يعرف المختلس منها ولا الضائع ، بين
الناظرين فيها أعمال باثرة ، وبلاد غامرة ، وأموال محتجئة ، وطمع
مستحكم ، وضعف غالب ، وعدو راصد ، ووقت فائت بالفرص ،
وخوف مؤذن بسوء العاقبة ، وهو قاعد في صدر مجلسه يقول : قال
شيخنا أبو علي وأبو هاشم ، تارة يتطلّس ويتعمّم ويتلحّى وينظر العامة
هذا البقال ، وهذا الخباز ، وهذا الخلقاني^(١) ، وهذا الاسكاف
بالفارسية إما بالدرية وإما بالرازية وإما بغيرهما ، ويرى أنه في شيء مهم ، وأنه
في شر مذهب ، ونصرة دين ، وتارة يناغي هذا الأُمرد ، ويمتاب هذا
الخادم ، وينشد الشعر البارد الذي يورث الفالج :

أبا يوسف إن العثانين آفة^(٢)

على حاملها فاتخذت لحيّة قصدا

ولا تك مشغوفاً بسحب فصولها

ولا تولها إلا الإبادَةَ والحصدا

وينشد :

قد استوجب في الحكم سليمان بن مختار

(١) أخلق الثوب : بلي والخلقاني : بائع الثياب العتيقة .

(٢) العثانين : مفردهما عشون وهو اللحية .

بما طوّل من حيّته التحريق بالنار
أو التّف أو الجزّ أو النّشر بمنشار
وقد صار بها شهراً من راية يطار

[نوادر مجونية]

فإذا ملّ الشعر قال : قال سعيد بن حميد لأبي هفّان : لئن ضرطتُ عليك
ضرطة لأبلغنك إلى فيد^(١) ، فقال أبو هفّان : زدني أخرى تبلغني مكة
فاني صرورة^(٢) ؟ أتدري يا أبا فلان ما الصرورة ؟ وكلمة فيها ، وما
أصلها ، وما نظيرتها ؟

ويقول : ضرب المتوكل على فقحة^(٣) عبادة فضرطه ، فقال : ويحك
ما هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين خليفة يقترع باب قوم فلا يجيئون !

ويقول : مرّ بعلي بن الحسن العلوي رجل عباسي مأبون فقال : من هذا ؟
ف قيل : هذا تيس الجن ، فقال : ينبغي أن يقال له نعجة الإنس !

ويقول : جمع مزبّد^(٤) بين قجبة وصديقها في بيت فتعابها ، فأراد أن
يجمعها فامتنت وقالت : ليس هذا موضع ذا ، فسمعها مزبّد فقال : يازانية !

(١) فيد : اسم مكان على طريق مكة .

(٢) صرورة : الذي لم ينجح .

(٣) الفقحة : حلقة الدبر .

(٤) مزبّد المدني أبو اسحق من مشهوري أصحاب النوادر والفكاهة والعبث .
قال التوحيدى عند كلامه عن الجاحظ « وإن هزل زاد على مزبّد » معجم الأدباء ١٦/٩٨ ،

فأين موضعه ؟ أين القبر والمنبر ، والله ما بُني هذا البيت إلا من خدر القحاب
ولا وُزِنَ ثمن خشبه إلا من أثمان نعال اختطفت في شهر رمضان من المساجد ،
وما اشترت أرضه إلا من السرقة ، وما أعرف موضعاً أحق بالزنا فيه منه .
وكان ينشد لابن الحجاج^(١) كل سُخْفٍ ويستجيده وبمجب به . أنشد
له يوماً :

يسألني محمدُ عن أخيه

وعنه وقد بلوتها شديدا

فقلت : كلاً كما جمَّس ولكن^(٢)

أخوك الحقُّ أكثرُ منك دودا

ويقول : امرؤُ القيس والنابغة يقصَّرانِ عن هذا . الفن ويُشيدُ
أيضاً له :

ومُصرفٍ أنفاسَ ليثٍ خادرٍ^(٣)

يصدُرْنَ عن لهواتٍ كلبٍ رابضٍ^(٤)

(١) أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج الكاتب الشاعر الخليع راجع ترجمته
في معجم الأدباء ٢٠٦/٦ ، يتيمة الدهر : ٣١/٣ ، شذرات الذهب لابن
العقاد ٤٢٦/١ .

(٢) جمس : تغوط .

(٣) خدر الأسد في عربته : لزمه .

(٤) لهوات : مفردة لهاة وهي اللحم المشرقة على الحلق في أقصى سقف الحلق . ربضت

الدابة : بركت .

ذِي لَبَّةٍ غَرَوِيَّةٍ (١) الرِّبَا (٢) وَذِي
لَحْمٍ مُصَلٍّ (٣) فِي لُعَابٍ حَامِضٍ
رَثِّ الثِّيَابِ يَجْرُؤُ مَنَّبَتُهُ دَمًا
فَكَأَنَّمَا شَفْتَاهُ شَفْرَا حَائِضٍ
لَمْ أَدْرِ مَاذَا قَالَ ، إِلَّا أَنَّهُ
مَا زَالَ يَفْسُو ضَرْسَهُ فِي عَارِضِي

[أَحَادِيثُ الصَّاحِبِ]

ومن أحاديثه السخيفة التي يتزعم عنها الرؤساء قال : قدم أبو فرعون
الأعرابي،/ وكان يسمى سلمان البصرة ، فنظر إلى بعض آل المهلب على (٤)
قد فرش له، ووصيفته أدماء كأنها ظبية قائمة تذبُّ عنه، فجعل يحدج (٥) إليها، ويحدُّ
النظر فقال له صاحبها: أتشتبهها؟ فقال: إي والذي خلقها ، قال: فهل لك أن تكشف
عما معك بين يدي وتنكحها وأنا أنظر ، فان فعلت ذلك فهي لك ، فلما ألقاها
وأخرج متاعه كأنه عمود البيت وبركَّ عليها، صاح به الناس زرٌّ زرٌّ (٦)،
فأكثروا عليه فاستجيا وقتلوا وولى هارباً والناس في إثره يصيحون فأخذ
برأس متاعه وقال :

[١٦]

(١) غروية : من غري ، وغرا السمن قلبه لزق به من الغرا وهو ما طلي أو
ألصق به .

(٢) الربا : الرائحة .

(٣) صل اللحم وأصل : أنتن .

(٤) غير واضحة في النص .

(٥) في الأصل « يحدج » تصحيف .

(٦) زر القميص : شد أزواره وأدخلها في العرى .

فيا لك من أثيرٍ جُزيتَ شرًّا
أقمته حتى إذا اكفهرًا
واضطربت أعراقه ودَرًا
عادَ إليَّ وجهه مزورًا
أريد جواً ويريد برًّا
كأنه صاحبُ ذنبٍ فرًّا
كأنما ألقم شيئاً مرًّا
وما عليك أن يقال زرًّا

وحدث أيضاً قالُ عبادة : اختصم الحِرُّ والجحرُ في الجلدة التي
بينهما ، فكان كلٌّ يدعيها فتقدما إلى الأثير فقال : ليست لأحدكما ، قالا :
فلن هي ؟ قال : هي لي إذا دخلت حططتُ عليها رحلي ، وإذا خرجت استرحتُ
عندها من كَرَبِي .

وحكى يوماً عن جَحْظة قال : كانت لي جارية ، فجلت ، فقلت لها :
يا ملعونة ! من أحببلك ؟ قالت : مَنْ غرَّقه يا مولاي !
قال : وقيل لعبادة : لم صار الصَّفْعُ بالقرع على القفما ثقيلًا وفي
الجوف خفيفًا . قال : لأنه ينزل على القفا جملة ، ويدخل
الجوف تفاريق .

وكان ديدنه السخفَ والخلاعة والمجون ، والرواية عن مزبَد المدني ،

(١) أبو الحسن أحمد بن جعفر البرمكي شاعر وأديب ورواية للأخبار عرف بالجرأة
والاستهتار ولد سنة ٣٤٧ في بغداد ، وتوفي فيها سنة ٥٤٢١ ، معجم الأدباء ٢/٢٤١ ،
ابن خلكان ٤١/١ ، تاريخ بغداد ٦٥/٤

وأبي الحارث 'جميز' (١) وعباد وحبطة وبصلة باليك ومن أشبه هؤلاء .
وكان يضع أحاديث من الفواحيش على بني ثوابة ويرويها عنهم ، ويسمهم بها ،
وكان القوم معادين منها على ما حدثنا شيوخ جلّة كرماء ، لهم دين
ومروءة ، وكان يتكذب على اليزيديين وغيرهم ، وكان أكثر هذا فيه ،
وإنما كان يتحدث بمثله تبرؤاً وزاهة ، وكان أدنس من الخنزير ، ولثل
هذه الخصال كتب إليه أبو راغب فتى من آل أبي جعفر العتيبي الوزير
بخراسان رسالة هتكتها بها ، وأنا أرويها لتعلم أني لم أفرد بتجنيته ،
والتكبير عليه ، بل كلُّ حرٍّ كريم ، وكلُّ دينٍ مذكور ، وكلُّ ذي
مروءة ظاهرة معي فيما ثوت (٢) عنه وكرهته منه ، فإن لم تعبأ بما تسمع
مني فاعبأ لمن لعله عندك أشف مني ، ولا تتسرع إلى عتبي هذا الرجل بما قد
دوته حتى يتبين الأمر على حقه وصدقه .

[رسالة أبي راغب العتيبي إلى الصاحب]

كتب أبو راغب : أصلحك الله أيها الرجل لنفسك ، فانك إذا صلحت
لنفسك ، صلحت لقريبك وبعيدك ، أما بعد : فإن بُمدَّ صيتك بعثي على
تصفح شأنك ، وتصفحي لذلك وقفني على أحوال كرهتها لك ، وأنفت
منها لمن بلغ درجتك ، واليب منك مضاعف ، واللسان فيك جوال ،
والحقد عليك سريع ، ولولا الحال التي أنت عليها من القدرة والتمكن لكان

(١) في الأصل جيزين ، ويرجع صاحب القاموس والأغاني جميز . وهو من أرباب
النوادر والفكاهة عاصر الجاحظ ودعبل . الأغاني ١/٨٣ ، الجيوان : ٣/٨٤ ، ٥/١٩٢
(٢) ثنا الحديث : حدث به وأشاعه .

العذرُ يناضل عنك ، والتوييح يتبدّد دونك . وما أحسن ما قال شاعر
عصرك في نظمه :

ولم أرَ في عيوبِ الناس شيئاً
كنقصِ القادرينَ على التمامِ (١)

قد خوّلك الله ما يفوتُ ذرعَ همتك ، وآتاك ما يتجاوز اشتطاطك ،
في حكمك من المال والثروة والرئاسة والعلم والقوة والمكانة . ولم يخصك
بهذا كله بسابقة لك عنده ، ولا لحقّ لك عليه ، بل كله تفضل في
الأول ، واختيار في الثاني ، وثواب أو عقاب في الثالث ، ولقد شددت
وسطتي في تعرف أخبارك ، واستغنت كل عين وأذن في معرفة ليلك
ونهارك ، فلم أجد في تفصيل ذلك إلا ما يعصّبُ برأسك العار ،
ويحشد عليك أسبابَ الدمار ، ويكون عاقبتك منه دخول النار ،
لأنك تظهر القول بالوعيد ، ثم تركب كلَّ كبير من أخذ المال المحرّم ،
واستباحة الحريم المصون ، وقتل النفس المؤمنة ، ومساهمة الفسقة
الفجّرة ، وخدمّة الظلمة الفسّمة ، وتقديم أهل الجور
والعبّارة (٢) ، وفي عشر هذا سقوطُ المروءة ، والانسلاخُ من
الديانة ، فإياها المدلُّ بالتوحيد والعدل ! أهذا كله في مذهبك
أو في مذاهب أسلافك مثل واصل بن عطاء (٣) ، وعمرو بن

(١) البيت للعتبي من قصيدة مطلعها : « ملومكما يجيل عن الملام »

(٢) العيار : الكثير التجوال والطواف الذي يتردد بلا عمل يجلي نفسه وهواها .

(٣) أبو حذيفة واصل بن عطاء رأس المعتزلة وإمام التكلين في زمنه ولد سنة ٨٠ هـ في

المدينة وتوفي سنة ١٨١ هـ « ابن خلكان ١٧٠/٢ » .

عبيد^(١) ، وأبي موسى المردار^(٢) ، والجعفرين^(٣) ؟ أما كانوا مع بدعتهم التي شافوا بها وجه الإسلام ، وكادوا بها أهله ، مجتهدين في غير ما أنت به راضٍ لنفسك ومصرّ عليها ، باعتذارك أن الله لا يُخادَع ، ولا منجاة للعبد إلا بالطاعة الخالصة ، والتوبة النصوح ، هذا إذا كان الايمانُ ساكنَ صدره ، والخوفُ من الله متردداً في أقطار فكره ، واليقين بالمعاد عمودَ دينه ، والعلمُ بالجزاء راسخاً في فؤاده . فأما إذا كان عارياً من هذا كله [ب١٦] / فهو الكافر بعينه الذي سمعت به ، وعاقبة الكافرين جهنمُ يصلونها وبئس المصير .

والله ما حركني لنبذ هذا الكلام اليك مَعْتَبَةً عليك ، لأنني لم أتجربك ، ولم أطمع في مالك ، ولا عرفتَ وجحي ، ولا سمعت باسمي ، لكن أبت نفسي أن تقرّ على الجهل بحالك ، وبدخلة^(٤) ما يكون عليه أمثالك فأثرتُ نصيحتك ، فإن النبي صلى الله عليه [وسلم] قال : الدينُ النصيحة ، وما أخوفي أن تكون جرأتك على هتك حرّمات الدين ، ومعارضة الصالحين مع العكوف على الخسران المبين ، إنما قويت وثرّت لأنك شاردت

(١) أبو عثمان عمرو بن عبيد من شيوخ المعتزلة الأولين توفي بمران قرب مكة سنة ١٤٤ هـ زمن المنصور ، تاريخ بغداد : ١٦٦/٢ — ١٨٨ هـ

(٢) أبو موسى عيسى بن صبيح المردار الكوفي من أشياخ المعتزلة وصاحب طريقة المردارية في الاعتزال ، كان شديد التطرف والمغالاة في عقيدته .

(٣) الجعفران : جعفر بن مبشر الثقفي المتوفى سنة ٢٣٤ هـ وجعفر بن حرب الهمداني المتوفى سنة ٢٣٦ هـ ، من رؤساء المعتزلة وعلماء الكلام في بغداد واليهما ينسب مذهب الجعفرية في الاعتزال .

(٤) الدخلة « مثله » : النية والمذهب وجميع الأمر والخلد والبطانة .

على ربك ، كافر من دين نبيك مدع له بلسانك ، شك فيه بفؤادك ، متعجب ممن له اخلاص ، أو له بالدينونة اختصاص ، والويل لك إن كنت بهذا قانماً من نفسك في الحال الاولى ، ثم الويل لك مع الثبور إن كنت جاهلاً بما عليك في الحال الأخرى .

حدثني ، أي أمر أنت فيه على رشد ، وآخذ منه باحتياط ، ما أنت عليه مع الغلمان المرء الجرد ، أم ما أنت مشهور به من الهجانة والسخف؟ ثم تدعي الاطعام للخاص والعام ، وقد شاهدنا فوجدنا على بابك قوماً يضربون بالمقارع وجوه الناس ، ويحطون على رؤوسهم العذاب طرداً لهم وإباداً . أفما هذا بأمرك وعينك وأذنك ؟ فلم تكلف ما لا تقر به ، ولم تدعي ما لا تسلم فيه ؟ لقد وقفنا عياناً من استخفافك بالأحرار ، ووضعك من ذوي الأقدار ، وكفرك بولي نعمتك ، وتعريك من كل شبهة في أمرك ما لو تنفسنا به بين الناس ، أو رسمناه بالقلم في القرطاس ، لكان ذاك زائداً على تمرد فرعون ، وكفر أبي جهل ، وجرأة ديك الجن (١) . لقد قيست مروءتك إلى مروءات قوم قرنوا بالزندقة ، فوجدت مروءاتهم فوق دياتك ، ولقد رأينا قوماً لم يتحلوا بالدعوى تحليك استنفدوا قوتهم في طلب مرضاة مؤلميهم ومنتجمي قطرهم ، وبلغوا من ذلك المبالغ وأنت مع تمكنك ويسارك لم تسمح من الشاة بظلفها ، ثم ملأت الدنيا بقباقاً بالامتنان على الصغير والكبير ، كأنك خالق الخلق ، وباسط الرزق .

انظر ! أيها الرجل أي آخر مؤلك ، والله إنك شديد الثقة وقد قيل :
رب واثق خجل ، أيها الرجل :

ما طار طيرٌ فارتفع
إلا كما طارَ وقَع

(١) عبد السلام بن رغبان الشاعر المحصي المشهور ولد سنة ١٦٦ هـ وتوفي سنة ٢٣٥ هـ .

أما تعتبرُ بما آلَ إليه أمرُ ذي الكفءَينِ مع ذلك التأو^(١) والخنزوانة^(٢) ،
أما رأيتَ بعينك في هذه السنين ما يحدوك على الأخذ بالوثيقة لنفسك ،
وكفَّ اليد عن كثير مما يُوثع^(٣) دينك ، وبهشم أنف مروّتك ،
ويقطع عرق أبوتك ، وبهيج الألسنة على تبكيتك ، ويسط الأيدي
في الدعاء عليك ، ويحشو القلوب تمي زوال دولتك ، فاعظ
بقول الشاعر :

يا أيُّها الباغي على الأحرار
ثقةً بليّن مَقادة الأقدارِ
لا تغترّ بمدى تطاول حينه
فالظلم يقصر من خطي الأعمارِ
والعيش نهلةً واردٍ ولربما
سُدّت عليه مدارج الإصدارِ

وأختم قولي هذا بما قال بعض السلف لأصحابه . قال : أحذركم
الدينا ، وأخوفكم يوم التناد ، يوم لا يُعرف ظمير أمدّ ، ولا ينقطع لشرّ
أمدّ ، ولا يعتصم من الله أحد .
وأرجو أن تسمع ما صدقتُ القول فيه باتصاح ، وتعرف ما تؤتية
بارتياح ، والسلام .

(١) التأو : التكبر .

(٢) الخنزوانة : الكبر .

(٣) وثع : شدخ .

[نوادر الصاحب]

قال : ويقول أيضاً ، قال أبو العيْناء لِحجّاج الكاتب : ابْنُكَ فِي أَي شَيْءٍ هُوَ مِنَ النُّحُو؟ قال : هُوَ فِي بَابِ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ ، قال : هُوَ إِذَا فِي بَابِ وَالِدِيهِ ! ويقول : قِيلَ لِأَعْرَابِي : اشْتَرَى الْأَمِيرُ سِرَاوِيلَ مِنْ فَنَّكَ . فقال : التَّقَى الثَّرِيانُ (١) ! وَيُنْشَدُ :

شَيْخٌ لَنَا يُعْرَفُ بِالْخَلْدِيِّ
يُرِيدُهُ فِي غَلْظِ الْمَرْدِيِّ (٢)
أَدْخَلَنِي يَوْمًا إِلَى دَارِهِ
فَنَاكَنِي وَالْأَيْرَ مِنْ عِنْدِي (٣)

[عودة إلى مخازي الصاحب]

قال الخثعمي : وهو في هذا كله على نَزَقٍ شَدِيدٍ ، وَقَهْقَهةٍ عَالِيَةٍ ، وَتَفَكُّكَ قَبِيحٍ ، وَسِيلَانٍ مَنَكِرٍ ، وَشَتَائِلَ مَنفَعْرَةٍ ، الْوَيْلُ لَهُ ! هَلَا تَرَكَ هَذِهِ السَّخَافَاتِ وَالْحَمَاقَاتِ عَلَى قَوْمٍ يَلْبِقُ بِهِمْ هَذَا النَّمَطَ ، وَأَقْبَلَ عَلَى الدَّوْلَةِ فَظَمَ مَخْتَلِّهَا ، وَسَدَّدَ التِّي لَيْسَ لَهَا مَحْصُولٌ؟ يَا قَوْمَ ! أَيُّ دِينٍ يَصِحُّ لَهُ وَقَدْ

(١) جاء في الفاموس المحيط : التقى الثريان ، شعر العانة ووبر الفروة .

(٢) المردي : خشبة للدفع في السفينة .

(٣) رواية يا قوت :

أدينا المعروف بالكردي

يولع بالفلمات والمرد

قتل آل العميد ؟ وأيُّ وفاء يسلم له وقد سمَّ أولاد بُويَّه الذي هو وليُّ
نعمته ، وحافظُ بهجته ، وباسطُ يده ، وبه نال ما نال ، وبلغ ما بلغ ؟
وأَيُّ مروءةٍ تبقى له وهو يمينٌ بالقليل إذا أعطى ؟ وأيُّ كرمٍ يُمتد فيهِ
وهو يفرُّ الآمل ، ويسجُبُه على الوعد ؟ حتى إذا انتهى فقراً
وضجراً حرَمَه حرماناً يابساً ، وردَّه رداً مرّاً ، وأعطاه شيئاً
قليلاً وقحاً .

[الصاحب وبنو المنجم]

وهل تجد فيمن تقدّم عنده ، ونفق عليه غير ابن المنجم ^(١) ؟ وهو
يبيّثُ بلحيته وهامته ، ويسخرُ منه ، ويضحكُ به ، ويعمل له الشعر في
النوروز والمِهْرَجان وغيرهما ، ويسمعه في نفسه يوم الحفل ، ويطربُ
على إنشاده ويقول : ما أحسنَ شعركَ ، وما أسلسَ طبعكَ ، ويُعطيه
على ذلك ، ويتقدم اليه بالقيادة ، وبكلِّ ما لا يُخَيِّزه الدين والمروءة ،
وكذلك ابن المنجم الآخر أبو محمد جيسُ جاهل ، صلفٌ ، سبيله
وحديثه / أن يقول : وردت على مولانا الصاحب وأنا كالبدر إذا طلع ،
فعشقتني وعشقتني عذارى ، وهامَ بسبي ، ورزقتُ منه ، وخففتُ على

[١٧]

(١) راجع ما ذكره صاحب اليتيمة عن بني المنجم فقد وصفهم بقوله :
« ... وما منهم إلا أمرٌ نجيب ، ولهم وراثةٌ قديمة في منادمة الملوك والرؤساء ،
واختصاص شديد بالصاحب ... وم : هبة الله بن المنجم ، وأبو عيسى بن المنجم ،
وأبو الفتح بن المنجم ، وأبو محمد بن المنجم ، وأبو الحسن بن المنجم » اليتيمة ٣/ ٣٩١ ،
الأوراق للصولي : أخبار الراضي والنتقي ٩، ١١٥، ١٣٧

قلبه ، وحظيتُ عنده ، وكان 'يمجبه' مني ما لا يجوزُ التحدُّثُ به ، وصَدَقَ الخُثَمي في هذا كله . وكان أبو محمد يقول ما هو أكثر مما قال ، وكان مع ذلك في مَسْكَ (١) كلب ، خِسَّةً ، ولؤماً ، وزَقاً ، وطعماً ، رأيتُه يوماً وقد كتب لانسَانِ كتاباً بِمِكنَسَة أخذها منه وجعلها في كُتبه . وقضى لآخر حاجةً بشر باذُنجانات ، والباذُنجان إذ ذاك بالري مائة بدائق .

وقال أيضاً الخُثَمي : وهل يتقدم عنده إلا هؤلاء الهُوجُ الطغام الذين يجوبون الدنيا ، ويدخلون كل مكان ويسخرون فيقولون : فعل مولانا ، وكان مولانا ، وما رأينا مثل مولانا ، وإن رأى مولانا أمكننا من نسخ رسائله ، وكتَّب ألفاظه ، فاذا سمع هذا وأشباهه ، ماعَ وسال ، وترجَّجَ وذابَ ، وأعطى عليه وجاد .

[علم الصاحب]

وقال أيضاً : كيف تدعي له التبريز في كل علم ، وهو لا يعرف النحو إلا ما جلَّ منه ، ومن الكلام إلا ما وَّضَح ، ثم هو في اللغة على تصحيفٍ شديد ، وتخليط كثير ، وفي الأخبار على تمويه لا يخفى على مميِّز ، وقد أفسدَ رسائله بطريقة المتكلمين ، وأفسد طريقة المتكلمين بطريقة الكتاب ، وكذلك النحو واللغة والحديث . وهذا وصف ظاهر لا يدفعه إلا مكابر . وصدق هذا الشيخ ، فاني رأيتُ ابن ثابت البغدادي

(١) الملك : المجلد .

المحدث^١ وقد سأله عشية يوم عن قول النبي صلى الله عليه [وسلم] :
« قوموا صفوفكم فتراصوا ألا يتخللكم الشياطين كأنها بنات الحذف »
ما الحذف؟^(٢) فلم يجبه ، وقال : سأقول لك ، وأخذ في حديث آخر .
قال الخثعمي : وهو مع هذا كله يكذب صراحاً في كل شيء ، يقول : كان
عندنا معلمٌ وسئل عن يوسف أذ كره هو أم أثنى؟ فقال: يوسف يذكر
ويؤث ، ألا ترى إلى قول الله عز وجل : « يوسفُ أعرضُ عن هَذَا
واستغفرِ لي لذنبِكِ^٣ » وقد اجتمعت له العلامتان . وكان هذا ينسبه
إلى إنسان معروف بالأدب ، ولكنه كان يحمق ابن عباد ويث مخازيه ، وكان
هذا يضع عليه نوادر باردة .

[ادعاءات الصاحب]

قال : ويقول : دخلت بغداد فلقيت أبا سعيد السيرافي^٤ ، وعلي بن
عيسى^٥ ، والمراغي^٦ ، وناظرتُ المراغي في عسى ولعل وكاد وغير ذلك

(١) أحمد بن ثابت بن بهية من أهل واسط نزل بغداد وحدث بها ، سمعت منه أحاديث
سنة ٣٥٣هـ « تاريخ بغداد ٤/٥٨ »

(٢) الحذف : ورق الزرع .

(٣) سورة يوسف .

(٤) الحسن بن عبد الله بن المرزبان أبو سعيد السيرافي النحوي تولى القضاء في بغداد وتوفي
فيها سنة ٣٦٨هـ « القهرست ٩٣ » ، ابن خلكان ١٣٠ .

(٥) أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني البغدادي من كبار
النحاة في زمنه ، ولد في بغداد سنة ٢٩٦هـ وتوفي فيها سنة ٣٨٤هـ « طبقات
النحويين للزبيدي : ١٣٠ » .

(٦) أبو عبد الله المغلسي المراغي ، اليقظة ٣/٤١٥ ، الامتاع ١/١٢٩

فبرزت' وذكرت' وأشير إلى بالأصابع ، و'فسح لي في الجامع ، وكذلك
ناظرت' فلاناً وفلاناً وأفدتهم أكثر مما استفدت منهم.

وسألت أنا أبا سعيد عن هذا فقال : سبحان الله ! وسكت استعظماً لهذا
الحديث ونفياً له وهو كما أوما إليه .

[الصاحب والعروض]

وقلت للمرادي : أكان لهذا الحديث أصل ؟ فقال : لا والله . وقال
الخشعمي : وهل يدلُّ ولوعه بالعروض إلا على سوء الطبع ، وقلة التأني ،
وكان أخذها عن البديهي ، وإنما ردُّ شعر' البديهي أيضاً لمثل هذا ، وبلغ من
جنونه عليها ، أعني العروض ، أنه كان يلقيها على كل انسان ، ويطلب' بها كل'
شاعر وكاتب حتى أخذ في هذه الأيام يلقن' غلاماً تركياً ، وآخر قوهياً (١)
وآخر زنجياً ، وكان يظهر بهذا وما أشبهه الخدق والبراعة والتخريج.

[الصاحب والنحو]

ثم ينظر في كتاب « الفصيح »^(٢) و « مختصر الجرمي »^(٣) ويقول :

(١) قوهي : نسبة إلى قوهستان وهي كورة بين نيسابور وهراة قصبتها قان ، وهي
أيضاً بلد بكرمان قرب جيروف .

(٢) الفصيح تأليف أحمد بن زيد بن سيار المعروف بشعلب ، إمام الكوفيين بالنحو
« ٥٢٠٠ — ٥٢٩١ » .

(٣) الجرمي : أبو عمر صالح بن اسحاق البجلي الجرمي ، فقيه نحوي تلمذ على الأخفش
كان يقول عن نفسه : « أنا منذ ثلاثون أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه » توفي سنة ٥٢٢٥
طبقات النحويين للزبيدي ٧٦ — ٧٧

ما رأيت كاتباً يخطيء إلا من هذا ، ولا يلحن إلا من هذا ، وهذا حفظك الله منه مغالطة . إن الكاتب قد يخطيء من غيرهما أيضاً وهو ذلك المخطيء المحرف إذا وزنت كلامه بالقسطاس واعتبرته بالقياس على ما أوضحه العلماء والنحويون . قال : ومن أراد ذلك، بينت له ، فليس الباب دونه منلقاً ، ولا الطريق إليه متعسفاً .

[سخف الصاحب]

ثم قال الخثعمي : وهل مداره إلا على السخف ، والجبّة ، والمكابرة ، والبُهت ، بقول فيمن هو أكتب ، وأعف وأسرى :

‘جحر أبي نصر بن كوشاذ‘^(١)

أوسع من مصرٍ وبنداذٍ

قلت له : هل لك في فيئشة^(٢)

فقال مولاي وأستاذي !

ينشد هذا وهو يتطأ ويقتل يده ويتسيل ويصفق ! أفذه مخايل ذوي الأقدار والرئاسة ، أم مخايل أصحاب الرعاع والسفلة .

[الصاحب وأهل القصص والحديث]

وهل شاع القول بتكافؤ الأدلة في هذه الناحية إلا به ، وكثير المراء والجدل والشك إلا في أيامه ؟ لأنه منع أهل القصص من القصص والذكر

(١) هو أبو نصر خواشاذه الفارسي من رجال العهد البويهي .

(٢) الفيئة والفيش : رأس الذكر .

والزجر والمواظب والرفائق ، ومنع من رواية الحديث - وقال : الحديث حشو -
وتفسير القرآن ونشر التأويل ، وسماع قول الصحابة والتابعين ، وما يُعنى به
من الحلال والحرام ، ويتعلق بجلائل الأحكام ، وطردّهم ونفاهم ، منهم :
ابن فارس^(١) والروباني^(٢) وابن بابويه^(٣) وابن العطار ، وابن شاذان^(٤)
والبلخي وفلان وفلان ، وأجلس النجار ليجتدع الدليلم بالزيدية ، ويزعم
أنه على مقالة زيد بن عليّ ورأيه ودينه ومذهبه ، وزيد - يعلم الله - منه
بريء ، لفسقه وفجوره وتهتكه وظلمه وغضبه ونهيه ، / وقتله النفس المحرّمة ،
وأخذة الأموال المحظورة. أترانا لا نعرف مذهب زيد وأن جميع ما هو فيه مخالف
للدين والاسلام !

وقال الخنعمي^(٥) : زعم أنه إنما منع المذكّرين والقصاص لثلا
يفشو الحشو والتشبيه ، ولثلا يقيسوا عليه الصغير والكبير ، فهلاّ منع من
الكلام والجدل لثلا يفشوّ الاحاد ولا يكثر الشبه .

ثم يجلس لأصحاب الحديث ، وروي ، ويُفسد ، ويكذب ، ويختلق
الأسناد ، ويبتك^(٦) المتن ، فأبيّ عيب لم يظهر به ، ولم يغلب عليه ، وأيُّ

(١) أبو الحسين أحمد بن فارس من أئمة اللغة والأدب صاحب المجلد والصاحي في علم اللغة
ولد سنة ٣٢٩ هـ وتوفي بالري سنة ٣٩٥ هـ .

(٢) نسبة إلى رومي قرية ببغداد .

(٣) محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي أكبر علماء الشيعة في القرن الرابع ،
له مصنفات كثيرة توفي في الري سنة ٣٨١ هـ .

(٤) ورد ذكره في الامتاع ١/ ١٢٩ ، ١٣٤

(٥) اسمه محمد بن عبد الله أو عبد الله بن محمد ، له من الكتب : الشعر والشعراء ،

« الفهرست ١٥٩ »

(٦) بتك : قطع .

خِزْيِي لَمْ يَبِينْ وَلَمْ يَكْثُرْ ، وَأَيُّ فِعْلٍ سَيِّئٍ لَا فِعْلَهُ . أَلَيْسَ هُوَ سَبَبُ كُلِّ قَبِيحَةٍ ، وَفَاتِحُ كُلِّ بَابٍ شَرٍّ ؟ فَمَا هَذَا الْعَلْطُ (١) فِيهِ ، وَمَا هَذَا التَّعَصُّبُ لَهُ ؟ وَمَا هَذَا اللِّجَاجُ بِسَبَبِهِ ؟ أَيْنَ الْعَدْلُ الَّذِي يُدَلُّ بِهِ فِي مَذْهَبِهِ أَنْ يَجُورَ وَيَغْضَبُ وَيَقْتُلُ ؟ أُمُّ مِنَ التَّدِينِ بِالتَّوْحِيدِ أَنْ يَرْكَبَ الْفَوَاحِشَ ، وَيَأْتِيَ الْقَاذُورَاتِ ، وَيَخْلُوَ بِالْأَبْنِ (٢) وَالسُّوَاءَاتِ ، وَيَتَسَنَّمُ الْكِبَايْرَ الْمَبِيرَاتِ ، ثُمَّ يَبْنِي دَاراً يَسْمِيهَا دَارَ التَّوْبَةِ اسْتِهْزَاءً وَسُخْرِيَةً وَسُخْرِيَةً عَيْنِ ؟ أُمُّ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْ يَتَعَاطَى كُلَّ مَنكَرٍ قَوْلًا وَفِعْلًا ؟ إِنِّي لِأُظَنُّ أَنْ مَنْ يَنْصُرَ هَذَا الرَّجُلَ لِأَعْمَى أَصَمٌّ قَدْ أَسْلَمَهُ اللَّهُ مِنْ يَدِهِ ، وَأُجْلَأُ إِلَى الشَّيْطَانِ قَرِينِهِ ؛ أُمُّ مِنَ الْعَقْلِ وَالْمَرْوَةِ وَالكَرَمِ وَالْفِتْوَةِ أَنْ يَقُولَ : أَيْنَ مَائِدَتُنَا مِنْ مَائِدَةِ مَطْرُفٍ - يَعْنِي أَبَا نَصْرٍ مَطْرُفَ بْنَ أَحْمَدَ وَزَيْرَ مَرْدَوَائِجِ الْجَبَلِيِّ ، وَكَانَ أَكْرَمَ النَّاسِ - وَمِنْ مَائِدَةِ الْمَهْلِيِّ ، وَمِنْ مَائِدَةِ ابْنِ الْعَمِيدِ ! وَأَيْنَ طَعَامُنَا مِنْ طَعَامِهِ ، وَأَيْنَ إِطْعَامُنَا مِنْ إِطْعَامِهِ !

[ابن العميد وابنه في نظر الصاحب]

وَكَانَ أَبُو الْفَضْلِ سَيِّدًا ، وَلَكِنْ لَمْ يَشَقَّ غِبَارَنَا ، وَلَا أُدْرِكُ سِرَارَنَا (٣) وَلَا مَسَحَ عِيدَارَنَا ، وَلَا عَرَفَ غَرَارَنَا ، لَا فِي عِلْمِ الدِّينِ ، وَلَا فِي مَا يَرْجِعُ إِلَى مَنَافِعِ الْمُسْلِمِينَ . فَمَا ابْنُهُ فَقَدَ عَرَفْتُمْ قَدْرَهُ فِي هَذَا ، وَفِي غَيْرِهِ ، طِيَّاشٌ قَلَّاشٌ (٤)

(١) العلط : الذكر بالسوء .

(٢) الأبن : جمع أبنة وهي العيب .

(٣) السرار : محض النسب وأفضله ، وسرارة الشيء : أطيبه وخالسه .

(٤) القلاش والأقلش : المحتال .

ليس عنده إلا قاش وقماش مثل ابن عياش ، والمهروي والحواش . يا قوم هذا
كلام من له عقل ورجح إلى رزائة ؟ .

[تفاخر الصاحب]

ثم يقول في مجلسه : أنا الذعاف^(١) لمن حساني ، والجرف^(٢) لمن عصاني ،
والجحف^(٣) لمن عناني أو حرك عناني ، أخصي^(٤) فوق هامة الدهر ،
أين ابن الزيات منا^(٥) ؟ أين ابن خاقان^(٥) من غلامنا ، يعني أبا العباس
الضبي ، ومن علي بن عيسى الحشوي ؟ ومن ابن الفرات^(٦) الأرعن ؟
ومن ابن مقلّة الخطاط ؟ ومن الحسن بن وهب^(٧) الضراط ؟ هل كانوا إلا
دوننا إذا ذكرت سيادتنا ، وشوهدت سعادتنا ؟ ولدت والشعري في
طالعي ، ولولا ريعة لأدركت النبوة ، وقد أدركت النبوة إذ قتت بالذب
عنها ، والنصرة لها ، فمن ذا يجارينا ، ويبارينا ، ويبارينا ، ويبارينا ،
ويضارينا ، ويشارينا ؟ .

(١) الذعاف : ساق الذعاف وهو السم القاتل سريعاً .

(٢) جحف : جرف .

(٣) أخص القدم : ما لا يصيب الأرض من باطنها ، وربما يراد به القدم كلها .

(٤) محمد بن عبد الملك المعروف بابن الزيات الوزير الأديب المنفى «١٧٣هـ—٢٢٣هـ» .

(٥) الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوح أديب وشاعر وزير للمتوكل وقتل معه .

سنة ٢٤٧ هـ .

(٦) أبو الفتح الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات وزير المقتدر بالله العباسي توفي

بالرمة سنة ٣٢٧ هـ .

(٧) الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين ، كاتب وشاعر ، كان معاصراً لأبي تمام .

والبحتري توفي سنة ٢٥٠ هـ .

وكاد الخشعي لا يقطع هذا المجلس لطول ما مرَّ فيه ، وشدة ما أهمه
منه ، فهذا كما ترى .

[المسيبي والصاحب]

وقلت للمسيبي يوماً : لمَ انقطعتَ عن هذا الرجل وقد كانَ مُحسناً
إليك ، مقدِّماً لك ، معجباً بك ؟ فقال : الصبرُ على الرِّقاعة مُعَوِّزٌ ،
ومكاذبة النفس وخداع العقل من الكُلف الشاقة والأُمور الصعبة ، ولعن
الله الرغيف إذا لم يُصَبْ إلا بضعةِ النفس ، وغضاضةِ القدر ، وكذِّ
الروح ، ومفارقةِ الأدب الحسن ، ودنَسِ المرضِ النقي ، وتمزيقِ الدينِ
المعتقد ، وكسبِ الزور المُحْبَط ، وإزالةِ المروءة المخدمومة ، وإني لَسَكَمًا
قال الشاعر :

وإني على عُدْمي لَصاحبُ همةٍ
لها مذهبٌ بين الحجرِ والنسرِ
وإنَّ امرأَ دنياءٍ أكبرُ همةٍ
لمستمسكٌ منها بجبلِ غرورِ

[كلام بذية]

وسمَّته يقول لابن ثابت : جَعَلَك اللهُ بمن إذا خرىء شطَّر ، وإذا بال
قطَّر ، وإذا فَسَا غبَّر ، وإذا شرط كَبَّر ، وإذا عَفَّج (١) عبَّر !

(١) عَفَّج من العَفَج : وهو ما ينتقل إليه الطعام بعد العدة .

وهذا سُخِّفَ لا يَلِيْقُ بأَصْحَابِ الفِرْضَةِ ، وَالَّذِينَ مَشَوْا بِالْمَرْفَةِ ، وَاخْتَلَفُوا إِلَى
الْحَنْدَقِ وَدَارِ بَانُو كِهْ وَالرَّيَّ بَدِ وَالْخَلْدِ (١) .

[التقيح عند الصاحب]

وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : أَنَشَدَنِي صِقْلَابُ (٢) وَابْنُ بَابٍ ، وَقَرَأْتُ عَلَى ابْنِ الْبُوَّابِ ،
وَسَمِعْتُ مِنْ أَبِي الْحُبَّابِ ، وَرَوَيْتُ لِأَبِي الْمُرْتَابِ الدَّبَّابِ كُلِّ شَيْءٍ عَجَابٍ ، وَلَقَدْ
تَجَمَّرَ الْمُهَلَّبِيُّ مِنِّي ، وَعَرَفَ مَعْرَةَ الدَّوْلَةِ فَضْلِي وَأَدْبِي ، وَأَكْبَرَ قَدْرِي ،
وَبَلَغَ الْحَدَّ الْأَقْصَى فِي أَمْرِي !

[انكار الجبر]

وَأَنَشَدَنِي أَبُو ذُلْفِ الْخَزْرَجِيُّ عِنْدَمَا رَأَى مِنْ كَلْفِهِ بِالْمَذْهَبِ وَإِفْرَاطِهِ
فِي التَّعْصَبِ (٣) :

يَا بَنَ عَبَّادِ بْنِ عَبَّاسٍ سِرِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ جِرْهَا
تُنْكِرُ الْجَبْرَ وَقَدْ أَخَذَ رَجِحْتَ فِي الْعَالَمِ كُرْهَا (٤)

(١) أسماء أمكنة للفساد والدعارة فيما يبدو !

(٢) ذكره الجاحظ في البيان ونسب إليه البيت الآتي في العلمين :

وكيف يرجى الرأي والعقل عند من

يروح على أثنى ويفدو على طفل

(٣) نسب البيتان في ياقوت ، وكذلك في التيمية إلى السلمي في هجاء الصاحب ،

ورواية البيت الثاني في ياقوت: تنكر الجبر وأخرجت إلى دنياك كرها

(٤) وجره يجره وجرأ : أسمه ما يكره .

[الصاحب وبنو ثوابة]

وكان إذا نشط واهتز لا يُسمع منه إلا حديث عبادة وجحشويه وأمثال هؤلاء ، وكان يضع على بني ثوابة كل حكاية غشّة فاحشة .

[دفع التهم]

وكان إذا أراد أن ينفي عن نفسه ما يُعرف به قال : قيل لقاضي الفساد : نيك الرجال زينة ، فقال : هذا من أراجيف الزناة .

وقيل لابن ماسويه (١) : الباقلي بقشوره أصح في الجوف ، فقال : هذا من طب الجياع ؛ وقيل للوطي : إن الواط إذا استحك صار حلاقاً (٢) قال : هذا من توليد أصحاب القحباب .

[كلام المجانين]

فأما الذي يدل على كلام المُبرِّسَمين (٣) والمجانين ، / ومن قد شهير بالصرع والماليخوليا (٤) فما سمعته يقول لشيخ خراساني قد دعا به وأكرمه وتوفتر له وكلمه ، فسمعته يقول : ما يجب أن يكون لا يقتضي ، وما يكون فيه لا يجب أن يكون ، وقد يجب أن يكون ما يكون ، ويكون ما يجب أن

[١٨]

(١) يوحنا بن ماسويه الطبيب . راجع أخباره في تاريخ الحكماء للقفطي طبعة ليبك ٣٨٠—٣٩٠ ، الفهرست ٤١١ .

(٢) الحلاق : ألا تشبع الأتان من السفاد ولا تعلق على ذلك وكذا المرأة .

(٣) البرسام : التهاب الحجاب الذي بين الكبد والقلب ، والمبرسم من أصيب بالبرسام .

(٤) السوداء . Mélancolie .

أن لا يكون، وإنما لا يكون ما يجب أن يكون، فيكون ما يجب أن لا يكون، لأن يجب أن يكون ليس في وزن ما يكون ، والكون والوجوب لا يتلازمان، بل يجتمعان ثم يفترقان ، والاجتماع والافتراق عليهما جريان، فلهذا يرى الواجب كائناً ، والكائن واجباً ، وما أكثر من يظن أن الكون متضمن الوجوب، والوجوب متضمن الكون ، وتحصيل الفصل بينها بالنظر من سحر العقل ، وهذا فن لم أجد فيه لمشايقنا شوطاً محموداً ، ولعلي أملي فيه كلاماً بسيطاً بجميع ما يكون شرحاً له إن شاء الله .

[الابتلاء بالصاحب]

فلما خرجنا قلت للخراساني وقد أخذنا في المؤانسة ، وتجاوزنا أطراف الحديث كما قال الشاعر :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا

وسالت بأعناقِ المطيِّ الأباطح^(١)

كيف سمعت الليلة ذلك الكلام في الكون والايجاب؟ فقال: يا خيبي! إما أن يكون هذا الرجل مرجوماً في أيديكم ، أو تكونوا مرجومين في يده ، أما في بلدكم مارستان ! أما للسلطان شفقة على هذا الانسان ، أما له من يأخذ بيده وينصح له في نفسه ، ويكسح هذا الخرف^(٢) من عقله ، إنا لله وإنا إليه

(١) من قصيدة للمضرب وهو عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سلمى ومطلعها :

وما زلت أرجو تقع سلمى وودها

وتبعد ، حتى ابيض مني المسائح

راجع : أمالي المرتضى ٤٥٨/١

(٢) في الأصل « الحر » ولعل المقصود حرارة الغيظ أو غيره .

راجعون. عُمَّ عليّ باسمه عندنا بخراسان (١) به في تلك البلدان، وقد كان والله يلوح خللٌ كبير لقومٍ من أهل العقل والأدب والحكمة من رسائله ورقاعه ، وكانوا يحملون الذنب على الوراقين .

[فلسفة الحق]

وقال يوماً آخر لابن القطّان أبي الحسن الفقيه المتكلم : أيها الشيخ ! أنت على الحق قال : نعم. قال : والله الحق. قال : نعم. قال : فأنت على الله. فقال القصار: الحمد لله على سرعة هذا الانقطاع ، وسطوع هذا البرهان ، ولزوم هذا الحكم . فلما خرج قلنا له : هلاّ فصلت أيها الشيخ وقد عرض بك ، وتضاحك عند الإشارة اليك؟ فقال : وما مناقتي رجلاً لو كان في المارستان مغلولاً لكنت لا آمن جنابته إذا كلمته ، فكيف وهو مطلق مطاع ؟ ونموذ بالله من مجنونٍ قادر مطاع ، كما نموذُ به من عاقلٍ ضعيفٍ معصيّ !

ثم قال : وهذا الكلام من صاحبه سوء أدب ، وضعف عقل ، وخسارة نفس ، واجتلابُ مَقْتٍ ، وقلة دين ، إن الحق ، والحق اسمان يقعان بالاشتراك في اللفظ على معنيين مختلفين وأنا على الحق ، ولكن على الحق الذي ضده الباطل ، ولست على الحق الذي لا ضدَّ له ، والحقُ يُطلقُ على الله ، ويراد به أنه 'مُحَقَّقٌ' ، والحق يُطلق على ما عداه ، ويراد به أنه 'مُحَقَّق' ، والله الحق الحق المحقق ، وما جاوره فهو الحق الحق المحقق ، وإذا قيل في وجه آخر : الله 'مُحَقَّق' فالمراد به غيرُ هذا ، لأنه يُراد به أنه مُثَبَّتٌ موجود ، ومعتقد مشهود له بالوحدة والقدرة ، والحكمة والمشيئة .

(١) في الأصل : «طوسا» وهي غير واضحة .

[انقطاع الصاحب]

وحدثنا ابن عباد يوماً قال : ما قَطَعَنِي إِلَّا شَابَ وَرَدَّ عَلَيْنَا أَصْبَهَانَ
من بغداد يقصدني فأذنتُ له ، وكان عليه 'مرقعة' ، وفي رجله نعلٌ طاق ،
فنظرتُ إلى حاجبي ، فقال له وهو يصمد إليّ : اخلع نعلك ، قال : ولم ؟
ولمي أحتاج إليها بعد ساعة ، فغلبني الضحك وقلت : أترأه يريد أن
يصفعني بها ؟

[علي بن الحسن الكاتب والصاحب]

وقال لي علي بن الحسن الكاتب (١) : هَجَرَنِي فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ هِجْرًا
أُضْرَبِي ، وَكَشَفَ مَسْتَوْرَ حَالِي ، وَذَهَبَ عَلَيَّ أَمْرِي ، وَلَمْ أَهْتَدِ إِلَى
وَجْهِ حِيلَةٍ فِي مَصْلِحَتِي ، وَوَرَدَ الْمَهْرَجَانُ فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ فِي غَمَارِ النَّاسِ ، فَلَمَّا
أَنْشَدَ يُونُسَ تَقَدَّمَتْ فَأَنْشَدَتْ فَلَمْ يَهْسْ لِي ، وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَيَّ ، وَكُنْتُ ضَمَنْتُ
أَيَّامِي بَيْتًا لَهُ مِنْ قَصِيدَةٍ عَلَى رُويِّ قَصِيدَتِي ، فَلَمَّا مَرَّ بِهِ الْبَيْتَ هَبَّ مِنْ كَسَلِهِ ،
وَنَظَرَ إِلَيَّ كَالْمُنْكَرِ عَلَيَّ ، فَطَاطَأَتْ رَأْسِي ، وَقَلْتُ بِصَوْتِ خَفِيضٍ :
لَا تَلُمُ وَلَا تَزِدْ فِي الْقُرْحَةِ فَمَا عَلَيَّ مَحِيلٌ وَإِنَّمَا سَرَقْتَ هَذَا الْبَيْتَ مِنْ قَافِيَتِكَ
لَأَزِينَ بِهَا قَافِيَتِي ، وَأَنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَجُودُ بِكُلِّ عِلْقِ ثَمِينٍ ، وَتَهْبُ كُلَّ
جَوْهَرٍ مَكْنُونٍ ، أَتَرَكَ تَشَاحَّتِي عَلَى هَذَا الْقَدْرِ ، وَتَفَضُّحِي فِي هَذَا
الْمَشْهَدِ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ وَصَوْتَهُ وَقَالَ : يَا بُنَيَّ أَعَدَّ هَذَا الْبَيْتَ ، فَأَعَدْتَهُ ، فَقَالَ :

(١) علي بن الحسن بن حوَلِ أَبُو الْقَاسِمِ كَاتِبُ الصَّاحِبِ ، وَرَدَّ ذَكَرَهُ فِي

طَبَّانُ وَاللَّهِ ، يَا هَذَا ارْجِعْ إِلَى أَوَّلِ قَصِيدَتِكَ ، فَقَدْ سَهَوْنَا عَنْكَ ، وَطَارَ
الْفِكْرُ بِنَا فِي شَأْنِ آخِرٍ ، وَالدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ ، وَصَارَ ذَلِكَ ظُلْمًا لَكَ ،
لَا عَنْ قَصْدِنَا ، وَلَا تَعَمُّدٍ ، قَالَ : فَاعْدَتَهَا وَأَمْرُثَهَا وَأَطْرَبْتُ بِأَنْشَادِهَا ،
وَفَغَرْتُ فِيَّ بِقَوَافِيهَا ، فَلَمَّا بَلَغْتَ آخِرَهَا قَالَ : أَحْسَنْتَ ! إِنْزَمَ هَذَا
الْفَنُّ فَانَّهُ حَسَنٌ الدِّيَابِجَةُ ، وَكَأَنَّ الْبَحْتَرِيَّ قَدْ اسْتَخْلَفَكَ ، وَأَكْثَرَ
بِحَضْرَتِنَا ، وَارْتَفَعَ بِخِدْمَتِنَا ، وَابْذَلَ نَفْسَكَ فِي طَاعَتِنَا ، نَكُنْ مِنْ وَرَاءِ
مَصَالِحِكَ بِأَدَاءِ حَقِّكَ ، وَالْجَذْبِ بِضَيْعَتِكَ^(١) / وَالزِّيَادَةَ فِي قَدْرِكَ عَلَى
أَقْرَانِكَ . قَالَ : فَلَمْ أَرَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا الْخَيْرَ حَتَّى عَرَاهُ مَلَكٌ آخَرَ فَعَمَّادٌ
إِلَى عَادَتِهِ ، ثُمَّ وَضَعَنِي فِي الْحَبْسِ سَنَةً وَجَمَعَ كِتَابِي وَأَحْرَقَهَا بِالنَّارِ وَفِيهَا كِتَابُ
الْفِرَاءِ وَالْكَسَائِنِيِّ ، وَمَصَاحِفُ الْقُرْآنِ وَأَصُولٌ كَثِيرَةٌ فِي الْفِقْهِ وَالْكَلَامِ ،
فَلَمْ يَمَيِّزْهَا مِنْ كِتَابِ الْأَوَائِلِ ، وَأَمْرٌ بَطَرَحِ النَّارِ فِيهَا مِنْ غَيْرِ تَثْبُتٍ
لِفِرْطِ جَهْلِهِ ، وَشِدَّةِ نَزَقِهِ ! أَفَهَذَا يَأْتِيهِمْ مِنْ سِيرَةِ أَهْلِ الدِّينِ أَوْ أَخْلَاقِ
ذَوِي الرِّئَاسَةِ أَوْ مِنْ جِنْسِ مَا يَتَعَادُونَ مِنْ لَهْ عَقْلٍ أَوْ تَمَاسِكٍ ؟ وَهَلَّا طَرَحَ
النَّارَ فِي خَزَانَةِ كِتَابِهِ عَلَى قِيَاسِ هَذَا ؟ فَإِنَّ فِيهَا كِتَابَ ابْنِ الرَّائِدِيِّ^(٢) ،
وَكَلَامَ ابْنِ أَبِي الْعَوْجَاءِ فِي مَعَارِضَةِ الْقُرْآنِ بِرِزْمِهِ ، وَصَالِحِ بْنِ عَبْدِ الْقُدُوسِ^(٣) ،
وَأَبِي سَعِيدِ الْحَصِيرِيِّ مَعَ غَيْرِهِ مِنْ كِتَابِ أَرَسْطَاطَالِيْسٍ وَأَشْبَاهِهِ ، وَلَكِنْ مِنْ
شَاءَ حَقَّقَ نَفْسَهُ .

[١٨ب]

(١) الضبيغ : العُضد .

(٢) أبو الحسن أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي فيلسوف متهم بالزندقة وهو أحد
زنادقة الإسلام الثلاثة أبو العلاء المعري وأبو حيان التوحيدي . ولد سنة ٢٠٥ هـ وتوفي في
بغداد سنة ٢٤٥ هـ

(٣) صالح بن عبد الله بن عبد القدوس ، شاعر حكيم متكلم اتهمه المهدي بالزندقة فقتله
ببغداد سنة ١٦٠ هـ .

[صاحب والأقطع الكوفي]

كان الأقطع المنشد الكوفي يقول كثيراً: لو لم تستدل على جنون هذا الرجل ، وقلة دينه ، وضعف عقله ، إلا بنفأقي عليه لكفى ، لأنني رجل قطعتُ في اللصوصية، فما قولك في لص مقامر؟ أقودُ ، وألوطُ، وأزني، وآثم وأضرب ، وليس عندي من خيرات الدنيا شيء لأنني لا أصلي ، ولا أصوم ، ولا أزكي ، ولا أحج ، ونشأتُ في المساطب والشطوط والفرس (١) والمواخير ، ومشيتُ مع البطالين سنينَ وسنين ، وجرحتُ وخنقتُ وطررتُ (٢) ونقتت وقلت وسلبتُ وكذبتُ وكفرتُ وشربتُ وسكرتُ وشابكتُ وساكنتُ وماحكتُ ودامكتُ (٣) ، ولم يبق في الدنيا منكر إلا أبيتُ ، ولا خنا إلا ركبتُ ، وهو على هذا يغري بي ، ويلجُ معي ، ويؤذيني ، ويمغني من الرجوع إلى بيتي وامراتي ، قد جسني في داره هكذا فاذا اغتلمتُ جلدتُ عميره ضرورة .

وصدق هذا الشيخ ، كذا كان مذهبه وعليه شاخ ، ولكن ابن عباد كان يتعلم منه كلام المكارين ، ومناغة الشحاذين ، وعبارة المقامرين ، ومن بصرَ في اللعب بالكميين ، ويضجر ، ويكفر وينخر ويشق

(١) مفردها فريضة وهي من النهر التلثة ينحدر منها الماء وتصدر منها السفن ويستقى منها ، ومن الجبل ما انحدر من وسطه وجانبه .

(٢) أطر : أغرى وقطع .

(٣) دمك : أسرع في عدوه .

المئزر ، ويزرق في الجو ، وكان لا يجرد هذا عند أحد كما يجده عنده ،
فلذلك كان يتمسك به .

[نوادر الأقطع]

وكان الكوفي هذامع ما وصفناه طبياً^(١) مليحاً نظيفاً ظريفاً فصيحاً ،
وهو الذي حدثنا عن بعض أصحابه في المسطبة قال : قلنا له : إنك تحب
الطيب ، وتلهج بالنكاح وتفرط . قال : فقال لنا : والله ما أقتدي في هذا
إلا ببينا صلى الله عليه [وسلم] فانه قال : حُبِّبْ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثَةَ :
الطيب والنساء قال : قلنا له ؟ ففي الخبر : وجعلت قرّة عيني في الصلاة ، وأنت
لا تصلي أصلاً ، فقال : يا سمعني ! لو صليت لكنت نبياً ، وقد قال صلى الله عليه
[وسلم] لا نبي بعدي !

ورأيت الأقطع هذا واقفاً بين يدي ابن عباد في صحن الدار ، وذاك
أيضاً واقف ، فطلع صالح الوراق فقال ابن عباد حين نظر اليه وإلى
لحيته المشرحة :

ولحية كأنها القباطي^(٢)

فقال الأقطع بلا وقفة :

جعلتها وقفاً على ضُرَاطِي

وكان صالح هذا يقول : أنا من ولد محمد بن يزيد الوزير .

(١) الطب : الحاذق الماهر بصله .

(٢) القباطي : ثياب من كتان منسوبة إلى القبط .

[حفظ شعر الصاحب]

وكان ابن عباد يطالب الأقطع بأن يحفظ قصائده في أهل البيت وينشدها
الناس على مذهب التّوحيح ، وكان يعطيه على كل بيت درهماً ، وإذا لم يُحْكَمْ
ضربه لكل بيت بمصاعب عَجْرَاء (١) ، فكان الأقطع المسكين كل يوم يُضْرَبُ
فقلت له : من كلّفك الصبر على هذا الضرب لإحفظ كما كنت تحفظ ، واريح
الدرام ، وتخلص من الألم فقال : والله لو ضربني بكل عصا في الأرض كان
أخف عليّ من حفظ شعره النَّثِّ ، وانشاد قافيته الباردة ، والله ! وإن شعره
في أهل البيت خرا ! فهذا قوله .

[تصرف مشين]

وكان لا يدع الأقطع لينصرف إلى منزله ، وكان يشكو الشَّبَق (٢) ،
وكانت امرأته تأتيه في كل قليل إلى دهليز الباب وتغيّر ثيابه ، وتصلح أمره
وتحدثه وتنصرف بشيء معه قد جمعه ، فصادف الأقطع يوماً الدهليز خالياً ،
وكانت الهاجرة منعت من الحركة ، فراودها ، وطرحها في المكان المتخبطي
وتقمّمها ، وأخذ في عمله ، فرمقته بعض الستريين فنذا ورفع الحديث إلى
ابن عباد وذكر الحال والصورة ، فهاج من مقيله البارد ، ومكانه الظليل ،
وحسبيته التي قد استلقى عليها حاسراً حافياً قد جعل طرف كفه على رأسه بلا

(١) العصا العجراة : ذات الأبن أي العقدة .

(٢) الشق : اشتداد الشهوة للجماع .

سراويل ، وَلَقَطَ قَدَمَهُ لِنَقْطَا حَتَّى وَقَفَ عَلَى الْإِطْعَمِ وَهُوَ يَكُومُ ، يُولِجُ
وَيُخْرِجُ وَيَرْهَزُ ذَاهِبَ الْعَقْلِ فَقَالَ لَهُ : يَا أَقْطَعُ ! وَبَلَكَ يَا ابْنَ الزَّانِيَةِ إِيشَ
هَذَا فِي دَارِي ؟ فَقَالَ : أَيُّهَا الصَّاحِبُ أَذْهَبَ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ النَّظَّارَةِ ، وَهَذِهِ
أَمْرَاتِي بِشَهْوَةِ عَدُولٍ ، وَعَقْدٌ ، وَقِبَالَةٌ ، أَذْهَبُ أَذْهَبُ [فَأَخَذَ] يَهْدِي وَلَا
يَعْقِلُ حَتَّى أَفْرَغَ وَسِيدِي عَلَى رَأْسِهِ يَضْحَكُ ، وَيَصْفَقُ ، وَيَرْقُصُ ثُمَّ أَخَذَ يَدَهُ عَلَى
تِلْكَ الْحَالِ وَهُوَ يَشْدُو تَكْتَهُ وَابْنَ عَبَّادٍ يَعِينَهُ وَأَدْخَلَهُ إِلَى / مَقِيلِهِ يَمَاتِبُهُ وَيَسْأَلُهُ
عَنِ الْعَمَلِ وَالْحَالِ وَكَيْفَ اسْتِطَابَهُ وَكَيْفَ هَاجَ ، ثُمَّ خَلَعَ عَلَيْهِ وَوَهَبَ لَهُ ،
وَوَهَبَ لَأَمْرَأَتِهِ ثِيَابًا وَطَيِّبًا .

[١١٩]

أفهدنا من المروءة والفضيلة وأدب الرئاسة وآيين^(١) الوزارة؟! أهلكذا كانت
البرامكة وهو لا يرضاهم؟ أم هكذا كان حامد بن العباس ، والعباس بن الحسن ،
وآل الفرات ، وآل الجراح ، وهو لا يزهم بشيء فيمن تأخر . إن من
يستحسن هذا وأمثاله ، ويعذر أهله في الرئاسة والجلالة لضعيف التحيزة ،
سلب المروءة ، وإن من ينظر هذا وشبهه لصفيق الوجه ، قليل المعرفة .

[حلية ابن الزيات المتكلم]

وقال لابن الزيات المتكلم يوماً في مناظرته : لا تعبت بلحيتك ! فقال ابن
الزيات : وما عليك منها؟ هي لحيتي! قال : أنا سلطان ! قال : أفي عهدك
النظر في لحيتي؟ قال أصحابنا : بل قال له : أنا سلطان وإذا خرجت من عندي
ولحيتك على غير الشكل الذي دخلت عليَّ به ظنَّ الناس أني ظلمتك فيها عند
المناظرة والخلاف ، وأنا أحبُّ صياتك وصياتي عند الناس بسببك ، قلت لابن
الزيات ببغداد : كيف رأيت ابن عبَّاد؟ قال : هو كالخبر لا يرجع إليه من
خارج منه .

(١) آيين الوزارة : القواعد أو التفاليد ، فارسية .

[رأي الجيلوهي في الصاحب]

وقلت للجيلوهي الشاعر ، وكان شيخاً له تجربة ومعرفة بأيام الناس ومشاهدتهم^(١) . حدثني عن ابن عباد قال : مغرور من نفسه لمواتة جدّه ، وتصديق ذوي الأظفار في جميع دعواه ، وما أحوجه إلى إناص الناس من نفسه بأحد شيئين : إما بأن لا يدعي الكمال ، أو بأن لا يبكت الرجال ، فلا هو بريء من النقص ، ولا هو غير مستحق للتبكي ، وليس من لا يمكن أن يواجه بالنقص الذي فيه ، وبالتواضع الذي يستحقه على فعله ليد له في السلطان قوية ، وشمس له في الدولة طالعة ينبغي أن يركب هام الناس ، ويأكلهم بلسانه ، فريح الدولة قد تركد ، والضعف يزول ، والحشم يتحول ، وقد يقال وراء ظهره ما يُرَبِّي على ما هو عليه ولو قصر يده على فضله الذي له لم تشل ، ولو وقف قدمه عند غايته لم تزل ، ولكنه يجري طلقاً ثم يكمو ، وينصلت للقراع ثم يئسبو ، ويتناول إلى ما لا يناله ثم يخبو ، وهذا طريق الجاهلين المغترين ، ثم قال : والكذب من آفاته ، وهو خلق يعرُّ المروءة ، ويشين الديانة ، ويسقط الهيبة ، ويجلب الخزي ، ويستدعي المنقث ، ويقرب الموت ، وقل من لهج به إلا كان حنقه فيه ، وما رؤي شيء أحى لنضارة الوجه ، ولهجه العلم ، ولزينة البيان منه . قال : وعلى ذلك فما رأيت رئيساً يحسن ما يحسن من الاحسان ، مردود بالتنكيد لانه ما هتأ قط بنمته ، ولا أمتع بإحسانه ، ولا ترك له يداً بيضاء عند أحد إلا وكرَّ عليها بالتسويد .

قال : وقد شاهدت الناقلين عليه ، والمتقدمين لديه ، ووقفت على مرادم ووسائلهم وأسبابهم وذرائعهم فلم أجد فيهم إلا مخشي اللسان استكف شره بالاحسان كأنحوارزمي وغيره ، أو مرتبطاً لأمر يراد منه لا يني به سواء

(١) في الأصل « مشاهد » تصحيف .

كالهمذاني ومن جرى مجراه ، ملموعاً به 'قرب على ظنة وريية ، وحال زائدة على القبح والفضيحة كفلان وفلان، وم الدم . ولم أجد في ضروب المتوسلين اليه بعد هؤلاء من وصل إلى درهم من ماله إلا يبذل النفس وإزالة العريض ، ومواصلة البُكور والزواح ، واستنشاق الغبار والرياح ، وتجرع الفيظ والكد ، ومزاحمة أهل الجهل والنقص ، ومغالبة ذل الحُجَّاب ، وسوء أدب البواب ، والرضا بالهزء والسخرية ، وما ابيضت له يد عند أحد ، ولا تمت له نعمة على أحدٍ لملكه ، وحسده ، وضجره ، ونكده، وامتنانه وكثرة ذكره لفضله ، ومدحه لنفسه . والعرب تقول في حكها : المتة تزري بالألباء . على أن عطاءه لا يزيد على مائة درهم وثوب الى خمسمائة، وما يبلغ الى الف نادر ، وما يوفي على الالف بديع ، بل قد نال به ناسٌ من عرض جاهه على السنين ما يزيد قدره على هذا بأضعاف ، وعدد هؤلاء قليل جداً ، وذلك أيضاً بابتذال النفس ، وهتك السر ، والافراج عن الدين والمروءة والعرض والانفة .

[غرور الصاحب]

قال : وأيُّ عقل يكون لمن يقول : لم يكن في الدولتين الأموية والعباسية مثلي . وهذا الكلام قد دَوَّنَهُ في بعض كتبه ، وقد حكيتُ هذا بمدينة السلام ، فسمعه قومٌ كرام يرجعون إلى فضل كثير ، وبصائر حسنة ، منهم ابن البقال الشاعر^(١) ، ومحسن ابن

(١) ورد ذكره في الامتاع والمؤانة ١٩٠/٣ ، ١٩٥ ، ٢١٣

التنوخي (١) ، وابن قناش المصري ، فضحكوا وهزئوا وشعثوا عِرضه
وجحدوا محاسنه التي لو سكت عليها لسانت له ولادعي في جملتها أكثر مما
يدعيه لنفسه . ولمعري ما كان له بمن يقدم في الدولتين مثل ، ولا شبيهه ،
ولكن في الخلاعة والمجون ، والرقاعة والجنون . قال : ومن العجب أنه
يدعي العدل والتوحيد وهو لا يفيق من قتل من ظن / به عداوته ، والوقية [١٩ب]
فيه ، أو القدح في رقعة له ، وإن كان ذلك الانسان من
الصالحين العابدين .

[ركاكة صاحب]

ولقد بلَغَ من ركاكته أنه كان عنده أبو طالب العلوي فكان إذا
سمع منه كلاماً يسججُ فيه ، وخبراً ينمقه ويزويه يئسُق عينيه ، وينشر
منخريه ، ويُرِي أنه قد لحقه غشي حتى يرش على وجهه ماء الورد ، فاذا
أفاق قيل له : ما أصابك ؟ ما أعراك ؟ ما الذي تآبك وتغشاك؟ فيقول :
ما زال كلام مولانا بروقي ويؤتقني حتى فارقتني لي ، وزابلني ذهبي ،
واسترخت له مفاصلي ، وتحملت عرى قلبي ، وذهلّ عقلي ، وحيل
بيني وبين رُشدي . فيتهلل وجه ابن عباد عند ذلك ويتنفس ويضحك
عجباً وجهلاً ، ثم يأمر له بالمكرمة والحِباء (٢) والصلة والعطاء ، ويقدمه

(١) المحسن بن علي بن محمد بن داود بن الفهم التنوخي عالم وأديب وشاعر وقاض صاحب
كتاب نشوار المحاضرة ، والفرج بعد الشدة ، والمستجد من فلات الأجواد . ولد في البصرة
سنة ٣٢٩ هـ وتوفي ببغداد سنة ٣٨٤ هـ .
(٢) الحِباء : العطاء .

على بني عمه وبني أبيه . ومن ينخدع هكذا أفلا يكون بمن له في الكتابة قِسْطٌ ، أو في التماسك نصيبٌ ، وهو بالنساء الرُعن ، والصَّبِيان الضعاف أشبهُ منه بالرؤساء والكبار .

[حديث الشاذبائي]

وحدثني الشاذبائي قال : حُجبتُ مدة عنه فضقتُ ذرعاً بذلك ، فان الجاه الذي كنت مددته ازوى ، والأمر الذي قوِّمته تأوَّد ، وأخذت المادةُ تقف ، والحال تنقص ، والذكر يقلُّ ، فأحييتُ الليلَ أرقاً وفكرتُ فيما اعتل ، فقدَحَ لي الخاطرُ بحيلةٍ فأصبحتُ وكتبتُ رقعةً ذكرتُ فيها لمني رجل امتُحِنْتُ بما لم يُمتحن به أحد ، غشيَ بابك ، ونالَ احسانك ، واستمرعَ فِئاءك ، واستحصدَ جنابك .

إني بعد هذا الدأب الشديد ، والنصبَ المتصِل ، والقراءة والنسخ ، والبحث والمنظرة ، والصبر والمناصحة ، قد شككتُ في مسائل الأصول الخمسة التي عليها مدارُ المذهب ، وركن المقالة ، وهذه محنة بل فتنة بل شيء فيه هلاكٌ وخُسران عملي وذهاب عمري فالله الله في ! تداركني فاني من الأموات بين الأحياء ، غريبُ الدار ، خائبُ الأمل ، بائِرُ البضاعة خاسرُ الصَّفقة ، طلبتُ الزيادة على ما كان عندي ، فأتلقتُ ما كان معي . قال : فلما قرأتُ الرقعة قلق في نصابه ، وأقبل على أصحابه وقال : مسكين الشاذبائي ، لقد نزل به أمرٌ عظيم ، وحلَّ به خَطْبٌ جسيم ، دُهيَ في دينه ، وأصيبَ بيقينه ، إنَّ هذا لهو البلاء المبين ، عليَّ به ، هاتوا البائس ، ودُعيتُ فأدنانِي ولاطفي وقال : ما هذا الشكُّ الذي اعتراك ، وأين أنت عن القاضي أبي الحسن حتى يحلَّ ذلك .

قلت : لست أثق الا ببيان مولانا ، ولا عجباً من بيانه ، ولكن العجب من انصافه مع سُلطانه ، وحسن اقباله مع أشغاله . قال : فانفسخ عقده ، وابتل شنه ، واستحال ذلك الملل استظرافاً ، وذلك النبوة استعطافاً . وأقبل يقول : هات ! وأنا أهاتيه هكذا أياماً وليالي ، أتأطر له تارة بالاستحسان والقبول ، وأتمسّر عليه تارة بالتوقف والفتور ، ولا أفارق الكيس والحيلة حتى استنفدت قوته وقوتي له ، ثم قبّلت أطرافه ، وتباكيت وقلت : يا مولانا ! أسلمت على يدك ، ونجوت من النار بإرشادك . فقال : يا أبا علي ! أكثر عندنا ، واقتبس علمنا ، قد دللنا لك الحجاب ، وتقدّمنا بذلك إلى الحجاب ، فاسكن واطمئن ، وطب نفساً وارفاناً^(١) ، ولا تقلق فترجعن . قال : فانصرفت من مجلسه قرير العين ، ممدود الجاه ، مملوء اليد ، ونفسي ريباً بكل أمل ، وتفتّحت علي أبواب الرزق ، وجمعت إجابة^(٢) كبيرة خضراء دنانير . قال الجيلوهي : وحديث هذا الرجل ذو شجون ، على أنك إذا أنصفت لم تجد له نظيراً في دهرك ، ومتى بليت به طلبت الخلاص منه ولو بفقرك . قال : وما أخوفني أني اذا دُفعت الى غيره بعده تمّيته فأكون كما قال الأول :

عتبت على بشرٍ فلهما فقدته

وجرّبت أقواماً بكيت على بشرٍ

هكذا أنشد وغيره ينشد على عمرو ، والصحيح على مسلم . وله حديث .

(١) رفاً : سكن واطمأن .

(٢) الإجابة : إناء تغسل فيه الثياب .

[بين العامة والحجاب]

قال : ومن خواص ما فيه حبه للعامة ، وذلك بقدر بغضه للخاصة ، وقد قال يوماً : أنا أعلم أن الحجاب قبيح وبغيض ، والصبر عليه متعذر ، وهو الذي يُورث العداوة الشديدة ، ويمث على القالة الشنيعة ، ويمحو كل حسنة ، ويهجن كل نعمة ، ويشير كل نقمة ، ويُبدي كل عورة ، ويبرز كل سوءة ، وقد ذهبي الناس منه قديماً وحديثاً ، لكني أتلذذُ به ، ولست أجد طعم هذه المرتبة العلية ، ولا أعرف ثمرة هذه الحال السنية إلا بعد أن احتجب ، وتقف الناس على منازلهم بالباب ، وأعلم أن صدورهم تغلي بالغيظ ، وألسنتهم تجري باليبس ، وأهواءهم تأتلف على القلي والبغض ، فإن الحديث ينخرق بكل معنى الى سوء ، ولكن لا أسمح بحلاوة / الدولة ، وبجلالة الصولة ، وبهيبة المكانة وبما إن سبوت عنه صرت إلى المهانة . قال هذا الشيخ : وهذا قول من قد نصَّ الله على خذلانه ، وأسلمه إلى خبله^(١) ، وأنطقه بلسان إبليس الذي هو عدو الله ، ولا شك ان هذا المذهب من علامات الشقاء في الدنيا ، وآيات الخسران في العاقبة . ولن يُقدم عليه إلا من قد سمح بمرضه ، واستهان بشنيع القالة في نفسه وأبيه وعمه وأسرته وجميع من ضرَّب في مذهبهم بسهم ، وشابهه بوجه .

[٢٠]

[حديث ابن التلاج المتكلم]

وحدثني ابن التلاج المتكلم ، وكان ديناً صدوقاً ، قال : العجب أن ابن عبتاد يدعي أنه قرأ على شيخنا أبي عبد الله البصري^(٢) ، ولقد كذب في

(١) في الأصل : « خوله » ولعل الصحيح ما أثبتناه ، والحبل : الفساد

(٢) راجع : الفهرست ٢٩٤

دعواه ، وفجّر في قوله ، لقد ورد علينا بغداد وهو ينصر ابن كلاب على حد
المتدئين ، فحمله مسكويه إلى ، ودخل الواسطي عليه ، وفتح باب المذهب له ،
ولم يكن غير ذلك .

وكان أبو عبد الله لا يعرفه ولا يعدّه ، لأنه كان لا يدري ما يكون منه ،
ويصير إليه في الثاني^(١) . وما قدر كوثب يرد مع صاحبه لا سر له ، ولا
شهرة ، ولا إفضال ، ولا توسع ، ولا حاشية ، ولا حشم . ودارت
الأيام ، ودالت الأحوال فكتب هذا الشيخ إلى هذا الإنسان بعهد الدين ، وأنا
أبرأ إلى الله من دين هذا عماده .

وكتب هذا إلى ذلك بالشيخ المرشد ، وأي إرشاد كان عنده ، وكيف
يكون مرشداً من ليس برشيد؟ ! وكيف يكون رشيداً من لا يفارق الغي؟ ،
إن كنت تشك في أمره فانظر إلى غلمانه الرازي وابن الغازي ، وابن طرخان ،
والبزاز ، والنصبي أبي اسحاق ، والصيرفي ، والهمداني ، والدامغاني ،
عصابة الكفر ، ما فيهم من يرجع إلى ورع وثقى ، أو إلى مراقبة وحياء
أو هدى .

[مناظرة في مجلس عز الدولة]

ولقد رأيت أبا عبد الله البصري في مجلس عز الدولة ، سنة ستين في
شهر رمضان . والجماعة هنا أبو حامد المروروذوي^(٢) ، وأبو بكر

(١) العبارة غير مستقيمة ولعل في الأصل قصاً .

(٢) أبو حامد أحمد بن بشر البصري المروروذوي القاضي ، عالم وأديب وفقه شافعي
عده ابن خلكان « من أئمة الفقه الذي لا يشق غباره فيه » وهو أستاذ أبي حيان وكان
هذا كثير الإعجاب باستاذة ، توفي أبو حامد سنة ٥٣٦٢ .

الرازي^(١)، وعلي بن عيسى، وابن نَهْهان، وابن كعب الانصاري، والابهرى، وابن طرارة، وابو الجيش شيخ الشيعة، وابن معروف، وابن أبي شيان، وابن قريعة وناس كثير، وهو في إيوان فسيح، في صدره من حضروا من أجله، وأبو الوفاء المهندس^(٢) تقيب المجلس ومرتب القوم، فسئل البصري عن مسألة فأظهر انه في بقية علته، وأنه لا يقدر على الكلام، ثم قام علي بن عيسى الشيخ الصالح وقال: هذا مجلس يُبْتَهَى^(٣) بحضوره لشرفه، ويُفْتَخَرُ بالكلام فيه لكثرة من يعرف ويُنْصَفُ، والمغالطة فيه مأمونة، وليس في كل أوان يتفق هذا الجمع، وبيننا وبين هذا الشيخ يعني أبا عبد الله مسألة من أجلها ومن أجل نظارتها قد استجاز تكفيرنا، وتفسيرنا، والتشيع علينا، وتغير المقتبس مننا، وهأنذا قد ابتدأت سائلاً، فلينصر مذهبه كيف شاء، وإنما هو دين يجب أن نبحت عنه من العارفين. فقال عز الدولة: كلام مُنْصَفٍ، ما أسمع بأساً، ولا أرى ظنة تحثُ بذلك على الجواب، فاصفر أبو عبد الله، وقلقى، وفظن أبو الوفاء، وكان ضلعه معه، وصفوه له فقال بينه وبين الأمير وقال: الشيخ عليل وإنما حضر للخدمة، وبعض غلمانته ينوب عنه، ولا ينبغي أن يتعب فيحمى جسمه، ويُخَافُ نَكْسَهُ، وبصير ما قصد من قضاء حقه في التجميل بحضوره سبباً للتألم.

(١) محمد بن زكريا الرازي فيلسوف وعالم بالطب والموسيقى، تولى رئاسة أطباء البيارستان في بغداد، صنف كتباً كثيرة ذكرها ابن النديم في الفهرست. توفي ببغداد سنة ٣١١ هـ

(٢) أبو الوفاء المهندس البوزجاني ولد سنة ٣٣٦ هـ كان من كبار علماء زمانه «بلغ المحل الأعلى في الرياضيات ومن مشاهير أئمة علم الهندسة» وكان يعطف على أبي حيان التوحيدي وهو الذي أهذاه من برائن الشفاء توفي سنة ٣٧٦ هـ

(٣) انتهى به: افتخر.

ثم أقبل أبو الوفاء على علي بن عيسى فقال : يُكلمك أيها الشيخ من غلمانه من تحب . فقال : لا حاجة لي الى الكلام مع غلمانه ، انما كان الكلام معه هو القصد لان الاجتماع بيننا يقل ، ولان الخصومة تكون معه الفيصل ، وذاك أنه يكتب كلامي سائلاً ، وكلامه مجيباً ، ثم لا نزاع . فأما أصحابه فانهم يكلمون أصحابي وذاك قائم بينهم ، وكانت البُنية قطع المشادة ، وحسن الشغب ، وبلوغ الحد ، واذا وقع الالباء فلا لججاج ، واذا عرف المراد فلا حججاج .

ثم قال عز الدولة : هاتوا شيئاً آخر قبل أن يتصرم النهار بما ليس له درء . وكان فصيحاً ، فأعرض أبو الجيش الخراساني ، وكان متكلم الشيعة . فسأل عن القرآن وقال : أروني من القرآن تنزيهه على هيئته الأولى حين نزل به جبريل على قلب محمد ﷺ وتلاه على أمته بلسانه ، فإني أجد عند حملته اختلافاً كثيراً في تحريفه ، وتصحيحه ، ونقصه وزيادته ، وإعرابه وغريبه ، ووضعته وترتيبه ، ولهذا وأشباهه اختلف في تأويله ، وشك في تنزيهه ، وكثر خوض الناس فيه وفي تفسيره ، والاحتجاج له .

وقد سبق علمي أن كلام الله لا يكون في حكم كلام عباده، وأن ما يجوز على ذلك لا يجوز على هذا لأن الله حكيم كريم ، رحيم ، والحكمة والكرم والرحمة تأبى ما تصفون به كتاب ربكم ، وتستجيزونه في كلام خالقكم . قال : وهذا الذي قلت بين معروف ، القرأة تختلف / ضرباً من الاختلاف، والنقلة تختلف ضرباً آخر ، والفقهاء تختلف على قدر ذلك ضرباً آخر ، وكذلك أصحاب الكلام ، وحتى أفضى هذا إلى طعن الزنادقة فيه ، وانجر عليه قدح الملحدين به .

وقال كلاماً كثيراً من هذا الجنس، فكلهم كناع^(١) عن الجواب ، وكاد

(١) كاع : جبن .

أبو الجيش بعد تذرُّعه بالقول يشمت ويبالغ في التشنيع . فقال عز الدولة :
يا أبا الجيش! أنت في معركة لا مبارٍ لك فيها فافر كيف شئت وذر ،
والله المستعان .

فانبرى أبو حنبلد وتكلم بجلء فيه ومحق أبا الجيش ، ويبيض وجوه الناس ،
فلما خرج قال له محمد بن صالح الهاشمي : لقد دعمت الاسلام بدعامة لا يززعها
الزمان ، ولقد حصنت الدين حصانة الله يحزيك عنها ، ورسوله صلى الله
عليه [وسلم] يكافئك عليها .

ولو أن هذه الرسالة لا تحمل المسألة والجواب بما فيها من فنون القول لأتيت
بالمجلس على وجهه .

[البصري جعل]

فهذا كان اقتدار البصري جعل في المناظرة ، وقوته عند لقاء الخصم ،
ونصرة المذهب والدين ، ولقد كان عيناً عشرين سنة على صاحب بغداد
للصاحب (١) ، حتى آلت الأمور إلى ما عرفه الصغير والكبير بأصحابه ،
أصحاب الحابر والأقلام والكراريس ، ولقد بلغ من قلة دينه أنه صنّف
رسالة ذكر فيها الدلالة على أنه هو المهدي المنتظر ، فإن معنى المهدي
أن الله هداك وهدى أهل العدل والتوحيد ، وأما المنتظر فلأننا كنا
نتظرك في العراق .

وهذه الرسالة مشهورة آخر ما رأيتها عند أبي عبد الله المذهب ، مكتوبة
بالذهب ، وُحملت في جملة الهدايا إلى قابوس .

وسمعت أبا محمد الفرغاني الحنفي يقول : ما خلوت بفكري في أمري ،

(١) في الأصل : ولقد ذكنا عيناً عشرين سنة على صاحب بغداد لصاحب .

وملازمتي هذا الرجل، يعني البصري، إلا ظننت أن الله تعالى يرسل عليّ صاعقة، أو يجعلني آيةً وعبرةً باقية .

[حديث ابن أبي كانون]

وأما ابن أبي كانون ، فاني قلت له يوماً : ما لي أراك واجماً من غير عارض ، وطويل السكوت من غير عي ، وكثير الفكر من غير وسواس ، وشديد الحزن من غير إفلاس ، ليس لك أنسٌ بالجماعة ، ولا تفكُّهُ بالمحادثة ، ولا استمتاع بالمجالسة بعدما عهدتكَ في حدثان مقدمك ، وأنت تتقدُّ كالنار ، وتزخر كالبحر ، وتأرَن كالأمهر ، وتذكو كالعنبر، فقال: ومن أولى بالبال الكاسف ، والغم الطويل ، والأرق الدائم مني ؟ فارقتُ وطني وأهلي وإخواني ومعارفي ، وجميع ما كنت آلفه وأحيا به ، وأشتمُّ روحَ العيش منه ، وتجرعتُ مرارةً بعدي عنهم ، وصبرت نفسي على ما نالهم بخروجي من بينهم ، وسلوتي دونهم ، وما نزل بي بعدهم من جفاء الغربة ، ووحشة الوحدة ، وشظف العيش بالقلّة ، كل ذلك طمعاً فيما أبرّد به غليلَ قلبي في الدين والمذهب ، وأنفي به الحرج من صدري وأسعد، وأن آخذ من هذا الشيخ ما اهتدي به ، وأسكنُ إليه ، وأجعله عدّةً لآخرتي ، والآن قد حصلتُ بعد الدراسة الطويلة والمنازعة الشديدة ، وبعد البحث والنظر ، والكشف والجدل ، وبعد اعتبار هذا الشيخ في نفسه وسيرته ، وما عليه أصحابه والمقدّمين عنده ، على حالٍ عسراء ، وغاية عمياء ، وما أراه إلا صاحبَ دنيا ، يعمل للعاجلة ، ولا أرى أصحابه المطيفين به إلا كذلك ، وإنّ هذا مما يؤلم القلب ، ويفرقُ البال ، ويحشدُ الهمم ، وينفر الناس ، ويوقع اليأس ، فلذلك تراني على غير ما عهدتني عليه .

[حديث ابن بنان الوراق]

وأما ابن بنان الوراق فإني سمعته يقول: لقد خطب^(١) البصريُّ على الإسلام بما لا يقدر عليه الرومُ والترك . قلت : كيف ذاك وأنت لا ترى اليوم يبنغداد مجلساً أبهى من مجلسه لما يجتمع فيه من مشايخ العراق ، وشبَّان خراسان ، وفقهاء كلِّ مِصر ، وما في هؤلاء أحدٌ إلا وهو يصلح أن يكون داعيةً صقَّع ، وإمامَ بلد . فقال لي : صدقت ! فهل تعرف فيهم من إذا ذُكر الله وَجِلَّ قلبه ، واقشعر جلدُه ، واطمأنَّ صدره ، وإذا سمع موعظةً دمعت عينه ، وخشعت نفسه ، أو سمع نسيجه ، وإذا عرضت له منالة عفَّت نفسه ، أو إذا هاجته شهوة اتقى عندها ربُّه ، وإذا لزمه انكارٌ أمرٍ بذل فيه وسعه . أما ترى اللعب والمزاح والسقفة والقحة والتخلج والفسق والفجور فاشية فيهم ، وغالبة عليهم ، وظاهرة بينهم؟
أما لك في الرازي أبي الفتح عبرة ؟ أما لك يا ابن طرخان^(٢) خبرة ؟
فما زال يقول هذا وأشباهه حتى سدَّدت وقطعت عليه .

[أبو إسحاق النصيبي]

وكان أبو إسحاق النصيبي من أفسق الفاسقين ، وهو يلقب بمقعدة . لا أعلم في الدنيا قاذورة إلا أتاها ، / ولا خساسة إلا أظهرها وجاهر بها . هكذا كان يبنغداد ثم بالدِّيَّسورَ عند أبي عمرو كاتب فخر الدولة الأصبهاني . وحديثه بأصبهان مشهور . وكذلك بالصيمرة وكيف أكل في نهار شهر رمضان من غير عذر ، وكيف تهتَّك بمجاعةٍ من الأحداث ، نعوذ بالله من الخذلان .

[٢١]

(١) خطب : أنزل الخطب أي الفساد .

(٢) هو الفيلسوف الإسلامي المشهور أبو نصر الفارابي «ولد سنة ٢٦٠هـ وتوفي سنة ٣٣٩هـ» .

[حديث أبي سليمان السجستاني]

وحدثنا أبو سليمان محمد بن طاهر السجستاني ، وكان بعيداً من التزيد ، شديد التوقّي قال: حضرت' وليمة في قطيعة الربيع ، فلقيني فيها البصري أبو عبد الله فجلس إلى جانبي ، وتصرف في الحديث معي ، وأرخى عنانه إليّ إلى أن قال لي: يا أبا سليمان هل وجدتم في فلسفتكم شيئاً تسكنون إليه ، وتعتمدون عليه ؟ فأنا من الكلام ومذاهب أهل الجدل على غرور . قال : فسكنت منه من أجل الموضع وقلت :

النّاس أخيف^(١) وشتّى في الشيم

وكلّهم يجمعه بيت الأدم

فقال: آخر ما عندي أن الأدلة تكافأ، وأن المذاهب والآراء والتجمل جارية بين أربابها على قوة السانح وضعفها ، وجودة العبارة ورداءتها . قال : وقلت له : ما بعدَ نظرك نظراً ، ولا بعدَ تحصيلك تحصيل وانتهى .

وأمثل من شاهدناه عندنا بينغداد الواسطي أبو القاسم وكان يبرأ إلى الله من البصري جعل ، ويلعنه عند الولي والعدو ، تقريباً إلى الله . وكان ابن التلاّج يقول : حكم الله بيننا وبين ابن عبّاد وفلان ، فإنها سلطاً هذا الانسان في هذا المكان حتى أفسد من أجابه الى المذهب ، ونفّر من أراد أن ينظر في العدل والتوحيد .

[الفرغاني والمعتزلة]

وسميت الفرغاني بقول : لولا أني لا أعرف في جميع المذاهب أقوى من مذهب المعتزلة لناديت على أصحابي بمخازيمهم التي يشتملون عليها ، وبمجاهرون

(١) أخيف : أي يخائفون .

بها في الأسواق والشوارع ، بل في المحاضر المشهورة ، والمنابر الرفيعة ، ولكن لهم حرمة الدعوى ، وضمائم النسب الى المقالة، ورجاء في الاقلاع والتوبة. فان اليأس غير غالب ما دامت الاستطاعة موجودة ، والتزوع ممكناً ، والتلافي مظنوناً .

[عودة إلى الصاحب]

ذاك حديث ابن عباد ، وهذا حديث شيخه وإمامه ، ومرشده بزعمه ، وهو المرشد والهادي لمن أخذ عنه واقتدى به ، يا قوم ! أين يذهب بكم ، ما هذا العمى الذي قد غلب عليكم ، والهوى الذي قد أصم آذانكم وأعمى أبصاركم ؟ وما هذا الأمر الذي قد حال دون العيان، وطمس وجه الرشد ، وقلب أثر الحس ؟

أليس هذا القائل في مجونه ، وتلعبه بدينه :

من عملي من عملي نبيك الرجال البزّل (١)

وإنما أنيكم لأنني معتزلي

تلميذ شيخ فاضل ملقب بالجميل

أفكذا يكون من كان عماد الدين ، وناصر الاسلام والمسلمين؟
الويل له ثم الويل لمن يتولاه وينصره . قال يوماً لابن قشيشا صاحب مصطبة المكدين بالري :

(١) البزّل ، مفردا بازل : وهو الرجل الكامل في تجربته ، أصلها البعير الذي فطر نابه أي انشق في السنة التاسعة .

لا تبطنن^١ عن اللذاتِ إن حَضَرَتْ
لكن تنيك ولا تحفل بتأنيب
ولا تزق^٢ إذا ما نلت ذلك وبت^٣

مع شوزرٍ وافرِ الأردافِ محبوبِ
فالصمي^٤ والمتر^٥ من بعد القشام^٦ به

طيب الحياة فلا تعدل عن الطيب
خذ في القشام وخذ في الصمي بالكوب

فالدهر يمزج تكسيحاً بهريب^٧

افهذا كلام من يدعو إلى الله ويحب أن يُستجاب له ، ويُجزى على طريقته ،
ويكون ذريمة بين الله والعبد ؟ هذا عافاك الله باللجنة أولى ، وبالبراءة منه
ومن أصحابه أحق . ما أقل حياء هؤلاء ، وأشد تكاذبهم ومكابرتهم .

[كفاءة الصاحب]

وإذا أضربت عن باب الدين ، ورجعت إلى الكفاية التي زعم أنه بها تكفى ،
وأنه كافي الكفاة ، وأنه واحد الدنيا هل كان يعرف من الحساب باباً ، هل عقد
جماعة ، هل عقيدته له فتكلم عليها ، هل قرأ مؤامرة ، هل عرف منها حداً ، هل أمكنه
ان يحتج على عامل ، أو يناظر ناظر ، أو يخاطب مشرفاً ، أو يرسم في العمل رسماً ، أو يجيب

(١) زق الطائر فرخه : أطمعه بمنقاره .

(٢) صمي ، يصمي صمياً : الرجل ثقل ووب وأسرع .

(٣) المتر : الجماع .

(٤) القشام : ما بقي على المائدة مما لا خير فيه . وقسم الطعام : أكثر أكله .

وأكل طيبه .

(٥) هرب الرجل هرباً : هزم .

عن كتاب واحد في العمالة ، وفيما يتعلق بأبواب النظر في العمارة ، هل ناظر خائناً مقتطعاً ، أو استدرك مالا مختلساً ، هل فصل حكومة بين كاتبتين ، أو قطع خصومة بين جُنْدِيَيْنِ؟ هل رأينا نَمَّ إلا الرقاعة والتدفق والجنون والهديان والتسايل والتمايل ، والبقبقة والطقطقة ، والقرقرة والبربرة ، إلا أنه غلط فيه ، ووثق به ، ووكل اليه الرأي ، ولم يؤذن لأحدٍ في تحريكه بكلمة ، ولا في مصاداته بحرف ، حتى تم له ذلك كله بأسهل وجه مع الجدِّ المواتي ، والأمر المنقاد ، وحبَّ أن يعتقد أن ذلك عن كفاية في الصناعة ، وحذقٍ في العمل ، وسعة علم بالكتابة الديوانية ، والرسوم الخراجية ؟ .

[الصاحب والنحو والشعر]

وسئل يوماً عن قول الشاعر (١) :

سقوني النسبيَّ ثم تكثفوني

عُدَّةَ اللَّهِ من كَذِبٍ وزور

فقال : الحجر تسمى نسبياً . فقل له : ولم ؟ فقال : ليس للأسماء علل .

/ فلما خلوتُ بالزَّعْفَرَانِي الشاعر قال لي : أخطأ فإن الأسماء ضربٌ منها مبتدأ ، فالعرض فيه اختصاص العين به ، ليقع التمييز بينه وبين غيره ، وضربٌ آخر يؤخذ من أصل العقل ، وهو الذي يسمى مُشْتَقاً ليكون فيه دلالتان : دلالة كدلالة الأول في اختصاص العين ، ودلالة على التعت ، والنسبيُّ في أسماء الحجر من الضرب الثاني ، لأنَّ الحجرَةَ تَدُنُّساً العقل أي تؤخره .

[٢١]

(١) البيت لعروة بن الورد من قصيدة مطلعها :

أرقت وصحبي بمضيق عمق

الديوان طبعة أبي شنب باريز ص ٤٨

[حسد الصاحب للموهوبين]

وقال : هذا قاله بعض العلماء . فقلت له : هلا قلت هذا في المجلس ؟ فقال : لو قلتُ هناك لما وجدتني عندك قاعداً مطمئناً . قلت : صدقت ، الرجل حسود ، فقال : وَ لِرَبِّهِ كَنُودٌ (١) ، وآياته هنيء ، كأنه من اليهود ، أو من بقية ثمود . ولقد غضب يوماً من شيء رواه المصري وحجبه أياماً ، وذلك أنه روى : أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فيما رواه عبد الله ابن عمرو بن العاص فقالت : يا رسول الله إن ابني هذا كان بطني له وعاء ، وحجري له حواء ، وثديي له سقاء ، وزعم أبوه أنه ينزعه مني . فقال رسول الله ﷺ : أنتِ أحقُّ به ، ما لم تنكحي ، وكان غضبه من الحسد ، لأنه روى هذا في عرض حديث ، بفصاحة وتسهل ، وله مثل هذا كثير .

[حسد الصاحب للشعراء]

كان لا يستطيع أن يسمع من أحد كلاماً منظوماً ، قال لأبي السلم مسلم الأعرابي يوماً : ما خبرك مع فلان ؟ قال : انقلبت عنه خاسئاً وأنا حسير ، قال : لا تتجع أمثاله ، قال : أيها الصاحب ! ما أعلمني بمظان الرجاء والخيبة ، ولكني ربما اغتررت بالشك اغتراراً ، وانجمرت على الشوك انجراراً ، وآخر دعواي أن الحمد لله الذي لم يقطع أملي من خيره ، حتى غمرني بأيادي غيره ، وذلك أنت . وكان حسده لغيره على فصل حسن ولفظ حرّ بقدر إعجابه بما يقوله ويكتبه .

(١) الكنود : الكافر بالعمّة .

[غرور الصاحب]

كتب يوماً إلى إنسان : وأقسم انك لو كتبت بأجنحة الملائكة المقربين على جباه الحُور العين ، مستمدّاً من أحداق الولدان المخلدن ، جوازاً على الصراط المستقيم ، إلى جنات النعيم ، لما حسُنَ هذا البخل . فأخذُ يُميدُ هذا ويبدئه ويقول : كيف تَرَوْنِ ، وكيف تسمعون ، وهل قرأتم شبيهه .

[حسده للمجيدن]

وروى في مجلسه يوماً ابن ثابت البغدادي حكاية للخليل فأحسن سياقها وإمرارها ، فحجبه أياماً ، وأختر عنه رسمه وقال : تبسّط في مجلسنا واسحنّفِر بحضرتنا ، وارك توقيرنا وهيتنا ، حتى تشفّع في أمره أبو الحسن الطيّب وغيره، فعاد له على شَنَف^(١) . وأنا أسوق الحكاية حتى تكون فائدة في هذا الكلام الذي قد نَسَبْنَا^(٢) فيه .

[الخليل وسليمان بن علي]

قال الخليل : دخلتُ على سليمان بن علي وهو والي البصرة فوجدته يسقط في كلامه^(٣) ، فجلست حتى انصرف الناس ، فقال : هل من حاجة أبا عبد الرحمن ؟ قلت : أكبر الحوائج ، قال : قلْ فان مسائلك^(٤)

(١) الشنف : البغض .

(٢) نسب في الأمر : لم يكذب ينحل عنه .

(٣) سقط في الكلام : أخطأ .

(٤) في الأصل وسائلك . وما أثبتناه أصح .

مقضية ، ووسائلك قوية ، قلت : أنت سليمان بن علي ، وكان علي في العلم
علياً ، وكان عبد الله بن العباس الحَبْرَ والبحر ، وكان العباس بن عبدالمطلب
إذا تكلم أخذ سامعته ما يأخذ النشوان على نقر العيدان ، وأراك تسقط
في كلامك ، وهذا لا يشبه منصبك ومحتدك ، قال فكأنما فقيء في
وجهه الرمان خجلاً . فقال : لن تسمعه بعدهاء ثم أذن للناس في مجلس عام ،
فدخلت عليه في لمة^(١) من الناس فوجدته يُفصح حتى خلته معدن عدنان
فجلست حتى انصرف الناس . فقال : كيف رأيت أبا عبد الرحمن ؟ قلت :
رأيت كل ما سرني للأمير وأنشدته :

لا يكون السريُّ مثل الزريِّ

لا ، ولا ذو الذكاء مثل الغبيِّ

لا يكون الألدُّ ذو المقول المرِّ

هفِّ عند الخصامِ مثل العبيِّ

قيمة المرء كل ما يحسن المر

ء قضاءً من الإمام عليِّ

أي شيء من اللباس على ذي الس

سرو أهبى من اللسان السريِّ

ينظمُ الحجَّةَ الشتيتة في الس

سلك من القول مثل نظم الهديِّ

وترى اللحن في لسان أخي الهمة

مةٍ مثل الصدا على المشرفيِّ

فاطلبِ النَّحْوَ للقران والش
شعر مقيماً والمُسْنَدَ المرويَّ
والخطابُ البليغُ عند حججاج القو
م تَزهى بِمِثْلِهِ في النديَّ
كلُّ ذِي الجَهْلِ بالفنون يُعَادِبُ
ها ويزري منها بنير الزريَّ
قال : فانصرفتُ فشيَّعني غلامه على كتفه بَدْرَةٌ فرددتها عليه ،
وكتبت اليه :

ايبلغ سليمان أني عنه في سعة
وفي غني غير أني لستُ ذا مالٍ
سَخا بنفسي أني لا أرى أحداً
يموتُ هزلاً ولا يبقى على حالٍ
والرزقُ عن قَدَرٍ لا العجزُ يدفعهُ
ولا يزيدُكَ فيه حَوْلٌ مُحْتَمَلٌ

[مسألة نحوية]

وقال يوماً : فَعَلَ وأفعال قليل . وزعم أصحابنا النحويون أنه ما جاء
إلا زيدٌ وأزباد ، وفَرَّخَ وأفراخ ، وفَرَدَ وأفراد . فقلت : أنا أحفظ
ثلاثين حرفاً كلها فَعَلَ وأفعال . قال : هات يا مدعي ! فسردتُ الحروف
/ ودلت على مواضعها من الكتب . ثم قلت : ليس للنحوي أن يَجْزُمَ
مثل هذا الحكم إلا بعد التبحر والسمع الواسع ، وليس للتقليد وجهٌ إذا
كانت الرواية شائعة ، والقياس مطرداً ، وهذا كقولهم فَعِلَ على عشرة

أوجه ، وقد وجدته أنا على أكثر من عشرين وجهاً ، وما أسهبتُ في التتبع إلى أقصاه . فقال : خروجك من دعواك في فعل يدلنا على قيامك بالحجة في فعيل ، ولكننا لا نأذن لك في اقتصاصك ، ولا نهب آذاننا لكلامك ، ولم يف ما أتيت به بجرأتك في مجلسنا ، وتبسّطت بحضرتنا ، فهذا كما ترى .

[أبو حامد المرورّ وذي]

وسألني عن أبي حامد المرورّ وذي ، فوصفت له نهايته ومقدمه ، وحفظه وبيانه ، فقال : ماتمخض عنه ؟ قلت : أشياء مختلفة ، فانه أقام عندنا ببغداد في آخر أيامه سنتين ، ولقد رأيته في مجلس أبي الفرج محمد بن العباس في أيام وزارته بعد أبي الفضل العباس بن الحسين ، وهو يتدقق بالكلام مع ابن طرارة .

[تعريفات شتى]

فلما انتهى قال له أبو الحسن إسحاق الطبري : ارسم لنا كلاماً خفيفاً في الدليل والحجة ، والبرهان والبيان ، والقياس والعلّة والحكم ، والاسم ، والفعل ، والحرف ، والنص ، والظاهر ، والباطن ، والتأويل ، والتفسير ، والفحوى ، والاستحسان ، والتقليد ، والاقتداء ، والاجماع ، والأصل ، والفرع ، والوجوب ، والجواز . فاندفع فقال : الدليل ما سلكك إلى المطلوب ، والحجة ما وثقتك من نفسه ، والبرهان ما أحدث اليقين ، والبيان ما انكشف به الملتبس ، والقياس ما عارك شبهه من غيره ، أو استعار شبهه غيره في نفسه . والعلّة ما اقتضى أبداً حكماً بالزوم . والحكم ما وجب بالعلّة . والاسم ما صحّت به الإشارة إلى مشار إليه . والفعل

ما شاع في الزمان . والحرف ما ائلف به اللفظ . والنص ما أغنى بنفسه .
لاستقلاله . والظاهر ما سبق إلى النفس بلا جالب . والباطن ما غيضا عليه .
بالتفسير . والتأويل الجهة المتباعدة عن المراد ، ومع ذلك فهي مشمولة .
تارة بالقصد ، وتارة بغير القصد . والفحوى الجهة القريبة . والتفسير
عبارة عن عبارة على طريق الخلافة . والاستحسان القول الأولى والأشبه
في ظاهر الحال . والتقليد قبول بلا بيان . والافتداء سلوك مع عالم
سالف . والاجماع اتفاق الآراء الكثيرة . والأصل ما لم ينظر إلى ما قبله لأنه
بنفسه قبل غيره . والفرع ما انشعب عن الأول . والوجوب ما لم يسع
الاضراب عنه . والجواز ما وقف بين الواجب وبين غير الواجب .

وكاد لا يسكت ، فقال له أبو الفرج : ما كان أبو محمد المهلبى يُفتي
عليك جزافاً ، ولا يُشغف بك على طريق الهوى . فقال لي : كيف حفظت
هذا ؟ قلت : كنا جماعة نتعاون على ذلك ويرسم في ألواح فقال : إني
لشديد الحسرة على قوت لقائه ، وما يزيدني عجباً به أنه كان على مذهب
أصحابنا ولو نصر في الأحكام مذهب أبي حنيفة لكان قدوة لأهل
زمانه . وقال له بعض الغرباء : إذا قلت : عشي الرجل كما يقول عمي
الرجل ، وتقول يعشى كما تقول بعمي . وقلت أعشى كما تقول أعمى ،
فهلأ قلت امرأة عشياء كما قلت عمياء ، ولك مع ذلك شفة لمياء وماء
طمياء (١) قال : فهكذا أقول . قال له : قد خالفت العلماء لأنهم نصوا
عشواء ، كما قالوا ناقة عشواء فقال : في هذا نظر وأخطأ ، ولي نظر
في المسموع .

(١) طمى الماء يطمي : علا .

[عبث أبي حامد]

وحدثني محمد بن المرزبان قال : كنا بين يديه ليلة فنمسن وأخذ إنسان يقرأ « والصفات » فاتفق أن بعض هؤلاء الأجلاف من أهل ما وراء النهر نمسن أيضاً فضرط ضرطه منكراً فانتبه وقال : يا أصحابنا نمنا على « والصفات » وانتبهنا على « والمرسلات » . هذا من ملاحظاته .

وحدثني أيضاً قال : انفلتت ليلة أخرى ضرطه من بعض الحاضرين وهو في الجدال فقال على حديثه وجنونه : كانت بيعة أبي بكر خذوا فيما أتم فيه ، يعني كانت فلتة ، لأنه قيل في بيعة أبي بكر كانت فلتة ! أفهذا من الهجون المستطاب ، أو من جنس ما يجب أن يكون محكياً عن الرؤساء الديانين ، والكبراء المستبصرين والذين يدعون لأنفسهم الفضل والمروءة والدمائة واحتقار الناس؟

وقال له ابن ثابت الجويني يوماً يتملح معه^(١): أنا آكل التمر على أنه كان مرة رطباً أي أميل إلى الحدث وإن بقل وجهه^(٢) ، لأنه قد كان مرة أمرد فقال له : فكُل الخرا على أنه مرة كان هريسة .

وسمعتني ينشد في الشاعر الملقب بالمشوق :

ودبوثٍ يقال له المشوقُ

له من عرسه كسبٌ وسوقُ

فكم خيرٍ يُساق إليه منها

وكم أيرٍ إلى حرها يسوقُ

(١) في الأصل أثبتت هذه العبارة في غير موضعها ولعلها خطأ من الناسخ، وتملح: تكلف الملاحظة.

(٢) بقل وجه الغلام : خرج شعره .

وكان يُنشد في شيخ كاتب من أهل جرجان :
جزعت من أمره فطبع قد حدث
ابن تميم وهو شيخ لا حدث
قد جلس الأصلع في بيت الحدث (١)

[مناظرة بين الخشوعي والصاحب]

ورأيت شيخاً قدم مع الحاج من خراسان يُعرف بالخشوعي من الكرامية
أصحاب الرأيين حضر مجلسه وناظره في مسألة الجسم ، وكان يقول: وهو مذهب
هشام بن الحكم في التكلمين المتقدمين لا كان مثبتاً بالعقل دون غيره ، وكنت
لا أثبت بالعقل إلا معقولاً ، كما لا أثبت بالسمع إلا مسموعاً ، وكما لا أثبت
بالبصر إلا مبصراً ، وكان اثبات العقل لمن هو غير جسم في المشاهدة غير
معقول وجب أن يكون جسماً لأنه قد دخل في قسمة المعقول ، وإن بطل أن
يكون جسماً بطل أن يكون معقولاً وقد ثبت أنه معقول فإذن قد ثبت أنه
جسم فقال ابن عباد : هاتوا مسألة أخرى فسأع الحُكْل (٢) أرجع بالفائدة من
هذا ، وأخذ في مسألة أخرى .

وحكى قوم منهم أبو طاهر الانماطي القطان أنه قد شدة ولم يحضره في
الحال شيء ، وكان الخصم ألد ، ذا سلاطة ، قليل الاكتراث ، حضر
غير طائع ، وتكلم / غير متروّع (٣) ، وعاد هذا الشيخ في مجلس

[٢٢ب]

(١) الحدث : الغائط .

(٢) الحُكْل : ما لا يسمح له صوت . يقال : تكلم كلام الحُكْل : أي
كلاماً لا يفهم .

(٣) متروّع : غير فزع .

آخر فقال له : أتقول إن الله جسم ؟ قال نعم . قال : فإذا كان جسماً جاز أن يكون فوقه شيء ، أو عن يمينه شيء ، أو عن يساره شيء . قال : نعم قال : فما تُنكر أن يكون معبودك الآن في هذا الصندوق ! فحمد الخراساني حمداً ، ثم اشتعل فقال : أليس عندك أن الله متكلمٌ بكلام يفعله في الأحوال المختلفة ؟ فقال : بلى . قال : فما تُنكر أن يكون هذا الحمار ينعظ فيحلم الله كلامه في جردانه فيقول : أنا ربكم الأعلى ، فسمع ذلك منه فالتخزل ابن عباد وقال : خذوا في غير هذا .

والسخرُ والجرأةُ وسوء الأدب وإطلاق اللسان بما لا يجوز ديناً ومروءة غالباً على أصحاب الكلام والتقوى والرهبنة والورع ، بعيدة من هذه الطبقة .

وحكى يوماً في نوادره الفاترة ما يدل على قلة دين القوم، وسوء استبصارهم ، وشدة استهانتهم بما يقولون محققين ومبطلين ، وأن الدينَ هو الهديان والرفاعة والتعصب والايهام، وليس لوجه الله في ذلك شيء لا فيما يجدون به، ولا فيما يهولون فيه، لا حشمة ولا تقوى ، ولا مراقبة ولا بقیاً^(١)، قد جعلوا الله عرضة للخصومات بالوساوس ، ودينه منديلاً لكل يد .

[بين ملحد وموحد]

سأل ملحد موحداً فقال : ما الدليل على أن للعالم صناعاً ؟ فقال : الدليل على ذلك شعيرة أمك لأنها كلما تفتها بالدُّبُق نبتت ؛ فلو لم يكن هناك مُنبتٌ لما نبتت . فقال الملحد : هذا ينقلب عليك لأنه يقال لك : الدليل على أن العالم ليس له صانع فواة أمك إذا قطعت مرة لم تنبت بعد ذلك .

(١) البياكبكية ، وبقية الله : طاعة الله .

[نواتر عن التشبيه]

وحكى يوماً آخر فقال : اجتمع رجلان ، أحدهما يقول بقول هشام ،
والآخر يقول بقول الجواليقي فقال صاحب الجواليقي لصاحب هشام : صف لي
ربك الذي تعبده ، فوصفه فقال في وصفه : هو جسم ، ولكن لا يد له ،
ولا جارحة ، ولا آلة . فقال له الجواليقي : أيسرُك أن يكون لك بهذه
الصفة ابن ؟ قال : لا ، قال : أفما تستحي أن تصف ربك بصفة لا ترضاه
لولدك ! ثم قال صاحب هشام : قد سمعت قولنا فصف لي أنت ربك ،
فوصف فيما وصف أنه جعد قَطَط (١) ، في أتمّ تمام ، وأحسن حُسن ،
وأحلى صورة ، وأعدل هيئة ، وأجمل إشارة ، فقال له صاحب هشام :
أفيسرُك أن تكون لك جارية بهذه الصفة تطأها ؟ قال : نعم . قال : أفما
تستحي من عبادة من تحبّ مباحته ، وذلك أن من أحبّ مباحته مثله
فقد أوقع عليه الشهوة ، تعالى الله عن هذه السخافات والجهالات ، وإن قوماً
يلهجون بهذا وأشباهه لفي بُعدي من الهدى والنهى .

وسمته يسبُّ أصحاب الهندسة ويقول : جاءني بعض هؤلاء الحمقى ،
ورغبني في الهندسة فابتدأ فقال : إن خمسة في خمسة خمسة وعشرون ضرورة ،
والآن أنا مجتهد حتى أعلمه بالاستدلالات ، وهذا هو الخسار والدمار ، ولو كان
له سهم يسير من العقل ما باح على نفسه بهذا القول ، ولو سمع من غيره لوجب
إنكاره ، ولو حقق قول القائل : من جهل شيئاً عاداه ، أترأه سمع كلام ابن
ثوابه (٢) في مثل هذا ، وكيف نسب فيه إلى الرقاعة ، وكيف رحمه أهل الحكمة ،

(١) شعر قَطَط : قصر جعد .

(٢) هو أحمد بن محمد بن ثوابة ، من كبار منشيء القرن الرابع ، وكان كاتب ديوان
الرسائل لمصر الدولة توفي سنة ٣٤٩ ، انظر ترجمته في معجم الادباء - لياقوت .

وكيف هزيء به قومٌ وجدوا طريقاً إلى ذلك ، وأنا أحكي لك في هذا المكان ذلك الكلام وإن تنفست الرسالة لتعلم أن من شاء حمق نفسه ، وأن الله إذا شاء خذل عبده ، وأشمت به أعاديه .

حدثنا أبو بكر الصيمري قال : حدثنا ابن سمكة قال : حدثنا ابن محارب قال : سمعت أحمد بن الطيب يقول : ان صديقاً لابن ثوابة الكاتب أبي العباس يُكنى أبا عبيدة قال له ذات يوم : إنك رجل بحمد الله ومنه ، ذو أدب وفصاحة وبراعة وبلاغة فلو أكرمت فضائلك بأن تضيف إليها معرفة البرهان القياسي ، وعلم الأشكال الدالة على حقائق الأشياء ، وقرأت كتاب إقليدس وتدبرته ، فقال له ابن ثوابة : وما أقليدس ؟ قال له : رجلٌ من علماء الروم يسمى بهذا الاسم وضع كتاباً فيه أشكال كثيرة مختلفة تدل على حقائق الأشياء المعلومة والمغيبية ، يشحذ الذهن ، ويدقق الفهم ، ويلطف المعرفة ، ويصفي الحاسة ، ويُثبت الروية ومنه انتج الخط ، وعرفت مقادير حروف المعجم . فقال له أبو العباس ابن ثوابة وكيف ذلك ؟ قال : لا تعلم كيف هو حتى تشاهد الأشكال ، وتُعاين البرهان ، قال له : فافعل ما بدالك فأتاه برجل يقال له قويري مشهر فقدم ولم يعد إليه بعد ذلك .

[الهندسة في رسالة الى ابن ثوابة]

قال أحمد بن الطيب : فاستطرفت ذلك وعجبت منه وسألت الخبير عن انصراف قويري أي شيء كان سببه ؟ فأجبنى بأن لا أعلم فكتب الى ابن ثوابة رقعة نسختها : بسم الله الرحمن الرحيم . اتصل بي جعلني الله فداك أن رجلاً من إخوانك أشار عليك تكميل فضائلك وتقويتها بمعرفة شيء من القياس البرهاني وطمأنيتك إليه ، وأنتك أصغيت إلى قوله وأذنت له ، وأنه أحضرك رجلاً

كان غايةً في سوء الأدب ، معدناً من معادن الكفر ، وإماماً من أئمة الشرك ،
لاستفزازك / واستغوائك ، فخذعك على عقلك الرصين ، ويُنازلك في
ثقافة فهمك المتين ، فأبى الله العزيز الا جميلَ عوائده الحسنة قبلك ، ومننه
السوابق لديك ، وفضله الدائم عندك بأن أتى على قواعد برهانه من ذروته ،
وحطَّ عوالي أركانه من أقصى معاهد أسسه ، فأحببتُ استعمال ذلك على كنهه
من جهتك ليكون شكري لك على ما كان منك حسب لومي لصاحبك على ما كان
منه ، ولأتلافى الفارط في ذلك بيد تواسيه إن شاء الله .

[١٢٣]

[جواب ابن ثوابه]

قال : فأجابني ابن ثوابه برقعة نسختها : بسم الله الرحمن الرحيم . وصلت
رقتك أعزك الله ، وفهمتُ فحواها ، وتدرتُ مضمونها ، والخبر كما اتصل
بك ، والامر كما بلغك ، وقد لخصته وبيته حتى كأنك معنا وشاهدنا ، فأول
ما أقول : الحمد لله وليّ النعم والتوحد بالقسم ، اليه يُردُّ علم الساعة ، واليه
المصير ، وإياه أسأل إيزاع الشكر على ذلك ، وعلى ما منحنا من ودك، وإتمامه
بيننا بمنه ، وما أحببتُ إعلامك وتعريفك مما تأدئى اليك أن أبا عبيدة عليه
لعنة الله ترمى بلحسه ودسه ودحسه اغتالي ليكلمَ ديني من حيث لا أعلم ،
وينقلني عما أعتقده وأراه وأضمره من الإيمان بالله عز وجلّ ورسوله ﷺ
فوطد لي الزندقة بترينه الهندسة ، وأنه يأتيني برجلٍ يفيدني علماً شريفاً يكمل
به فضائي فيما زعم . فقلت : عسى ان أفيده براعة في صناعة ، أو كمالاً في
مروءة ، أو نسكاً في دين ، أو فخاراً عند الاكفاء ، فأجبتُه بأن هلمَّ به
فأتاني بشيخ دیراني ، شاخص النظر ، منتشر عصب البصر ، طويل، مشدّب،
مخزوم الوسط ، مترمّل في دسكه ، فاستعدتُ بالرحمن إذ نزعني الشيطان ،

ومجلسي قد غصّ بالاشراف من كل الأطراف ، كلهم يرمقه ، ويتشوف إلى رفعي مجلسه وادنائه ، وتقريبه ، ويعظمونه ويحيونه ، والله يحيط بالكافرين ، فأخذ مجلسه ، ولوى أشداقه ، وفتح أوساقه (١) ، فتبيّنت في مشاهدته النفاق ، وفي الفاظه الشقاق فقلت له : بلغني ان عندك معرفة بالهندسة وعالماً وأصلاً إلى فضل يفيد الناظر فيه حكمة وتقدماً في كل صناعة ، فهل أفدنا شيئاً منها ، عسى أن يكون عوناً لنا على دين او دنيا ، وزيناً في مروءة ، أو مفخرة لدى الاكفاء ، ومفيداً نسكاً وزهداً فذلك هو الفوز العظيم فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما ذلك على الله بعزيز . قال : فأحضرتي دواءً وقرطاساً فأحضرتها فأخذ القلم فنكت به 'نكته' نقت منها نقطة تخيلها بصري ، ولحظها طرفي كأصغر من جبة الذر ، فزمزم عليها بوسواسه ، وتلا عليها من محكم أسفار أباطيله ، ثم أعلن عليها جاهراً بإفكه ، وأقبل عليّ فقال : أيها الرجل : إن هذه النقطة شيء ما لا جزء له . فقلت : أضللتني ورب الكعبة ، وما الذي لا جزء له ؟ فقال : كالبيسط ، فأذهلتني وحيرتني ، وكاد يأتي على عقلي وحلمي لولا أن هداني ربي ، لانه أتاني بلغة ما سمعتها والله من عربي ولا عجمي ، وقد أحطت علماً بلغات العرب ، وقمت بها واستثرتها جاهداً ، واختبرتها عامداً ، وصرت فيها إلى ما لا أحسب أحداً يتقدمني إلى المعرفة به ، ولا يسبقني إلى دقيقه وجليله . فقلت له : وما الشيء البسيط ؟ فقال : كالله تعالى ، وكالنفس ، فقلت له : إنك من الملحدين ، أتضرب لله أمثالاً ، والله تعالى يقول : « فلا تضربوا لله الأمثال ، إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون » (٢) . لمن الله مرشداً أرشدني إليك ، ودالاً دلّني عليك ، فما ساقك إليّ

(١) أوساق مفرد ما وسق : وهو حمل البعير .

(٢) سورة النحل .

إلا قضاءً سوء ولا كَسَمَكَ^(١) نحوي إلا الحين ، أعوذ بالله من الحين ، وأبرأ إليه منكم ومما تلحدون والله وليُّ المؤمنين ، إني بريء مما تُشركون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فلما سمع مقالتي ، كَرِهَ استعاذتي فاستخفَّه الغضب ، فأقبل عليّ مستبسلاً فقال : إني أرى فصاحة لسانك سبباً لمُعْجَمَةِ فِهْمِكَ ، وتذرَعَكَ بقولك آفةً من آفات عقلك ، فلولا من حضر والله المجلس ، واصغَاؤُهُم إليه مستصويين أباطيله ، مستحسنين أكاذيبه ، وما رأيتُ من استهوائه إياهم بخُذَعِه ، وما تبيّنتُ من توازُرِهِم ، لأمرتُ بسلِّ لسانه اللعج الألكن ، وأمرتُ بإخراجه إلى حرِّ نار الله وسَقَرِهِ وغضبه ولعنته ، فنظرتُ إلى أمارات الغضب في وجوه الحاضرين فقلت : ما غضبُكم لنصراني يُشرك بالله ويتحدّاه من دونه الأنداد ، ويُعلن بالالحاد ، ولولا مكانكم لنَهَيْتُهُ^(٢) عقوبةً . فقال لي رجلٌ منهم : إنه إنسان حكيم ، ففاظني قوله فقلت : لعنَ الله حكمة مشوبة بكُفْرٍ ! فقال لي آخر : إنَّ عندي مسلماً يتقدم أهل هذا العلم ، فزجرتُ مع ذكره الاسلام خيراً فقلتُ : إثمِّي به ، فأتاني برجل قصير ، دَحْدَاح^(٣) ، مجذور ، آدم^(٤) ، أخنس العينين^(٥) ، أجلج^(٦) ، أفضس ، مسيء النظر ، قبيح

(١) كسه : تبعه وكسه بكذا : إذا جمعه تابعاً له .

(٢) نهكه : بالغ في عقوبته .

(٣) الدحداح : القصير .

(٤) آدم : أسمر .

(٥) خنس : تأخر أفعه عن الوجه مع ارتفاع في الأرنبة فهو أخنس . وأخنسه

عنه : حبه وأخره .

(٦) الأجلج : من انحسر شعره عن جانبي رأسه .

الزبي ، فسلم فرددت عليه السلام ، ورفعت مجلسه وأكرمته وقلت له :
ما اسمك ؟ فقال : أعرف بكنية قد غلبت علي ، فقلت : أبو من ؟
فقل : أبو يحيى ، فتفاءلت بملك الموت عليه السلام وقلت : اللهم إني أعوذ
بك من الهندسة فأكفي اللهم شرها ، فانه لا يصرفُ السوءَ إلا أنت ،
وقرأت الحمدَ والمودتين ، وقلْتُ 'هُوَ اللهُ أَحَدٌ ثَلَاثًا ، وقلتُ له : إنَّ
صديقاً لي جاءني بنصراني يتخذ الأنداد ، ويدعي أن الله الأولاد ليفويني
ويستغزني ، ولولا رحمة ربي لكنتُ من المحضرين ، فصرفته أقبحَ صرف ،
ثم ذكرت لي فرجوت بذكر إسلامك خيراً ، فسلمُ أقدنا شيئاً من هندستك ،
وأقسننا / من طرائف حكمتك ما يكون لنا سبباً إلى رحمة الله ، ووسيلة
إلى غفرانه ، فإنها أربحُ تجارة ، وأعوذُ^(١) بضاعة. فقال : أحضرنى دواءً
وقرطاساً ! فقلتُ : أتدعو بالدواء والقرطاس وقد بليتُ فيها بيليةً كَلَمْتُهَا
لا يَنْدَمُ من سُوْدَاءِ قلبي ، قال : وكيف كان ذلك ؟ قلتُ له : إنَّ
النصراني نَقَطَ لي نقطه كأصفر من سِمِ الخياط وقال لي : إنها مقولة كرتك
الأعلى ، فوالله ما عدا فرعون في إفكه وكفره ، فقال لي : فإني أعفيك لعن الله
قويري ، وما كان يصنع بالنقطة؟ وهل بلغت أنت أن تعرف النقطة؟ فقلتُ :
استجهلني ورب الكعبة ، وأنا قد أخذت بأزمة الكتابة ، ونهضت بأعبائها ،
واستقلت بثقلها ، يقول لي : لا تعرف فحوى النقطة ، فنازعتني نفسي في
معالجته بغليظ العقوبة ، ثم استعطفني الحلم إلى الأخذ بالفضل ، ودعا بعلامه
وقال : اثني بالتخت ! فوالله ما رأيت مخلوقاً بأسرع احضاراً له من ذلك الغلام .
فأتاه فتخيلتُ به هيئة منكرة ، ولم أدر ما هو وجملت أصوبُ الفكر فيه
تارة ، وأصعدُ أخرى ، وأحيل الرأي ملياً ، وأطرق طويلاً لأعلم أي

(١) أعوذ : أشع .

شيء هو، أصندوق هو، ماذا ؟ ليس بصندوق . أنتح هو، ماذا ؟ ليس بتحت ، فتخيلته كتابوت لحد فقلت : لحد الملحد يلحد به الناين (١) عن الحق . ثم أخرج من كتمه ميلاً عظيماً فظننته متطبيياً ، وانه لمن سرار المتطبيين . فقلت له : إن أمرك لمعجب كله ، ولم أرَ في أميال المتطبيين كميلك ، أتفقاً به الأعين ؟ فقال : لست متطبيياً ، ولكني أخطأ به الهندسة على هذا التخت ، فقلت له : إنك وإن كنت مبيناً للتصرافي في دينه ، إنك لمؤازره في كفره ، أنتخط على تخت يملك لتعدل بي عن وضح الفجر إلى غسق الليل ، وتميل بي إلى الكذب بالموالحفوظ وكاتبه الكرام ، أياي تستهوي أم حسبتني ممن يهتر (٢) لمكايديكم ؟ فقال : لست أذكر لك لوحاً محفوظاً ولا مضياً ، ولا كاتباً كريماً ولا ثنياً ، ولكني أخطأ به الهندسة وأقيم عليها البرهان بالقياس والفلسفة . قلت : أخطأ ! وأخذ يخط وقلبي مروغ يجب (٣) وجيباً ، فقال لي غير مستظلم : إن هذا الخط طول بلا عرض ، فذكرت صراط ربي المستقيم وقلت له : قاتلك الله ! أتدري ما تقول؟ تعالي صراط ربي عن تحطيطك وتشبيك وتبديك وتحريفك وتضليلك ، إنه لصراط مستقيم ، وإنه لأحد من السيف البار ، والحسام القاطع ، وأدق من الشعر ، وأطول مما تمسحون ، وأبعد مما تذرعون ، ومداه بعيد ، وهواه شديد ، أتطمع أن ترزحني عن صراط ربي ؟ أم حسبتني غمراً غيباً لا أعلم ما في باطن ألفاظك ، ومكنون معانيك ، والله ما خططت الخط ، وأخبرت أنه طول بلا عرض إلا ضلته (٤) بالصراط المستقيم لتزل قدمي عنه ، وأن تردني في نار جهنم . أعوذ بالله ، وأبرأ إليه من الهندسة ، ومما تدل عليه ، وترشد إليه ، وإني بريء من المهندسين ، ومما يعلنون ويسرون ، ومما به يعملون ،

(١) في الأصل : « وبالناين » .

(٢) أهتر مجهولاً : أولع بالقول في الشيء .

(٣) وجب : القلب رجف وخفق .

(٤) في الأصل : « حبة » .

ولبئس ما سئلت لك نفسك أن تكون من خزنتها بل من وقودها ، وإن
لك فيها لأنكلاً^(١) وسلاسل وأغلالاً وطعاماً ذا غُصّةٍ وعذاباً أليماً ،
فتم إلى لعنة الله وغضبه . فأخذ يتكلم فقلت : سدّوا فاه مخافة أن يندر
منه مثل ما بدر من المضلل الأول ، وأمرت بسجبه فسحب إلى أليم عذاب
الله ونار « وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ^(٢) » عليها ملائكةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ
لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ^(٣) . ثم
أخذت قرطاساً وكتبت بيدي يميناً آليتُ فيها بكل عهدٍ مؤكّدٍ ،
وعقدٍ مرّددٍ ، ويمينٍ ليست لها كفتارة أن لا أنظر في الهندسة أبداً ،
ولا أطلبها ، ولا أتعلّمها من أحدٍ سرّاً ولا جَهراً ، ولا على وجهٍ من
الوجوه ، ولا سببٍ من الأسباب ، وأكّدتُ بمثل ذلك على عقبي وعلى
أعقاب أعقابهم أن لا ينظروا فيها، ولا يتعلّموها ما قامت السموات والأرض إلى
أن تقوم الساعة ليقات يوم معلوم .

فهذا بيان ما سألت أعزك الله مما دُفعتُ إليه ، وامتحننتُ به ،
وليُعَلِّمَ ما كان مني ، ولولا وعكّة أنا في عقابيلها لحضرتك مشافهاً ،
وأخذت بخطي التمني من الأُنس بك ، والاستراحة إليك ، فهدّ على ذلك
عُدري ، فانك غير مبينٍ لفكري والسلام .

رسالة أبي العباس أحمد بن يحيى بن محمد بن ثوبان إلى أبي العباس أحمد بن
الطيب ، هذه فيها مُعتبرٌ واسعٌ ، وإشراف على عقلٍ مدخول ، وهي شقيقة

(١) مفرداً نكل : وهو الفيد الشديد من أي شيء كان .

(٢) سورة البقرة .

(٣) سورة التحريم .

قول ابن عباد في الحكاية التي جرت قبل هذه . وليس ينبغي أن تغتر
بالإنسان إذا كان فصيح العبارة ، كثير التشويق ، مديد النفس ، قادراً على
السجع ، / سهل الارتجال ، فقد يأتلف هذا كله والعقل ناقص ، وقد يُفقد
هذا كله والعقل راجح . [٢٢ب]

[الكلام المكسر]

وقلت لأبي سعيد السيرافي ، شيخ الدنيا : قال أبو زيد : يقال : إنه
لكثير فضيض الكلام ، أيراد بهذا مدح المذكور أم الزرابة عليه ؟ فقال
لي : هو إلى الزرابة أقرب ، لأن الفض كثير ومنه فضضت ختم الكتاب ،
ومنه ضربه فصار فضاضاً ، والصحيح خير من المكسور ، وكأنه يراد بهذا
أنه يرمي بالكلام مكسراً غير صحيح .

وإنما أتيت بهذا لأني سألت مرة أبا السلم عن ابن عباد فقال : إنه
لكثير فضيض الكلام . ثم مررت لأبي زيد ، وكان ابن عباد يقول
كثيراً : ما مدحني شاعر فأوجز وأملح [بأجود] من أبيات واقتي من شاعر
ينسب لسجستان فلها تدل على قدرة صاحبها ، وغزارة قائلها وحسن
تصرفه فيها وهي :

يا مَنْ أعادَ رميمَ الملك منشورا

وضمَّ بالرأي أمراً كان منشورا

أنتَ الوزيرُ وإن لم تُؤتَ منشورا

والأمرُ بمدك إن لم يؤتمن شورا

وقال ابن نباتة ، والخالع ، وابن الجلبات : ليس في هذه الأبيات

ماوجب له هذا الاعجاب كله ، ولكن الرجل ظريفُ المرأى والمخبر ،
عجيبُ المنشئ والمنظر ، مداره على الهوى كيف ما منح له جنح اليه ،
وأين ما برح به طرح عليه .

[صورة هزلية]

وكان ابن عباد إذا تكلم في مسألة ، ثم رأى من خصمه فتوراً نفش
لحيته بأصابع يده ، وعبث بها ، وقتل رأسه ، ولوى عنقه ، وشنج أنفه ،
وعوج شدقه ، وقال منشداً :

إذا المشكلاتُ تصدّينَ لي
كشفتُ حقائقها بالنظر
وإن برزت في محلّ الصوا
بعمياء لا تجتليها الفكر
مقنعة تخفي بالشكوك
وضعتُ عليها حُسامَ النظر
لساناً كشققة الأرحيين
ري أو كالحسام الباني الذكر
ولستُ بذئ وقفة في الرجا
ل أسائلُ هذا وذا ما الخبر
ولكنني مِدْرَهُ الأصغرين
أقيسُ بما قد مضى ما تجبر

[عَجَبُ الصَّاحِبِ]

وكان لا يمشه على هذا النمط إلا الذهب بنفسه والتّيه الذي يحول بينه وبين عقله ، والعَجَبُ أَنَّهُ كَانَ يَعِيبُ غَيْرَهُ بِجُزْءٍ مِنْ هَذَا الْبَابِ لَا يَتَجَزَأُ وَيَقُولُ : انظروا إلى تيهه وصلّفه ومدحه لنفسه واستبداده برأيه ، وعلى هذا حتى إذا صار إلى نفسه وحديثه وخواصّ أمره جهلٌ وذهلٌ وخرج في مَسْكِ (١) من لم يسمع بشيء من ذلك ، ولم يفتن له ، ولم يأبه لقبحه ، ولم يأنف من شنيعه ، وهذا من الأسرار في الأخلاق ، ولهذا طالّ كلامُ الأولين في الأخلاق ، وجاءت الشريعة واللغة واضحةً كلاً في موضعها ، وناعتهً لختارها ومرذولها ، وباعثةً على حسنها وجمالها ، وداعيةً إلى رفض قبحها ومُنْكَرُهَا . والكلامُ في هذا طويلٌ الذيلٌ مَيَّاسٌ ، وما أحسنَ ما قال الشاعر :

لا تلم المرءَ على فعله
وأنتَ منسوبٌ إلى مثله
من ذمّ شيئاً وأتى مثله
فإنما يُزري على عقله

والبيت السائر :

لا تَنهَ عن خُلُقٍ وتأتى مثله
عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمٌ

فهذا هذا .

(١) السك: الجلد .

[خلق القرآن]

حدثني العُماني قال : قال قومٌ من أهل اصفهان لابن عباد : لو كان القرآن مخلوقاً لجاز أن يموتَ ، ولو مات القرآن في آخر شعبان بماذا كنا نصلي التراويح في رمضان ؟ فقال : لو مات القرآن كان رمضان أيضاً يموت ، ونقول : لا حياة بعدك ، ولا نصلي التراويح ونستريح !

[تفسير آية]

وسأله الدامغاني يوماً عن قوله عزَّ وجلَّ : « ولقد هممت به وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه^(١) » أتقول أن يوسف همَّ بالمعصية ؟ فقال : الكلام معطوف بمضه على بعض بالتقديم والتأخير ، فكأنه قال : لولا ما رأى من برهان ربه ، لقد كان يهيمُّ بها ولكنه لم يهيمَّ ، وهذا كقول القائل : إني غرقت لولا أن خلصني فلان ، فحدثت بهذه الجملة ابن المراغي ببغداد فقال : لو سكت عن هذا كان أحسن به ، هذا تقدير لاعب بكتاب الله لا يحل نظم الكلام على تحريفه ، لأن ذلك جرأة . أما سمعت الله يقول « لا تُقدِّموا بين يدي الله ورسوله^(٢) » وإنما المراد به على سجيئة الكلام ، ولقد هممت به همَّها اللانث^(٣) وهمَّ بها همَّ البشير الذي لا براءَ له من همته إلا بتوفيق الله ، والبرهان كان ذلك التوفيق ، وما في الهمم ، الله أكرم من أن يؤخذَ به ، وإنما ذكر

(١) سورة يوسف .

(٢) سورة الحجرات .

(٣) في اصل اللانث ، واللانث : العالق .

ذلك لتعلم أن النبي صلى الله عليه [وسلم] في نبوته غير مكفّر بها دون أن
يكنّفه الله بعصمته ، ويتفمده برحمته .

[تفسير آيات]

وسئل ابن عباد يوماً عن قوله عز وجل : « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا
شُوَاطِحٌ مِّنْ نَّارٍ وَنَحَّاسٍ فَلَا تَنْتَصِرَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكذَّبَانِ (١) » فقيل : كيف يجوز أن يُعدَّ هذا في الآلاء والتعم وهو
إحراق بالنار ، ولا ألم بعده ، ولا عذاب فوقه ، فقال : أقول ما قال
شيخنا أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري رحمه الله ، فإنه قال : إن الله
جعل جهنم سوطاً ساق به عباده إلى الجنة ، واللفظ عن الحسن على
ما عُنِينَا بجمع كلامه عن الرواة أن الله خلق جهنم ليحوشَ بها الخلق إلى
طاعته ، فقال أصحابنا : فزعه إلى الحكاية عن الحسن حاكم بأنه
مفلس ، وقد قال العلماء في ذلك ، وإنما قول الحسن ترقيق وكلام يدخل في
الوعظ ، ولو تحقق لقلق . وسأله الدامغاني يوماً عن قوله تعالى : « وَلَمَّا
سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضِبُ (٢) » أي موضع لهذا السكوت ، والسكوت
ضد الكلام ، كما أن السكون ضد الحركة ؟ فما أحلى ولا أمر (٣) ، وتغافل ، إمّا
كبيراً ، وإمّا جهلاً .

وسمعت ابن بلويه يقول في هذا : هو مما تحرف لأنه نزل : ولما
سكن عن موسى الغضب بالنون ، / فقلت له : وما دَرَكَ (٤) المحرف في هذا؟

[٢٣]

(١) سورة الرحمن .

(٢) سورة الاعراف .

(٣) ما أحلى ولا أمر : أي ماتكم ببر ولا حلو ولا فعل مرأ ولا حلوأ .

(٤) الدرك : التبعة .

فقال : هو ما قلت لك ، وقد صحَّ عندنا ذلك عن الصادق فأمسكت عنه
والجواب أبين من ذلك .

[حدّ الظلم]

وقال يوماً الخضيرى : أيها الصاحب ! ما أقولُ لخصمي إذا قال لي :
حدّ الظلم وضع الشيء في غير موضعه ؟ قال : قل له : يجب على هذا إذا أخذ
الرجل عمامته المكوّرة فوضعها على ركبته أن يكون ظالماً . قال أبو سليمان :
أخطأ ، لأن العمامة قد توضع على الركبة لفرض صحيح ، وحاجة بادية ، في وقت
مقتضٍ لذلك ، وزمانٍ يليق به ذلك ، ويكون حسناً عدلاً ، ويكون
ذلك مكانها ، والرأس أيضاً جعل مكانها لفرض معروف ، والأغراض
تختلف وتأتلف .

[الرزق والمرزوق]

وقيل له يوماً : ما أنكرت أن يكون الرزق ما يأكله المرزوق دون
غيره ؟ فقال : على هذا لو رزقك الله خفياً لكنت تأكله ؟ حكيتُ هذا
لأبي سليمان فصرّف القول في الرزق وفي أقسامه ، وعلله وأسبابه
وغرائبه ، وقد أحرّته لكان آخر ، فإن هذا الكتاب يضيق عنه ، ويخرج
عن الأمر المتحرّى به .

[صفة المتكبر]

وقال له أبو عاصم البصري يوماً ! أليس المتكبر هو الذي يتعظم زائداً على
ما يستحقّه ويحسُن به ، ومن أجل ذلك ذمّوه بهذا الاسم إذا أطلقوه ؟ فقال :
بلى قال : فما معنى وصف الله نفسه بالتكبر ، ونحن إنمّا نفقينا عنه التكبر

لقُبِّحه عندنا ، وعند المعروف به بيننا ، فلو ساغ أن يُنْعَمَ بالتكبر ساغ أن يُنْعَمَ بالتكذُّب ، فاشتطَّ وانتفخَ وترَبَّدَ (١) وجهُه ، ودرَّ وريدهُ، وكاد يزيد ثم تدفق بكلام كثير ليس من مسألة أبي عاصم في شيء حفظتُ منها قوله :

[معرفة لغة العرب وأقوالهم]

أحدم لا يعرف اللغة على طرائقها ودقائقها وحقائقها من ناحية مجازها وسمعتها، ولا من جهة سلامتها وصحتها ، ولا يفرِّقُ بين ما يجوز على الله وبين ما لا يجوزُ على الله ، ويقصد إلى المسائل المُشكلة ، والمعاني المُعضلة ، والأبواب الغامضة، والألفاظ المتعارضة فيسأل عنها ، ويُعجب بها . لَيْتَكَ عرفت هذا بعد أن تعرف معنى قول العرب : صابَتْ بقرٌ (٢) ، وما المراد بقولهم : عود تعلم الفنج ، وما معنى قولهم : لكل حامة جوزة ثم تودي ، ومن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ ؟ ومتى توفي المَبْرَمَان (٣) ؟ وما البدع ؟ وما بدع البدع المخدع؟ ومن صاحب البيت الساثر :

وبي مِثْلُ الذي بكِ غير أنيَّ

ألامُ على البكاءِ وتُعذرينا

ولو صدقَ الأعرابي في قوله : كُنْ كالضَّبِّ الأَعورِ يعرفُ قدره، ولا يفارق جحرَه . وأصابَ عمر في قوله : لا تحملوا النفس على المهجور

(١) ترَبَّد : تلون بلون أقرب إلى الغبرة وترَبَّد تغير وتعبس .

(٢) أي صارت الشدة في قرارها : يضرب للشدة إذا نزلت (اللسان) .

(٣) لقب أبي بكر الأزمي بمحمد بن علي بن اسماعيل العسكري المعروف بميرمات من علماء

الغرية من أهل بغداد ، من كتبه : شرح شواهد سيبويه ، والنحو المجموع على

الملل والعيون والتلفيق توفي سنة ٥٣٤ هـ .

فتتركوا المفروض ، ولا تجنبوا المأذون لكم فيه ، فتركبوا المنهي عنه .
يحضرنا قوم لهم ذفر^(١) كصنن الثيوس أعياء على المسك والنفالية ،
يسألون عما لا يعينهم ، ولا يليق بقدم^(٢) ، ولو سألت واحداً منهم عن
كنه أعشى همدان ، أو عن دُعَيْمِيس الرجل^(٣) ، وما اسم النموذج^(٤) في
كلام العرب وكيف يجمع العجان^(٥) ، وكيف يصرف الهجان^(٦) ، وما
الأقذ^(٧) والمرش^(٨) وما الخباء^(٩) والعريش^(١٠) ، وما المشوق والحريش ،
وما المشوف والحريش ، وما الرثية والفريش ، وما الكصيصة^(١١) والقصيصة^(١٢)
والخرمصيصة والهلبيسة ؟ وما الفرق بين ما أخانا فنكرمك وبين ما أنت أخانا
فنهنيك ، الأول بالنصب والثاني بالرفع . ومن الذي يقول :

-
- (١) التثنت ورائحة الإبط المتثنت .
 - (٢) طرائقهم .
 - (٣) دعيميس الرمل : عبد أسود داهية خريت « القاموس » .
 - (٤) النموذج « بفتح اثنون » مثال الشيء « القاموس » .
 - (٥) العجان : الاست وتحت الذقن والفضيب المدود ما بين السبيلين من الرجل والمرأة ،
والعنق بلغة أهل اليمن . والجمع عجن وأعجنة .
 - (٦) هجن ككرم هجنة وهجانة وهجونة : كان هجيناً .
 - (٧) الأقذ : سهم لا ريش عليه والمستوي البري . ويقال ماله أقذ ولا مريش أي
لا شيء له ولا مال .
 - (٨) المرش من السهام : ما ألصق عليه ريش ليحمه في الهواء كما يحمل الطائر .
 - (٩) الخباء : ما يعمل من وبر أو صوف أو شعر للسكن .
 - (١٠) البيت الذي يستظل به . شبه الحيمة .
 - (١١) الكصيصة : الجماعة .
 - (١٢) القصيصة : الطائفة المجتمعة في السكان .

فأرميها بجمود وترميني بجمود
فأرميها وترميني وكل هالك مودي

[عمرو بن عبيد]

ولكن صدق عمرو بن عبّيد شيخنا وشيخ الاسلام ، وشيخ العدل والتوحيد حين قال : لن يكون العبدُ مستكماً لاسم الولاية حتى يسمع الكلمة العوّراء فيجعلها دَبْرَ أذنه ، هذا مع قوله : تقويم الجاهل بما يُنكر أُبسرُ من تعريفه ما يجهل ، ولولا أن عُذري في تقويمك وتأديبك وتهذيبك وتريبتك يغمض على كثير ممن يسمع هذا الحديث لسَلَخْتُ شواتك (١) ، وكسرتُ على رأسك دواتك ، وأزمتك دُكانك وأداتك ، وأطعمتك بَوَلك وخراءك ، اذهب فأنت طليقُ الجهل والقلة ، وعتيق الخيبة والذلة .

[أقوال للصاحب]

وكان إذا انتهى كلامه مع خصم يقول : النظر شعاري ، والجدل دِثاري ، والحقُّ مناري ، والبيان مداري ، والله جاري .
وقال يوماً لحسين المتكلم : إليّ يقول هذا ؟ والجدلُ ردائي ، والنظرُ حدائي ، والتعلمُ وطائي ، والبلاغةُ غطائي ، والذهبُ والفضةُ عطائي !
وقال يوماً آخر لأبي صادق الطبري : أنت يا أبا صادق خفيف الرأس ، شديد الإفلاس ، إذا نصرت النّجار هذيت بالوسواس ، وصدعت رؤوس الناس بالتمويه والإلباس .

(١) الشواة : جلدة الرأس .

وسمته يوماً يقول لابن شاذان : يا أبا الحسن توقّ الرسن ، وانظر إلى
السن ، فما أخوفني انك تسن ، بالقبح لا بالحسن !

فقال له : أيها الصاحب ، كرم طبعك أمان لي من بواتق سَجَمِكَ !

وقال يوماً لابن حمزة : الجَدَل من قبلي ، والنظر من خوالي ، هل
هضبة توفى على جبلي ! فاحفظ نفسك وأعرف خصمك ، وراجع فهمك ،
وجرب بَحَثِكَ (١) . وكانت له 'نيسات' (٢) كبيرة ، لكنها كانت تدفن ولا
تُدَاع ، رهبة ورغبة .

[تفسير لغوي]

قال يوماً : أطلع عليه ، / ولا يجوز اليه ، والمعنى يقتضي عليه لاغير ،
فقال له الضرير النحوي : فما تصنع بقوله عز وجل : « لعلّي أطلعُ إلى
إله موسى (٣) » ، فبرد .

ومن هذا الضرب قال يوماً : جنّ عليه الليل [أجنّه] كنهه الليل
لا يجوز غير هذا . فقال له أبو عمران الحسني : هذا لعمري في الفصيح ،
وإياه ذكر ثعلب واختاره ، ولكن أين نحن من المرار الفقعي وهو [أفصح]
من عالم صاحب الفصيح فإنه قال :

آليتُ لا أخفي إذا الليلُ جتني

سنا النارِ عن سارٍ ولا متورِّ

(١) البخت : الحظ « فارسية معربة » .

(٢) نيسات : مفرد لها نسبة : وهي مصدر نيس أي تكلم وأكثر ما يستعمل في النبي .

(٣) سورة القصص .

فقال : يا أبا عمران أنت جاهل بالعلم وذلك شوه الله وجهك ، ووكل
المقّت والادبار بك ، وأنشد يوماً لشاعر :
وإذا قلت لها جودي لنا

خرجت بالصمت من لا ونعم

قلت : أصحابنا كذا يُنشدون ، ويقال فيه تصحيف ، فقال : إسألح
على أصحابك ولو كان سأل عن وجه التصحيف لكان أشبه بالفضل ، واخلق
بأخلاق (١) وقيل له يوماً : ما القرحان (٢) ؟ قال : الذي لم يخرج به
الجدرمي ، قيل : ولم قيل ذلك ؟ قال : ليسخن الله به عين السائل ،
ويسخّم (٣) وجهه ، ويسجل (٤) عينه [و] يُثقل دينه ، ويدق ظهره ، ويسلط
عليه من يسدّ دبره .

[نوادر للصاحب]

واستؤذن يوماً للوراق الطرسوسي فقال : الطرّ^٥ في لحيته ، والسوس
في حنطته ، ما أصنع بطلعته؟ وتكلم يوماً الخطيب في قول الرجل: لا مال له قليل^٦
ولا كثير^٧ ، ولا مال له قليلاً ولا كثيراً فلم يفهم عنه . وقيل له : ما الفرق
بين با و تا و ثا في مواضعها المخصوصة فتجيب ، وكان السائل ابن المراغي .
وقيل له : لمّ جاز أن زيداً منطلق وعمرو ، ولم يجز ليت زيداً منطلق وعمرو ،
والحرفان متضارعان في إيجاب النصب ؟ فلم يكن عنده جواب .

(١) في الأصل كلمة مطبوسة .

(٢) القرحان والقرحي : من لم يشهد الجرب ، والقرحان من الناس : الذي
مسه القرح .

(٣) سخّم وجهه سوده من السخام وهو سواد القدر .

(٤) سجلت العين : بكت .

(٥) طر الشارب أو النبات : طلع .

[مسائل نحوية وفقهية]

ولقد سهرت معه ليلة في معرفة الفرق بين زيد أفضل اخوته ، وزيد أفضل الاخوة ، وجواز أحدهما وبطلان الآخر ، فكان كالحمار بلادة ، وقلت: للجيلوهي إنك تنال من عرض هذا الرجل حداً فقال : قال النبي صلى الله عليه [وسلم] لي الواجد يُجِلُّ عرضه وظهره ، كما قال : مظل الغني ظلم ، قلت له : إنما وَرَدَ هذا في الواجب كالدين والتمن وما أشبههما . فقال : الأمل دين ، والكرم مطلوب ، وما رأس الله أحداً إلا وفرض عليه الإفضال والإحسان .

[الحث على الكرم]

وقيل لعقيل بن علفثة : لم تهجو قومك ؟ فقال : إن الشاة إذا وردت الماء فلم يُصْفَر لها لم تشرب ، أي إذا لم يجرّضوا على المكارم لم يفعلوها . قال : وأنا أستحسن قول الفضل بن يحيى قال: ما حثني أحد على الكرم كرجل أنشدني بيتين وهما :

عُد لي بمآدتك التي عودتني

روحي فداؤك يا أبا العباسِ

إن الذخائرَ إن أردت ذخيرةً

مننٌ تقلدُها رقابَ الناسِ

[المدح والهجاء]

قال : وأعجب من ذلك قول جرير فيما رواه الصولي إذا مدحتم فاختصروا ، وإذا هجوتهم فأطيلوا فإن الناس لا يلبون الشر .

[تسأول ينيء عن جهل]

ورأيتُه يوماً وقد خُزي وانقطع ظميره فانه قال : قولهم : إنها لابلٌ أم شاء
معناه بل شاء ، فقال له الحسنكي : فما تصنع بقوله عز وجل « أم اتَّخَذَ
بِمَا يَخْلُقُ بَنَاتٍ » ، أترأه أراد به بل اتخذ مما يخلق بناتٍ ، وهذا
كفر ، فما دار لسانه بشيء على حدته وكثرة هذيانه .

[هجاء الصاحب]

وحدثني العسبي وقد جرى ذكر ابن عبّاد :
لقد أتانا حديث ما نكذبه
عن الرسول رويناه بإسنادٍ
أن يُطلبَ الخيرُ ممن وجهه حسنٌ
فكيف نطلبه عند ابن عبّادٍ
مشوه الخلق لا دينٌ ولا حسبٌ
كالقرود ما عنده خيرٌ لمُرقادٍ
قلت : لمن الشعر؟ فانه واقع جداً فقال : هو لادريس بن أبي حفصة .
قلت له : ما عنى غير صاحبنا .

[خبث اللسان وطيب القلب]

وقال له يوماً ابن ثابت : روى البخاري في التاريخ أن سعداً مولى

أبي بكر روى أن رجلاً شكى إلى النبي صلى الله عليه [وسام] صفوان بن^(١) المعطل وقال : إنه هيجاني ، فقال : دعوه إنه خبيث اللسان ، طيب القلب . فما تأويل خبيث اللسان وطيب القلب ؟ فقال البخاري : حشوي فسري ليس عليه معول ، ولا لقوله متأول .

[تجهيل السائل]

وسئل يوماً عن قول الله عز وجل : « فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ^(٢) » كيف نظمه وتماه في المعنى واللفظ ، فصاح على السائل وقال : أتسأل عن التظلم وأنت لا تعرف الرِّقْم^(٣) ولا العَقْم^(٤) ، ولا الصدم ولا الرِّدْم ؟

[مسائل]

وأوصل إليه الوليدي مسائل من جماعة من أهل نيسابور كان فيها : مامنى « إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ^(٥) » ؟ قد علمنا أن من كذَّبَ فهو كاذب . وكان فيها : مامنى قوله : « لَا تَتَّخِذُوا الْهَيْبِينَ اثْنَيْنِ^(٦) » ؟ وقد علمنا أن الهيين لا يكونان

(١) في الأصل : بزيادة ابن .

(٢) سورة الشورى .

(٣) الرقم : ضرب مخطط من الوشي أو البرود .

(٤) العقم : ضرب من الوشي .

(٥) سورة النحل .

(٦) سورة النحل .

إلا اثنين ، ولا قناعة لنا بقول من قال : هذا توكيد ، فإن المطالبة فوق التوكيد ، وأضعف المتكلمين في القرآن من زعم أن شيئاً منه زائد ، وأن كذا وكذا لغو ، وأن هذا على وجه التوكيد ، ونحن وإن كنا نعلم أن التوكيد مذهب العرب وكذلك الزيادة والحذف والاضمار ، فالحكمة المطلوبة غير ذلك .

وعرض عليّ الوليدي المسائل وكان فيها ما معنى قول الله عز وجل : « لا تَجْمَعُنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » ؛ وما وجه قول القائل : لا تجعل ما لا يجعل ، أو جائز أن يقال للإنسان : لا تنظر برجلك ولا تمس بمينك؟ قيل : لا ، لأن هذا لا يخاف . قيل : وكذلك ، لا يجعل الله أحداً مع القوم الظالمين لأن هذا لا يخاف . وما معنى قوله : « ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ »^{٢١} . وقوله : « ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى »^{٢٢} . وقوله : « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي »^{٢٣} ، وعن قوله عز وجل : « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ تُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ »^{٢٤} . وما معنى قوله : « لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ »^{٢٥} ؛ خبرنا عن الآيات أكانت في أفعالهم أو في أبدانهم ؟ وما معنى : « وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ

(١) سورة الأعراف ..

(٢) سورة الحجر ..

(٣) سورة طه .

(٤) سورة طه .

(٥) سورة آل عمران ..

(٦) سورة يوسف ..

[١٢٤] يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ^(١) ؟ وخبرنا عن قوله : « وَمَا مِنْ / دَابَّةٍ فِي
الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا^(٢) . وعن قوله : « فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا
قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَصْلَهُمُ السَّامِرِيُّ^(٣) » . وما معنى : « وَلَا
يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ؟ ولذلك خلقهم^(٤) » ، الأختلاف
أم للرحمة ؟ فان قيل : للرحمة ، قيل : فالخلفون هم الذين خلقهم
للرحمة ، فما معنى : « وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ^(٥) » ؟ فقد أخرج
مَنْ رَحِمَهُ مِنَ الْاِخْتِلَافِ وَاللَّحْمَةَ خَلَقَهُمْ ، فَإِذَا كَانَ كُلُّهُمْ لِلرَّحْمَةِ خُلِقُوا
فَكُلُّهُمْ غَيْرَ مُخْتَلِفِينَ ، لِأَنَّهُ نَفَى عَنْهُمْ الْاِخْتِلَافَ وَهُمْ الْجَمِيعُ ، فَأَيْنَ
المراد بِالآيَةِ ؟

وقال : « إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي^(٦) » وقال :
« قَرِيبٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَالَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا
ذَصِيرٍ^(٧) » أفليس قد أخبر أنه لم يشأ أن يجمعهم على الهدى إذ أمرهم ؟
وما معنى قوله كذلك : « لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ^(٨) »

-
- (١) سورة المائدة .
 - (٢) سورة يونس .
 - (٣) سورة طه .
 - (٤) سورة هود .
 - (٥) سورة هود .
 - (٦) سورة يوسف .
 - (٧) سورة فصلت .
 - (٨) سورة يوسف .

فإن كان عمًّا بهذا الكفار والمؤمنين فما فضيلة يوسف ؟ وإن كان خصًّا يوسف فهو قدحٌ في النحلة .

وقال : « ولا تقولنَّ لشيءٍ إني فاعلٌ ذلك غَدًا إلاَّ أنْ يَشَاءَ اللهُ »^(١) فما شاء الله فَعَلَهُ ، فإن قيل : فكل ما شاء الله كان ؟ فهذا قولنا ، وإن كان يشاء فلا يكون فما وجهُ إيجاب الأمر بأن « لا تقولنَّ لشيءٍ إني فاعلٌ » ؟ إذ العبادُ يفعلون وإن لم يشأ الله .

وما تأويلُ قوله : « أولئك الذين طَبَعَ اللهُ على قلوبهم وسمِعِهِمْ وأبصارِهِمْ »^(٢) ، وقال : « واتَّبِعُوا أهواءَهُمْ »^(٣) فبدأ بالطَّبَع ثم نَسَى بالاتباع ، وهذا يدفع تأويلكم في قوله : « فلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ »^(٤) .

وما تأويلُ قوله : « والذين اهْتَدَوْا زَادَ لَهُمْ هُدًى وَأَتَامَ تَقْوَاهُمْ »^(٥) ، وقال : « هذا بيانٌ للنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ »^(٦) فهو بيانٌ للكفار ، وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ دون الكافرين ، فلمَ تُعَمِّمُونَ ما خصَّ الله ، وتخصُّونَ ما عمَّ الله ؟

وما تأويلُ قوله : « وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

(١) سورة الكهف .

(٢) سورة النحل .

(٣) سورة محمد .

(٤) سورة المتحنة .

(٥) سورة محمد .

(٦) سورة آل عمران .

ولا يزيدُ الظالمينَ إلا خَساراً^(١) . وما تأويلُ قوله : « وَمَنْ يوقْ شَحْ نَفْسِهِ فَأولئكُمُ الْمُفْلِحُونَ^(٢) »؟ وما تأويلُ قوله : « لا رَيْبَ فِيهِ هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ^(٣) »؟ فخصَّ بهدايته أهلَ التقوى ، فإن قيل : هو هدى للكافر أيضاً ، فكيف وقد ختم القصة فقال : « إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ^(٤) » كيف يكون القرآن هدى لمن كان سواء عليه أُنذِر أم لم ينذر؟ ويقال : قال الله تعالى : « خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً^(٥) » فهل ذلك فرض الله بحتمه على قلوبهم؟ فإن قالوا : لا ، فقد كلّفوا أن يبصروا الهدى وقد ختم على قلوبهم ، وأزالوا الفرض عن ختم الله على قلبه ، وعذروه بكفره وجملوه بمنزلة الصبي والمجنون ، وإن أمر ، أن يقال : لو شاء الله لم يُعص لأن الله ذمَّ الذين قالوا : « لو شاءَ اللهُ ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حَرَمْنَا^(٦) » الآية؟ قيل : فما تصنعون بقوله: «وَأَتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ^(٧) » ولو شاءَ اللهُ ما اقتلوا ولقنناهم معصية ، ولو شاءَ اللهُ ما عصوا بأن يمنعهم ، إذ خلّس بينهم وبين معصيته .
وما معنى قوله : « وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ^(٨) »؟ قال الوليدي : وترددتُ شهوراً ليجيب عنه فما فعل .

(١) سورة الإسراء .

(٢) سورة الحصر .

(٣) سورة البقرة .

(٤) سورة البقرة .

(٥) سورة آل عمران .

(٦) سورة الأنعام .

(٧) سورة البقرة .

(٨) سورة البقرة .

وكان في المسائل^(١) أيضاً : كيف 'ينق' العلم عن الله وقد أثبتته لنفسه في مواضع ، والنص لا يحذف ولا 'يتأول' فإن الله تعالى أنزله بملءه وقال : « فَلَنَنْقُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ ^(٢) » وقال : « وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ ^(٣) » وقال : « وَلَقَدْ اخْتَرْنَاكُمْ عَلَى عِلْمٍ ^(٤) » وقال : « وَلَا تَتَّخِذْهُ إِلَّا بَعْلِيهِ » . « وَوَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ^٥ » ومن أعرض عن التنزيل فقد خلع رِبْقَةَ الدين .

[مسائل لغوية ونحوية وشعرية]

وكان إذا رأى كاتباً يقول له : أحكمت الفصح هات : قذت العين ماذا ؟ وهات : لَحِمَ الرجلَ وَشَحِمَ . وما في بابه .
وإذا رأى صاحبَ لغةٍ قال : ما معنى قول الشاعر :
وأقدرَ مشرفِ الصَّهواتِ ساطِ
كَيْتِ لَا أَحَقُّ وَلَا شَيْتِ^(٦)
وإذا رأى نحويًا يقول : على ماذا تَنْصِبُ « نذيراً للبشر » ، فإذا أكثر من هذا وشبهه أنشد :

أرى الناسَ أخلاطاً جميعاً وإِنَّهم

على ذاك شتى والهوى متفرقُ

(١) أي المسائل التي طرحها جماعة من أهل نيسابور ، أنظر : من ١٧٧ مسائل .

(٢) سورة الأعراف .

(٣) سورة الجاثية .

(٤) سورة الدخان .

(٥) سورة طه .

(٦) كتاب الخيل - لأبي عبيدة - من ١٢٥ - ١٢٦ ، واللسان « شأت » الشيت من

الخيل : العنور ، الأحق : الذي يضع رجله في موضع يده ، الساطي : الرافع دنبه في عدوه أو

الراكب رأسه في البر .

ترى المرءَ إن جالستهَ ذا صناعةٍ
وسائرَ ما فيه على ذلك أخرقُ
وتلقى أصيل الرأي ليس لسانه
بمخرجٍ ما في قلبه حين ينطقُ

ورأيته مرة يسأل الحسنكي : ما الطاية والثاية والعاية والآية والراية ؟
وما الناقة القاصية (١) والغاضية (٢) والعاطية (٣) ؟ وكان سريع الردّ على
الانسان ، شديد التعجرف ، وكان ذلك ربما انقلب عليه .

وقال يوماً لبعض العلماء في كلام سمعته منه : أصفيته كذا ، وكذا لا يجوز .
أما قرأت القرآن « [أ] فأصفاكم ربُّكم بالبنين (٤) » إنما يجب أن يقول :
أصفيته بكذا وكذا . فقال العالم : هذا صحيح فصيح ، وغيره جائز حسن ،
أما قرأت في الحماسة قول الشاعر في النسب :

لئن كنت أوطأتني عشوة^٥

لقد كنت أصفيتك الودّ حيناً

فقال بمجرفته : الشعر موضع ضرورة . وكذب ليس هذا
من ذلك .

(١) الهرمة أو المنفردة عن القطيع .

(٢) ناقة غاضية : تأكل الغضى .

(٣) الناقة العاطية : المتطاول برأسها إلى الشجر لتتناول منه .

(٤) سورة الاسراء .

(٥) أوطأه العشوة وعشوة : أركبه على غير هدى .

حدثني الثقة قال : قال يوماً المسيبي في حديثه : وكان يَحْفَرُ من ذلك ويستحيي فقال له : سخنت عينك لا يقال للرجل يَحْفَرُ ، الحفّر للنساء . فقال المسيبي : أيها الصاحب ! التؤدة خير من العجلة ، أين نحن من قول الشمردل في أرجوزته ، رواها أبو حاتم :

لا يسبق النائل منه المنكر

ففي شتاء يستحي ويحفر

فقال له : أخذنا في الحماسة ، وقال مرة : ضرّه وأضرّ به ، وكما لا يجوز [٢٤ب] أضرّه كذا لا يجوز ضرّه به ، فقال له رجل / من خراسان : فما تقول في قوله عز وجل : « وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ »^(١) ، فقال للرجل : إحصأ هذا من ذلك ؟ وأحجل الرجل في صوابه ، ولم يحجل هو من خطئه لسقوطه وجهه ومكابرته وحسده .

وقال يوماً : التكتُّ للعبد ، والخلف للوعد ، ولا يجوز نكت الوعد ، وكذا لا يجوز أخلفت العبد . وكان بيت القرآن والرواية حاضراً أبو الحسن بن شاذان فقال : هذا مرفوض بقوله تعالى : « قل أنخذتكم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهداً »^(٢) ، فبرّد ، وكان بارداً لا رحم الله صداه ، ولا بلّ تراها .

[الاقتراف والاعتراف]

وقال في بعض الليالي : الاقتراف لا يكون إلا في القبيح ، أما سمعت الكلام الذي هو كالمثل ، الاعتراف يمحو الاقتراف ، فقال له مقرأ : قد حضر : التنزيل بأي هذا الحكم ، وينطق بغيره ، قال : وما ذاك ؟ قال :

(١) سورة البقرة .

(٢) سورة البقرة .

قال الله تعالى : « وَمَنْ يَفْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا (١) »
فخزني وقلم .

[الصاحب وأبو الفرج الصوفي]

ورأيتُه ينظرُ أبا الفرج البغدادي الصوفي ، وكان في أذنه وقتر (٢)
في وساوس الصوفية وخطراتهم ، فقال له : يا أبا الفرج إذا كانت
البيئونة مشعوراً بها في عرصة الحق حيث لا عبارة للخلق ، ولا أمان
للجلد (٣) والدق (٤) ، بطنت وسائل المعرفة بحقائق المراد ، واشتبهت أعلام
الحال في تثبيت الاشارة ، وبقيت العبارة على ألف الالف وعادة التألف .
فأجابه أبو الفرج : لا ثبات لمناسب البيئونة في نهايات الاتحاد لزوال شرائط
رسوم الخلق عند تصافي الأرواح بحقائق الحق ، قال ابن عباد : ما أنكر
تلاشي المناسب في نهايات الاتحاد إذا سطعت أنوار الحقيقة بالاتقاد ، وإنما جررت
الكلام إلى غاية تزلق فيه (٥) الأفهام ، وتسيخ فيه الأوهام ، ولا يشرف عليه
إلا من خصه الحق بخصائص الثمائم ، ورفع معارفه عن معارف
'جملة العوام ، ولولا الحال التي امتحنني الحق بها ، وسحبني على
غرائبها وعجائبها في 'عرض صوادقها وكواذبها مما هو مردود إليه ، ومتوكل'
فيه عليه لشققت معك جلباب صدر قد حشي ودائع ، وفتحت لك
أبواب خزائن قد جمعت فيها بدائع ، ولكني بما تراني أذبذب عليه

(١) سورة الشورى .

(٢) وقرت الأذن : تقلت أو ذهب سمعها .

(٣) جل الشيء : معطبه .

(٤) كذا في الأصل .

مأخوذ ، وبما سمعني أددن^(١) حوله بمخوذ^(١) ، وإلى الله المشتكى فهو
الغاية والمنتهى .

ثم قال يا أبا الفرج: هل تعرف من أصحابك من يقول:

بليت بما لو يبتلى أحد به

لأصبح كالعين النفيس بطيش^(٢)

بعشق وإعراض وشوق وعربة

ومحك^(٣) الذي أهوى فكيف أعيش؟

وأعجب من ذا أتى متصوف

ولكن صوف الماشقين حشيش

[أبو السلم والوزيران]

وقلت لأبي السلم نجيحة بن علي : قد لقيت ابن العميد وها أنت تشاهد
ابن عبّاد ، فصيفهم مالي ، فانك رجل بدوي ، وتنظر إلى كل شيء
بفطرتك ، وتنطق عن كل شيء بسابق فطنتك . فقال : أما ابن العميد
- يعني أبا الفضل - فكان بجره لا ينزف ، وبره لا ينسف ، وغباره
لا يشق ، ونسيمه لا ينشق ، وجهه لا يفرك ، وأديمه لا يعرك ،
على بخلي كان به أحال نهاره ليلاً ، وألصق به ثبوراً وويلاً . وأما
هذا يعني ابن عبّاد فليس في استحسانه لاحسانه فضل^(١) لاستحسانه
لإحسان غيره ، قد غرق في بحر نفسه ، فليس يرفع طرفه إلى أحد
من بني جنسه ، وهذا الذي يدل على غاية تقصه .

(١) جذ في سيره : أسرع .

(٢) العين : الصوف أو ما كان منه مصبوغاً .

(٣) محك الرجل : شار وفازع في الكلام وتمادي في اللبابة عند المساومة .

[رأي الجيلوهي في الصاحب]

وقلت للجيلوهي يوماً : كيف ترى ابن عبّاد ؟ فقال : كما
قال الشاعر :

كبرقٍ لاحَ يُعجِبُ من رآه
ولا يسقي الحوائث من لَمَاقٍ (١)
ونظر إليه يوماً وقد طلّغَ في موكبه فتمثل بقول الشاعر:
وأتم كغيثِ السوءِ من يرَ برقه
يشمه ومن يحلُلُ به فهو جادبه

[شعر الصاحب]

ومن شعر ابن عبّاد وهو يتملح به عند نفسه قوله في رجل
تزوجت أمه :

عدلتُ لتزويجه أمّه
فقال فعلتُ حلالاً بمجوز*
فقلت حلال كما قد زعمت*
ولكن سمّحتُ بصدعِ المعجوز*
وقال أيضاً :

زوجت أمك يا أخي
فكسوتني ثوبَ القلق*
والحر لا يهدي الحرّم
إلى الرجال على طبّق*

(١) رواية اللسان «ولا يشقي» ، واللقاء : السير من الطعام والشراب .

[كلام الصاحب في الزهد]

وقلت لأبي الفرج الصوفي البغدادي : أنت شيخ صوفي ، ولك ذكر جميل ، لم يتعاطى هذا الرجل - أعني ابن عباد - الكلام في الزهد والدقائق والاضمار والوساوس وتصفية الأعمال ، هذا علم يذاكر به أصحاب الحرق، وأرباب الخرق، فقال: هذا رجل رقيق رقيق ، وله جاه ومال ، وهو مُطاع ، ولست أصل إلى ما في يديه إلا بالرفاعة ، وأنا ثقيل الظهر بالعيال ، محتاج إلى القوت ، فأحرق^(١) له ساعة حتى أزال منه هذا الحطام، والذي قد تهالك عليه الخاص والعام، وقد قال الأول :

فحماقتُه حتى يقالَ سجيّةٌ
ولو كان ذا عقلٍ لكنتَ أعقلُهُ

[ابن العميد في نظر الصاحب]

وسمعتُه يقول وقد جرى حديث ابن العميد أبي الفضل فقال : لم يكن له مع فضله الشائع ، وأدبه البارِع علمُ الدين ، ولا كان عنده شيء من الشريعة ، وكان لا يعرف القرآنَ وأحكامه وغريبه وإعراجه واختلاف العلماء فيه بضروب التأويل وغرائب التفسير ، والرئيس إذا عُرِي من هذا السَّرِبال فهو ممقوتٌ عند الله تعالى ، مَقْتَلِي^(٢) عند الناس.

(١) أحرقه : وجده أحرق والمقصود هنا تحامق أي تكلف الحماقة .

(٢) قليه : أبفضه .

وكان إذا سمع كلاماً في الدين تَقَلَّ عليه ، وَخَسَّ (١) عنه ، وقطع على الخائض فيه .

[كلام الصاحب في العلم والحكمة]

وكان إذا احتفل في العلم والحكمة ، وما يدل على الخصوصية قال : لِمَ صارت الأشياء المتعادية في حياتها تتعادي بعد مماتها أيضاً وتتنافر كعمي الذئب، وجلد الشاة، وكيس (٢) السنور، وعظم الفأرة ؟ ولِمَ الصبي إذا وُلد أزرقاً فأرضعته حبشية عاد أشهل ، فان دامت عليه عاداً أكحل ولم يتفلفل شعره كما اسودَّت حدِّقته ؟ ولِمَ ينسب الضب إلى العقوق ، والمرءة إلى البرِّ وهما يتشابهان في أكل أولادها ؟

قال: ويقول في دقيق علمه وغامض حكمته: قيل لسنورة : لِمَ تأكلين جراكِ على فرط حبك لها ؟ قالت: يخيِّل الينا أن أكبأدنا أولى بأن تكون فيها من الأماكن التي تحويها .

قال : ومن جملة ذلك أيضاً لِمَ تموت الشكلمة (٣) من الضربة الأولى، وتعيش بالضربة الثانية ؟ ولِمَ صار الفرس لا طِحالَ له ؟ والبعير لا مرارة له ؟ والظليم لا مخَّ لعظمه ؟ ولِمَ ليس في السباع أطيب أفواهاً من الكلاب ، ولا في الوحش أطيب أفواهاً من الطيِّاء ؟ وكيف صار الأسد أشدَّ الحيوان بَجْرًا (٤) ، وكذلك الصقْر ؟ / ولم صار الكلب أسبح من

[٢٥]

(١) خَسَّ : تأخر وتحمى .

(٢) الكيس : المشيمة وهي محل الولد في البطن .

(٣) الشكلمة من الإبل: لون الأشكل منها ، والأشكل ما فيه حمرة وياض مختلطان .

وقيل ما فيه يياض يضرب إلى الحمرة والكدرية .

(٤) البخر : رائحة الفم الكريهة .

سائر السباع ؟ ولم صار حيتان البحر لا أسنة لها ولا أدمغة ؟ ولم صار صفن^(١) البعير لا بيضة فيه ؟ ولم صارت السمكة لا رئة لها ؟ ولم صار في فؤاد الثور عظم ؟ ولم صارت البراغيث تجتمع على السوط متى دهن بشحم قنفذ أو مسح بمصران ابن عرس ؟ ولم صار الزنبور يموت في الزيت ويعيش في الخلد ؟ كما تموت الخنفساء في الورد وتعيش في الروث ؟ ولم صار الضب يأكل الجراد ويسالم العقارب وهي أشبه بها من الماء بلقاء ؟ في حماقات كثيرة ، الجهل بها أحمد من العلم بها .

[تشنيع الصاحب على ابن العميد]

هذا من تشنيعه على أبي الفضل ، وكان مع ذلك ربما قال : كان واحداً الدنيا ! وهذا كما ترى وهو يدخل في باب المناقضة . والأمر الذي تشدد فيه - أعني ابن عباد - وبلغ الحد الأبعد منه ، وزاد على جميع الناس فيه باب المخاطبات ، وأنه كان يطالب أصناف الناس بما ليس في الطاقة ، ولم تجر به عادة ، وكان يقول: هذا الذي به أجد طعم ولايتي ، ولولا هذه اللذة والشهوة ما باليت ان أنقلب في مرقعة خلقي ، وثوب رثي بال أجوب بلاد الله ، وألقى عباد الله ، وآكل رزق الله . ولقد خُدع في هذا عن أموال خطيرة اختلست فتغافل عنها إما عن جهل وجنون وإما عن غيرهما . وأفسد البيان والبلاغة على الناس بهذا السب لأنه كان يسوم كل من كتب إليه أن يكتبني عن نفسه بالعبودية ، وعنه بالمولوية ثم يعرض في هاتين الكنايتين وكتابة الحديث والأمر والشأن .

(١) الصفن : وعاء الخصية .

ومن الحديث عنه أوله أو فيه ، وربما تشابرت كتابات ، وتداعت معانيها على الكاتب فلا تخلص إلى تحقيق مراد ، واستبانة وجه ، وهذا الذي أقوله يعرفه من دفع اليه ، ودُهي به .

[تعليل الالقباب]

قال ابن ثابت : قلت له : كيف كان الخليفة يرضى بأن يقال له : أعزّه الله ، وكذلك ولي العهد والوزير ومن قاد الجيش ، وأغنى في الهبوة (١) ، ومن أمر على شطر الدنيا ؟ وكان ابن الزيات يقال له : يا أبا جعفر ، وابن أبي دؤاد يقال له : يا أبا عبد الله . فقال : كان الناس في ذلك الوقت ضعاف العقول ، صغار الهمم ولم يكن لهم مرائر مغارة ، ولا نفوس فيها غزارة ، هكذا قال . وهذا حفظك الله كلام جاهل لا خبرة له بشيء من أمور الدنيا والدين ، وهو مع ذلك دليل على التذالة والسقوط .

[تعليل المخاطبات]

وجرى يوماً حديث المخاطبات عند القاضي أبي حامد المروروذى (٢) والترتيب فيها ، وامتعاض الناس من التصاريف الجارية بين أهلها فقال : سبب هذا كله إحساس الناس بنقصهم القائم بهم ، الراكد عليهم ، الثابت فيهم ، وطلب دفع ذلك بالترتيب ، ونفيه بالخطاب وليس الطريق إلى ذلك هذا ، بل الطريق إليه الأخذ بأخلاق من سلف من الحياء والكرم والدين والمروءة، وانظر

(١) الهبوة : شبه الغبار يرتفع في الجو .

(٢) أبو حامد أحمد بن بشر المروروذى القاضي من كبار علماء عصره وكان أستاذاً للتوحيد ، وكان هذا يقول : « كان أبو حامد بجرأ يتدفق حفظاً للسير ، وقياماً بالأخبار ، واستنباطاً للمعاني ، وثباتاً على الجدول وصبراً في الحسام » وقد بلغ إعجابه باستاذه إلى أن قال : « إته أنبل من رأيته في عمري » ، توفي سنة ٣٦٢ هـ .

الى السلف الصالح كيف كانوا ، هل خاطبوا رسول الله صلى الله عليه [وسلم] إلا بيارسول الله ؟ وبعد فهل يُخاطب ربنا إلا بالتاء وإلا بالكاف ؟ وهل سمعتَ عبداً لله قد أخلص دينه له قال : إن رأى ربُّنا فعل بعبده كذا وكذا ، وهل الخير كله إلا فيما خصَّ الله به نبيه وأمه وأشاع فيهم حكمته وبركته .

[الصداقة والمصارفة]

ثم قال أبو حامد : وينبغي أن لا يكون بينك وبين أصدقائك صرفاً^(١) لأن الصداقة فوق ذلك ، بل المصارفة فيها يُقذِّبها ويُفسدها ، ويحيل نضارتها ، ويبدل خضارتها ، وقد تستحيل الصداقة بالمصارفة عداوة ، لأن التجني والاستزادة يعثورانها ، والاعتداد والاحتجاج يحققانها ، فأما النظراء والأكفاء فيكفي معهم أن يكون الجواب كالاتداء ، والآخر كالأول ، وكان أبو محمد النباتي يقول في هذا الباب كلاماً طيباً ، وأنا أحكيه لأنه موضعه ، وإن تنفست الرسالة فالغرض الفائدة ، وإن كان سبب إنشائها الغيظ الذي فاض الصدرُ به ، ومرح اللسان بوصفه . وقد قال ابن الرومي :

وما الحقد إلا قوام الشكر في الفتي

وبعض السجايا ينتسب إلى بعض

فحيث ترى حقداً على ذي إساءةٍ

فثم ترى شكراً على حسن العرضِ

إذا الأرض أدت ربيع ما أنت زارعٌ

من البذر فهي فاهيك من أرض

فهذا هذا ،

(١) صرفه : رده ودفعه .

[الحماقة والرعاة والرعونة والجنون]

قال : جميع ما يتقلب الناس فيه من هذه الأمور الفاسدة والأحوال الرديئة يرجع إلى أصول أربعة وهي : الحماقة والرعاة والرعونة والجنون .
فأما الحماقة فما عليه الكتاب من المخاطبات المختلفة التي ليس فيها حقيقة ، ولا ترجع إلى صحة ، لا من جهة الديانة ، ولا من جهة رسم الأولين السادة ، وإنما هو شيء يؤدي إلى القال والقييل ، وإلى المداوة والمغالبة ، ويبعث على الوحشة الشديدة بالاستسعار^(١) الردي ، والوسواس المردي ، لأن الترتيب إن كان بينك وبين من هو دونك فهو على الدلالة على محلك ، وإن كان إلى نظيرك فهو على غاية المماثلة بينه وبينك ، وإن كان إلى من فوقك فهو على توفية ما يستحقه منك . قيل له : ها هنا قسم آخر والداهية كلها منه ، قال : وما هو ؟ قيل الذي يدعى أنه نظير لك وهو دونك ، والذي هو فوقك وتدعى أنه في حدك ، وها هنا يشتد النزاع والقراع ، ويتحطم القنا ، ويتطير الشرر ، ويجد الشيطان مدخلاً منه وتسويلاً به . فقال هذا من فقْد التعاطف في الأصل ، وإلا فالحال مفضية في التحقيق إلى الكلام الأول .
ثم قال :

وأما الرعاة فاتفاش القضاة والشهود ، ألا تراهم كيف يوسعون أكلهم ، ويعرضون جيوبهم ، ويرخون أطواقهم ، وينظرون إلى الأرض تعظماً على من يكلمهم ، وتبرؤاً ممن يخالفهم ، ألا ترى إلى دنياهم

(١) من السر : الجنون .

[٢٣٥] وقرامصتهم (١) / وقلانسهم وعمائمهم وتحبلهم وتفقلهم ، فهم كما قال الشاعر :

وأنتَ بالليل ذئبٌ لا حريمَ لهُ

وبالنهار على سميتِ ابن سيرين (٢)

وإذا تكلم خفض صوته ، وقطع حروفه ، وسبَّح في خلال ذلك وقال : عافاك الله اسمع ، ويا هذا أصلحك الله ، ويا عبد الله الصالح قل خيراً ولا [] (٣) قلبك من الله ، ويا فلان اتق ربك الذي إليه معادك ، أما عليك حَفْظَةٌ من قبل الله ؟ أما للاسلام عندك حُرْمَةٌ ؟ أما تؤمن بالله ؟ أما تؤمن بيوم الحساب ؟ . قال : وأما الرُعونة فما عليه الشطار من هؤلاء الشباب الجلد الذين يرفعون الحجر ، ويدعون الفتوة ، ويكثرون ذكرها ، ويحلفون بها ويسمونها الجوامرديَّة ، ترى أحدهم يضيِّق الأكام ، ويحْدُ الأزرار ، ويقتلُ السبَّال (٤) ، ويمشي مُتْحاملاً ويتكلم مُتصاولاً . قال :

وأما الجُنون فما نجد عليه هؤلاء الذين يتنازعون بينهم قولهم : أبو بكر خيرٌ من عليّ ، وعليّ خيرٌ من أبي بكر ، وإذا حلفوا قالوا : وقدر عليّ ، وحقّ الصديق ، ويقولون : بغدادٌ أطيبُ من البصرة ، وباديةُ البصرة أجفُّ من بادية الكوفة ، والرازي خير من البارقي (٥) ، والسنوماني أحلى من الكرخي (٦) ، وسامراء فوق إرم ذات العماد ، وفلان فصّلي ،

(١) كذا في الأصل .

(٢) محمد بن سيرين البصري التابعي المشهور بالتقى والورع (٥٣٣-١١٠هـ) .

(٣) يعتقد أن في الأصل قصاً .

(٤) جمع سبلة : وهي ما على الشارب من شعر ، وهي أيضاً مقدم اللحية .

(٥) و (٦) أنواع من العنب .

وفلان فرعوشي ، وترى لهم في هذا الطريق اهتماماً ، واتفاقاً ، وقوة ، ومغالبة ، ومشغبة ، ومحاكمة ، وملاطمة . وهكذا إذا جرى حديث الشاعر . والشاعر كالعوني ، والناشيء ، والنافح ، والقاص كالبرهاري ، والقنبري ، وقد صدق هذا الشيخ فقد سمعنا من هذا ما لا يطلع في إحصائه .

[صاحب واحتقار الناس]

وقال لي الزعفراني الشاعر : كيف يكون هذا الرجل — يعني ابن عبّاد — دنيئاً ، ومتألفاً ، وهو يتذلّ العلوية والأشراف ، ويهينهم وهم يمدّون بين يديه فلا ينكر ذلك منهم .

ولقد قال يوماً — وهو يريد الركوب — لبعض حجّابه: نظّف الطريق من هذه الخنافس والجعلان^(١) والحرايب والغربان . فقلتُ لبعض من كان إلى جانبي : مَنْ يَعْنِي ؟ قال : يَعْنِي هؤلاء الواردين من الحجاز لسواد ألوانهم ، وتقلقل شعورهم ، ودمامة وجوههم ، وانحطاط قدودهم ، وقلّة دمائهم ، واختلاف حركاتهم وشاكلهم . قال : أفهذا من التشيع والولاء وما يجب لهذا البيت . ثم يدّعي أنه زيدي ، فاذا قرض قصيدة غلا وزاد على العوني والناشيء^(٢) .

[بداءة لسان صاحب]

وأما أنا فما رأيت أحداً من خلق الله في حديثه وسفّه لسانه . خرج يوماً من دار مؤيد الدولة من باب غامض هرباً من قوم كانوا يرقّبونه

(١) مفرداً جعل : ضرب من الخنافس .

(٢) شاعران معمران زمن التوحيدي .

على الباب المشهور من السحر الأعلى ، وهو وحده بين يديه ركبي ، فعرفته عجوز فقامت في وجهه ، ودعت له ، ومدت يدها بقصة معها . فقال : ما تريدن يا بظراء ، يا بخرءاء ، يا عفلاء ، يا فقهاء^(١) ؛ على هذا إلى أن تباعد ، فبقيت العجوز مبهوتة وقالت : مسكين هذا الرجل قد جُنَّ ، فقلت لبعض أصحابه : ما هذا النذل والفحش والخفة والطيش ؟ فقال: هذا دأبه إذا جاع ! فقلت : أجاج الله كبده وسلبه نعمته .

وحدثني المعتابي : قال : الرجل لا دين له ، سمعته يقول في الخلوّة ، وقد جرى حديث المذهب ، كيف أنزل عن هذا المذهب - يعني الاعتزال - وقد نصرته وشهرت به نفسي ، وعاديت الصغير والكبير عليه ، وابقضت عمري فيه . قلت للمعتابي : ومن أين وقع في هذا الالحاد ؟ فقال : لم يزل مترجماً ، قليل الطمأنينة ، سيء اليقين ، ولكن أهلكه مقمّده^(٢) الذي يقال له النصيبي أبو إسحاق ، وصدق هذا الشيخ .

[أبو إسحاق النصيبي]

كان أبو إسحاق شاكراً في النبوءات ، وكان يصادق بها من صافاه ووثق به ، وهو الذي قال بنكده وخبثته : لو ظفّر يوم الجمل طلحة والزبير وعائشة بعلي بن أبي طالب دار الخلاف بينها ، وكان لا يُعوّل^(٣) أحدهما في الاستظهار على صاحبه إلا بأن يتزوج عائشة ثم يكافح صاحبه بها وبشيعتها الذين فتّوا بعرّجها ، وتشافوا به ، وتحاووا عليه ، وكنا نحن نكوّر عمائمنا ، ونزع

(١) بظراء : طوباة البظر . بخرءاء : كريمة رائحة الفم . عفلاء : من الغفل وهو شيء يخرج من قبل النساء . فقهاء : مؤثث أفقم وهو من تقدمت ثناياه العليا فلا تقع على السفلى .
(٢) خادمه .

(٣) عول على فلان وبه : استعان واتكل واعتمد عليه .

حليالسنا ، ونُسرح لحانا ، ونكتحل ، ونحتفل ثم نجلس في المساجد والجوامع ونحتج لذلك التزويج وتناول كل قول ، ونخرج كل خبر ، ونبلغ كل غاية بكل حيلة (١) .

[الصاحب والتاجر المصري]

وحديث التاجر المصري من الطرائف : قدم شيخ له هيئة ، ومعه ثياب مصر فدعا به ، واشترى منه ، وتقدم باكرامه ، ورفع الحجاب عنه وقال له: أهل مصر أي شيء يغلب عليهم من فنون العلم ؟ ورسائل من "بشعة فنون" (٢) ؟ فقال التاجر : لهم حرص على كل علم ، ونصيب من كل أدب ، وأما الرسائل فانهم لا يؤثرون على ما لابن عبدي كان الكاتب أبي جعفر (٣) شيئاً ، وكان نجاح الخادم قائماً ، فأوماً إلى المصري بأن قل: رسائلك هي العزبية (٤) والمطلوبة، وهي المشتهة والمستعملة ، وكان إيماءه باليد والاصبع والحاجب والشفة ، وهذا كله لا يفصح عن حرف ، فلم يكن يفهم التاجر لشقائه معنى الإشارة ، واقبض عنه ابن عبّاد ، ولم يحاوره وقام ذاك على حالة قد ناله فيها فتور لا يدري ما سببه . فلما كان بعد أيام حضر أيضاً وأعاد القول على الوجه ، فأعاد المصري الجواب المتقدم ونجاح الخادم على رسّمه قائم يشير بمثل ما أشار اليه في المجلس الأول وهذا لا يظن ، وفي أهل مصر سلامة صدر شبيهة بغبابة طبع ، فالتفت

(١) كتب على الهامش : قاتل الله المتكلم في حق أم المؤمنين رضي الله عنها وعن أيها .

(٢) شغفه ، وشغف به شغفاً : غشى قلبه حبه .

(٣) هو أبو جعفر محمد بن عبد الله بن محمد بن مودود من كتاب الدولة الطولونية، توفي سنة ٢٧٠هـ، راجع: الوافي بالوفيات ٣/٣١٥ ، النثر الفني لزي مبارك. Laprose Arabe P:241

(٤) العزبية : من الإبل والشاة التي تعزب عن أهلها في المرعى أي تبعد .

ابن عباد إلى الخادم وقال : إذا كان صاحبك سخين العين ، قطع الظهر ، ابن
بظراء ، إيش يمكنك أن تعمل ! وطرّد المصري .

أفهل هذا إلا رقاعة تحبها جنون صرف ، وسرطان / في الدماغ ، وعدة
في العقل ، وفساد في المزاج ! [٢٦٦]

[الصاحب واليهودي]

واسمع ما هو أعجب من هذا . ناظر بالريّ اليهودي راس الجالوت في إعجاز
القرآن ، فراجعه اليهودي فيه طويلاً وثابته قليلاً ، وتنكّد عليه حتى احتدّت
وكاد يتقدّم ، فلما علم أنه قد سجّر^(١) تنوره ، واسعط^(٢) أنفه ، احتال
طلباً لمصاداته ، ورفقاً به في مخاتلته، فقال : أيها الصاحب ولمّ تتقدّم وتشتطّ ،
ولمّ تلتب وتختلط ؟ كيف يكون القرآن عندي آية ودلالة على النبوة، ومعجزة
عن جهة نظمه وتأليفه وإن كان النظم والتأليف بديعين غريبين ، وكان البلقاء
فيما تدّعي عنه عاجزين ، وله مذعنين ، وها أنا أصدق عن نفسي وأقول عندي:
إن رسائلك وكلامك وفقرتك ، وما تؤلفه وتباده به نظماً ونثراً هو فوق
ذلك ، أو مثل ذلك ، أو قريب منه ، وعلى كل حال فليس يظهر لي أنه دونه،
وأن ذلك يستعلي عليه بوجه من وجوه الكلام ، أو بمرتبة من مراتب البلاغة.
فلما سمع ابن عباد هذا فترّ وخمد وسكن عن حرّكته وانخَمَص^(٣) ورمه به
وقال : ولا هكذا أيضاً يا شيخ ، فكلامنا حسن وبلغ ، وقد أخذ من

(١) سجر التنور : ماله وقوداً وأحماه والمعنى أخذ في الاستعداد للجدل .

(٢) سعطه وسعطه وأسعطه : الدواء أدخله في أنفه .

(٣) خمص الجرح والخمص : سكن ورمه .

الجرأة حظاً وافراً ، ومن البيان نصيباً ظاهراً ، ولكن القرآن له المزية التي لا تبجل ، والشرف الذي لا يُحتمل ، وأين ما خلقه الله تعالى على أتم حسن وبهاء مما يخلقه العبيد بتطلب وتكلف^(١) ، هذا كله يقوله وقد خبا حيله ، وتراجع مزاجه ، وصارت نارُه رماداً مع إعجابٍ شديد قد شاع في أعطافه ، وفرح غالبٍ قد دبَّ في أسارير وجهه ، لأنه رأى كلامه شُبَّهَ على اليهودي ، وعلى عالمهم وحبرهم^(٢) مع سعة حيلهم ، وشدة جدالهم ، وطول نظرهم ، وثباتهم لخصومهم ، فكيف لا يكون شبهة على النصارى وهم أليَنُ من اليهود عريكةً ، وأطفأ نائرةً ، وأقلبهم مراءً ، وأكثرهم تسليماً ، وإنه إن جاز هذا على اليهود والنصارى وهم دَهْماء الناس ، فما ظنك بالمجوس ونصيبهم من الجدل أقل ، وهم عن النظر أعجز ، وعادتهم في المحاجة أفسد، وهكذا الصابئون.

أنظر - أكرمك الله - إلى هذا الرجل العظيم الطاق ، الفسيح الرواق ، الذي لا يرضي أحداً ، كم ينخدع ، وكم يذوب مرة للشاذبائي ، ومرة لليهودي ، ومرة للتاجر المصري ، ومرة للخراساني ، ومرة للبغدادي ، فهل هذا إلا البوق^(٣) ، والراككة ، وضعف التحيزة^(٤) ، وسوء التحيُّل ، وقرب الغور ، وقلة العقل .

(١) على هامش المخطوط : نعوذ بالله من هذا الاعتقاد الفاسد ..

(٢) الخبر : رئيس الكهنة عند اليهود .

(٣) باق الشيء : فسد .

(٤) الطبيعة .

[سعادة الصاحب ونحسه]

قال أبو سليمان المنطقي وعنده يومئذ أبو زكريا الصيمري وقد قرأت عليه هذه الأحاديث : هذا رجل قد سَعِدَ في الدنيا سعادةً عجيبةً مذ ولد إلى الغاية ، وهي سَقِيئُهُ نَحْمَرَهُ وآخر أمره ، لم يُشَكَّ بشوكة ، ولم ينكب بنكبة ، ولم يسمع من أحدي بكلة عوراء ، ولم يُدْفَع في حالة إلى أيديهِ (١) ، وقد بلغ في حياته ما شاء . فقال أبو زكريا : التحس الذي لحقه في عقله حتى صار لذلك رقيقاً ، أهوج ، سييء الأدب ، حديداً ، كثير الكذب ، شديد التلوئن ، عسير المأثي ، ممقوت العجب ، عظيم الكبر ، طويل الخصومة ، دائم المراء ، وقناعة في أهل الفضل ، حاسداً لذوي الأدب ، مقتظاً على ذوي المروءات ، متأناً بالقليل ، معظماً للتافه التزُر وذوي الدين ، مقروفاً بالأُبن (٢) ، هو أعظم من جميع ما أعطيه من المال الكثير ، والمرتبة العالية ، ومن الخيل المسومة (٣) ، ومن الدُور والقصور وما فيها من المين الحور ، والخزائن والذخائر ، والفضة والذهب والجواهر ، والخدم والبيد ، لأن العقل إذا صحَّ فهو المنيحة التي لا يُوازها شيء ، وإذا اختلَّ فهو البلوى التي لا يتلافها شيء ، ولو كان مع هذا العقل عارياً من جميع ما عددناه لعلاهُ بعضُ العامة بكَيْئسه ولطفه ، ولبرَزَ عليه بعضُ أصحاب

(١) أيد كفرح : غضب وتوحش .

(٢) الأبن : العيب والخذ . ومقروفاً : متهماً .

(٣) الخيل المسومة : المرعية ، المرسلة مطلقاً .

الخلق (١) بروءته وظرفه ، ولكن الغنى ربّ غفور ، ولهذا أحسن
الذي يقول (٢) :

ذَرِينِي لِلغِنَى أَسْعَى فإِنِّي
رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمُ الْفَقِيرُ
وَأَبْعَدُهُمْ وَأَهْوَنُهُمْ عَلَيْهِمُ
وَإِنْ أَمْسَى لَهُ كَرَمٌ وَخَيْرٌ (٣)
وَبُغْصِيهِ النَّدِيُّ وَتَزْدْرِيهِ
حَلِيلَتُهُ وَيَبْهَرُهُ الصَّغِيرُ
وَتَلْتَقِي ذَا الْغِنَى وَلَهُ جَلَالٌ
يَكَادُ فَوَادُ صَاحِبِهِ يَطِيرُ
قَلِيلٌ ذَنْبُهُ وَالذَّنْبُ جَمٌّ
وَلَكِنْ الْغِنَى رَبُّ غَفُورٌ (٤)

وله مع الغنى أمرٌ ، ونهى ، وقوة ، وسلطان ، وجدٌ (٥) ، ودولة ،
فكلُّ عَيْبِهِ مَسْتُورٌ ، وكلُّ فَضْلِهِ مَنْشُورٌ .

[الانسان والأجرام السماوية]

قال له أبو سليمان : صدقت ، وهذا لأن الانسان لا يكون في هذا

(١) ثوب خلقان : بال .

(٢) الأبيات لعروة بن الورد راجع : الديوان ١٩٨

(٣) رواية الديوان : ياعنه .

(٤) رواية الديوان : عيبه .

(٥) حظ .

العالم مالكا لتنام ، جمعا لأدوات الكمال ، وسببه أنه تتيجه الكواكب
الغالية ، والأجرام الشريفة من المواد المختلفة ، والعناصر الصافية والكدره ،
فمضى نالته سعاده بالمشتري وصل اليه "نحس" من زحل ، وكذلك الزهرة
والمرئخ ، والعلماء المتقدمون يقولون : المشتري والزهرة سعدا
الفلك ، والزهرة مخصوصة بالسعادة العاجلة ، والمشتري مخصوص
بالسعادة الآجلة .

قال : وهذا وإن كان في الجملة كما قالوا فلالتباس الدنيا بالآخرة مما
يستفاد من المشتري كثير من حظوظ الدنيا ، ويستفاد من الزهرة كثير من
حظوظ الآخرة ، ومن أسرار الزهرة أنها ربما هيأت الوحي ، ومن أسرار
المشتري أنه ربما هيأ اللهو . ومر له في هذا الفن كلام كثير مفيد نداء
عني ، ولم يصحب ذهني إلا ما تسمع .

[سوء طالع ابن العميد]

قال : ولهذا كان نحس ابن العميد في بدنه ، لأنه فقد الصحة في وسط
عمره ، وحين الحال حوئيل ، والمالك مؤئيل ، والعلم زر ، والفهم
ناقص ، والبلاغة خلق ، والكتابة شمساء ، فلما أخذت أحواله تنسق ،
وأسباب فضله تستوسق ضرب في بدنه بالعلل الشديدة ، والأمراض المختلفة ،
وسلب لذة الطعام والشرب ، وبقيت حسرة النعمة في نفسه إلى أن عطب ، وقلته
حظته منها هو الذي كان يبعثه على قلته / الانعام منها . قال ولهذا تجد
آخر جيد العقل ، صحيح البدن ، محمود البيان ، ولكنك تجده مع
ذلك شديد الفقر ، سييء الحال ، مرحوم الجملة ، وعلى هذه

[٢٦ب]

الجديلة^(١) كل من اعتبرت حاله ، وعرفت ما سئله مما وهب له ،
وما أعطيه مما حرّمه ، وهذا ليكون العبدُ أبدأً في منزلة من النقص ،
وحال من العجز يكون بهما ضارعاً إلى خالقه ، طالباً لفائته من مالكة ،
وليكون بين العبد المعجون من الطين ، وبين الله مدبر الخلق فرّق .
وذهب في هذا الفصل كلّ مذهب ، وشفى كلّ غليل ، وأبكى كلّ
عين ، وكان ذا قوة عجيبة في هذه الطريقة ، وذا اطلاع على
أسرار الخافية .

[التوحيد والصاحب]

فأما حديثي معه ، فاني حين وصلت قال لي : أبو من ؟ قلت : أبو
حيّان قال : بلغني أنك تتأدب ؛ قلت : تأدّب أهل الزمان ، قال : فقل لي
أبو حيّان ينصرف أو لا ؟ قلت : إن قبله مولانا لا ينصرف ، فلما سمع هذا
تمرّ ، وكأنه لم يعجبه وأقبل على واحدٍ إلى جانبه فقال له بالفارسية
سفهياً على ما فسّر لي ، ثم قال لي : الزم دارنا ، وانسخ لنا هذا الكتاب
فقلت : أنا سامع مطيع ، ثم قلت لبعض الناس في الدار مسترسلاً : إنما
توجّهت من العراق إلى هذا الباب ، وزاحمت منتجمي هذا الربيع
لأتلصص من حرفة الشؤم ، فان الوراقة لم تكن يبغداد كاسدة ، فنمي
إليه هذا أو بعضه أو على غير وجهه فزاده تنكراً ، وكان الرجل
خفيف الدماغ ، لا يعرف الحلم إلا بالاسم ، والسؤدد لا يكون ولا يكمل

(١) الجديلة : الشاكلة .

ولا يتم إلا بعد أن ينسى جميع ما يسمع ، ويتأول ما يكره ، وتوخذ (١)
بالأسد فالأسد .

وقال أبو سعيد السيرافي : الحلم مشارك لعنى الحلم ، فصاحب الحلم
هو الذي يُعرض عمّا يرى ويسمع كالحلم ، واللفظ إذا واخى اللفظ كان
معناه قريباً من معناه ، وهكذا الخلق والخلق ، والعدل والعدل ، ويست
الرجل ويشت المرأة .

وقال لي يوماً آخر - أعني ابن عبّاد - : يا أبا حيّان من كنتك أبا
حيّان ؟ قلت : أجلّ الناس في زمانه ، وأكبرهم في وقته ، قال : من
هو ويلك ؟ قلت : أنت ! قال : ومتى كان ذلك ؟ قلت : حين قلت لي
يا أبا حيّان ، فأضرب عن الحديث وأخذ في غيره على كراهة
ظهرت عليه .

[بعض من سمي أبا حيّان]

وقال لي يوماً آخر وهو قائم في صحن داره والجماعة قيام منهم الزعفراني ،
وكان شيخاً كبير الفضل ، جيّد الشعر ، مُمتع الحديث ، والتميمي المعروف
بسطل ، وكان من مصر ، والأقطع ، وصالح الوراق ، وابن ثابت
 وغيرهم من الكتّاب والندماء : يا أبا حيّان هل تعرف فيمن تقدّم من
يكنى بهذه الكنية ؟ قلت : نعم من أقرب ذلك أبو حيّان الدارمي . حدثنا
أبو بكر القاضي محمد بن محمد الدقاق قال : حدثنا ابن الأنباري قال : حدثنا

(١) وخذ وخذاً : اتعت خطواته .

ابن ناصح قال: دخل أبو الهذيل العلاف على الواثق، فقال له الواثق: لمن تعرف هذا الشعر:

سَبَّكَ من هاشم سَلِيلُ
ليس إلى وَصَلِهِ سَبِيلُ
مَنْ يَتَعَاطَى الصِّفَاتِ فِيهِ
فَالْقَوْلُ فِي وَصْفِهِ 'فُضُولُ'
لِلْحُسْنِ فِي وَجْهِهِ هِلَالُ
لَأَعْيُنِ الْخَلْقِ مَا يَزُولُ
و'طُرَّة' لَا يَزَالُ فِيهَا
لنورِ بَدْرِ الدُّجَى مَقِيلُ
ما اِخْتَالَ فِي صَحْنِ قَصْرِ أَوْسِ
إِلَّا تَسْجِي لَه قَتِيلُ
فان يَقِفُ فَالْعِيونُ نَصَبُ
وإن تولى فَهِنَّ حَوْلُ

فقال أبو الهذيل: يا أمير المؤمنين هذا الرجل من أهل البصرة يُعرف بأبي حيان الدارمي، وكان يقول بإمامة المفضول وله من كلمة يقول فيها:

أفضله واللهُ قَدَّمَهُ على
صَحَابَتِهِ بعد النَبِيِّ المَكْرَمِ
بلا بَغْضَةٍ وَاللهِ مِنِّي لغيرِهِ
ولكنه أَوْلَاهُمْ بالتَقْدِيمِ

وجماعة من أصحابنا قالوا : أنشدنا أبو قلامه عبد الملك بن محمد الرقاشي
لأبي حيان البصري :

يا صاحبي دَعَا الملام وأقصرَا
تَرَكَ الهوى يا صاحبي خَسَارَه
كم لمت قلبي كي يُفِيق فقال لي :
لَجَّتْ يمينُ ما لها كَقَارَه
ألا أفيقَ ولا أفترَ لحظة
إن أنت لم تَعشَقْ فأنت حجاره
الحبُّ أولُ ما يكون بنظرةٍ
وكذا الحريقُ بداؤه بشراره
يا من أحبَّ ولا أسمى باسمها
إياك أعني واسمعي يا جاره

فلما رويت الأسناد ، وأنشدت الشعر ، وريقني بليل ، ولساني طلق ،
ووجهي مهلّل ، وقد تكلفت ذلك وأنا في بقيّة من غرر الشباب . وبعض
رِيعانه ، فمألت الدار صياحاً بالرواية والقافية ، فحين انتهت انكرت طرفه ،
وعلمت سوءَ موقع ما رويت عنده . قال : ومن تعرف أيضاً ؟ قلت : سمعت
الجفائي الحافظ يقول : أبو حيان رجل صدق ، وهو يروي عن التابعين ،
قال : ومن تعرف أيضاً ؟ قلت : روي الصولي فيما حدثنا عنه المرزباني أن
معاوية لما حُضِرَ أنشد يزيد عند رأسه متمثلاً :

لو أن حيّاً نَجّاً لفات أبو
حيانَ لا عاجزٌ ولا وِكلُ

الحَوْلُ القَلْبُ الأَرَبُ وهَلْ

تَدْفَعُ صَرَفَ المِئَةِ الحَيْلِ

قال الصُّوْلِي : هذا من المَعْمَرِيْنَ المَعْلِيْنَ ، وانتهى الحديث من غير هشاشة منه عليه ، ولا هزءة ، ولا أَرِيحِيَّة بل على الكفهرار الوجه ، ونُبُوُّ الطَّرْفِ ، وقلة التَقْبَلِ .

[مفارقة التوحيد للصاحب]

وجرت أشياء أخر ، وكان عقبها أني فارقت بابه سنة سبعين وثلاثمائة راجعاً إلى مدينة السلام ، بغير زادٍ ولا راحلة ، ولم يعطني في مدة ثلاث سنين درهماً واحداً ، ولا ما قيمته درهم واحد ، فاحمل هذا على ما أردت ، وأنا نالني منه هذا الحرمان الذي قصدني به ، وأحفظني عليه ، وجعلني من جميع غاشية ورده فرداً ، أخذت أملاً في ذلك بصدق القول عنه في سوء الثناء عليه ، والبندىء أظلم ، وللأمور أسبابٌ ، وللأسباب أسرار ، والغيب لا يُطْلَعُ عليه ، ولا قارعٌ لبابه .

[الصاحب والتفسير]

وسألت العماري عنه فقال : الرجل ذو خلة ، ولقد سأله ليلة شيخ من أهل خراسان في الموسم عن قوله عز وجل : « وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِمَّنَ الصَّالِحِينَ ^(١) » ما مرتبة الصلاح المذكور في الثاني من النبوة الثابتة في الدنيا؟ وأضرب عن المسألة ودافع بصدرها ولم يحجر كلمة فيها.

(١) سورة البقرة .

وسأله هذا الشيخ ليلة أخرى عن قوله عز وجل : « وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأْتَمَمْنَا بَعْثَهُ^(١) » وعن الفرق بين هذا الاقتصاص وبين قوله : « وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً » فما أعاد ولا أبداً .

[الصاحب وأعلام عصره]

ولما عاد من همدان قيل له : كيف رأيت أبا الوفاء ؟ قال : سراياً ببيعة ، قيل : فكيف وجدت / عبد العزيز بن يوسف ؟ قال : نكداً وخديعة . [٢٧أ] قيل فكيف وجدت المجوسي : قال : تمثالاً في كنيسة أويعة . قيل : فابن سعدان ؟ قال : ضخم الدسيعة^(٢) له من نفسه جري^(٣) وشيعة . فهذا حديثه في دينه ورأيه وعلمه وعقله ومروءته وصناعته ومذهبه ، وقد طال وكثر ، ولعلّ التقصي لو وقع لازداد طولاً فإنه تفتست أيامه ، وترددت أحاديثه .

سألت ابن الجلبات الشاعر عنه فقال : ما أدري ما أقول في رجل من قرنه إلى قدمه عيبٌ وخزيٌ ونذالةٌ ورقاعة ، على أن الطبع التكد أملك له ، والمادة القبيحة أغلب عليه ، والاقلاع عن المنشأ الممان بالطباع صعبٌ وعسير ، ولعله ممتنع .

وسألت الحاتمي عنه فقال : رأيت رجلاً مدخولاً في جميع الفضائل ، مردوداً على كل التأويلات ، لتيه ، وإعجابه ، وحسده ، ولوثته ، وقلة مصافاته ،

(١) سورة الأعراف .

(٢) الدسيعة : العطية الجزيلة والحفنة الكبيرة ، والقوة .

(٣) الجري : الضامن والجمع أجرياء ويقال : هو جري له أي ضامن .

ونبو رعايته ، وفساد دخلته ، ووقاحة وجهه ، وشدة تعبيره ، وفشو
أبنته (١) وقبح سيرته في مذهبه ، ونصرتة لما لا يعتقد بقلبه . وسألتُ
البديهي عنه فقال : خذ حديثه بما تسمع مني وقس عليه : رأيت يوماً على
بأب شيخاً من أهل الكتابة والأدب ذكر أنه ورد من مصر ، وأنه أقام بها
زمناً ، وأن أصله من بلاد المعجم ، فلما خرج إليه رفع قصة قد كتب على
رأسها عبّاد بن أحمد فأخذ ونظر ثم قال : من سمّاك عبّاداً باسم الأمين رضي
الله عنه ؟ ومن يقول إن هذا اسمك الذي اختير لك عند الولادة ؟ وما هذا
التقرب بالتكذّب وما بينكم وبين أسماء السادة الذين بانوا بها كالنساء بكوا كبها ،
والأفلاك بعجائبها ، أما كان لك بغير هذا الاسم الذي ادّعيته ذرّك (٢) ، ولا
كان لك دون التكرّر به سبب ، ما أحوجك إلى ثقاف (٣) يوجع يافوخك ،
ونتاف يقلع شاموخك .

وسألتُ الصابئ أبا إسحاق عنه فقال : إن صدقتُ في وصفه ساء قوماً، وإن
كذبتُ في وصفه ساءتني ، ولأن أنفرد بالمساءة أحب إليّ . وبعد فنحن
معه كما قال الشاعر :

وتعتبُ أحياناً عليه ولو مضى

لكننا على الباقي من الناس أعتبا

وقلت للضبغي ؟ كيف ترى هذا الرجل وقد خبرته ؟ قال : أمّا جدّمُ

(١) الأبتة : العيب والحقد والعداوة .

(٢) الذرّك : إدراك الحاجة واللحاق .

(٣) ثقاف : آلة من خشب تسوى بها الرماح .

فيربني أنه واحد الدنيا ، وأما جِدُّه فينطق بأنه أنذل من في هذا الوري ، وبعد :
نِعْمَةُ اللَّهِ لَا تَمُوتُ وَلَكِنْ

رَبِّمَا اسْتَقْبَحَتْ عَلَى أَقْوَامٍ

وقلت للمأموني : أصدقني عن هذا الرجل فقد عرفت ليلته ونهاره ،
والليلُ أصدق عن خبايا الإنسان من النهار ، فقال : في الجملة الرجل بلا
دين لفسقه في العمل ، وارتبابه في العلم .

وسألت أبا صادق الطبري عنه فقال : سئل عن البخت والله ما له سميت
يتوجه إليه منه ، ولا بابٌ يُعتمد منه عليه ، بينا هو لك ، إذ صار لعدوك ،
حاله أحوال ، وشأنه شؤون ، وكل ذلك جارٍ على الجنون !

وقلت لابن المراغي : كيف تراه ؟ قال : والله ما يشفي الغليل منه
هجوٌ ولا ملام ، ولا ما هو معروف به بين الخاص والعام ، إلا أن يسقط
من ذروته فيرى في حال سقطته متردداً بين خبطته وورطته .

وقلت للشيخ العالم : أما أنت من بين الناس فقد حظيت عنده ، ونلت منه .
فقال : لو عرفت ما يتقيد على فؤادي من الغيظ عليه لرحمتي في بلائي بأكثر
مما تحسدني عليه في ظاهر أمري . قلت وما تنكر منه ؟ قال : لست أنكر منه
شيئاً واحداً ، وإنما أنكره كله !

وقلت لأبي جعفر الوراق : ما أزال أخرج من حضرة هذا الرجل إلا
وأنت سامم الوجه ، مغيظ النفس ، كأنك لست تخرج من عند من كل أحد
يتمنى أن يصل إليه ، وأن ينطق بين يديه وأن يصنع به حاله ، فقال : والله
لولا التخرج لوصفته بكلام فيه برد حرارة صدري ، ولكن التخرج مانع من
ذلك ، هذا والخوف أيضاً عامل ، بوآخر ما أقول : إنه ساقط من عين الله عز
وجل ، والويل له من الله يوم التجازي والقصاص .

وقلت لأبي الفضل المَرَوِي : كيف ترى هذا الرجل ؟ قال: أراه والله عقوبة من الله نازلةً بأهل الفضل والتكريم ، وليتنا علمنا بأيّ ذنبٍ عوقبنا به فكنا ننهي عنه ولا نصيرُ عليه ، فما عندي أن الله يبتلي عبداً من عباده بخدمته والتعلق به إلا بعد أن ينزع عنه العصمة ، ويؤكل به النعمة ، ويحرم عليه الرحمة .

وقلت للزَّعْرَانِي الشاعر : بالله صف لي هذا الرجل ، فقال : لو أمكنتني الوصف بالنظم كان أعجب إليّ ، فإني رجل شاعر ، ولكن الخوف من ذلك حائل .

وقلتُ للتميمي : أما أصحابك فقد عرفت عقائد قلوبهم في هذا الرجل ، فأين أنت منه ؟ فقال : أجدى اعتقادي فيه أنه خنزير قد أعطي قوة أسد ، فهو يفترس يمينه وشامه ، وكنتُ أرى فيما مضى أن الثمر مكسوب بالقصد حتى شاهدت هذا فتحولت عن الرأي الأول وقلت : بل الشر في بعض الناس لاحقٌ بالطبع .

وقلت لأبي سعيد الأبهري : بين لي أمر هذا الرجل في نفسي أن أعمل كتاباً في أخلاقه ؛ فقال لي : لقد حاولت عسيراً ، أستطيع أن تصف إبليس بجميع ما هو فيه ؟ قلت : لا والله إنما أعوذ بالله منه فقط . قال : فعُدْ بالله من هذا ، قبل أن تعوذ بالله من إبليس ، فإن إبليس وإن كان شريراً فهو عاقل ، وهذا يزيد عليه لأنه شرير وهو أحمق .

وقلت لأبي طاهر الأتَمَاطِي : كل أحدٍ له على هذا الرجل كلام ، وفي نفسه مَوْجِدَةٌ سواك ، فانك واصلٌ إليه إذا أردت ، ونائلٌ من ماله وجاهه

إذا أحببت ، فما قولك فيه ؟ فقال : صبري على رقاوته قد نفّصَ علي جميع ما أنا عليه معه ، على أن رقاوته موشحةً بجنون ، وحنونه صادرٌ عن قدره ، فالرهبة منه قد كدّرت عين الرغبة فيه ، والفيظ عليه قد منع من الاستمتاع به .

وسألت ابن زُرعة الفقيه فقلت : ما أحوجني إلى فُتْيَاك في هذا الرجل؟! فقال : قد والله جبتُ الآفاق ، ولقيت أصناف الناس في الشرق والغرب فما رأيت رجلاً في جنونه أعقل منه ، ولا في عقله أجنُّ منه ، [٢٧ب] وإنه لأعجوبة ، عدوُّه هالكٌ لسلطانه ، ووليُّه خائفٌ من كثرة أوائه ، لا عهدٌ له ولا وفاء ، ولا صدقٌ ولا لطف ، كلُّه هزل ، وجميعه جهل .

وقلت لابن فارس صاحب اللغة : بِمَ تحمَّك على هذا الانسان ؟ فقال بأنه لله عدوٌّ ، وللأحرار مهينٌ ، ولأهل الفضل حاسدٌ ، وللعامّة محبٌ ، وللخاصة مبغضٌ . فأما عداوته لله فلقلّة دينه ، وأما إهانتُه للأحرار فهي شهيرة كهذا النهار ، وأما حسده لأهل الفضل فحرب ذلك بكلمة تبديها ، وأما حبه للعامّة فبمناظرته لهم وإقباله عليهم ، وأما بغضه للخاصة فلاذلاله لهم ، وإقصائه إياهم .

[أبو الفضل بن العميد]

فأما ابن العميد أبو الفضل فإنه كان ثانياً (١) آخر ، وطامة أخرى ، وكان فضله من جنس ليس لابن عبّاد فيه نصيب ، ونقصه من ضربٍ لم يكن

(١) الثأري : الضاد .

له فيه ضرب (١) ، كان يظهر علماً تحته سَفَهٌ ، ويدّعي علماً هو به جاهل ، ويرى أنه شجاع وهو أجهل من المزوفِ صَراطاً (٢) ، وكان يدّعي المنطق وهو لا يفهم بشيء منه ، ولم يقرأ حرفاً على أحد ، ويتشبع بالهندسة وهو منها بعيد ، ولم يكن معه من صناعة الكتابة الأصل وهو الحساب ، وكان أجهل الناس بالدخل والخرج ، ولقد بقي ما بقي في أيامه فما قدم يوماً في الديوان ناظراً في عمل ، أو فاصلاً لحكم ، أو مخلصاً لمشكل ، وكان قد وضع في نفس صاحبه بالحيل الدقيقة والأسباب الخافية أنه واحد الدنيا ، وأن ملوك الأرض يحسدونه عليه ، وأنه لسان الزمان ، وخطيب الدهر ، وأن قلبه فوق السيف ، وتديره فوق الجيش ، ونظره في الدولة والمملكة وأحوال الأولياء وذوي النصيحة كالوحي والنبوة ، وكان معوله في الأعمال على أبي البيع ، وكان مع هذا سيء السيرة ، قليل الرحمة ، شديد القسوة ، وارم الأنف ، عظيم التيه ، شديد الحسد لمن نطق ببيان ، أو أفصح بالعربية ، وسبب بعض هذا بما أذكره لك بشاهد عدل ، وراوية ثقة .

[ابن العميد وأبو طالب الجراحي]

ورد أبو طالب الجراحي الكاتب بالري من العراق ، ولم يكن في عصره أنطق منه لساناً وقلماً ، وهو من بيت علي بن عيسى الوزير فعرض

(١) ضرب : مثيل .

(٢) المزوف : من نرف دمه . وفي النثر : أجهل من المزوف صراطاً ، والمزوف صراطاً دابة بالبادية إذا صبح بها لم تزل تضطرب حتى تموت وفيه أقوال عديدة .

نفسه عليه . فلماً رأى بسطته ولسانه وخطه وطلاقة ولطافته وليوته
وصناعته حسده واغتاظ منه ، وضاعت الدنيا به وعمل على أن يسُمَّه ، ففطن
أبو طالب ، وكان فطناً ، فطوى الأرض ، ووقع إلى أذربيجان ، وصار
إلى ملك الديلم المرزبان بن محمد ، فعرف قدره ، وبسط يده ، وأعلى كعبه ،
ونوه باسمه ، واستطال على ملوك النواحي بمكانه ، ثم انظر إلى ما جرَّ
أبو طالب عليه نجسسته ولؤمه وتقصه وسقوطه ، وهكذا يفعل من انصرف
من بابٍ عزيزٍ ذليلاً ، ومن فناءٍ موسرٍ مذموماً ، وقد كان يمكنه اصطناعه
وتقديمه وإكرامه واستخدامه بأسهل غرامة ، وأيسر مؤونة وأهون مرزبة ،
ولكنه حسده وأبعده ، وليته مع ذلك زوَّده بما يُوجب شكراً ، ويكون
بلاغاً ، ويبقى حديثاً مأثوراً ، وذكرأ جميلاً .

ولقد كتب إليه أبو طالب بعد هذا الحديث كتاباً قرأتُ فصلاً منه
يقول فيه : حدثني بأيّ شيءٍ تحتج إذا طولبت بشرائط الرئاسة التي
اتحلَّتْهَا ، وأكرهت الناس على تسميتك بها ، أتدري ما الرئاسة ؟
الرئاسة أن يكون بابُ الرئيس مفتوحاً ، ومجلسه مغشياً ، وخبره مُدركاً ،
وإحسانه فائضاً ، ووجهه مبسوطاً ، وكنفُه مزُوراً ، وخدمه مؤدباً ،
وحاجبه كريماً ، وبوابه رفيقاً ، ودرهمه مبذولاً ، وخبزه مأكولاً ،
وجاهه معرضاً ، وتذكرته مسوَّدة بالصلوات والجوائز وعلامات قضاء
الحوائج ، وأنت فبابك مقفل ، ومجلسك خالٍ ، وخيرك مقنوط منه ،
وإحسانك منصرفٌ عنه ، ووجهك عابسٌ ، وبنانك يابسٌ ، وكنفك حرج ،
وخدمك مذموم ، وحاجبك هرَّار ، وبوابك كلب ، ودرهمك في الميوق ،
ورغيفك في منقطع التراب ، وجاهك موفور عليك ، وتذكرتك محشوة بالقبض

على فلان ، وباستئصال فلان ، وببني فلان ، وبسُم فلان ، وبالذس على فلان ،
وبخط مرتبة فلان .

هل عندك أيها الرجل المدعي للعقل ، المفتخر بالمال ، والمتعاطي
للحكمة إلا الحسد والنذالة ، وإلا الجهالة والضلالة؟ ، تزعم أنك من شيعة
أفلاطون وسقراط وأرسطوطاليس . أو كان هؤلاء يضمون الدرهم على
الدرهم ، والدينار على الدينار ، أو أشاروا في كتبهم بالجمع والمنع ،
ومطالبة الضعيف والأرملة بالعسف والظلم ، فيامسكين ! استحي فانك
لامع الثريمة ولا مع الفلسفة وقد خسرت الدنيا والآخرة ، هذا عقلك
الذي يخاطب الناس برفعك التراب على رأسك ، والسُخام^(١) في وجهك ،
أمن كرمك وحزمك أن يفدّ عليك مثلي رجل من آل الجراح ، بيت
الوزارة والسؤدد ، ينبري لمروفاك ، ويخطب الخدمة بين يديك ، والقيام
بأمرك ونهيك ، بحظّ ميسور ، ونائلٍ منزور ، فتحسده وتبعده وتحمّله
وتهمله وتواطىء على سمّه وقتله ، يا ويلك ! فحقى كنت أنت وأباؤك
يستحقون خدمة رجل من آل الجراح ، كأن بيتك يقمّ ما سألنا عنه ،
ولا وقفنا عليه ، أليس أبوك كان قواداً ، وأبوه كان نختالاً ، ها أنا
قد انقلبت عنك خائباً ، أفضعتُ وبرّتُ وكسدتُ ؟ لا والله ، بل
قيض الله لي ملكاً من ملوك الدنيا حتى اشتمل عليّ ، ونظر بعين الكفاية
إليّ ، وأهلني لحدّ زائدٍ على محلك ، ورثبني في حالٍ هي أشرف من
رتبتك ، والله أكرمُ من أن يضيّع مثلي أو يحوجني إلى مثلك ، فبؤ-

(١) السخام : سواد القدر ..

الآن بخساستك ، والصق بالدقعاء (١) ندماً على فعلك ، وثق بأن لساني
وقلمي لا يزالان يريان عرضك ، ويخطبان بدمك ، ويلهجان بهتك سترك ،
ويبعثان الناس على معرفة خزيك وسقوطك . أتظن يا جاهل أنه إذا ركب
قدّامك حاجب ، وسار معك راكب ، وقال / الناس : أيها الرئيس [٢٨]
إنك قد ملكت الكمال ، واستحققت خدمة الرجال من غير إسمافٍ ،
ولا إفضالٍ ، هيئات ! المجد أحسنُ مساً من ذلك ، وسأشق النظم
والنثر في أكناف الأرض بما ينكشف به للصغير والكبير نقصك ، وتزول
الشبهة عن القلوب في أمرك إن شاء الله . هذا أفادنيه جريج ، وكان شاعراً من
أذربيجان ، فهذا هذا .

[صبر ابن العميد على ابن ثابت]

قلت للخليلي : لم كان يصبر أبو الفضل على ابن ثابت الكاتب
المهمداني وهو [ابه (٢)] ونكال ، لاخط ، ولا معرفة ، ولا أدب ،
ولا صناعة ، فقال : لأنه علم أن غيره لا يصبر على ذلك الرزق الموتح^٣ ،
والجدوى القليلة ومن أجل ذلك قال مسكويه :

يقولون إن ابن العميد محمداً

يؤول إلى رأيٍ وثيق المناب

فقلت : دعوه قد عرفت مكانه

بطلعة منصورٍ وخط ابن ثابت

(١) الدقعاء : التراب والأرض لا نبات فيها .

(٢) كذا في الأصل .

(٣) وتتح يتح عظامه : قلله .

ومنصور هذا خادم رأيتَه ، كان من أقبح الناس وجهاً ، كثير الهذر ، سيئ الأدب ، وكان من نُقم من الأحرار ، ولما ذمَّه صاحبه ووليَّ نعمته بسبب هذا الخادم للشهرة الفاضحة ، والتبكت الشائع قال أبو الفضل بحكمتِه: ما أصنع؟ والله ما وجدتُ في هذه المدة لأيري غلافاً مثله ، ولا بدءاً لي منه ، فليكن من شاء ، والهوى لا يحلو إلا مع العذل .

انظر بالله ربك إلى هذا الحكيم بزعمه ، واسمع قوله وهو يزعم مع هذا أن أرسطاطاليس لو رآه لرجع عن آراء كثيرة ببيانه ، ولغير كثير من كتبه بمشورته ، وكان يقول بقبحته ، وقلة اكترائه وتهاونه بمن حوله : أما الموسيقى فانه يموت بموتي ، ويُفقد بفقدي ، هذا وهو لم يقرأ حرفاً منه على أحد من خلق الله ، وما أوحى إليه به ، ولا يجوز أن يفتح 'مغلقه جزافاً عليه أو على غيره ، وإنما كان يستجيز هذا القول في الموسيقى خاصة لأنه لم يبق منذ دهرٍ من يدل من هذه الصناعة على حرف بتحقيق ، أو يأتي فيها بوصف تام لذهابه ودروسه^(١) ، والعلم كلُّه أبقاك الله قد دخله الضيم ، وغلب عليه الذهاب لقلّة الراغبين ، وفقد الطالبين ، وإعراض الناس عنه أجمعين ، والموسيقى من بين أجزاء الفلسفة فُقدتُ 'جملةً' ، لأنه لا يوجد علمه إلا بعمل ، ولا يكمل عمله إلا بعلم ، والعلم والعمل في صناعة واحدة قلماً يجتمعان على التناسب الصحيح .

وكان يعمل كتاباً سماه الخلق والخلق فمات سنة ستين وهو في المسوِّدة ، وقد رأيت ورقاتٍ منه ، ونقلتُ إلى البصائر حروفاً كانت فيه أفادتها أبو طاهر الوراق ، ولم يكن الكتاب بذاك ولكن جعص الرؤساء خبيص^(٢) ،

(١) درس الرسم دروساً : أي عفا .

(٢) الحلواء المخبوطة المعروفة بالخبيصة .

وَصَنانُ الْأَغْنِيَاءِ نَدَى^(١) ، وَخَنَفَسَاءُ أَصْحَابِ الدَّوْلَةِ رَامُسْتَه .

[حَدِيثُ الْغَوْرِيِّ عَنِ الصَّاحِبِ]

وَقَلْتُ لِلْغَوْرِيِّ : حَدَّثَنِي عَنْ ابْنِ عَبَّادٍ فَأَنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ ، وَخَافِيَهُ وَبَادِيَهُ ، وَعَنْ ابْنِ الْعَمِيدِ فَقَدْ اخْتَبَطْتَ^(٢) وَرَقَهُ ، وَاتَّجَعْتَ صَوْبَهُ^(٣) فَقَالَ : فِي ابْنِ عَبَّادٍ قِحَّةٌ مَأْبُونٌ ، وَلَوْثَةٌ مَأْفُونٌ ، وَهُوَ ابْنُ وَقْتِهِ مَعَكَ ، وَتَنْجِيحَةُ سَاعَتِهِ لَكَ ، لَا يَعْرِفُكَ إِلَّا عِنْدَ امْتِلَاءِ الْعَيْنِ بِكَ ، وَلَا يُعْطِيكَ إِلَّا إِذَا أَخَذَ أَكْثَرَ مِنْهُ مِنْكَ ، يَشْتَرِي عِرْضَكَ وَلَا يُؤَلِّيكُ حَقَّكَ ، وَيَبْلُغُ بِلِسَانِهِ مَا لَا يَسْمَعُ لَكَ بِعَشْرِهِ مِنْ فَعْلِهِ ، ثُمَّ الْوَيْلُ لَكَ إِنْ أَصَبْتَ فِي كَلَامِكَ ، وَالْوَيْلُ لَكَ إِنْ أَخْطَأْتَ ، عَلَيَّ أَنْ ائْخَطَأَ يَعْطِفُهُ عَلَيْكَ بِالرَّحْمَةِ ، وَالصَّوَابُ يَحْمَلُهُ فِي مَعَامَلَتِكَ عَلَى الْحَسَدِ وَالْإِتْقَامِ ، يَرِيدُ مِنْكَ إِلَّا تَذَكَّرَ فَاضْلًا عِنْدَهُ ، وَإِنْ ذَكَرْتَهُ فَضَّلْتَهُ عَلَيْهِ ، وَإِنْ ذَكَرَ الشَّعْرَ فَقُلْ : أَيْنَ مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ مِنْكَ ، وَإِنْ ذَكَرَ النَّحْوَ فَقُلْ : وَصَلْتَ إِلَى مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ سَيُوبِيهِ ، وَإِنْ ذُكِرَ الْبَيَانُ فَقُلْ : فَيْكَ أَعْرَاقُ مَتَوَاشِجَةٍ مِنْ قَسِ بْنِ سَاعِدَةَ . وَلَعَلَّهُ كَانَ فِي قَسِ عِرْقٍ مِنْ آبَائِكَ الْفُرْسِ ، وَإِنْ ذُكِرَ الْكَلَامُ فَقُلْ : لَوْ رَأَىكَ النِّظَامُ لِلزَّمِّ بِأَبِكَ ، وَحَمْدُ غَاشِيَتِكَ ، وَإِنْ ذُكِرَ الْفَقْهُ فَقُلْ : أَيْنَ أَبُو حَنِيفَةَ عَنْ هَذَا التَّحْقِيقِ وَالتَّدْقِيقِ ، وَابْنُ صَاحِبَاهُ مُحَمَّدٌ وَأَبُو يُونُسَ عَنْ هَذَا التَّطْبِيقِ وَالتَّعْمِيقِ ، فَأَمَّا الْجَاحِظُ فَمَا وَزَنَهُ عِنْدَ مِثْقَالِكَ ، وَأَيْنَ شِرَارُهُ مِنْ نَارِكَ ، وَهَلْ يَسْبَحُ فِي بَحْرِكَ ، وَهَلْ

(١) الندى : عود يتبخر به وقبل العنبر .

(٢) اختبط الشجرة : شدتها ثم تفض ورقها .

(٣) الصواب : الغمام والسحاب والغطاء على التشبيه .

يتناول إلى سمالك ، لو رآك لرشاك ، ولو شاهدك لم ينتسب إلا إليك . وأما
ابراهيم بن العباس الصولي فأحسن ما نختار له أن يكون من المختلفين إليك ، ومن
الحاذين على مثالك ، والآخذين عنك ، وأما الدواوين فالكلواذي يسلمها لك ،
ويتبرأ من الأعمال بسببك ، ويطرح الرسوم القديمة معك ، وبأخذ فيما تبتدعه
وتضعه لأنه إن نازعك افتضح على يدك ، والعاقل لا يلقي يده إلى التهلكة ،
ولو وثق أنك تقبل مَصانعتَه لصانعك ، ولو علم أنك تبقي عليه لخدمك ، وأما
الخطأ فابن مقلته ، وابن أبي خالد، والبربري ومن تقدم وتأخر أعطوك الضمة
فيه ، وأظهروا لك الاتقياد له .

[طباع الوزيرين]

قال : ومن مناقبه في مثالبه أنه يقنع منك في مدحك بالنفاق ، وفي
ثنائك عليه بالرياء ، وفي نصرة سيرته بالحيلة ، ويرضى في هذا كله بعفوك دون
جهدك ، وبما يخفّ دون ما يتقل ، وليس كذلك ابن العميد فإنه لا يجب أن
تمدحه إلا بأكرم الخصال ، وأشرف الفعال ، وأن يكون قولك عن عقد ،
ووصفك عن يقين ، وإخبارك عن تعجب ، وتعجبك عن استبصار ،
واستبصارك عن معاينة ، وفيه مع ذلك كياسة مخنث مجفو ، وسفاهة ضرة رعناء
ونعمة كنة سليطة .

[ابن العميد والشاعر]

وحدثنا القاضي ابن عبد الرحيم ، وكان خصيصاً به وقهرمان داره، ومشرفاً
على غوامض / أمره . قال قصده شاعر في بعض الأيام ، ووصل إليه ، [٢٨ب]
وأشده ، وأصغى إليه ، وانصرف بأملٍ وتردد على ذلك فلم يرَ ما يجب وتعلق

بي ، فقلت له صاحبه رويين أغلب الناس عليه ، وأوجههم عنده ، فلو لذت
به رجوت لك ، فآزمه وسأله الكلام في أمره ، فوعده بذلك قال رويين :
فقلت له- يعني ابن العميد- : هذا الشاعر البائس قد سمعت منه شعره ، وأسمت
أمله ، وهو على ذلك يفتدو ويروح ، ويشكو وينوح ، فلو أمرت له بشيء
كان أقطع لشعبه ، وأجلب لشكره ، وأدعى إلى السلامة من عتبه ، وهؤلاء
بُرْدُ الآفاق ، وأهم اللحاح ، والطلب ، والتذرع باللسان ، والتوصل إلى
كل حال بكل حيلة . فقال : وما يريد ؟ إن شاء أجبته عن قصيدته في رويها
بعدد آياته وعروضه وأعيان معانيه وأزيد ، وإذا رددت شعراً بشعر ، فليس
عليّ بعد ذلك لوم ، ولا أنا مقصّر ولا ظالم . قال : فقلت له : هذا سمح
شنيع ، والناس لا يقارون عليه ، ولا يرضون به ولو ذهب أرواحهم ،
وتلفت أنفسهم ، فقال : يا هذا ! هوّن عليك ، وأقل من حديثك ، فقد
ضيعنا في هذا مالاً ، وأنا بعد في لذع الحسرة على ذلك لأن الشباب له عُرَام ،
ولم يكن لي في تلك الحال تجربة ولا يقظة ولا معرفة بحق المال ، والقيام
بمحفظة إذا حمل ، والشغل بجمعه إذا انتقل ، ونعوذ بالله من الحور بعد الكور .
المال عافاك الله عدل الروح ، وكال الحياة ، وقوام الظهر وسرور
القلب ، وزينة العيش ، ومجنّ الحوادث ، وحبّ اللذات ، ومُتعة الإنسان
ومادة البقاء ، ومن لا مال له لا عقل له ، ومن لا عقل له فلا حياة له ،
ومن لا حياة له فلا لذة له ، ومن لا لذة له فهو في قبيل المدوم . قال رويين :
فعلت أنه بعد هذه الخطبة لا يسمح بدرهم واحد ، فوصلت الرجل من مالي

بشيء ، واعتذرت اليه ، وبلغني أن ذلك الشاعر مزق عرضه ،
وهتك ستره .

[حادث محزن]

ولقد شاهدت في مجلسه شاعراً من الكرخ يعرف بمؤبوه (١) ، وكان
جيد اللسان يقول له : أيها الرئيس ! قد لزمت فناءك لزوم الظل ، وذلت لك
ذل النعل ، وخدمت أملي فيك خدمة ناصحٍ لنفسي فيما التمسْتُ من الصلة
والجائزة ، ولك فيما أوفدتُ عليك من الثناء والمدحة ، وما بي والله ألم الحرمان ،
ولكن شماتة قوم صدقوني فاتهمهم ، ونصحوني فأغششتهم ، بأي وجه ألقاهم ،
وبأية حجةٍ أذافِعهم وهل حصلتُ من مديح بعد مديح ، ومن نظم بعد نثر ،
ومن رواحٍ بعد بكور ، ومن غسيل أطهار ، وإخلاق سربالٍ إلا على ندمٍ مؤلم (٢)
وبأسٍ مسقم ، ومن تأفف لازم وضجر دائم ، فإن كان للنجاح علامة فما هي ؟
وأيْن هي ؟ قد والله طالت غيبتني عن أهلي ، وعن السائلين عن حالي في هذه
المعاملة التي عاقبتُها الخيبة بعد المأطل ، والحرمان بعد الإطعام ، والتحصير
بعد الوعد ، وقد بسط الله كفك ، وجعل الخير والجود والكرم جارية في
أسرارها ، ونابعة من جوانبها ، ففِضْ أيها الرئيس ! فإنما أنت بحر ،
واسكب فإنما أنت سحاب ، واطلع فإنما أنت شمس ، واتقَد فإنما أنت
نجم ، ومَرَّ فإنما أنت مطاع ، وهبَ فإنما أنت واجد ، واهترَ فإنما أنت

(١) في وفيات الأعيان ٥٨/٢ ان بطل الحادثة هو أبو نصر عبد العزيز بن نباتة السعدي ،
وفي مكان آخر هو ابن مودة .

(٢) في هامش الأصل : مؤسف .

ماجد ، وصل فانك جواد ، والله ما يقعد بك خور في الطباع ، ولا
تغل في العرق ، ولا قدح في الأصل ، المخ قصيد ، والجبل حصيد ،
والزند وار ، والفروة خضراء ، والعود مورق ، والمال جم ، والأمر
أجم ، والسلك دقيق والنسيج صفيق ، والطاراز أنيق ، وما هو إلا أن
تقول حتى يُسمع ، وما هو إلا أن تأمر حتى يُمتثل ، لأن أمرك على الفور ،
وحكمك ماضٍ بالعدل والجور ، فما الذي يثني عزمك عن الكرم ، ويفلّ
حدك في الجود ، ويقصّر بأعك عن المجد ، ويسدّ أذنك عن أحاديث
غد ، إن الذين تكره لهم ما هجوا به كانوا مثلك ، وإن الذين تحسدم على
ما مدحوا به كانوا من طينتك ، فزاحم بمنكبك أضخمهم سناماً ، وزد
على من كان أكبرهم كاهلاً ، وأعلام يفاعاً ، وأسطعهم شعاعاً ،
وأزهرهم (١) ناراً ، وأكثرهم زواراً . فلما بهره هذا الكلام الشبي ،
في ذلك المجلس البهيّ 'شده' (٢) و'عله' (٣) ولم يدّر ما يقول ، وأطرق
هنيهة ثم قال : هذا وقت يضيق عن الإطالة منك في الاستزادة ، وعن
الإطالة مني في المعذرة ، فاذا تواهبتنا في الحال ما دفعنا إليه ، استأنفنا في الثاني
ما تتحامد عليه .

فقال الشاعر : أيها الرئيس هذه نفاثة صدر قد جوي (٤) منذ
سنة ، وفضلة لسان قد قدم منذ زمان ، وقد تقدم العمل ، والجزاء

(١) زهرت النار : سطعت .

(٢) شده : دهش وشغل وحير .

(٣) عله : تخير ودهش .

(٤) جوي : أصابته حرقه وشده وجد من عشق أو حزن .

موقوف ، والرجاء عليك ، والأمل غادر ، والحال بعرض سوء ، والشامت قد شمّر للتأنيب ، ولا صبر لمقبل على 'مدل' إلا على وجهٍ يحتمل ، فإن رأيت قدّمت المتأخر ، وقرّبت الشاسع ، وجعلت إجزاء العطية في تعجيلها ، وإكرام طالها في تسهيلها ، فلا مانع إن لم يكن ذلك من شدة جد ، أو تقاعس جد . فقال : يا هذا قد كررت العتب ، واجترت الملام ، وما استوجب هذا من أحدٍ من خلق الله ، ولقد فارت العميد بدون هذا حتى ثار من ذلك عجاج قاتم ، واتهينا منه إلى قرى عاتم (١) ، ولست ولي نعمتي فأحتملك ، ولا صنيعتي فأغضي عليك ، وإن بعض ما قررت في أذني (٢) لما ينقض مرّة الحليم (٣) ، ويعدد شمل الصبر ، ولست بمن يطيش لأدنى صائح ، ويتهلير لأول بارح ، والله ما دعوتك إليّ ، ولا أغريتك بي ، ولا سألتك تقرّظي ، ولا اتعبتك في قصدي ، وإن الظلم منك ، وكذلك العتب منك ، وأنا على كل حال ماليء ، فلا تجمع بين الظلم والتظلم ، والجنابة والتجنتي ، وخذ نفسك بالزاهة والمعاف ، فانهما لا يقفانك هذا الموقف ، ولا يعرضانك على هذا المجلس ، ورزق الله متتاب وغادٍ ، واطلب الغنى منك فانه عندك أكثر منه عند من تظلمه وهو لم يظلم ، وتعاقبه وهو لم يجرم .

[١٢٩]

(١) في وفيات الأعيان : دفننا إلى قرا عاتم ، ولجأ قاتم . وقرى عاتم ومعتم : بطبي . مس . قال الشاعر :

فلما رأينا أنه عاتم القرى

بخيل ذكرنا لية الهضم كردما
« اللسان »

(٢) في وفيات الأعيان : ساممي .

(٣) في وفيات الأعيان : مرة الحليم .

فقال الرجل : ما كررتُ العتب حتى أكلت النوى المحرق في انتظار
سلكك ، ولا اجتررتُ الملام حتى خانني صبري في توقع جائزتك ، والغني
إذا مطلق ظم^(١) ، والواجد إذا لوى أثم ، والجواد إذا منع أيتم ، ولعمري
ما دعوتني إليك ، ولا أغريتني بك بكتاب خصصتني وزبقتني^(٢) فيه ،
ولا سألتني تقريرتك ، ولا أتعبتني في قصدك برسول أرسلته إلي ، ولكن
لما جلست في صدر هذا الايوان بأبنتك ، وعظمتك ، وكبريائك ، وجبروتك
وقلت : لا يخاطبني أحد إلا بالرئاسة ، ولا ينازعني أحد في حقوق
السياسة^(٣) ، فإني كاتب ركن الدولة ، وزعيم الأولياء بالحضرة ، والقيّم
بمصالح المملكة ، فقد أهبت الناس إلى بابك ، وأغريتهم بخدمتك ، وأطمعتهم
في مالك ، وكأنك قد خاطبتهم بلسان الحال ، وإن لم تكن خاطبتهم بلسان
المقال ، فأنا ذلك السامع برئاستك ، والشاهد بفضلك ، والراغب في
خدمتك ، والراجي لخيرك ، سمعت فأجبت ، وحضرت فمدحت ، ووقفت
فأثنت ، وأصنيت فدمعت ، وأذيت فاستحسنت ، ولم يبق بعد هذا
كله إلا أن يكون عطاؤك حرماناً ، ووعدك لياناً ، ولا جودك انتحالاً ،
ولا فتوتك اقتتالاً ، ولا ماؤك سراياً ، ولا جودك ضباباً ، ولا خدمتك
مندمة ، ولا الحاصل من معاملتك مظلمة ، وإن الرجل الحر متى علم أن
صاحبه لئيم الطباع ، خسيس الخلق ، مرقع المنصب ، ملبوس المحشدة ،
وأن الله تعالى لم يجعله من معادن الرزق ، ولا من أبواب النجاح ، فإنه
لا يطمع فيه ، ولا يتواضع له ، ولا يعدّه فيمن يعدّه ، ولا يشغل لسانه

(١) في وفيات الأعيان : لئيم .

(٢) زين : دفع .

(٣) في وفيات الأعيان : خلق في أحكام السياسة .

مدحه ، ولا يعمُّ أمله بقصده ، ولا يضيِّع قوله في وصفه ، بل يرى أن
اقتحام الجمر ، وسفّ التراب ، وزرع الروح ، أهون من ذلك وأعز ،
ولعن الله الأدب إذا كان بائعاً مُذنباً^(١) ، ومشتريه مُهيناً لقدره ، ومما كسأ فيه
وتقوض المجلس وقام^(٢) الناس ، وانصرف الشاعر ، فحدثني شمسويه أنه
طلبه بعد ذلك ليصله فرجع إليه أنه ذهب بين سمع الأرض وبصرها .

[مفاصلة بين الوزيرين]

وسألت الجرجاني عن ابن عبّاد وابن العميد فقال : ما بيننا بكرم كبير ،
وفعال مشهور ! ولا فائدة في نثر لؤمها ، وخساسة طباعها . بلغ من
فلسفة هذا أنه أمر بقطع لسان رجل شتم بلد فتم غضباً لبلده ، وتبهاً بوطنه ،
وشدّ آخر في داره إلى شجرة وما زال يُضرب إلى أن مات وطرحه في
جَوَابَةِ^(٣) حتى أكلته الكلاب . فقال صاحبه : انظروا إلى هذا الذي قلنا
إنه أعقل الناس . حدثني بهذا الحرّوي ثم قال : وكان ابن عبّاد كما قال
أصحابنا : هو لين شجب^(٤) ليس عنده إلا القال والقليل ، والكبر والتخيل ،
يحبُّ العامة ، ويرفع نفسه عنها ، ويحسد الخاصة ويجعل نفسه منها ، ويستطيل
بالعلم وهو قريب القعر منه ، ويدّعي الردّ على الأوائل وهو لا يعرف حرفاً
من نظمهم ، ويتحلى بالعدل والتوحيد قولاً ، ويتحلى بالجور فعلاً ، ويتشبع
بالأدب وهو سيء الأدب ، يتهم بلسانه مستطيلاً ، ويقتحم الجرائم مستهيناً ،

(١) مذنباً : مهيناً .

(٢) في وفيات الأعيان : ماج .

(٣) الجوبة : الحفرة .

(٤) كذا في الأصل .

لو وقع عليه الخضم لجرّده للناس ، وأظهره للضغار والكبار ، ولكنه في خفارة
جدة ، وحسن دولته ، على إن الجهابذة قد تقدوه وبهرجوه وتركوا
التعامل به ، وإنما هو وميض برق ، وهبوب ريح ، وخفق راية ، فاذا قرأت
الأمور قرارها ، وعطفت الفروع على أصولها أُنْفَيْتَهُ مطرّحاً مع نظائره ،
خامل الذكر ، وضع القدر ، قصير الشبه ، مهتوك السر .

[أدب ابن العميد]

قال : وجملة الأمر أن ابن العميد كان حسن الكتابة ، غزير الإنشاء ، جيد
الحفظ ، ولم يكن له في كتابته حساب ولا تحصيل لوجوه الأموال ، ولا
معرفة بالدواوين ولكنه كان يفضل الكيس يتأتى له ويتلطف .

قال : وله شعر صالح في الغزل والمعاتبة ، ولأنه مشهور لا طائل في
روايته ومن ذلك قوله :

قلبي دام به ندوبُ
يكاد مما به يذوبُ
قد كنت أخفي الوشاة جهدي
فتمّ مني به الوجيبُ
فهل سمعت بمسّهم
عليه من قلبه رقيبُ
يعمد ما ساءني ضراراً
ما هكذا تفعل القلوبُ
يعتادني للصبا غريرُ
كأنه شادن ريبُ

جرى مع الدهر في عنان
فهو لأحكامه نسيب
فكل محبوبه بعيد
وكل مكروهه قريب
وكيف يرجى بقاء صب
ناكده الدهر والحبيب

[أبو الفتح ابن العميد والعامري]

وكان ابنه أبو الفتح أشعر منه وأحسن خطاً ، واستفاد بدخول بغداد
أشياء فأتت والده ، وكان لذلك يغمز على البغداديين ويتعتمهم ، وكان نزر
العطاء ، شديد المنع ، لا يقبل صنفاً من الناس وإنما غرم شيئاً يسيراً على
العامري ، لأن العامري خدعه وضلّله ، وصبغته^(١) ودخل من باب غامض عليه
وقال : لقد قصدتك من خراسان لأقرأ عليك علم الحيل ، وجرّ الثقل ،
ومراكز الأتقال وهو في أواخر علم الهندسة ، بهذه الدعوى وبجلايته أيضاً
ويعصر عينيه عند / سماع كلامه وكان يقول له : ضاع عمري ، ولم أوفق
لرشدي في أول أمري ، ولو وُفقت لوفقت إلى كنز علمك ، وروضة يانك
قبل هذه السنين ، ولما رآه أبو الفتح^(٢) على هذا قال : لست في قراءتك جرّ
الثقل عليّ بأحوج مني في قراءة الآلهيات عليك ، فانك في هذا الفن بحر
لا يتغلغل إلى قعره ، وجبل لا يسوقل إلى مصاده ، وكان هذا
تساخراً منها ، وتكاذباً بينها لأنها كانا لا يعرفان من هذين العلمين لا قليلاً ولا
كثيراً ، وما ينقضي عجي من تكاذب العقلاء ، ومن تجاذب الجهال ، وخيب
هذا الانسان خيب فائت ، والاحاطة به ممتعة .

(١) أي كذب ولون الحديث .

(٢) في الأصل : أبو الفضل ، ولعله سهو من الناسخ .

[ابن العميد وأعلام عصره وحاشيته]

وأما الهروي فإنه ارتبطه بأمر ركن الدولة ، وكان يُعده من ماله ، لأنه حُمِدَ في طبه الذي كان يتكثر به بعد هندسته التي كان فيها أبداع ، وبها أعرف .
وأما مسكويه فإنه اتخذ خازناً لكتبه ، وأراد أيضاً أن يقدم ابنه به . ولم يكن من الصنائع المقصودة ، والمهمات اللازمة ، وكان أيضاً ما يقيم عليه شيئاً زوراً لا يقع به إلا من لا نفس له ولا همّة ، وكان يحتمل ذلك لبعض العزاة بظلمته ، والتظاهر بجأه . وأما ما تكلفه لأبي جعفر الخازن فإنه كان لأسباب طويلة منها : أن ركن الدولة أعظمه ، فزعمه أن يقتدي به ، ومنها أنه طمع في اقتباس علمه ، ومنها أن العيون كانت تنظر إليه في أمره ، والناس يحسبون ما يأتيه في بابه ، لأنه وقع إلى الري مع صاحبه الصّاعقاني أبي علي حين طلب الأمان ، والحديث معروف . فأما ابن فارس فإنه استخدمه ليعلّم ولده .

وأما ابن أبي الثياب البغدادي^(١) فإنه قرّب به ليسترق منه المنطق ، فلما علم بذلك أبو محمد نفيس^(٢) بما معه وتكاسل ، وقيل له : كيف تفاضيت ؟ فقال : كان سييء الابتعاث في هذه الفنون ، وكان شديد التشبّع بها ، يجب أن يجتلس الحكمة ، ويمتحن أربابها بفضل المقدرة ، وأنشدني في هذه القصة :

إلى الله أشكو ريب دهرٍ كأنما
يرى كل ما يجري بمكروها فرضاً

(١) من شعراء البيتية : ١٢٦/٤

(٢) نفس بالمعنى : ضن به .

يؤمّل مني أن أذلّ لموسى
لثيمٍ ونفسُ الحرِّ بالذلّ لا ترضى

قلتُ : لمن الشعر ؟ قال : أنشدني ابن البغل لنفسه .

وأراغه أبو الفضل على المنادمة فأنف ، وما زال يترصد وقتاً ينفلت فيه
حتى كان من أمر ابن العميد ما كان من خروجه إلى أربّجان ، فطوى
فججاج الأرض ، وجاب البلاد إلى بخارى وولي بها البريد إلى
أن قضى .

وأما أبو طاهر الورّاق فانه رتبّه في النسخ ، وكان قوي الخط ، كثير
الصبر على التّقل ، ولم يكن من الصنائع ، ولا من حملة النعمة ، ولا ممن
يطالب بالحمد ويبعث على الشكر .

وأما ابن بندار^(١) ، فانه كان فديماً غليظاً ، غليظ الكلام ، جافياً ،
جاسياً ، مقبتاً ، وكان وزّر باذريجان لجستان ، فأحبّ أن يرى من
نفسه أنه على مائدته من وزر ، فأين الصنائع والمدّاح وأين المتجمعون
والزازرون وأين من مرّ به محتاجاً إلى زادٍ ونفقة ، فطلبه وقرّبه ،
وأعطاه ووصله ، وأضافه وأكرمه ، وتصفح مامعه ، واقتبس
مما عنده .

[افساد الصاحب للعطاء]

سقى الله ابن عبّاد فانه وقف نفسه على الغبراء ، وطلبهم بأكثر مما
تعرّضوا له ، وسأل عنهم بأكثر مما رجوه فيه ، ولولا أنه كان يفسد هذه
الأفعال بالرّقاعة والتّخيل والعجب والتطاول وذكر الطعام والمائدة ،
وما يعطي ويهب لكانت قليله أكثر من كثير ذلك ، وصغيره أكبر

(١) هو أحمد بن بندار من شعراء القيمة : ٤١٨/٣

من كبيره ، ولكن لكل حسن مقبّح ، ولكل عزيزٍ مذلل ،
ولكل جديدٍ مبطل .

[بخل ابن العميد]

وحدثني ابن عبد الرحيم القاضي قال : قال يوماً لصاحب طعامه : حدثني
عن هذا الخبز المكسّر على الطبق والمموت^(١)، وما تتجافى عنه الأيدي ،
وما يُصيبه اللحم والمرق والشريد ما تصنعون به ، وابتدأ هذا القول
وهو في جوف خر كاه وظنّ أنّ لا إذن هناك ، فقال له الرجل في جوابه
بعد أن تكرر قوله ، وقد حال عن مزاجه لنيظه من سؤاله : ندّسه في
حبر امرأة من يسأل عنه ! قال : وهذا بالفارسية قاله وهذا تفسيره ،
قال : فانكسر وانخزل ، وعلم أنه قد باء بخبزني ، وغاص على سواده ، وان
الخطأ منه في المسألة أفحش من الخطأ عليه في الجواب فقال له : أنت مجنون !
اخرج لا بارك الله فيك ، وهذا كما تسمع ، والموت بهذا الرئيس على
الخشب صلباً أحسن من هذا الحديث ، وكان الرجل من فرط كيسه لا يقع
إلا مكبوباً ، ولا يذكر إلا مسبوباً ، ولقد بلغ من لؤمه وشؤمه أنه
قتل من أكل عنده ، وذلك أن أبا المحاوش ورد الريّ ، وكان بدويّاً أو
من هذه المذائف^(٢) ، متبادياً ، وشهراً بشدة الضرس ، وكثرة الأكل ،
وتكرّر حديثه عنده ، وما وُصف به من طيب كلامه ، وحسن وصفه للقدر
والطبيخ والألوان ، فدعا به ، وتقدّم باحضار شيء كثير من الخبز
والحلواء فاكتسحه كلّه ، وطلب الزيادة ، وكشّر أبو الفضل في وجهه ،

(١) الملوّث : المرغ بالاهالة أي الدهن أو الشحم المذاب .

(٢) مفرداً مرلفة وهي كل قرية تكون بين البر والريف .

وأظهر استملاحه على تفقؤ فواده ، وفار صدره ، ثم وهب له ذرهباتٍ
وخرىقات وشملة وقال له : أكثر عندنا ، واقترح ماني نفسك على صاحبنا
المطبخي ، فكان المسكين يحضّر في الفِرط^(١) فيطلب شيئاً ، ويأكل وينصرف ،
فطال ذلك على أبي الفضل ، واعتاض منه ، وغلب طباعه ، فقال لصاحب
مطبخه : اجمع هذا الذي يقال له : لالكات^(٢) التي قد اخلقت وتقطعت ،
وقطعها صغاراً كالبنادق وقدّمها إليه في عجةٍ وافرة بيض كبير ، وسمن
وافر حتى ينظر إلى أكله ، وهل يفطن ، وإنما كان كيداً ، ففعل وأحضر
وأقبل أبو الماوش عليها ، وتدرّع في أكلها ، وأعظم اللقمة ، ودارك الرفع
والوضع ، ووجدها / وطية ناعمة ، فلما ألقع عنها وانصرف وشرب الماء ،
وجاء وقت الثلث^(٣) ، اتّقد بطنه فخرج فيه نفسه ، فهذا لا تكرّم
بالإطعام ، وحثّ على الأكل ، ورغب في الرغيف ، وهذا الفعل
يجمع إلى التذالة قلّة الدين ، وإلى اللؤم سخف العقل ، فالويل له
ثم الويل له .

[٣٠]

وكان إذا رأى ابن بندار يقول : جاءكم أسد الغريف على الرغيف ،
والريّ جادة الدنيا ، ومنهج المشرق والمغرب ، والجوّالين في الآفاق ،
فكان 'يكثر أهل الاتجاج من كل صقع ، فلم يكن لأحدٍ منهم عنده
مقيل ساعة ، ولا مبيت ليلة ، ولا زادَ مرحلة ، ولا هاشاشة ،
ولا بشاشة .

وقد اجتاز به أبو اسحق الفارسي ، وكان من غلمان أبي سعيد السيرافي ،

(١) الفِرط : الحين تقول : آتاك بعد فرط أي بعد حين .

(٢) اللك اللحم ، لك اللحم : فصله عن عظامه ، واللك الصلب المكتر لحمًا .

(٣) الثلث : السليح .

وكان فهماً بالكتاب وقرض الشعر ، وصنّف وأملى ، وشرح ، وتكلم في
العروض ، والقوافي ، والمعمى ، وناقض المتنبى ، وحفظ العلم والرّم ،
فأزوده درهماً ، ولا افتقده برغيف بعد أن أذن له حتى حَضَرَهُ وسمع
كلامه ، وعرف فضله ، واستبان سعته .

[أبو الفضل ابن العميد وأبوه]

قال الخليلي : وكيف يُرجى خيرُه ، أو يؤمّل رشدُه ، أو يُساق
طمعُ اليه ، أو يوفر ثناءً عليه ، أو يشام له برّق ، أو يُقطع دونهُ
خرق ، وقد عرقُ أباه ، وسمي به في أول أيامه حتى تبرأ منه ذلك الشيخ
وهرب إلى خراسان ، واستكتب هناك ، ولُقب بالعميد ، وكتب إلى
قاضي أصفهان كتاباً برىء منه فيه ، وأنا أروي قصته في هذا المكان ليكون
أذهب في العجب ، وكان عقوقه من وجه غريب ، جاء إلى ذخيرات في
مواقع ووضع يده عليها ، وعرف صاحبه مكانها ، وخطّ خطوه عليها ،
وزوى ذلك كلّه عن شيخه وعن جميع من كان له فيه نصيب ، إمّا بحق
الارث ، أو بحق الهبة حتى قامت قيامةُ ذلك الشيخ ، فدعا عليه ، وفضحه
عند الناس ، وبرىء منه ، وقدح في ولادته، والرسالة :

[رسالته إلى قاضي أصفهان بالتبرؤ من ولده]

بسم الله الرحمن الرحيم : القاضي أطل الله بقاه وأدام نعماه ، أحلّ
محلّ من مواهب الله فيه ، وعوائده عنده في الدين والدنيا ، والعصمة
والخير ، والفضيلة وحسن التأتّي في كل فصيلة ، وجميل اللفظ في جميع
الحكومة ، ولي في الشكوى اليه ، ومبائته ، وذمّ الزمان عنده ،

والاستعداد عليه لديه استراحة وتخفيف للثقل ، وتفرج من حرج الصدر ، وأنا المتعسك به تمسكي كان بالوالد والعم ، وأثق بأن نصيبي من شفقتك تام ، ومن مشاركتك وافر ، والله لا يعدمني ، ويحفظني بمواصله النعم عنده إليه بقدرته .

والكلوم أدام الله عز القاضي ضروب ، والنُدوب فنون ، وأعسرها بُرءاً ، وأصعبها داءً ، وأعزّها دواءً ، ما جرحته يدُ القريب ، وجلبته أفعالُ الأهل ، فان ذلك يصل إلى حبة القلب ، وصميم الفؤاد ، وتصير قذىً في إنسان العين ، وشجىً معترضاً في الحلق ، وتتراكم على الأيام ، وتتكاثر على الدهر ، فيكون نكء القرح بالقرح أوجع ، ومتى نفَسَ الممنوء^(١) ، وشكى الملوءُ غيظاً وحنقاً اجتمع اليه من عشيرته وأسرته شيخ ضعيف ، أو طفل صغير ، أو امرأة باكية ، أو عورة بادية ، أو ذو قرابة فاستغفر هذا ، واستصفح ، وسأل ، وتشفع .

ثم رُويت أخبار في قطعة الرحم ، وعُدّت آثار في صلة القريب ، فضاقي النفس ، واشتدّ الحنق ، وتجرع هذا المظلوم الغيظ ، وصبرَ وأنف ، واحتمل واحتسب ، وعفا وغفر ، والشر عتيد ، والبلاء يزيد ، والطبع أغلب ، والعادة لا تنزع ، والجاهل لا يقلع ، فهل دواء هذا إذا اتصل ، وطال ، وامتدّ ، وتتابع ، وزاد ، وتضاعف ، إلا الصريمة والاعراض ، والقطيعة والانتقباض ، فدواء ما لا تشتهي النفس تعجيلُ الفراق ، وأنا جعلني الله فداء القاضي ذلك الملائن المتعاط الذي قد عيل صبرُهُ ، وضاع حلمُهُ ، وضاعت نفْسُهُ ، وقُرح قلبُهُ ، ونضجت كبدهُ . وقلّت حيلته ، وعظمت

(١) الممنوء : صاحب الأمانة .

بليته ، وهذا الجاهل ابني ، وما هو بابني من اتهم بي إلى هذه الشكوى ،
وقصدني بهذه البلوى ، وعقبتني وخالفني ، وبغى عليّ ، وباغضني ، وارنكب
معي ما لا يحل ، بعد أن ربيته صغيراً ، وأعزته كبيراً ، وأوليته جميلاً ،
وأبليته جسيماً ، وصنته شديداً ، وحطتته دهنراً طويلاً ، و'خضت' دونه
الأهوال ، وقاسيت في حمايته الأغوال ، أجمه وأتمب ، وأقلده وأتعطلد ،
وأعزه وأذلّ ، وأغترب ليقيم ، وأنعمه وأشقى ، وأتحمل عنه ليرضى ،
فما يعرف لي حقاً ، ولا يتأتى ، ولا يرعى ذماماً ، ولا يهدي ، وتهيأ متعرضاً
مستخفياً بي ، ولو أمنت 'ملال' القاضي أدام الله أيامه لعددت 'مقابحه' ،
وذكرت 'مساوئه' ، ووصفت 'ما يرتكبه من عظامم' هي به متصلة ، وإليّ
منسوبة ، وأنا أفزع من يسيرها ، وأجزع من قليلها ، ولا أحب أن
أراها وأعابها في جارٍ أو قريب ، وقد زجرت ووعظت ، وقلت وأرسلت ،
وكتبت وشافت ، وعابنت وخطبت ، وسددت وهولت ، وورعت
وأوجعت ، وضربت الأمثال ، وذكرت السير ، وخوفت وحدرت ،
فما انتفعت ، وجرائمه تكثر ، وجرازه تفلظ ، ولا فضل فيّ ، ولا احتمال
معي ، ولا بقية للاغضاء عندي ، وغرضي في هذه المخاطبة ، ومغزاي من
هذه الشكوى والمباثة ، أن يشهد القاضي أني بريء منه ، قاطع له ، عادل
عنه ، غير راضٍ بقوله ، ولا فعله ، نازع ما ألبسته من بُنوة ، مطرح
له دنيا وديناً ، ليس مني ولا إليّ ، قد تبرأت منه ، وصرمته ، ووكلته
إلى اختياره ، ورفعت عنه يدي ، وأسلمته إلى الله ليأخذ بحقي ، وبقبل
به دعائي ، ولا يحفظ عليه ما لم يحفظه عليّ . اللهم ! اسمع واشهد ، وكن
حسيب الظالم ، واحكم بيني وبينه يا خير حاكم !
وهذه شهادة لي عند القاضي يحفظها ، كما يحفظ اليه من حقوق

[٣٠] عمله ، فاني مطالبه بها يوم يقوم الأشهاد ، / وكفى بالله العليّ شهيداً .
وهذه أبقاك الله رسالة تدل على قرحة دامية ، وعين باكية هامية ،
ونفس قد ولّمت عما حلّ بها ، وإن غلاماً يُحجّجُ أباه إلى مثل هذه
البراءة والشكوى منه والتألم ، لَغلامٍ سوء ، والله أكرم من أن يجيره في
الدنيا ، وأن يسعده في الآخرة ، وكل هذا دليل على أنه عارٍ من الديانة ،
سليب المروءة ، وقد رضي بظاهر حاله وإن لم تدم له ، ولهي عن عاقبة أمره
وإن لم يَنْجُ منه .

وحدثني أبو الغادي الصوفي قال : كنت عند العميد ببخارى وقد جرى ذكر
ابنه أبي الفضل فقال : كنت أشك في ولادته قبل هذا ، والآن فقد تحقّق
عندي ما كان يريني منه ، فإن الاناء رشّاحٌ بما فيه .

[جواب القاضي على الرسالة]

ثم أفادنا حمزة المصنّف جواب القاضي للعميد وذلك أنه كتب : بسم الله
الرحمن الرحيم . وصل كتابُ العميد أعزّ الله جلّالته ، ووفر عليه كرامته ،
وأدام له نعمته وحياطته ، وأنس وصوله ، وأوحش محصوله ، ويعزّ عليّ أن
أقرأ كتابه بعد عهدٍ دارس ، ودهر متقادماً مُنبئاً عن قرائح صدره ، وجرائح
فؤاده ، وقد والله زاد عجبِي من هذا الحديث كله ، وشركته في جميعه ،
وسألت الله اللطيف فيئنةً هذا الغلام إلى حظّه ، ونظراً إلى قلب قد أضرم فيه
نار العقوق ، وأفرج عن لوازم الحقوق ، فانه إذا وفق لذلك كان فيه صلاحٌ
معاشه الذي هو عاجلته وسلامة معاده الذي هو آجلته ، هذا مع الذكر الجميل
الذي ينشر له ، وبركة دعاء شيخه إذا عادت عليه ، وقد كتبت إلى الفتى أكرمه
الله بما ان هُدي لرشده ، ووفق لحظه ، غبط واغبتط ، وإن كثر منه

اللجاج والحك خُبط واختبط ، والله يفتح بصره ، ويأخذ بيده فيعلم ما في
البراءة من النبوة ، والتعري من الأبوة من المهجنة الشنيعة ، والفضيحة
الفضيحة ، ولم أقع بالكتاب ، وبما نصرفت فيه من لواذع العتاب ، حتى كتبت
إلى أبي الخريش وسألته إحضاره ومناظرته ، واستخراج ما عنده مع التهجين
الشديد ، وشوب ذلك بالوعد والوعيد . وغالب ظني أن تلك القسوة تحول
رقة ، وتلك الفظاظة تعود لينا ، ولو كنت في مقره ، أو كان في صقعي
لكان لي في هذه القصة جد وانكماش يحمدي عليها العميد ، ولكي منه بعيد ،
وان ، وعائد بالله ، تقاعس وعظي عنه ، وبنا نصحي دونه بعد التلطف
والاجتهاد ، فالأسى والأسف أعز من أن يرسلوا راءه ، أو يُقاما إزاءه ،
والولد قد يموت باراً ، ويفوت عاقاً ، فليطب قلب العميد عنه فائتاً ، كما تسلو
النفس عن العزيز مائتاً ، ولعل العتب يُسْفِرُ عنه بما يسر منه ، فللزمان في
تقلبه غرائب ، ولله في تصرفه عجائب ، وأنا أسأل الله أن لا يخليني من
العميد عمدة ، ولا يريني فيه ومنه سوءاً وغمّة ، ورأيه في مواصلي بكتبه
الحملة برّه ، وتفضله بثنائي وتصرفي على تكاليفه متوقع مشكور ، وأنا عليه
حامد شكور .

[الأصل والفرع]

ثم قال الخليلي : وجده مع هذا ساقط يلقب « بكلمة » وهو كناية عن
شيء قبيح على زعمه ، كان نَحْالاً في سوق الخياطين أو حَمالاً أو منقياً ،
وكان يجرس السوق أيضاً بالليل ، والعرق لا ينام ، ولا بدّ للأصل من أمارة
في الفرع ، كما لا بدّ في الفرع من إشارة إلى الأصل ، والأصل والفرع
متشابهان ، إلا أن هذا الخافي ينطق عنه ذلك البادي ، وذلك البادي يشهد له

هذا الخافي ، ولهذا قالت العرب : لكل إناء رشح ، ولكل سقاء نضح ،
ولكل شجرة سوس ، ولكل دوحة عيص (١) ، وكنت إذا نظرت إلى أبي
الفضل تجده غضبان من غير مغضب ، سبح الأنف ، متخازر (٢) الطرف ، كالح
الوجه ، كأنما وجهه بانخل منضوح (٣) ، كأنه يعافك أن تنظر إليه ، أو
يتقرّر منك إذا كلمك ، يتجمد عليك قبل أن تلاطفه ، ويردك قبل أن تسأله ،
ويؤسك قبل أن ترجوه ، ويحرمك قبل أن تتمري (٤) معروفه ، ويسفك
دمك إن أكلت خبزه ، والويل لمن أعرب عنده واستمرّ في كلامه ، أو تخيّر
لفظة له ، أو نشر أدبه ، وكان يقول لمن يراه بارع اللفظ ، خفيف الروح ،
لذيذ الحديث ، خفيف اللسان : يا قس بن ساعدة ! هات حديثك . يا سُجبان
وائل ! مر في هزارك ، يا سعيد بن حميد ! لا تحفل بنظارتك . كل هذا بهزة
وسخرية وتمهات ، وكثير عن ناب أفلح (٥) ، ومضع للكلام ، ولي الشفّة
والشدق ، كأنه ثلج جامد ، أو شيء تارز (٦) ، ولهذا قال ابن أبي الثياب :

أبا الفضل لا في الخرا أنت ولا الأنس

وطبعك طبع الموت يورد في اليبس

فهذا هذا !

(١) العيص : الشجر الكثير الملتف أو منبت خيار الشجر وهو أيضاً الأصل . يقال : هو
من عيص كريم أي من أصل كريم .

(٢) تخازر : أي ضيق جفنه ومنه متخازر .

(٣) عبارة للمحافظ في البلاء .

(٤) امترى : استدر واستخرج .

(٥) الفلح : صفة تعلق الأسنان .

(٦) التارز : كل قوي صلب ، وهو أيضاً اليابس لاروح فيه ، والميت

لأنه يابس .

[الشيخ الطبري]

وحضرت مجلسه ذات عشية في شهر رمضان مع الفقهاء والزعيم ابن شاذان وهو على القضاء ، فلما كادت الشمس تَجِبُ (١) وهي حية يعد ، وقف حاجب له حيال الجماعة وأشار بالقيام والانصراف فقطعوا مَتْنًا مسألة كانوا فيها ، وتركوها بتراء ، وتبادروا إلى الخروج من الباب ، وقعد عنهم شيخ طبري في كساء عليه ، خلق ، فقال له الحاجب : قم يا شيخ والحق بأصحابك ، ما تأخرت عنهم ، ولماذا أنت لازم مكانك من بعدهم ؟ فقال الطبري : هذا فضل من الكلام ، أنا رجل غريب ، قدمت اليوم من بلدي ، ومحلي من العلم قد بان في هذا المشهد ، العظيم الشرف ، الكبير الفائدة ، وهذا هو المساء وأنا صائم ، وإن خرجت أعجز عن مصلحتي في هذه العشية ، والغريب أعمى ، ولست أعدم ها هنا إن شاء الله ما يسكني إلى غد ، ثم أعدو لشأني وما لا بد منه لغريب مثلي في بلد الغربة . فقال له الحاجب : أنت طبري وليس في قلنسوتك حشو ولا قطن ، والكلام معك يصدع ، وأقبل بفضب ، وجذب يده بعنف حتى أخرجه من المجلس بعد أن شتمه / وخبث القول له ، ووكل به من ألقاه وراء الباب ، مدفوعاً في ظهره ، مدقوقاً في قفاه ، مشتوماً في وجهه ، وكل ذلك بعين الرئيس الخسيس وسمّعه ، لأنه كان بهيئته في صدر مجلسه على حَشِيَّةٍ قد استلقى وهو يَسْمَعُ وَيَرَى فما قال في ذلك كلمة سوداء ولا بيضاء ، فلو شاهدت الطبري البائس على الباب ، وقد احتوشه (٢) المارة يقولون له : يا شيخ !

[٣١]

(١) وجبت الشمس : غابت .

(٢) احتوش القوم الرجل وعليه : أهدقوا به وجعلوه وسطهم .

ما جنائتُك؟ ما الذي كدهاك؟ قال: يا قوم ذنبي أني طعمت في عشاءهم، ورجبت في المبيت عندهم، وأن أكون ضيفاً نازلاً بهم. فقال له رجل منهم: أنت مجنون، لقد تخلصت بدعاء والدتك الصالحة، وسلمت سلامة عجيبة، أتطمع في طعام الاستاذ الرئيس؟ وابليس لا يحدث نفسه بهذا، والشياطين لا يقدرون على ذلك.

[أبو الفتح وابنه]

ولقد أراد أن يطير ابنه من رأس الجوسق، لأنه طلب زيادة رغيف في وظيفته، وصب على هامة أبي الفضل في تلك العشيّة من نوادر العامة وسخافات الحشويّة ومن ضروب الكذب والصدق ما لا يحصل. وللرازيين^(١) جرأة على الكلام، وتحرك في النوادر، ومن ذا الذي ردّ أفواه القوغاء الأوباش ولو افتدى من هذا كلامه برغيفين، وفلذة لحم لكان الريح معه، ولكن الشقيّ بكل جبل يحنق. قال الخليلي مرة: لا تنظر إلى نقاء الثوب، وحمرة الوجه، وفراة الموكب، وإلى الصف^(٢) والحشد، والخيل المسوّمة العتاق، ولكن انظر إلى عرض الرجل كيف هو، وإلى الشكر له كيف هو، وإلى درهمه من أين وجهه، وإلى أين توجهه، واجهد أن تسلك من تحت مصلتي الرئيس أو مخدته، أو دواته تذكّرته وانظر فيها، فإن كان قد كتب بخطه يتفقد فلان بكذا، أو يسأل عن فلان لينظر في مصلحته، ويحمل إلى فلان شيء من الخنطة وشيء من الثياب، وشيء من الذهب والفضة، ويوفد فلان على فلان ليصيب خيراً، ويولي جيلاً، ويقلّد

(١) الرازيون: مفردا رازي نسبة إلى الري.

(٢) الصف: ما يلبس تحت الدروع.

فلان لينجبر قليلاً ، ويُعفى عن فلان وإن كان عظيم الجرم ، ويُستلصح أمر فلان وإن كان قد تَبَذَّ (١) طريق ذلك ، وتكلم الأمير في باب فلان حتى يجدد الرضا عنه ، فإن كانت التذكرة مشتملة على هذه وأشباهاها فاعلم أن الله قد استخلفَ صاحبها على عباده ، وجعله مناراً للمحتاجين في بلاده ، وإن كان على غير ذلك فاغسل يدك منه بالأشنان البارقي ، ولا تحجه بأملك ولا تقدسهُ بثنائك ، ولا تعصِر ربك بحسن ظنك فيه ، وعدّه في الموتى ، وما أجود ما قال القائل :

من ضنَّ بمعروفٍ

عددتاه من الموتى

فكانت راحةً منه

ومن سوف ومن حتى

[عود إلى بخل ابن العميد]

فهو يكون أبقاك الله فعل ابن العميد بالشيخ الطبري إلا فعل من خذاه الله وأسلمه من يديه ، ولم يؤهله لخيرٍ يجزي به ، ويكون هو سبباً لتمامه ، وهل هو إلا فعل مَنْ في أصله خبث ، وفي منشئه دخل ، وفي طباعه خسة ولؤم ، مع قحة الوجه ، ونذالة النفس ، وقلة الاكترات ، والطغيان الذي هو باب الكفر الذي هو خسران العاجلة والآجلة ، وقد كان يمكن أن يدبّر ذلك الشيخ البائس بأقرب شيءٍ وأسهله ، ولعله كان عند الله أبرّ منه وأزكى ، وكان يتقي أن يثنى عنه مثل هذا الحديث الذي

(١) أنبذ واتبذ ونبذ : جلس ناحية ، ومنه الانتباز : التحمي .

مسموعه يغيظ ، فكيف مشهوره ، وان طينة تكون مبلولة بهذا الماء ،
موضوعه في هذا الهواء ، مذكورة بهذه الأفعال والأسماء ، أعتقد أن للكلب
والقرود والخنزير مزية عليه ، هذا وهو صاحب المال المجموع ، والدخر
الكبير ، والضياع الفاشية ، والصايات الواسع ، مع الاقتطاع والاحتجاز ،
والسرقة والنهب ، كان رزقه في السنة ألف ألف درهم يردّها في الخراج .
وكان ارتفاعه يزلّ عن الحساب ويفوت التحصيل وفيه قال ابن
عبدان الاصفهاني :

الاستاذون في الدنيا كثير
وما فيهم سوى نذلٍ تحسب
وكلّهم أراحم عن قريب
فدى الأستاذ سيدنا الرئيس
وسيدنا الرئيس فداء كئيب
فما هو بالرئيس ولا النفيس

[ابن العميد والفلسفة اليونانية]

والعجب من بخل هذا الرجل ونذالته مع تفلسفه وتكثره بذكر أفلاطون
وسقراط وأرسطوطاليس ومحبته لهم مع علمه بأن القوم قد تكلموا في الأخلاق
وحدودها ، وأوضحوا خفاياها ، وميزوا رذائلها ، وبنوا فضلها ،
وحثوا على التخلص بها ، وساقوا ذلك كله على الزهد في الدنيا ، والقناعة
باليسير من حطامها ، وبذل الفضول منها للمحتاجين اليها ، والمستجعين
بسببها ، والاقتصار على ما تماسك به الرّمق من جميع زخارفها ، وتحصيل
مثالب م (١٦)

السعادة العظمى برفض الشهوات القليلة والكثيرة فيها ، والإحسان إلى الناس وغير الناس بغير امتنان ولا اعتداد ، ولا طلب جزاء ولا استجداد ، كأنه لم يسمع بما قال عبد الملك بن مروان أو سمع، ولكن حمق عبد الملك عليه (١) ، ولم يعلم أن الصواب فيما قال ، والحزم مع ما اختار .

[السمعة الطيبة]

حكى العتيبي قال : قال عبد الملك بن مروان لأمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد : مالك ولخرثان حيث يقول فيك :
إذا هتف العصفور طار فؤاده

وليث حديد الثأب عند الترائد

قال : يا أمير المؤمنين وجب عليه حد فأقمته ، قال : فهلا درأته بالشبهات ؟ قال : كان الحد أبين ، وكان رغمه أهون . قال عبد الملك : يا بني أمية أحسابكم أنسابكم لاتعرضوها للجهال ، فإن كلامهم باق ما بقي الدهر ، والله ما يسرني أني هجيت بمثل هذا البيت ، وأن لي ما طلعت عليه / الشمس : [٣١ب]

تبتون في المشتى ملاء بطونكم

وجاراتكم غرثي يبتن خمائصا (٢)

ثم قال : وما على من مدح بهذين البيتين ألا يمدح بغيرهما
وهما زهير :

(١) العبارة غير واضحة ويبدو أن في الاصل قمأ .

(٢) الببت للأعشى .

هنالك إن يُسْتَحْبَلُوا المَالَ يُخْبِلُوا

وَأَنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا وَإِنْ يَسْرُوا يُمْلُوا^(١)

عَلَى مُكْتَرِمِهِمْ حَقٌّ مِنْ يَعْتَرِيهِمْ

وَعِنْدَ الْمُقْلَتَيْنِ السَّاحَةُ وَالْبَذْلُ^(٢)

قال الأندلسي : استفدنا من رواية هذا الشيخ أن هذا الخليفة روى تستحبوا المال تجبلوا ، فانه كان عندنا يستحولوا يخولوا ، ولكل وجه .

ولكن الأئس بهذه الرواية أكبر ، وصدق عبد الملك في مناقته^(٣) لحرثان ، ودل على الكرم المنافس عليه ، ونهى عن متابعة الهوى ، وقلة المبالاة ، وسوء النظر في العاقبة ، وأن بعض الفتيان إذا قال : والله لأعرضن لجناية أضرب عليها ألف سوط فيصح عند الفتيان صبري لأعذر عند الناس ممن يتعرض لحرمان محتبطين^(٤) لمعروف ، ومنع لمن تجع خير ، وإساءة

(١) الاستخبال : أن يستعير الرجل من الرجل إبلاً فيشرب ألبانها وينتفع بأوبارها . يسروا : من اليسر .

يفلوا : يأخذون سمان الجزر ولا ينحرون إلا غالية .

والمعنى : أنهم إذا قاموا باليسر يأخذون سمان الجزر فيقامرون عليها ولا ينحرون إلا الغالية منها .

(الديوان طبعة دار الكتب ١٩٤٤ ص ١١٢) .

(٢) المقل : القليل المال ضد الكثير . المعنى أن مياسيرهم يقومون بحق فقرائهم كما أن

فقراءهم يسمحون ويبنلون بمقدار جهدهم وطاقتهم . (ديوان زهير ص ١١٤)

(٣) المناقاة في الكلام أن تمدته ويحدثك .

(٤) المحتبطين : السائل للمعروف من غير آصرة . خطبه زيد بن جبير : أعطاه .

قرى طارق ، وتكليح وجه في وجه سائل ، وما أسهل قول
الانسان : دَعِ الشاعِرَ فليقل ما شاء ، ودع الزائر فليفر فرّيه كيف
أحب ، ولكنه إذا زلّ القول ، وطار الحديث ، وتمت النادرة ، فأين
المتدارك ، وأين المعتذر ، واين المتلافي ، هيات ! والعرب تسمي رجلين
مُخْلِداً (١) ، أحدهما من تأخر شبيهه فيقول : هذا مخلد ، والآخر هو
الذي يمِدح بعد موته .

[حب الثناء]

ومن لم يرغب في الثناء فقد رغب عن ملة ابراهيم خليل الرحمن ، لأن الله
تعالى أخبر أنه سأله ذلك ، وما سأله إلا بعد أن أذن له ، وما أذن له إلا بعد أن
علم أنه الخلقُ الأسنى ، والاختيار الأعلى ، والطريقة المثلى فقال : « واجْعَلْ
لي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٢) » وقال : « وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ »
ثم وضع الله من أقدار قومٍ وأبقى ذمتهم في الغابرين فقال : « فَجَعَلْنَا لَهُمْ
أَحَادِيثَ وَمَمَزَقْنَا لَهُمْ كُلَّ مُمَزَقٍ (٣) » فرأى ذلك نهايةً في تهجينهم ،
والفض من أخطارهم وأن يتحدث عنهم بما يبعث على الاعتبار بمن أساء لنفسه
النظر والاختيار . قال الشاعر :

ثمن المعروف شكرٌ

ويدُ الاحسان ذُخْرُ

(١) خلد : دام وبقي وأبطأ عنه الشيب .

(٢) سورة الشعراء .

(٣) سورة سبأ .

وثناء الحيّ للاموا
تِ في الأحياء عُمرُ

[هجاء الصاحب]

وقال أبو هفتان في ابن عباد :
لله درك قد أكملت أربعة
ماهن في أحد من سائر البشر
العريض ممتن والنفس ساقطة
والوجه من سقن^(١) والعين من حَجَرِ

وأُشِدُّ بعضهم في ابن عباد وذم سجمه وعقله وخطه وقال :

مُتَلَقَّبٌ كافي الكفاة وإنما
هو في الحقيقة كافر الكفار
السجع سجع مهوس والخط خط
طُ مُنْقَرَسٍ ، والعقل عقل حمار

وقلت للثقيف المتكلم : أرى ابن عباد كثير الخلوة بهؤلاء العفاريت الذين
تجاوزوا حد الغلومية ، أرى ذلك لفحشاء وتهمة ؟ فقال : أما سمعت
قول الشاعر :

كم حربة في القوم صارت جعبة
فاستر عليه فالحديث يطول

(١) السفن : جلد أخشن وحجر ينحت به .

وإذا الفتى حامى على ذي حية

جئاً له فوراؤه عاقول^(١)

وكان قليل التحاشي من القاذورات ، وهو الذي ألصق به الريبة ،
وسوء فيه الغيبة ، وصار الانسان إذا ذكر مساوئه لا يخاف مأثماً ، لا يرتقب
لائماً ، على أن مساوئه تفوت الحصر ، وتندد عن التحصيل .

[غضب الصاحب]

قال ابن عباد لندمائه : ما أول قول الشاعر :

وإن غداً للناظرين قريب

فقال الخوازمي : أوله :

ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب

وقال ابن الاعرابي : تمامها لنصبح بن منظور الفقعسي وهو :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل

خلوت ولكن قل : علي رقيب

فلا تحسبن الله يعقل ساعة

ولا أن ما يخفى عليه يغيب

فأحسبن وأجمل ما استطعت فإنما

بقرضك تجزي والقروض ضروب

(١) العاقول : ما التبس من الأمر والأرض لا يهتدى بها .

فلا تك مغروراً تغلثُ بالمني
وقل إننا 'أدعى' غداً فأجيبُ
ألم ترَ أن اليوم أسرعُ ذاهبُ
وأنَّ غداً للناظرين قريبُ
وأن المنايا تحت كل نسيئة
لهنَّ سهمٌ ما تزال نصيبُ
ذَهَبْنِ باخوان الصفاء فأصبحت
لهنَّ علينا نوبةٌ ستَنوبُ

فأقبل عليه بوجه كالح أربد وقال : أعرفك نذلاً ، جاهلاً ، مأبوناً ،
باطلاً ، إنما ترينا من نفسك أنك تحفظ ، ويحسن التراب في فيك يا كلب ،
ومتى نبتت ، ومن أبوك ، وعمن أخذت ، وإلى من اختلفت ؟ بلى
اختلفت عليك أمور ، وأنفقت في دبرك أيور ، أنت بمخازيها مشهور ،
قَوِّدْكَ بَعْدُ مامات ، وجذرك بعد ما نسي ، مثلك يجترىء في مجلسنا أو
يقابل بوجهه وجهنا ، والله لولا رعايتنا التي جرت بها عادتنا لعرفتنا وعرفت
نفسك بنا ، وعلى هذا وما كاد يسكت . وكان جنونه غريباً في أنواع الجنون .

[الجنون والحمق والسيادة]

لأن الجنون إذا زاحمه العقل ، والعقل إذا طلاه الحمق لم يكمل الانسان ،
وأنت إذا قسمت هذا إلى العاقل وإلى الأحمق ، وإلى العاقل الذي يعتبره الحمق ،
وإلى الأحمق الذي يعتبره العقل ، فهذا كما ترى ، ومن تحلست بالسيادة ، وسام
الناس الاقيادله بالطاعة يحتاج إلى خصال كثيرة يكون مطبوعاً عليها سوى

خصال 'أخر يكون مشغولاً بها وباكساً من أصحابها بالمجالسة والسماع والقراءة والتقبل . وما أحسن ما قال عديُّ بن حاتم في صفة السيد حين سئل : من السيد ؟ فقال : السيد هو الأخرق في ماله ، الذليل في عزِّه ، المطرَحُ لحفده ، المعنيُّ بأمر جماعته . وهذا جماع الكرم ، ونظام المجد .

[العقل والبخل والحق]

وكان ذو الكفائتين يقول : خرج بن عباد من عندنا في الري متوجهاً إلى أصفهان / ومزلة ورامين فجاوزها إلى قرية عامرة على ماء ملح لا شيء إلا [١٣٣] ليكتبَ إلينا : كتابي من النويهار يوم السبت نصف النهار : يا قوم هل هذا إلا الرقاعة ، واعلم حاطك الله أن الكمال عزيز ، فإن ماربجه أبو الفضل بالعقل خسره بالبخل ، وكلما زاد ابن عباد بالسخاء نقص بالحق ، على أن العقل لا يكون تاماً ، وهناك خسارة . والسخاء لا يكون محموداً ، وهناك حماقة ، والبخل في الجملة غالبٌ على المتفلسفين ، كما أن الحماقة غالبٌ في الجملة على المنشئين .

[غلبة البخل على المتفلسفين]

وسمعت علي بن المنجم يقول وكان محدثاً ، حلوا الحديث ، وقد سئل : لمَّ غلبَ البخل على كل متفلسف فقال : وجدنا الغالب على الناظرين في حقائق الأمور ، والباحثين عن أسرار الدهور ، وهم الموسومون بطلب الحكمة التي هي الفلسفة ، التمسكُ بكل عرضٍ يملكونه حتى أنهم لا يُفرجون عن شيء إلا بمسقة شديدة ، ولا يجدون ألم الشُّح والبخل ، ولا يأنفون من

عارها ، وطلبنا العلة في ذلك مع ما يقتضيه مذهبهم من الزهد والبذل والإيثار والتكرم فوجدناها في آثار النجوم والنظر في دلالتها ، وذلك أن الذي يدل على علم الحقائق والنوص فيها واستيفاء الفكر فيها زحل مع عطارد بالاشتراك ، وزحل توجب مع شهادته الأولى الحصر والحسد والضيق والبخل ، لأن البخل يكون من جهة الخوف من الفقر ، وزحل توجب عجز النفس وخضوعاً عند الحاجات ، وإشفاقاً على الفئات لسر آثار زحل ، وكثرة تغيير أحوال عطارد ، قال : وهذه الدلالة موافقة لما في الطبيعيات ، وذلك أن البرد واليبس من آثار زحل يوحيان عوارض السوداء ، وأخلاق النفس تابعة بالنظر الأول لمزاج البدن ، فلذلك يستحيل اليه ، وكذلك حال عطارد في خصوصيته باليبس ، ولأن الحرارة معدومة في زحل وعطارد ، والسخاء من جنس الشجاعة المشاكلة لقوة الحرارة ، والبخل من جنس الجبن المشاكل لقوة اليبس الذي يوجب المعجز وضيق الصدر ، والخوف في الحاجات . قال : ولأن الزهرة لها من الأمور الالهية ، والدلالة على الوحي وطهارة الأخلاق ، مع ما توجه من الشهوة ، والنعمة ، والبذل ، والقوة الانفعالية بسبب الرطوبة الغالبة عليها ، فهي إذا أعطت الحقائق بغير تكلف بل على سبيل الوحي ، وتميل النفس إلى طهارة الأخلاق ، والتهاون بالمال للمباينة الواقعة بين الأمور الالهية والأمور الطبيعية التي بها يطلب المال ويتمسك به ، فالذي يشرك في تديره بين العلوم والخلق الزهرة ويكون صاحبها مصادقاً للحقائق عفواً ، مبغضاً للمال طبعاً ، والذي يئلب على تديره في العلم والخلق زحل وعطارد يتكلف العلم ويحب المال ويكون مغلوباً بالبخل .

وكان جريج المقبل إذا جرى حديث أبي الفضل قال :

صبوراً على سوء الثناء وقاح .

وأُشِدَّ فيه :

ولا يستوي عند كشف الأمو

رٍ باذلٍ مَمْرُوفِهِ والبَخِيلُ

ولا تعجب من اطلاق مثل هذا في ذوي الرئاسة فانه مسبوق اليه في
القديم والحديث .

هذا محمد بن الجراح عمّ علي بن عيسى الوزير ساق في كتابه في أخبار الوزراء
فقال : كان آل بَرَمَكْ أُنْدَى من السُّحَاب ، وآل وهبٍ أَحْسَنُ من الكلاب ،
وأُشِدَّ جَرِيحَ الْمُقَدَّلِ في أَبِي الْفَضْلِ :

لنا فيلسوفٌ عالمٌ بالطبائع

يَجْتَرِنَا من طَبَّه بِالْبِدَائِعِ

رَأَى الْبَخْلَ حِدْقًا فَهُوَ يَحْمِي وَيَحْتَمِي

فَلَسْتَ تَرَى في دَارِهِ غَيْرَ جَائِعِ

وَيَزْعَمُ أَنَّ الْفَقْرَ في الْجُودِ وَالنَّدَى

وَأَنَّ لَيْسَ حِظًّا في اِكْتِسَابِ الصَّنَائِعِ

سَتَعْلَمُ بَعْدَ الْمَوْتِ أَنَّكَ نَادِمٌ

وَأَنَّ الَّذِي خَلَقْتَ لَيْسَ بِنَافِعِ

لَقَدْ أَمِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَخْشَ صَرْفَهَا

وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ الْمَرْءَ رَهْنُ الْقَجَائِعِ

وقال : كان يدّعي له العقل ، وهو لا يرجع إلى دين ، وكلّ من فسد
دينه فسد عقله ، قد أعجبت فلسفته التي لا يحظى منها بطائل ، ولا يبين بين

أهلها بحقيقة ، أمن العقل أن ينشد كل شعر للحد ، ويردد كل لفظ
غث ، ومعنى ثقيل .

أنشد يوماً قول النضر بن الحرث :
يَجْبَرْنَا ابْنُ كَبْشَةَ أَنْ سَنَحِيَا
وَكَيْفَ حِيَاةُ أَصْدَائِي وَهَامِ
أَتَقْتَلَنِي إِذَا مَا كُنْتُ حَيًّا
وَتَحْيِيَنِي إِذَا رَمَتْ عِظَامِي
وَأُنْشِدُ لِآخِرِ :

أصبحت جمّ بلابل الصدر
وأيت منطوياً على غمر
إن بحت 'طل' دمي وإن أسكت
[عنكم] يضيق بذاكم صدري
وقال هذا لصالح بن عبد القدوس ، العاقل الحميد : أما سمعت له
قوله الآخر :

بَحَّ لِسَانِي بِمُضْمَرِ السُّتْرِ
وَذَاكَ أَنِي أَقُولُ بِالْدهْرِ
وَلَيْسَ بَعْدَ الْمَاتِ مُنْقَلَبٌ
وَإِنَّمَا الْمَوْتُ يَيْضَةُ الْعُقْرِ^(١)

وهذه أمورٌ قبيحة من سفلة الناس ، فكيف من عليتهم ، وإذا
سكت الناس عنهم في حياتهم خوفاً منهم نطقوا بعد موتهم تقرباً إلى الله

(١) ييضة العقر : أول ييضة للدجاج والعقر أيضاً الذي لا ولد له .

تعالى بالصدق عنهم ، فلا يبيدئك (١) ما تسمع فان الله تعالى لا يقبض
للمحسن إلا المحسن ، كما لا يلجىء المسيء إلا إلى المسيء .

[ابن العميد وجريح المقل]

ورأيتُ العسجدي يقول لجريح المقل : كيف وجدتَ هذا الرجل
- يعني أبا الفضل - فقال : يابس المود ، ذميم المعبود ، سييء الظن
بالمعبود ، ومثله لا يمتجد ولا يسود ، فقال له : أفلا ترى هذه الأبهة ،
والصيت ، والغاشية ، والموكب ؟ فقال : هذا وإن كان من الدولة في
غير السؤدد ، والسلطان غير الكرم ، والجِدَّة غير المجد ، أين الزوارُ
والمنتجعون ، وأين الآملون الشاكرون ، وأين المثنونون الحامدون ، وأين
الواصفون الصادقون ، وأين المنصرفون الراضون ، / وأين دارُ الضيافة
والخدم الراتبون المرتبون للخدمة ؟ هيئات لا يجيء بالقطعة والزقفة ،
أما تسمع الشعر :

[٣٣٢]

أبا جعفرٍ ليس فضلُ الفتي
إذا راحَ في فرطٍ إعجابهِ
ولا في فراهة برذونهِ
ولا في نظافةِ أثوابهِ
ولكنه في الفعّال الجيِّ
لِ والحسبِ الأشرفِ الثّابهِ

(١) هاده يبيده هيداً وهاداً : أفزعه وكرهه .

[ابن العميد والبحري]

وكان أبو الفضل يُطري البحري ، ويعجب من غزله وتشبيهه ،
ويستسهل في الجملة طريقته ، وَرَجُلٌ حَاضِرٌ يَخَالِفُهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ
أبو الفضل :

البحريُّ رومٌ غاليةٌ شعره
مَنْ لَا يُقِيمُ لِنَفْسِهِ مِصْرَاعًا
أَنْتَى رومٌ مِثَالُهُ وَلَوْ ابْتَقَى
تَقْوِيمَ قَافِيَةٍ لَهُ مَا سَطَاعَا
جذب العلاء بِضَبِّهِ (١) فَأَحْلَاهُ
بين المجرَّة والسِّمَّكِ رَبَاعَا
قال : فخزي الرجل وسكت .

[موعظة أبي الفضل الكيمائي لابن العميد]

وحدَّثني أبو الفضل الكيمائي (٢) قال : قلتُ لأبي الفضل بعد أن سمَّ الحاجب
النيسابوري ، وبعد أن خطب على حمد ، ودسَّ إلى ابن هِنْدُو وغيرهم من أهل
الكتابة والمروءة والذممة : لو كفتَ ، فقد أسرفتَ ، فقال : يا أبا
الطيب أنا مُضْطَرٌّ ، فقلت : أيُّ اضطرار ها هنا ، والله إن مخادعتنا
لأنفسنا في نفعنا وَضَرْنَا لأعجبٍ من مَكَابِرَةِ غيرنا لنا في خيرنا وشرِّنا ،

(١) الضبع : وسط العُضد ، العُضد كلها .

(٢) راجع معجم الأدباء ٢١١/١٤

وهذا والله رَيْنٌ^(١) القلب ، وصدأ العقل ، وفساد الاختيار ، وكدر النفس ، وسوء العادة ، وعدم التوفيق ، فقال : يا أبا الطيب أنت تتكلم بالظاهر ، وأنا أحترق في الباطن . فقلت : إن كان 'عذرُك في هذه السيرة المخالفة لأهل الديانة ، وأصحاب الحكمة قد بلغ بك هذا الوضوح والجلء ، فانك معذورٌ عندنا ، ولعلك أيضاً مأجورٌ عند الله مَالِكِ الجزاء ، وإن كنت تعلم في حقيقته غيرَ ما تراجمني عليه القول ، وتناقطني فيه الحجاج فانك من الخاسرين الذين قد باؤوا بغضبٍ من الله على مذاهب الناس أجمعين ، فبَكَي ، فقلت : البكاء لا ينفع إن كان الاقلاع 'ممكنأ ، والندم لا 'يُجدي متى كان الإصرار قائماً . هذا كله بسبب ابنك أبي الفتح ، والله إن أيام ابنك لا تطول ، وإن عيشه لا يصفو ، وإن حاله لا يستقيم ، وله أعداء لا يتخلص منهم ، وقد دلّ مولده على ذلك ، وإنك لا تدفع عنه قضاء الله ، وهو لا يغني عنك من الله شيئاً ، فعليك بخَوْيصة^(٢) نفسك . وهذا موضوعٌ يروى عنه بعض ما هو فائدة من الأدب والحكمة ، وإن كان استيعاب ذلك شاقاً ، فإن الرجل كان كثير المحفوظ ، جيد الاقتضاب .

[اللغة والكناية]

حدثني ابن فارس : جرى بين يديه أسماء الفرّج وكثرتها ، فقال بعض الحاضرين : ماذا أرادت العرب بتكثيرها مع 'قبجها ؟ فقال : لما رأوا الشيء قبيحاً جعلوا يكتبون عنه ، وكانت الكناية عند 'فشوها تصير إلى حد الاسم

(١) الرين : الدنس .

(٢) في الأصل خويصة : وخويصة الانسان : ما يختص بخدمته .

الأول ، فينتقلون إلى كناية أخرى ، فإذا اتسعت أيضاً رأوا فيها من القبيح مثل ما كتبتوا عنه من أجله ، وعلى هذا فكثرت الكنايات ، وليس غرضهم تكثيرها .

[تفسير بيتين]

وحدثني المَرَوِي قال سألت يوماً ابنه أبا القاسم - وكان أخاً لذي الكفائين مات قبله - عن قول الشاعر:

فما لكم طلس الثياب كأنكم

ذئاب الغصصا والذئب بالليل أطلس

فقال ولده : هو ظاهر إلا أن يكون تحته معنى . فقلت مازحاً له : أهو ظاهر لك ، أو ظاهر عنك ، أي غائب ، ومعنى ظاهر عنك أي بجانب لك ، بارز عنك ، ومنه قول المُنذَكِي :

وعيرها الواشون أني أحبها

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

وفسر البيت فقال : يقول مالكم مجاهرين لي بالعداوة ، ولا تجاملوني في حال ، فالذئب أصلح منكم ، لأنه بالليل أطلس أي مجاهر بالليل فقط ، ومداح بالنهار ، فهو مجاهر في وقت ، ومداح في وقت ، وأنتم مُصرون على العداوة .

[فقّر لابن المعتز]

وكان يحفظ فقراً كثيرة لابن المعتز وروياها في مجلسه في الوقت بعد الوقت ، وكان يوم من حضر أنه من اقتضابه منها قوله : إن في الحكيم

أن المتواضع من طلاب العلم والحكم أكبرهم حظاً ، كما أن المكان المتواضع من (١) من أكثر البقاع ماء . وأنس الأمن يذهب بوحشة الوحدة ، ووحدة الخوف تذهب بأنس الجماعة ، ومنع الحافظ خير من عطاء المضيع . وإذا طرقت ففقع قريباً . والرجال يفيدون المال ، والمال يفيد الرجال . إذا أبصرت العين الشهوة عمي القلب عن الاختيار . من رأى الموت بعين أمليه رآه بعيداً ، ومن رآه بعين عقله رآه قريباً . العقل صفاء النفس ، والجهل كدرتها . لا تلبس (٢) السلطان في وقت اضطراب الأمور عليه ، فإن البحر لا يكاد راكبه يسلم في حال سكونه ، فكيف مع اختلاف رياحه ، واضطراب أمواجه . وإن الله تعالى أضاف إلى كل مخلوق ضده ليدل على أن الوحدة له وحده . كرم الله لا ينقض حكمته ولذلك لم تقع الاجابة لكل دعوة . للطالب المنجح لذة الادراك ، وللطالب المحروم لذة اليأس . ومن صحب السلطان فليصبر على قسوته كصبر الفواص على ملوحة ماء البحر . والعالم يعرف الجاهل لأنه كان مرة جاهلاً ، والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن مرة عالماً . ومن جعل الحمد خاتماً للنعمة جملة الله مفتاحاً للمزيد . لو تميزت الاشياء لكان الكذب مع الجبين ، والصدق مع الشجاعة ، والراحة مع اليأس ، والتعب مع الطمع ، والحرمان مع الحرص ، والذل مع الدين ، ومال الميت يعززي ورثته عنه . كيف تريد من صديقك خلقاً واحداً وهو ذو أربع طبائع . ترقع خرق الدنيا وتتسع ، وتشعبها (٣) وتتصدع ، وتجمع منها ما لا يجتمع .

[٣٣٣]

وكان مليئاً بهذا النمط ، ويفرغ في قلبه ، ولكن لم يكن له منه

(١) تطامن : انخفض .

(٢) تلبس : خالط .

(٣) الشعب الجمع والتفرق ، من الاضداد .

إلا لَمَقَّة (١) اللسان ، وَصَدَى الصوت ، وتقطيع اللفظ . فأما التخطي (٢) والعمل فكان منهما على بُعْدٍ ، والمقلُّ متى لم يُشمر كرمًا فهو وَبَالٌ ، والحكمة متى لم تُورث عملاً فهو سَخْبَالٌ (٣) ، والكرم ما قاله الأعرابي حين سُئل عنه فإنه قال : أما الكرم في اللقاء فالبَشَاشَةُ ، وأما في العِشْرَةِ فالهَشَاشَةُ ، وأما في الأخلاق فالسَّاحَةُ ، وأما في الأفعال فالنَّصَاحَةُ ، وأما في الغنى فالشارِكَةُ ، وأما في الفقر فالمواساة .

[الوزيران بين الحب والبغض]

قلت لأبي السلم نجيمة بن علي : أإبنُ عبَّادٍ أحبُّ إليك أم ابن العميد ؟ قال : ما فيها حبيبٌ ، على أي برقاعة هذا أشدُّ انتفاعاً مني بعقل ذلك ، هذا يفضُّ إذا ترفعت عن عطائه ، وقبضت يدك عن قبول برِّه ، ومشيت ناكباً عن بابه وقصده ، وذلك كان يحقد إذا رجوتَه وتعرضتَ له ، ويفضُّ إذا أثبتتَ عليه ، وطمعت فيه ، وهذا يكذب متاجناً ، وذلك لا يصدق مع الدمائة ، وَيَقْنِطُ (٤) ، وهذا يفعل الخير وإن قاله ، وأفشاه ، وبجَّح (٥) به ، وسحب ذيله عليه ، وذلك كان لا يُقلع عن الشر ، وإن تُقرع في وجهه باللائمة ، وكشِطَ عرضه بالذمَّة ، وَهَمُّ هذا في الأخذ والإعطاء ،

(١) لعق : لحس وتناول بلسانه أو إصبعه عسلاً أو نحوه .

(٢) التخطي : التفرغ للشيء .

(٣) السخبال : الفساد والتقصان والهلاك .

(٤) القنط : المنع .

(٥) يجح به : فرح .

«والإبعاد والإدناء ، وكان دأبُ ذلك الجمع والنمق والتفلسف ليقع اليأس منه ،
ويتلذذ بالخيبة عليه ، وهذا يقول ويفعل بمض ما يقول متجلدأً، وكان ذلك
لا يُهيم ولا ينوي ، ولا يظن ولا يحلم ، فضلاً عن القول المطمع ، والعمل
النافع ، وعيب هذا أنه يذوب حتى لا يحصل لك منه شيء ، وكان عيبُ ذلك
أنه يجمد حتى لا ينتفع منه بشيء .»

[الصاحب في نظر الناس]

وقلت لأبي السلم يوماً وقد خرج من دار ابن عبّاد: كيف ترى الناس؟ فقال:
رأيت الداخل ساقطاً ، والخارج ساخطاً . وأخذ من قول شبيب فإنه خرج من
دار المهلبى وقال: تيركت الداخل راجياً ، والخارج راضياً .

[كلام أبي السلم]

وكان أبو السلم من فصحاء الناس سمعته يقول: الكسير يشم^(١)، والحسير
يؤثم . وقال أيضاً: ما أحسن منقادَ هذا الطائر بالذال . وقال للبديعى لما
رأى تعسفه في العربية: يا هذا، الكلام لا يواتيك قسراً ، ولا يطبعك كارهاً
تكلم على سجيّة النفس ، وعفو الطباع ، واطرح البقية جانباً ، وجانب
التكلف ، واتبع المعنى يتبعك اللفظ ، والحظ العقل فإنه نورك ، والزم الجادة
فهي مسلكك ، ولا تذللن فتجزى ، ولا تعزّن فتقضى ، وتحكم وأنت
مُبوق ، وحذّ كأنك مُعطى ، وكسر لهاتك بتصاريف الكلام مشقياً
لا متشداً تبلغ إرادتك ، وتملك عادتك .

(١) عمّ العظم المكسور: انجبر على غير استواء .

[أبو السلم يهجو ويمدح]

قلت له : كيف كان حديث ابن العميد ؟ قال :
ألذُّ من السلوى إذا ما تشورها

وحديث ابن عبّاد أنن من الصنّان ، وأثقل من الصّدام ، وأبفض
من القفصّض^(١) في الطعام ، وأوحش من أضغاث الأحلام ، يتشاجي كأنه
سبيّ مترعرع ، يظن أن الأرض لم تُقيلْ غيره وأن السماء لم تُظِلْ سواه ، أما
سمّتهُ يشتم في هذه الأيام إنساناً فقال : لعن الله هذا الأهوج الأعوج ،
الأفليج الأفضج الخفليج ، الذي إذا قام لجليج ، وإذا مشى تفجّج ، وإن تكلم
تلجليج ، وإن تنفّم تمجمج ، وإن مشى تخرج ، وإن عدا تفجّج !
قال : فهل سمعت بكلام أنبا عن القلب وأسمج من هذا ، فعوذ بالله من
العجمة المخلوطة بالتعريب ، ومن العربية المخلوطة بالتمجيم ، ولو أن هذا النقص
لم يدل إلا على اللفظ الذي معدنه اللسان ، لكان العذر أقرب ، ولكنه كاشف
لعوْرة العقل ، هاتك لستر المعرفة ، ومن استدرجه الله إلى هذه الحال فقد
خدّله وإن ظن أنه منصور ، وأفقره وإن حسب أنه مثر .

[غضب الصاحب]

وسمّته يقول لكاتب بين يديه وقد كتب : من اسماعيل بن عبّاد ، وكانت
العين من اسماعيل قد تطلّست ، ولم يكن لها ياض المشقين^(٢) بتعجرف^(٣) الكاتب
والقلم . فقال ! يا هذا عيني هكذا ينبغي أن تكتب ؟ بالله أنت أعمى ! أما
تري عيني ! أنظر إليها حسناً ، أي مطموسة ؟ أي مخلوسة ؟ أي مخلوسة ؟

(١) القفصض : صغار الحصى .

(٢) مشق الخط : مده ، وقيل أسرع فيه .

(٣) تعجرف : من العجرفة أي قلة المبالاة بالعمل .

أهي مَطْلُوسَة ؟ أهي مَمْرُوسَة ؟ أهي مَمْسُوحَة ؟ أهي مَمْرُوحَة ؟ أهي مَسْطُوحَة ، وما كاد يسكت ، وهل هذا إلا رقاعةٌ وجهل وكلام رقعاء المعلمين والمخنثين .

[أشياء لا حقيقة لها]

وقال يوماً : ها هنا أشياء لا حقيقة لها منها : إمام الرافضة ، والاستطاعة مع الفعل ، والبذل للبخار والهيولى ، فقال الحسين المتكلم : والحال لأبي هاشم فقال : بما يوضح عندي معنى الحال أن مثلك لا يفهمه ، وكان هذا الكلام بسبب تنكُّر له شديد . فقلت : أنشدني الأندلسي أبو محمد لبعض شعراء المغرب بيتاً ذكر فيه أشياء زعم أنه لا حقيقة لها فقال : وما ذاك البيت فأنشدته :

الجودُ والغولُ والعنقاءُ ثلاثةٌ

أسماءُ أشياء لم تخلق ولم تكن

نصب ثلاثةٌ على الحال ، وقال : الرفع غالب .

[شعر الصاحب ونثره]

قال : وفي المغاربة من له هذا النمط ، قلت : قد سألته عن هذا فقال لي : في المغرب من يُقدِّم نثره على نثر إبراهيم ابن العباس الصولي ، ويقدم نظمه على نظم أبي تمام .

[محفوظات الصاحب]

فقال : فهل روى لك غير هذا / ؟ قلت : نعم أنشدني لشاعر لهم يُعرف [٣٣٣] بأبي بكر محمد بن فرُّح في طُفيلي يعرف بابن الامام :

أفديك من متوجدي غضبان
حتى يلوح له ضباب دخان
يقتاده شم القطار بأنفه (١)
مثل اقتياد النجم للحيران
وعلى الدخان بشت طولة مرياً
بيدي كمين مطامح الاخوان
وبحانة الملهين جاسوس له
ينبئه أين تناكح الزوجان
صب إلى الطوفان مراتح إلى الج
جولان مضطفن على الخلان
فترى الامامين حول ركابه
كانخيل صايعة ليوم رهان (٢)
لو يسمعون بأكلة أو شربة
بفان أصبح جمعهم بفان
زار الفقى القرشي لالتمهد
منه ولا شوق إلى لقيان
حتى إذا وضع الخوان تساقطوا
نهماً عليه تساقط الذبان

(١) القطار : الدخان من المطبوع ورائحة اللحم والشواء .

(٢) صاع يصبع صيماً : الغنم فرقها . وتصيع الماء : اضطرب وماج .

ورأيتَه من بينهم متخمطاً
في لقمه كتخمطِ السكران (١)
لم ينصرف إلاّ وفي أكامه
حمَلٌ وفي أعفاجِه حملانِ (٢)
وأخو ثقيفٍ فرٌ منه قاصداً
جَيَّانٌ لو أغنت قري جَيَّانِ (٣)
لو حلّ في نجرانٍ لم يَسْعُدْ على
عَزَمَاتِ بيته مدى نجرانِ
كالموت يُسمى في التخلُّصِ جاهداً
منه وتلقاه بكلِّ مكانِ

فمجب من الأبيات وقال : ماذا قال لك في تفسير شتّ طولة ؟ فقلت :
زعم أنها بليدة . قال فما جَيَّان . قلت : زعم أنه مكانٌ يعرف هكذا . قال :
أكتب الأبيات وارفعها إليّ ينجاح - وكان خازن كتبه - ثم قال : ما أنشدك
شيئاً في الغزل ؟ قلت : بلى أنشدني لأبي عمرو الأندلسي :

مهلاً فما دينُ الهوى كفرٌ ولا
اعتدُّ عدلك لي من التنزيلِ
مَنْ حاكِمٌ بيني وبين عدولي
الشَّجْوُ شجوي والعويلُ عويلي

(١) خمط الخمر : تغير ريحه . وتخمط : تكبر وغضب وهو المقصود .

(٢) جمع عفج وهو ما ينتقل إليه الطعام بعد المدة .

(٣) جيان : كورة من أعمال اشيلية .

فبأي جراحة أصونُ معدتي
سلمتُ من التعذيبِ والتنكيلِ
إن قلتُ في عيني فتمَّ مدامعي
أو قلتُ في كبدي فتمَّ غليلي
وأنشدني لهذا الشاعر بعينه أيضاً :

وأحورَ إن كلمته فهو شاعرٌ
يأنأ وإن لاحظته فهو ساحرٌ
على خده لياسمين غلائلٌ
عليها من الورد التّصيرِ ظهارٌ (١)
حسامٌ بعينه ونطعٌ بخده
وصنع دم العشاق في النّطع ظاهرٌ (٢)

ولابن رشيق أيضاً (٣) :

ولم أدخل الحمام ساعةً يئسهم
طلابَ نعيمٍ قد رضيتُ بيؤسي
ولكن لتجري دمعتي مستهلةً
فأبكي ولا يدري بذاك جليسي

فقال : كنت أحب أن أرى أبا محمد هذا ، ولو انتجعنا بلقنا له .

(١) ظهارٌ : مفردها ظهير وهو حد انتصاف النهار .

(٢) النطع : بساط من جلد يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس .

(٣) الحسن بن رشيق القيرواني القاد الأندلسي المشهور (٣٩٠ - ٤٦٣) له مؤلفات .

كثيرة أهمها : العمدة في صناعة الشعر ونقده .

مُرادَه ، وأعدت هذه الكلمة على أبي محمد سنة سبعين فقال : والله ما أحب أن أسمع حديثه فكيف أوثر أن أبتلي برفاعته.

[الصاحب وحسين المتكلم]

وله مع حسين المتكلم جواب آخر . تناظرنا في مسألة فلما حمي الوطيس ، والتحمت الحرب قال لحسين المتكلم : هذا كلام مَنْ لا يعرف الكلام . فقال : أيها الصاحب رفقاً فاني أعرف بحسين المتكلم ، ولا يجوز أن أشهر بشيء لا أكون رأساً فيه . فقال : وما في هذا ؟ إبراهيم المسلم طيب المارستان يُعرف بالمسلم ، وهو بعيدٌ مما يعرف به ، قريبٌ مما يُقَرَف به .

[تعصب الصاحب للسيرافي]

وجرى ليلة حديث أبي سعيد السيرافي ، وكان ابن عبّاد يتعصب له ، ويقدمه على أهل زمانه ، ويزعم أنه حضر مجلسه ، وأبان عن نفسه فيه ، وصادف من أبي سعيد طوّدَ حلم ، وبجرّ علم . فقال أبو موسى المُسلّم — شيخ يعرف بالحسنكي — : إلا أنه لم يعمل في شرح كتاب سيويوه شيئاً ، فنظر إليه ابن عبّاد متنمراً ولم يقل حرفاً ، فعجبنا من ذلك ، ثم إنني توصلت ببعض أصحابه حتى سأله عن حلمه عن أبي موسى مع ذبّه عن أبي سعيد فسأله فقال : والله لقد ملكني النيظ على ذلك الجاهل حتى عزّب^(١) عني رأيي ، ولم أجد في الحال شيئاً يشفي غلّي منه ، فصار ذلك سبباً لسكوتي عنه فشابهت الحال الحلم وما كان ذاك حلماً ، ولكن طلباً لنوع

(١) عزب : بعد وغاب وخفي.

من الاستخفاف لائق به ، فوالله ما يدري ذلك الكلب ، ولا أحد ممّن
خرج من قريته ورقةً من ذلك الكتاب ، وهل سبق أحد إلى مثله من أول
الكتاب إلى آخره ، مع كثرة فنونه ، وخوافي أسراره؟.

وكان أبو موسى هذا من طبرستان ، فمُدَّ هذا التعصب من مناقب ابن
عبّاد ، وحجب أبو موسى بعد .

[تعلق الصاحب بالحجّاب]

وكان ابن عبّاد يتطلب العلل للحجّاب ، ويتعلق بالريح ، وكان له تلذذ
به ، وقد حكيت ذلك آنفاً . وما سمعت في تلافي المحجوب كلاماً أطف
من كلامٍ حدثني به الخوارزمي عن السّلامي صاحب تاريخ خراسان . قال
السّلامي : عاتبْتُ أبا الفضل الملمعي وزير عبد الملك بن نوح بأبياتٍ على
حجّابٍ نالني منه فقال لي : لك عندنا بما استعبت العتبي ، وعلى
ما استعدادت العدوى ، أما نهارنا فمقسومٌ بين / حوائج الناس ، وإنما نفرع
بالليل للاستئناس بوجوه الأولياء والخواص ، فاحضُر النهار مبسطاً ومخالطاً ،
وبالليل مؤانساً ومجالساً .

[٣٤]

وكان ابن عبّاد ضدّ هذا ، لأنه كان يشتكي إليه فيقول :
الشكوى إليّ من الحجّاب إغراءٌ ، والصبرُ عليه يعطِفني إلى بعض
ما يُلتمس مني .

[الصاحب والامامية]

وسمّته يقول : لله عندي أياديٌ متضاعفة ، ونعمٌ متكافئة ، ومن
أجلها أنه لم يعمسن في مذاهب الامامية ، ومع هذا كان إذا عمل قصيدة في

أهل البيت غلا وتجاوز وغيض من الصدر الأول ، وادعى على الشيخين
البهتان ، وعرض وصرح ، وهذا من فعلاته الذميمة وجهالاته المشهورة .

[شعر في الحجاب]

وأنشده ثعلب في الحجاب أبياتاً وقال : ما سمعت بمثلاً ، هكذا سمعناه فيما
قرىء على ابن مقسم العطار النحوي :

ظننت به إحدى ثلاثٍ وربما
زعتُ بظنٍ واقعٍ بصوابه
فقلت : به مسٌّ من العيِّ حاضرٌ
وفي أذنه للناس إظهارٌ ما به
فإن لم يكن عيُّ اللسان فعارضٌ
من البخل يحمي ما له عن طلابه
وإن لم يكن هذا وذاك فرتبةٌ
يصرُّ عليها عند إغلاقِ بابهِ
وحدثني المرزباني قال : لقد أجاد البصير في قوله :
رُبُّ فتىٍ تحمد أخلاقه
وتسكن الأحرار في ذمته
قد كثر الحاجبُ أعداءه
وسلَّطَ الذمُّ على نعمته

[استطراد]

ومن طريف ما حدثنا به ابن عباد في الوقت الذي تلاقى فيه المساكر بقصر
الجص قال: كنت في مقبلي فأتاني آت قال:

اسقني قهوة بفرط اختياري
خرج الملك عن يدي 'بختيار

[أبو الفتح بن العميد وشعره]

وأما أبو الفتح ذو الكفائتين فإنه كان شاباً ، ذكياً ، متحرراً ، حسن الشعر ،
مليح الكتابة ، كثير المحاسن ، ولم يظهر منه كل ما كان في قوته لقصر أيامه ،
واشتمال دولته ، وطفوها بسرعة . ومن شعره :

إني متى أهز ز قضاتي تنثر
أوصالها أنبوبة أنبوا
أدعو بعاليها العلي فتجيني
وأقي بحد سنانها المرهوبا

ومن شعره:

نهضت تثنى في الكواعب
كالبدر هادته الكواكب
فتبرجت سدق الدجى
وتبلجت ظلم النياهب
لله أنت وهن إذ
يخبطن من كرم صواحب
متلائات كالآ
لى ضمها عقد التراب
إني أعيدك أن ترد
دي مقلتي بمئي كواذب

وتسوّدي وجه الرجا
ء وتقلقي فتح المذاهب
أوما ترين مدامعي
سحاً سحائبها سواكب
جادت ديارك أين كا
نت مثلها دُرر السحاب
موصولة الأكناف حية
ث الودق صائبة المَسارب
محلولة الأرقام فص
سهاء المرى وطف الهياذب
وعدتك داهية اليا
لي والحوادث والنواب
لازلن منك بحيث أن
ت من الشواب والمعائب
إني إذا أعزى إلي—
ك من الأقارب أو أقارب
لا تقطمي جبل القرب
ب وتكفري حق المناسب
فتفارقى خلق الكرى
م وتضربي مثلاً لضارب
إن الأقارب كالمقا
رب بل أضر من المقارب
لا تبخلي إن الكرى
مة من مواهبها مناهب

كفسي السيوف عن الختو
ف وإن أطاعتها المضارب
لا ترغبي عن ماجدٍ
سَمَح الخلائق والضرائب
يُعزى لآباء غطا
رفة وأماتٍ نجائب
إني من نفر الكرا
م السادة الشمّ الذوائب
يقطُ إذا كَرِيّ اللثا
مُ عن العلى ككرى الأراب
أسدُ إذا وَنتِ القرو
مُ عن الوغى وَثِي الثعالب
عَفْ أطليل ظميتي
حتى أرى صفو المشارب
وأذلُّ نفسي في الكريد
هبة أو أرى كرم المناسب
وإذا نسيء عصابة
عممتها شرّ العصائب
كم من عدوٍ كاشح
يرنو إليّ بطرفِ عاتب
يُبدى لنا وجه المشا
جرٍ دونه صدرُ المحارب

متقلّصُ الاحشاء من
حسدِ ذوّينِ الصدر راتب
لو شئتُ أحرقتُ أهله
من نهضتي نارُ الجاحب
سلته ليد الحوا
دثِ والأمور إلى عواقب
إن لم تكن فوق الأكف
ف يدي فكانت للمغالب
أو لم تكن فوق الذرى
قدمي فأعيها المذاهب

وله كلام كثير ، نظم وثر في وصف الصديق (١) ما يوفي على كل منظوم ،
ولو أبقتة الأيام لظهر منه فضلٌ كبير .

[تفقده لأعلام زمانه]

ودخل بغداد فتكاف واحتفل وعقد مجالس مختلفة للفقهاء يوماً ،
وللأدباء يوماً ، وللمتكلمين يوماً وللمتفلسفين يوماً ، وفرّق أموالاً خطيرة ،
وتفقد أبا سعيد السيرافي ، وعلي بن / عيسى الرمّاني وغيرها وعرض عليها المسير [٤٣ب]
معه إلى الري ، ووعدهم ومثّاهم ، وأظهر المباهاة بهم ، وكذلك خاطب أبا
الحسن الأنصاري وابن كعب ، وأبا سليمان السجستاني المنطقي ، وابن البقال
الشاعر ، وابن الأعرج النمري وغيرهم .

(١) في الأصل مطبوسة .

[مجالس ابن العميد]

ودخل شهر رمضان فاحتشد وبالغ ، ووصل ووهب وجرت في هذه المجالس غرائب العلم ، وبدائع الحكمة ، وخاصة ماجرى للمتفلسفين مع أبي الحسين العامري ، ولولا طول الرسالة لرسمت ذلك كله في هذا المكان . فمن طريف ماجرى ، وفي سماعه فائدة واعتبار ، ما أحكيه لك ها هنا . انعقد المجلس في جمادى الآخرة سنة أربع وستين وثلاثمائة ، وغص بأهله ، فرأيت العامري وقد انتدب فسأل أبا سعيد السيرافي فقال : ما طبيعة الباء من «بسم الله الرحمن الرحيم» ؟ فعجب الناس من هذه المطالبة ، ونزل بأبي سعيد ما كاد يُشدهُ به ، فأنطقه الله بالسحر الحلال ، وذاك أنه قال : ما أحسن ما أدبنا به بعض الموفقين من المتقدمين فإنه قال :

وَإِذَا خَطَبْتَ عَلَى الرِّجَالِ فَلَا تَكُنْ

خَطِيْلَ الكَلَامِ تَقَوْلُهُ مُخْتَلَا

وَاعْلَمْ بِأَنَّ مِنَ السَّكُوتِ لِبَابَةٍ (١)

وَمِنَ التَّكْلِيفِ مَا يَكُونُ مَحَالَا

والله يا شيخ ، لعينك أكبر من فرارك (٢) ، ولمرآك أوفى من دخلتك ، ولمنشورك أبين من مطوبك ، فما هذا الذي طوّعت له نفسك ، وسدّد عليه رأيك ، إني أظن أن السلامة بالسكوت تعافك ، والغنيمة بالقول ترغب

(١) البّابة من اللب وهو العقل .

(٢) الفرار : مصدر فر . وفر الدابة كشف عن أسنانها لينظر ماسنها ، ومنها المثل المشهور « إن الجواد عينه فرارة » يضرب لمن يدل ظاهره على باطنه ومنظره يفني عن أن تفر أسنانه .

عنك ، والله المستعان ، فقال ابن العميد وقد أعجب بما قال أبو سعيد :

فَيَّ كَانَ يَعْلَمُو مَفْرُقَ الْحَقِّ قَوْلُهُ

إِذَا الْخَطْبَاءُ الصَّيْدَ عَضَّكَ قِيلَهَا (١)

جَهِيرٌ وَمَمْتَدُّ الْعِنَانِ مَنَاقِلُ

بَصِيرٌ بَعُورَاتِ الْكَلَامِ خَيْرَهَا

وقال :

وَالْقَائِلُ الْقَوْلَ الرَّفِيعَ الَّذِي

يُتَمَرِّعُ مِنْهُ الْبَلَدُ الْمَاحِلُ (٢)

ثم التفت إلى العامري وأنشد :

وإِنْ لِسَانًا لَمْ تُعَيْنَهُ لِسَابَةٌ

كحاطب ليل يجمع الرذل حاطبُهُ

وذي حَطَلٍ فِي الْقَوْلِ يَحْسَبُ أَنَّهُ

مصيبٌ فَمَا يَلْمُ بِهِ فَهُوَ قَائِلُهُ

وَفِي الصَّمْتِ سِتْرٌ لِلغَيِّ وَإِنَّمَا

صَحِيفَةٌ لَبَّ الْمَرْءِ أَنْ يَتَكَلَّمَ

وَفِي الصَّمْتِ سِتْرٌ وَهُوَ أَبِي بَدِي الْحِجَا

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلتُّنْقِ وَجْهٌ وَمَذْهَبٌ

(١) الصيد : مفردا أسيد وهو الرجل الذي يرفع رأسه كبراً .

(٢) أسرع المكان والوادي : أكلا وأخصب بكثرة الكلا .

هاثوا حديثاً آخر فقد يُسنا من هذا ، ثم أقبل على ابن فارس معلّمه فقال :-
يسنا من كلام أصحابك في الفُرْصَة والشَط (١) ، فلما خرجنا قلت لأبي سعيد
السيرافي : أيها الشيخ رأيت ما كان من هذا الرجل ، الخطير عندنا ، الكبير في
أنفسنا، فقال : ما دُهِيتُ قط بمثل ما دُهِيتُ به اليوم ، ولقد جرت بيني وبين
أبي بشر متى (٢) صاحب شرح كتب المنطق سنة عشرين وثلاثمائة في مجلس
أبي الفتح جعفر بن الفرات ملحة (٣) كانت هذه أشوس وأشرس منها . ولولا
هربي من الإطالة ، وتقل النسخ ، وادخالي حديثاً في حديث لحكيت المناظرة
التي أوحى إليها هذا الشيخ الذي كان إمامَ زمانه ، وعلمَ عصره ، لأنه
حدثني بها يزوّبها (٤) وكانت في الفرق بين النحو والمنطق ورّيم (٥)
أحدهما على الآخر ، وإحصاء الفوائد لكل واحد منها .

[رأي ابن العميد في الصابي]

وحضرت المجلس يوماً آخرَ مع أبي سعيد ، وقد غصّ بأعلام الدنيا ،
وبنود الآفاق فجرى حديث أبي إسحاق الصابي فقال ذو الكفائتين : ذاك

(١) الفرصة : من البئر ثلثة يستقى منها ، ومن البحر محط السفن .
الشط : الشاطئ .

(٢) متى بن يونس الفنائي نسبة إلى دير قني بالعراق عالم نصراني بالمنطق نزل ببلاد بغداد بعد
٣٢٠ هـ وتوفي سنة ٣٢٨ هـ « تاريخ الحكماء للقفطي ٣٢٣ والفهرست ٣٦٨ » .

(٣) راجع المناظرة في الامتاع والمؤانسة ١٠٨/١ - ١٢٨ .

(٤) أخذته بزوربه وزأبره : يأجمه .

(٥) ريم : فضل .

رجل له في كل طراز نسج ، وفي كل فضاء رهج^(١) ، وفي كل فلاة
ركب ، ومن كل غمامة سكب ، الكتابة تدعيه بأكثر مما يدعيها ،
والبلاغة تتحلى به بأكثر مما يتحلى هو بها ، وما أحلى قوله :

حمراء مصفرة الأحشاء باعثة
طيباً تحال به في البيت عطارا
كان في وسطها تيراً يخلصه
قنين^(٢) يضرم في أوراقه النارا

وقوله :

مازلت في سُكري ألمع كقها^(٣)
وذراعها بالقرص والآثار
حتى تركت أديمها وكأغا
غرز البنفسج منه في الجمار^(٤)

[رأي الصابي في ابن العميد]

وبلغ المجلس أبا إسحاق فحضر وشكر ، وطوى ونشر ، وأورد
وأصدر ، وكان كاتب زمانه ، لساناً ، وقلماً ، وشمائل ، وكان له مع
ذلك يد طويلة في العلم الرياضي . . . وسمعت أبا إسحاق يقول : هو ابن أبيه ،
لله دره ، ثم أخذ في تعظيم أبيه وقال : وكان من أماني الكبيرة لقاءه ،

(١) الرهج « كقلب » والرهج « بالتحريك » الغبار أو ما أثر منه .

(٢) القين : الصانع والحداد .

(٣) لمع : لونه ألواناً شتى .

(٤) الجمار : شحم النخلة وقلها وهو أبيض . . وفي ياقوت : غرس البنفسج .

وإني لكثير الاعجاب بكلامه ، لأني أجد فيه من العقل أكثر مما أجد فيه من اللفظ ، وإني لأظن أن عقل كل أحد كان ممزوجاً ، وكان عقله قراحاً .

[نموذج من رسائل ابن العميد]

قال : ولقد قرأت له فصلاً من كتاب له إلى أبي عبد الله المكّي العلوي نديم عضد الدولة يستحق أن يكتب بالذهب وهو : لأن تُرجى من بعيد مرّات خيراً من أن تُفْعَى من قريب مرة ، وليكن كلامك جواباً يُتحرز فيه ، ولا تُعْجِبَنِي بياني كلمة محمودة ، فيلج بك الاطناب توقفاً لمثلها ، فرجما عثرت بما يهدم ما بنته الأولى ثم لا تعلم (١) من تمثل صاحبك بقولهم : ربّ رمية من غير رام ، وبضاعتك في النثر قليلة ، مُزجاة (٢) ، وبالعقل يُزَم (٣) اللسان ، ويُنزَم السداد ، فلا يستفزّنك طربّه الكريم (٤) على ما يُفتيك عقلك ، والشفاعة لا تعترض لها فلها مخلّقة للجاه ، وإن اضطرت إليها فلا تهجم عليها حتى تعرف وقتها ، وتحصل وزنها ، / ويتقدمك من يتكلم فيها ، فإن وجدت النفس بالاجابة سمحة ، وإلى الاسعاف هشة ، فأظهر ما في نفسك غير محقق ، ولا موم أن في الرد عليك ما يوحشك ، وفي المنع [ما] يقبضك ، وليكن انطلاق وجهك إذا دُفِعَت عن حاجتك أكثر منه عند نجاحها على يدك ، ليخف كلامك ، ولا يتقل على مستمعه منك .

[١٣٥]

(١) في الأصل تعلم ولعلها تعلم كما أثبتنا .

(٢) مزجاة : قليلة وقيل ردية .

(٣) يزَم : أي يشد .

(٤) كذا في الأصل والعبارة غير مستقيمة .

أنا أقول ما أقول غيرَ واعظٍ ، ولا مرشد ، فقد كمل الله خصالك ، وحسنَ خلالك ، إذ فضلك في كل حالك ، ولكي أنبه تبيه المشارك ، وأعلم أن للذكرى موقماً ونقماً .

قلت له: قد استحسنت له حسناً ، وله أبلغ منه . فقال : كذاك هو . قلت : فانه مع هذا قد أخطأ في العربية في موضع ، فدلته عليه . فقال : لله أبوك ، ولم أذكر الموضع أيدك الله بالقلم لتكون أنت قارئه ، أعني انك تقرأ حرفاً حرفاً حتى تصيبه ، فليس الخطأ المستدرِك بالتتبع ، كالمعثور عليه بالهجوم .

[كلام لابن العميد يرويهِ الصاحب]

وكان ابن عباد يروي لأبي الفضل كلاماً في رقعةٍ إليه حين استكتبه ليومه وهو: بسم الله الرحمن الرحيم : مولاي وإن كان سيداً بهرتنا نفاسته ، وابن صاحبٍ تقدمت علينا رياسته ، فانه يعدني سنداً ووالداً ، كما أعدّه ولداً وواحداً ، ومن حق هذا أن يعضد رأيه حتى يزدادا إحكاماً وانتظاماً ، ويتظاهرا قوة وإبراماً .

وحضرت اليوم المجلس المعمور فكان من مولانا كلامٌ كثير ، وخطاب طويل فقلت : إنه لم يزد على الآباء والاستغناء ، بعد التقصي والاستيفاء ، فأوماً إلى إجبارِ كالمسألة ، وإكراهِ كالمطلبية ، وأقول بعد أن أقدم مقدمة : إن مولاي وإن كان يستغني عن جزاء الأحمق بتصوئته ، وطلقه ، وعزوف نفسه عن التكثر بالمال ، وتحصيله ، فان الأمر مفتقرٌ إلى كفالاته ، ومحتاج إلى كفايته ، وما أقول ما أقوله وغرضي إنشاء كتاب ، أو عقد حساب ، أو تفريق مال وجمع ، أو تقديم عطاء ومنع ، لأن ذلك وإن

كان مقصوداً ، وفي آلات الوزارة معدوداً ، فان في كتابه من يفي به ويستوفيه ، ويوفي عليه بأيسر مساعيه ، لكن مولانا يريد لولي عهده ، ومن يرجوه ليومه وغده ، ولا بد وإن كان السنيخ (١) قوياً ، والمحتد كريعاً ، والفضل عمياً ، والمجد صمياً ، ومركب العقل سليماً ، لتهديب من هو ممن يعرف ما السياسة ، وكيف الرياسة ، يدبر العامة والخاصة ، ومن أين يجلب الأصالة والاصابة ، وكيف تعقد المنهابة ، وكيف ترتب المرتب ، وتعالج الخطب ، وكيف ترد الخطوب إذا ضاقت المذاهب ، وتعضى الشهوة لتحرس الحشمة ، وتهجر اللذة لتحصن الإمرة (٢) ، ولا غنى عن من يقوم في وجه صاحبه فيراذه إذا بدر منه الرأي المتقلب ، وراجعه إذا جمح به اللجاج المرتكب ، ويعارضه إذا ألح عليه الغضب الملتب ، فما السبب في أن هلكت ممالك حجة ، وفسدت بلدان عدة إلا بأن خفضت أقدار الوزارة ، وانقبضت أطراف الإمارة ، وليس يفسد بقية ما في الأرض ومن عليها على ما أرى إلا إذا استعين بالأذئاب على هذا الأمر ، فلا يخلن مولاي بفضل معرفته على ولي نعمته ، ممن هو بالدولة حري بما فضله وفضل الأمين من قبله ، وإن كان مسموعاً كلامي ، وموثوقاً به لاهتامي ، فلا يقعن اقتباس عني ، ولا إعراض عما تبين بحضوري ، ومولاي محكم بعد الاجابة إلى العمل فيما يشترطه ، وغير مراجع فيما يقترحه ، وهذا حظتي منه ، وهو عن ولي النعمة حجة لا تثبت معها حجة ، وسنصل المكاتبه بالمشافهة ، إما بالحضور لديه ، أو بتجشمه إلى هذا

(١) السنيخ الاصل.

(٢) الامرة : الولاية .

العليل الذي قد أُلحَّ الثَّقْرُسُ (١) عليه والسلام .

وكان ابن عباد يحفظ هذه النسخة ورواها ويفتخر بها .

وقال لي أصحابنا بالريّ منهم أبو غالب الكاتب الأعرج : إن هذه المخاطبة من كلام ابن عباد عن ابن العميد إلى نفسه تشيعاً بها ، ونفاقاً بذكرها .

[أبو الفرج الكاتب وابن العميد]

وحدثني ابن خارجة قال : [وكان] حمد بن محمد أبو الفرج الكاتب مكيئناً عند ركن الدولة . وكان أبو الفضل لا يوفّيهِ حقّه ، ولا يحسب له تلك المسكاة ، فعاتبه حمد مراراً مصرّحاً وكانياً ، ثم كتب إليه رقعةً طواها على أبيات وهي :

مالك موفور فما باله

أكسبك التّيهَ على المُعَدِمِ

وَلِمَ إِذَا جِئْتَ نَهَضْنَا وَإِنْ

جِئْنَا تَطَاوَلْتَ وَلَمْ تَتَمِّمْ

وَإِنْ خَرَجْنَا لَمْ تَقُلْ مِثْلَ مَا

تَقُولُ : قَدَمُ طَرْفَةَ قَدَمِ

إِنْ كُنْتَ ذَا عِلْمٍ فَمَنْ ذَا الَّذِي

مِثْلُ الَّذِي تَعْلَمُ لِمَ يَعْلَمُ

(١) الثَّقْرُسُ : داء الفواصل أو الروماتيزم .

أو كنتَ في العلم من دولةٍ
فلمت من دونك في المنسَم (١)
وقد وُلينا وعزَّينا كما
أنت فلم نَصغُرْ ولم نَعظُمِ
تَكَافَاتُ أحوالنا كلُّها
فصل على الانصاف أو فاحرم

قلت لابن خارجه: أتري الأبيات لجد؟ قال: نعم. قلت: أفنجد
له إلى محبوبه؟ قال: كان حروناً، إذا أُنِي لا تَأبِي له، وإذا جمح لا حيلة فيه.
« أ كسبك » في البيت الأول مردود، غير أن ابن الأعرابي أجازته.

تصفح أيدك الله هذه الفقر، واعرف تعبي بها، وافادتي / منها، واشتفائي [٣٥ب]
بذكرها والسلام.

[رسالة ابن أبي السباب إلى ابن العميد]

فأما أبو محمد بن أبي السباب (٢) وهو عبد الزقاق بن الحسين البغدادي فإنه
كان ذا فضل واسع، وشعرٍ بارع، وعلم بكل شيء كالمنطق وغريب اللغة،
وله رسالة من خراسان لما استقرت به الدار ببخارى كتبها إلى أبي الفضل، ولا
بأس بسردها هاهنا لتعلم أن الحر إذا ذاق الهوان ممن يستحق الكرامة عليه.

(١) رواية ابن خلكان ٥٩/٢

ولست في الغارب من دولة
ونحن من دونك في المنسَم

(٢) راجع: وفيات الاعيان ٥٩/٢

شوقٌ جَيْبُهُ مُسْتَعِينًا ، وأدرك طائلته مكافحاً ومُنِيئاً . كتب :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أيتها الرجل الذي اختار لنفسه الوصف بالرياسة ،
فطالب الصِّغَارِ والكِبَارِ في المِكَاتِبَةِ والمِخَاطِبَةِ ، ما يَسِرُّني حَسَنُ ما أنتَ فيه ،
بِقَبْحِ ما أنتَ عليه ، ولا يَمِجِّبُنِي ظاهِرُ ما تَدَّعِيهِ بِيَاظِنِ ما تَنَقَّضَهُ ، به أُلْزِمُ
فِئَاءَكَ هَذِهِ السَّنِينَ عَلَى مِقَاسَةِ كِبَرِكَ ، وَتَجْمَعِدُ بِنَانِكَ ، وَقَلَّةِ النَّائِلِ مِنْكَ ، مَعَ
تَسْيِيرِ فَنُونِ الْقَرِيضِ فِيكَ ، وَثَرِ أَصْنَافِ الْبَدِيعِ عَلَيْكَ ، وَمَعَ التَّضَاوُلِ لَكَ ،
وإِرَاقَةِ مَاءِ الْوَجْهِ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَالصَّبْرِ عَلَى مَلِكِكَ وَصَلَفِكَ وَتَلَوْنِ أَخْلَاقِكَ ،
وَمَعَ فَتْحِي عَلَيْكَ أَبْوَابَ الْمَنْطِقِ ، وَهَدَايِي إِيَّاكَ إِلَى ضُرُوبِ ما اقْتَبَسْتَهُ مِنْ
مَنْ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ ، ثُمَّ يَكُونُ آخِرَ أَمْرِكَ فِي نَظَرِكَ لِي ، وَإِحْسَانِكَ
إِلَيَّ أَنْ تَقْرَنِي بِغَلَامٍ غَيْرٍ جَاهِلٍ ، وَنَكْدٍ عَارِمٍ ، يَزِيدُ عَلَيْكَ فِي الْبَخْلِ ،
وَيَنْقُصُ عَنكَ فِي الْحِلْمِ ، وَتُكَلِّفُنِي الصَّبْرَ مَعَهُ ، وَالرِّضَا بِالخَسْفِ مِنْهُ ، وَمَنْ
ذَا الَّذِي عَلِمَ أَنْ رَزَقَ اللَّهُ مَيْدَانَ "مِرْتَادٍ وَغَادٍ" ، وَالْمَرْءَ فِيهِ بَيْنَ سَائِقٍ وَحَادٍ ،
غَمَسَ نَفْسَهُ فِي حِيَاضِ الذَّلِّ ، وَفَارَقَ حَسْنَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ
كُلِّ شَيْءٍ ، وَاللَّهُ ما اتَّخَذَ اللَّيْلَ جَمَلًا هَارِبًا مِنْ صَقْعِكَ ، زَاهِدًا فِي ضَرِّكَ
وَنَفْعِكَ إِلَّا لِقَوْلِكَ فِي إِنْشَائِكَ لِأَصْحَابِكَ : إِنَّ أبا السَّبَّابِ لَأَزَقُ بِنَا لِرُوقِ
الْمَحْمِ بِالْعَظْمِ ، وَجَارٍ مَعْنَا جَرِي اللَّحْمِ فِي اللَّحْمِ ، وَلَوْ طَرَدْتَاهُ ما بَرِحَ ، وَلَوْ
فَازَ بغيرِنا ما فَرِحَ ، وَأَيْنَ يَجِدُ جَنابًا أَمْرَعًا مِنْ جَنابِنا ، وَفِئَاءَ أَخْصَبِ مَنْ
فِئائِنا ، أَعْرَكَمُ أَنَّهُ يَتَلَوَّى عَلَيْنَا ، وَيَنْحِي لِدِينِنا ، ذاكَ كُلَّهُ رِيحٌ ، وَهُوَ مُنْبِتٌ
فِي الْوَلُوحِ ، إِنَّ تَوَجُّهَهُ إِلَى خِرَاسانَ فَمَا بِها مِنْ يَنْقَعِ ظُفْمَاتِهِ ، وَإِنْ عادَ إِلَى بَنْدَادِ
فِهي التي عَرَفْنا وَعَرَفْتَهُ ، وَإِنْ تَطاولَ إِلَى الشَّامِ وَمَصَرَ فَمَا بِها مِنْ يَجْتَلِي غَرَّتَهُ ،
أَوْ يَقْتَسِبُ حِكْمَتَهُ ، أَوْ يَصْبِرُ عَلَى جِشْمِهِ الْفَاضِحِ ، وَسؤالُهُ الْمَلْحِ . فإنا أُنَا قَدْ
شَخَّصْتَ إِلَى الْمَشْرِقِ ، وَحَظَّيْتَ عِنْدَ مَلِكِهِ ، وَوَلَيْتَ الْبَرِيدَ لَهُ ، وَغَلَبْتَ عَلَى

مجلسه بالمؤانسة ، وحوالي الغاشية والصف (١) ، بعدما كنت أعانيه عندك من الشطف والجمع (٢) ، وما كان كلامك ذاك في إلا إغراء لي بطلب السعادة العاجلة ، ونيلها في سهولة مع التخلص من الغيظ الذي كنت أجزعه عندك صباح مساء ، والكذب الذي كنت أتمقه فيك في الجِد والمهزل ، والخساسة التي كنت أسترها عليك في الصحو والسكر ، والتلوُّن الذي كنت احتمله منك في الغضب والرضا . هذا والمناةُ منك دون ما يمسك الرَّمق ، والمبدول عليها فوق ما يجب لك بالحق، ولولا أني - مع ما اورده (٣) من العتب عليك - أرجع الى حفاظٍ لا تعرف منه الا الاسم ، لكان لي في جلدك حَزٌّ ونهشٌ وعلى عرضك جَمْرٌ ووقص (٤) ، وما الذي يرجى منك أكثر مما كان ، وولادتك مشهورة ، ومنشوءك ظاهر ، ومبادي حالك في ارتفاعك محصّلة ، والألسنة بحقائقها دائرة ، والأسماع الى عجائبها صاغية ، والقلوب من فضائلها متعجبة ، ولك في براءة والدك منك كاف ، وفي حديث والدتك مما هو غير خاف ، ومما يدل على طليي البقيا أني اقتصر في مكاتبتك على لفظٍ منشور ولو نظمت ذلك لكان تفتقك منه يجرعك مضمض الندم على تقصيرك معي ومع نظرائي فيما تقدم . فاذا كر هذه اليد لي عندك في عرض ما تقرأه من هذه الرقعة اليك ، وقد شفيت بها فؤاداً كان يتلظى أسفاً على خدمة ضاعت عندك ، وحرمة بارت لديك ، ولعلي قد أطرنتك على كثير ممن يازم فناءك طامعاً في خيرك ، أو يشقى بمعرفتك ظاناً لدرك المطلوب منك ، ثم ينقلب عنك بقلبٍ أوقد من قلبي عليك ، ولسان أذرب من لساني في عرضك :

(١) الصف : يقال : هو من ليقنا وضيغنا ، أي ممن نلغه بنا ونضغه إلينا .

(٢) الجمع : القوت الذي لا فضل فيه .

(٣) في الاصل اردملته .

(٤) حمز : لقع . وقص : كسر .

عليك سلامٌ لا تواصل بعده

فلا القلبُ محزونٌ ولا اللمعُ سافحٌ

والله لا حاق الشر الا بأهله ، ولا لصق العارُ إلا بكاسبه ، ولا قيل في الخسيس النذل الا دون ما يستحق ، ذق عقق فقد فاتك من سبق .
أفادني هذه الرسالة أبو جعفر الخطيب النيسابوري وقال لي : أما أوصلت الكتاب الى أبي الفضل محتوماً بعد ما نسخته قال : وعدت اليه أطلبه بالجواب . فقال لي : قد كتبت الجواب قبلك ، وكان ذلك تحاجزاً منه لأنه كان قد انشوى بها حين قرأها .

[قصيدة ابن أبي السباب في ابن العميد]

ولقد أنشدني ابن أبي السباب قصيدة في أبي الفضل / وأنا أروهاها هنا لتعلم [٣٦٦]
أنه كان مظلوماً فيها وفي أخواتها ، أو لتقف على طريقته الحلوة ، ومعانيه السهلة ، ولفظه الخلوب وقال لنا : كانت جائزتي عليها بعد نظرٍ تقدمتها جائزة لا أستجيز ذكرها لأنها إن كانت تضع من صاحبها إنها تضع مني أيضاً ، القصيدة :

بَرَحُ اشْتِاقٍ وَاذْكَارِ
وَلَهِيْبُ أَنْفَاسِ حِرَارِ
وَمَدَامِيعُ عَبْرَاتِهَا
تَرْفُضُ عَنْ نَوْمِ مُطَارِ
لَهُ قَلْبِي مَا يَجْنُ
نُ مِنْ الِهْمُومِ وَمَا يُوَارِي^(١)

(١) أجن : أخفي وستر .

لقد اتقضى سكر الشبّا ب وما اتقضى وصب الخُبَار (١)
وكبرت عن وصل الصفا ر وما سلوت عن الصغار
سُقياً لتغليبي إلى باب الرُصافة وابتكاري (٢)
أيامٍ أخطرُ في الصبا نشوانَ مسحوبَ الإزار
حجّتي إلى حجر الصّرا ة وفي حدائقها اعتماري (٣)
ومواطن اللذاتِ أو طاني ودار الروم داري
كم رضت فيها من نغارٍ محرّم حلق الثّقَار
ورعيت من قطربلٍ روض الشقائق والبهار
وزففتها مسكينةً في رَينطَتي خزّ وقارٍ (٤)
يُعطي النديمَ بزها ماشئت من نورٍ ونارٍ (٥)
كيف اعتدال معذلٍ صحبَ الفوأة بلا عذارٍ
يستنُّ في طرق الصبا ويميث في سبل الخسارٍ
فيصيد غزلان الكِناس ويدري بقرّ الصوارٍ
من كل عطشان الوشاح ميميلٍ شرق السوار

(١) الوصب : المرض والوجع الدائم وقد يطلق على التعب والفتور في البدن . الحمار : صداع الحمر وأذاها وبقية السكر .

(٢) التغليس : السير في آخر الليل ، والغلس ظلمة آخر الليل .

(٣) الاعتار : من العمرة وهي الحج الاصغر .

(٤) ربطة : ملاءة ليست ذات لفقين أي قطعتين متضامتين كلها نسج واحد وقطعة واحدة وهي أيضاً كل ثوب لين رقيق . الحز : الحرير . القار : شيء أسود تظلي به السفن والإبل وقيل هو الزيت .

(٥) البزال : موضع تهب الإناء ، والبزال (بالكسر) حديدة يفتح بها الدن .

بيضٌ غريراتٌ طبعٌ
وعقائلٌ تصفو وحا
هيفٌ يصلن من الروا
وتعلقي من طاعة الا
لقد اجتلبتُ منى النفو
ولحظتُ ما فتر اللواحظ
يوم استقلوا والدمو
لهفي على صبح الجبا
وتواضع اخذ الاسيه
خذ في هزارك يا غلا
حسي بألحانٍ قمرٌ
لم يبق لي عيش بلذٌ
وإذا استهل ابن العميد
خرقٌ صفت أخلاقه
فكأنما رفيدت موا
وكانت نشرَ حديثه
وكاننا ممًا تفر
متببتٌ بعني بح

ن من الدلال على غرار
ف شعورهن على المدار
دف بالزناير القصار
ستاذٍ بالجبل المغار
س من ايضاضٍ واحمرار
من فتورٍ واحورار
ع تجود روض الجلتار
ه يشي به ليل الطرار
ل لعطفة الصدغ المدار
م فقد غنيت عن الهزار
ت بهن تغريد القهاري (١)
ذ سوى معاقره العقار (٢)
د تضاءلت ديم القطار (٣)
صفوا السبيك من النضار (٤)
هبه بأمواج البحار
نشر الخزامى والعرار
رق راحته في نثار
حود الأناة عن البدار

(١) قره : غلبه في القمار .

(٢) معاقره : ملازمة . القمار : الخمر وصميت بذلك لمعاقرتها أي لملازمتها الدن .

(٣) القطار : السحاب العظيم القطر .

(٤) النضار : الذهب .

كَلِيفٌ بَطِيٌّ السَّرَّ تَحْ
يَأْوِي إِلَى حِلْمٍ يُعَا
وَمَرْحَبٍ يَلْقَى الْحَوَا
يَرَبَا بِهِ عَزُّ الْفَخَا
وَتَصُونٌ مَسْمَعُهُ الْمَهَا
وَيَقُولُ أَيْسَرُ سَعِيهِ
كَمْ يَسْتُرُ الْبَاغِي عُلَا
هِيَهَاتَ لَا يَخْفَى عَلَى
قُلُوبِ الْمُخَيَّبِ وَشَمَكِيرِ
خَرَبَتْ دُورَ مُحَمَّدٍ
وَقَرَيْتَهَا نَارًا فَخَصَّ
جَلَبَ الْجِيَادَ إِلَى قَرَا
زَجَّ النَّسُورَ مِنَ الصَّفَا
تَرْدَى كَفْزَانَ الْفَلَا
كَكُوَاسِ الْعُقْبَانِ طَرَّ
لَمَّا طَلَعْنَ عَلِمَتْ أُنْ
وَفَلَكَتْ مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ
بِأَخِيلِ صَانَ صُدُورَهَا
وَمَغَاوَرُ يَغْرِيهِمْ

سَبَّ صَدْرَهُ لَيْلَ السَّرَارِ (١)
ذُو بِهِ وَرَأْيٍ مُسْتَشَارِ
دَثِّ بِاحْتِمَالٍ وَاصْطَبَارِ
رِ عَنْ التَّعَرُّضِ لِلْفَخَارِ
بَةَ عَنْ مِمَارَاةِ الْمَهَارِي
جَهْدَ الْمَنَافَسِ وَالْمُبَارِي
هُ وَمَاهِنٌ مِنْ اسْتَارِ
لِحَطِّ الْعِيُونِ سَنَّا النَّهَارِ
هَدَمْتَ مَجْدَ بَنِي زِيَارِ
فَأَبِي جَوَارِكِ لِلدِّيَارِ
صَصِيمُ قَلْبِكَ بِالْأَوَارِ
رَكَ فَاحْتَبَيْتَ مِنَ الْقَرَارِ
شُعْتَ الْمَسُوكِ مِنَ الْخَبَارِ
ةً بِمَثَلِ جَنَّاتِ الْقِفَارِ
نَ الْيَكَّ بِالْأَسَدِ الصُّوَارِي
نَكَ مِنْ جَمُوعِكَ فِي اغْتَرَارِ
نَ لِشَدَّةِ ذَاتِ الْيَسَارِ
فِي « الْبَقَّتَيْنِ » مِنَ الصَّدَارِ
مَنْ لَا يَمِيلُ مِنَ الْغِيَوَارِ

(١) السرار : آخر ليلة من الشهر .

لَيْثٌ يَثُورُ فَيَسْتَنِيهِ
 فَكَأَنَّمَا هَبَّاتُهَا
 فِي وَقْعَةٍ قَسَمَتْ كُفَاهَا
 وَفَرَّتْ فِيمَنْ لَا يُعِيدُ
 مَتَسْرِبِلًا مِنْ لَوْمٍ فَعَدُ
 هَذِي النِّكَالِيَّةُ لَا النِّكَالِيَّةُ
 إِنْ الْكِبَارَ مِنَ الْأُمُورِ
 وَإِلَى أَبِي الْفَضْلِ أَتْبَعَهُ
 وَلَقَدْ تَخَيَّرْتُ الرِّجَالَ
 حَتَّى سَكَنْتُ ظِلَالَهُ
 يَغْدُو عَلَى 'حَرَ' الْبَلَاءِ
 فَتَرِيْلُهُ فَتُكَاثِمُهُ
 فَرَاهُ فِي الْمَسْرِ الْمَضْرُوبِ
 مَهْتَلِلًا لِلزَّائِرِ
 لِي إِغْتَمَمْتُ يَوْمَئِذٍ
 يَا مَنْ لَهُ طَيْبُ الْأُرُوبِ
 يَا مَنْ لَهُ نُورُ الْبَدُونِ
 يَا مَنْ بِهِ مَرَضُ الْحَيَاةِ

رُ قَسَاطِلَ النَّقَعِ الْمُنَارِ (١)
 خَرَقٌ مِنَ الْعِيُوقِ هَارٍ (٢)
 تَكَ لِلْمَنِيَّةِ وَالْإِسَارِ
 دُ لِمَثَلِهَا غَيْرِ الْفِرَارِ
 لِمَكِّ حُلْمَتِي خَزِي وَعَارِ
 يَةُ فِي الْبِنِيَّةِ وَالْجِدَارِ
 رِ تَنْالُ بِالْهَيْمِ الْكِبَارِ
 تُ هُوَ أَحْسَنُ الْمَهْمِ السَّوَارِ
 لَ فَمَا دَفَعْتُ عَنِ الْخِيَارِ
 بَعْدَ ابْتِلَاءِ وَاخْتِبَارِ
 دِ غَدُوٍّ مَطْلُوبِ بَشَارِ
 وَتَذِيْقُهُ طَعْمِ الصَّغَارِ
 رِ يَجُودُ جُودَ أَوْلَى الْيَسَارِ
 نَ مَرْحَبًا بِالْمُسْتَزَارِ
 فَوَفَيْتُ أَسْبَابَ الْعِشَارِ
 مِ وَمَنْ لَهُ طَيْبُ النَّجَارِ
 رِ وَمَنْ لَهُ شَرَفُ الدَّرَارِ
 ءِ وَمَنْ بِهِ حَصْرُ الْوَقَارِ

(١) القسطل : الغبار الساطع وفي فقه الثعالبي هو خاص ببنار الحرب.

(٢) خرق : ثقب . الهبوات : مفردا هبوة وهي الغبرة . العيوق : نجم أحمر مضيء في طرف الحجر .

يا مَنْ لَدِيهِ حَيَا الْعَفَا
أَنْتَ الَّذِي وَهَبَ الْجِرَا
أَنْتَ الَّذِي ضَمِنَ الْوَفَا
أَنْتَ الَّذِي حَازَ الْخَطَا
فَحَوَيْتَ مَضَارَ الْعَلَا
يَفْدِيكَ مِنْ ظَنِّ الْمَكََا
فَعَدَاهُ عَنْ طَلْقِ الْجَيَا
خَذَهَا ثَمَارَ عِلَاكَ لَا
عِذْرَاءَ يُخْجَلُ حُسْنُهَا
قِيَامِنَ لَدِيهِ حَيَا الْعَفَا
أَنْتَ الَّذِي وَهَبَ الْجِرَا
أَنْتَ الَّذِي ضَمِنَ الْوَفَا
أَنْتَ الَّذِي حَازَ الْخَطَا
فَحَوَيْتَ مَضَارَ الْعَلَا
يَفْدِيكَ مِنْ ظَنِّ الْمَكََا
فَعَدَاهُ عَنْ طَلْقِ الْجَيَا
خَذَهَا ثَمَارَ عِلَاكَ لَا
عِذْرَاءَ يُخْجَلُ حُسْنُهَا

[٣٣٦] / وحدثني جريح المقل الشاعر قال : لما قال أبو محمد :

تغدوا على حر البلا د غدو مطلوب بتار
قلت : ما أ كذبك لحاك الله ! فقال : الذي نقل هذا في نفسه
أ كذب مني .

[رأي جريح المقل في ابن العميد]

وقال لي جريح المقل : قد جبت الآفاق ، وسبرت أصناف الخلق في
الأخلاق فما رأيت أحسن من هذا الرجل ، يعنى أبا الفضل !

[حديث أبي غالب الأصبهاني]

وحدثني أبو غالب الكاتب الأصبهاني قال : كان أبو الفضل مجاحي بكلام
له من رآه وهو : سألت عمّن شفني وجندي به ، وشعفتني هي له

وزعمت أني لو شيت لذهلت عقله ، ولو أردت لاغتصبت منه ، زعماً لعمراً
أيك ليس بزعم كيف أسلو عنه وأنا أراه ، أو أنساء وهو لي تجاه . هيات
هو أغلب علي ، وأقرب إلي من أن يرخي له عذارى ، أو يخليني واختياري ،
بعد اختلاطي بملكه ، وانخراطي في سلكه . وبعد أن ناط حبه بقلبي ناط ،
وساطه^(١) بدمي سائط ، فهو جارٍ مني مجرى الروح في الأعضاء ، ومنتسب معي
روح الهواء ، إن ذهب عنه رجعت إليه ، وإن هربت منه وقفت عليه ،
ما أحب السلو عنه مع هناته ، وما أوثر الخلو منه على علاقته . هذا على أنه
إن أقبل لم يهنئي إقباله ، وإن أعرض لم يطرقني خياله ، يبعد علي مناله ،
ويقرب من غيري نواله ، ويرد عيني خاسئة ، ويثني يدي خالية ، وقد
بسط مسافات النفس المتقاربة ، وصدق مراحم الظنون الكاذبة ، وصله
يُنذر بضده ، وقربه يؤذن ببعده ، يدنو عدل ما يترج ، ويأسو
مثل ما يبحر ، فحاله أحوال ، وخلته خلال ، وحره سجال ، الحسن
من عوائده ، والجمال من منائحه ، والبهاء من فضوله ورفاته ، والسناء من
نموته وسماته ، اسمه طبق لعناه ، وفجواه وفق لنجواه ، تتشابه حلاه ،
ويتضارع قطراه ، من حيث تلقاه يستنير ، ومن حيث تفشاه يستطير ، كالبدر
بين سعوده قد وسطها وحفت به ، يقدمه النسران ، ويتلوه نطاق الجوزاء ،
هكذا ، ولو قلت أن الواسطة النميصاء^(٢) لها هادٍ وتابع ، إن فرقها انفقا ، وإن
ألفتها تفرقا ، يقبل بشوك السيال^(٣) ، ويُدبر سفى البهي^(٤) ، ويعترض بسود
قصار سواسية كأسنان الحمار ، لصدقت . فأين لي ما قلته ، فهو تعريض
كالتصريح ، وتعمير كالتصحيح والسلام .

(١) ساط الشيء سوطاً : خلطه .

(٢) النميصاء : إحدى الشعيرين من منازل القمر .

(٣) السيال : مفردا سيالة وهي نبات له شوك أبيض طويل .

(٤) البهي : ضرب من النبات ، وسفى البهي : شوكه .

[كتاب ابن العميد لأبي دلف الخزرجي]

وحدثني أبو غالب الكاتب قال : كتب أبو الفضل إلى أبي دلف الخزرجي في أوائل علة التي نهكته وخالقته يُعابته ويُعابته فقال : الآن علمت أيها الشيخ أنك لي مكاييد ، وإلى جميع ما أنك عنه مخالف ، وعلى ديدنك المعروف ثابت ، وبفضلة لسانك مسحور ، وبشائع حلمي عنك مغرور ، وليت ثققت بذلك لائحونك ، وتطوئي عليك لا يتناول بك ، واغترارك بغيري لا يزالك ، وليتك إذ قد ضللت سواء السبيل في حطك شاورتي فكنت لا أجد عليك بالهداية ، يا هذا ! شكوت اليك أوائل هذه العلة التي قد تحوَّبتني (١) ونهكتني ، وكان التلاقي سهلاً ، وباب العافية مفتوحاً ، فعدت بالقيام عليها ، وبذل النصيحة في تدبرها ، وكنت لشكري لك على ذلك حائزاً ، وبمقترحك مني فائزاً ، فتقاعست عني بلا عذر ، ووقفتي بين وصل وهجر ، فلم أدر كيف أخاطبك ، وعلى ماذا أعاتبك ، لأنني يشت من نجوع العتاب فيك ومن إحاكة الخطاب في قلبك ، لأنك مشهورٌ بقحة ، ومذكور بسلاطة ، ومعتادٌ للبهت ، وجار على الكذب ، وأول ذلك أنك تدعي بئونة محمد بن زكريا من ناحية ابنته ، وقد شاهدت محمداً وما خلف بنتاً ، ولا ولدت بنت لم يكن له ابناً ، ولو كانت له بنت وولدت ابناً لم يكن أنت ذاك للغوائل المجموعة فيك ، والعيوب المتناثرة عليك ، ولم تكن العلة التي رجعت اليك في تدبيرها

(١) تحوب : توجع وتحزن .

«صرعاً ولا صيداماً»^(١) ، «ولا جُنُوناً ، ولا جذاماً ، ولا صمماً، ولا بكماً ،
ولا فالجاً ، ولا لِقْوَةً»^(٢) ، «ولا سكتة ، ولا زمانة»^(٣) ، «ولا شللاً ،
ولا أذرة»^(٤) ، «ولا علة لا يقوم ببرئها إلا المسيح الذي هو كلمة الله التي ألقاها
إلى مريم بنت عمران التي أحصنت فرجها ، ولم تحتج في مداواتي إلى الرقي
والعزائم ، ولا إلى النفق في الأرض ، أو إلى الطيران في السكالك»^(٥) ، «ولا
إلى يد بيضاء كيد موسى بن عمران ، ولا إلى عصي موسى ، ولا إلى قميص
يوسف ، ولا إلى عرش بلقيس ، ولا إلى لوح من سفينة نوح ، ولا إلى
فلذة من كبش إبراهيم الذي فدى الله به ابنه اسماعيل كما قال تعالى :
«وَقَدَّيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ»^(٦) . ولا إلى الصدفة التي كانت فيها الدررة اليتيمة ،
ولا إلى شطبية^(٧) من سنام ناقة صالح ، ولا إلى زُبُرَةٍ من^(٨) زَبَرِ الحديد
الذي جعل ردماً^(٩) ليأجوج ومأجوج، ولا إلى عَسٍّ^(١٠) من لبن بقرة بني إسرائيل
التي ذبحوها «وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ»^(١١) ، «ولا إلى أدمغة الطير الأبايل / التي
رمت بحجارة من سجيل ، ولا تربة من «إرَمَ ذَاتِ الْعِيَادِ التي لم يُخْلَقْ

[٣٧]

(١) الصدام : داء في رؤوس الدواب .

(٢) اللقوة : داء يصيب الوجه يعوج منه الشدق إلى أحد جانبي العنق .

(٣) الزمانه : العاهة وعدم بعض الاعضاء وتعطيل القوى .

(٤) الأذرة : تمنة في الحصى .

(٥) السكالك : الهواء في أعالي الجو .

(٦) سورة الصافات .

(٧) الشطبية : القطعة من سنام البعير والجمع شطائب .

(٨) الزبرة : القطعة الضخمة من الحديد والجمع زبر بفتح الباء وضمها .

٩) الدم : السدين يأجوج ومأجوج .

(١٠) العس : القدح أو الإناء الكبير .

(١١) سورة البقرة .

مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (١) ، ، وَلَا إِلَى قِطْعَةٍ مِنَ السَّحَابِ الْمَسْحُورِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ،
وَلَا إِلَى لَمْعَةٍ مِنَ الْبَرْقِ الَّذِي يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ ، وَلَا إِلَى مِثْقَالٍ مِنَ صَوْتِ الرَّعْدِ
الَّذِي يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ تَعَالَى ، وَلَا إِلَى ذَرَّةٍ مِنَ الشَّمْسِ الَّتِي جَعَلَتْ ضِيَاءً لِلْعَالَمِينَ ،
وَلَا إِلَى فَيْضَةٍ مِنَ الْقَمَرِ الَّذِي جَعَلَ نُورًا لِأَهْلِ الْخَلَاقِينَ ، وَلَا إِلَى صَبْغٍ مِنَ
الْأَصْبَاغِ الَّذِي يَظْهَرُ فِي قَوْسِ قَزَحٍ غِبِّ الْأَنْدَاءِ الْمُتَّصِلَةِ ، وَلَا إِلَى مِثْقَالٍ مِنَ
التُّرَابِ الَّذِي « يَحْسَبُهُ الظُّلَمَانُ مَاءً » (٢) . وَلَا إِلَى شَيْءٍ مِنَ شَحْمِ الذُّبِّ
الَّذِي لَمْ يَأْكُلْ يُوسُفَ ، وَلَا إِلَى نَابِ الْكَلْبِ الَّذِي كَانَ « بَاسِطًا ذِرَاعَيْهِ
بِالْوَيْدِ » (٣) ، الَّذِي لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِ لَوَلَّيْتَ مِنْهُ فِرَارًا ، وَكَمَلَيْتَ مِنْهُ
رُعبًا ، وَلَا إِلَى الْكَبْرِيتِ الْأَحْمَرِ ، وَلَا إِلَى الْمُوْمِيَانِي الْأَبْيَضِ الَّذِي لَا يُوْجِدُ ،
وَلَا إِلَى حَيْلَةِ بَلْنِيَّاسَ ، وَلَا إِلَى قَطْرَاتٍ مِنَ مَاءِ الْحَيَوَانَ تُعْجِنُ بِهِ هَذِهِ الْأَدْوِيَّةُ ،
وَلَا إِلَى مُنْخَلٍ يَنْخُلُ مِنْ شَعْرِ ذَنْبِ حِمَارِ عَزْرَبِ الَّذِي أَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ
فَتَنْخُلُ بِهِ الْعَقَاقِيرَ ، وَلَا إِلَى مِرَارَةِ الْعَنْقَاءِ الْمَغْرِبِ الَّتِي لَمْ تَرَ قَطْ ، وَلَا إِلَى مِخِ
الْبَعُوضِ ، وَلَا إِلَى بَيْضِ الْأَنْوَقِ .

وَلَمْ يَحْتَجْ فِي تَدْيِيرِ عَلَّتِي ، وَجَمِيعِ أَدْوِيَّتِي إِلَى نَهَارٍ لَا لَيْلَ بَعْدَهُ وَلَا إِلَى
لَيْلٍ لَا نَهَارَ بَعْدَهُ ، وَلَا إِلَى نَهَارٍ مُوَالِجٍ فِي لَيْلٍ ، وَلَا إِلَى لَيْلٍ مُوَالِجٍ فِي نَهَارٍ ،
وَلَا إِلَى زَمَانٍ يَخْرُجُ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَيْبِيًّا ، أَوْ صَيْفِيًّا ، أَوْ شِتَاءِيًّا ، أَوْ خَرِيفِيًّا ،
وَلَوْ ظَنَنْتُ أَنْ هَذِهِ كُلُّهَا أَوْ بَعْضُهَا تُلْزِمُكَ أَوْ تَدْخُلُ فِي تَكْلِفِكَ لَأَثَرْتُ الْمَوْتَ عَلَى
الْعَاقِبَةِ ، فَإِنَّ فِي الْمَوْتِ خِلَاصًا مِنْكَ ، وَمِفَارِقَةً لِمِثْلِكَ ، وَاللَّهُ مَا أَنْدَبَ إِلَّا
حَسَنَ ظَنِّي بِكَ ، وَمَبَاهَاتِي أَهْلَ مَجْلِسِي بِفَضْلِكَ ، وَقَوْلِي : أَبُو دُلْفٍ ! وَمَا

(١) سورة الفجر .

(٢) سورة النور .

(٣) سورة الكهف .

والوَيْدِ : العتبة وفناء النار والكهف . والوَيْدِيتُ كالحظيرة يتخذ من الحجارة في الجبال .

أدراك ما أبو دُلف ، لا تنظروا إلى هزله فإن وراء ذلك جيداً ، وإن أردتم حقيقة ما أقول فافزعوا إليه في حوائجكم فإنكم تجدونه في قضائها قبل إنهاؤها ، وهو المرء الذي قد جمع الله له بين المنظر والمختبر ، وبين الدعوى والبيئنة ، وبين القول والحجة ، وبين الضمان والوفاء ، وبين الصداقة والشفقة ، فما زلت أقول هذا وشبهه ، وأصحابي يشيعون قولي بمثله في الظاهر ، ويخالفوني بعلمهم في الباطن حتى كان الفلج (٢) لهم ساعة هذه ، لأني احتجت إلى علمك فخصيت عهدي ، وأقبلت عليك فأعرضت عني ، ووهبت لك كلي فبخلت ببعضك علي :

فيأرب مظلون به الخير يخلف

ولقد استفدت بمعرفتك تجنّب مثلك ، ويقال : لم يهلك من مالك ما وعظك ، ومن أطلعك على خبيثة من خيره وشره فقد أراحك من طويل الفكر فيه ، وكفأك خطر التجربة له والسلام .

قلت لأبي دُلف : ما أجبتك عن هذا الكلام ؟ قال : عملت في السودة شيئاً لم أجسر على إظهاره ، وخفت صولته ونكايته ، وشره وغائلته ، وما قد حدث في رؤساء زمانك ، إنهم يحقدون على الأتباع ، ولا يعرفون حقهم في الخدمة والطاعة .

[وصف بغداد]

وكننا يوماً عند ذي الكفائتين بمدينة السلام ، فجرى حديث بغداد ، فقال ذو الكفائتين : لما رجع ابن عبّاد من بغداد قال له الأستاذ الرئيس — نصر الله وجهه — كيف رأيت بغداد ؟ قال : رأيت بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد .

(١) الفلج : الظفر .

[نكتة]

وحكى أيضاً في هذا اليوم عن أبيه قال : لما انصرف أهل خراسان سنة خمس وخمسين وثلاثمائة أمام الغزاة من الري بعد الحادثة التي جرت ، ودفع الله حدتها وأعاد من ضارمها (١) أخذ الرئيس ييني حول دار ركن الدولة حائطاً عظيماً ، فقال له علي بن القاسم العارض : هذا كما يقال : الشدة بعد الضرط ، فقال : هذا أيضاً جيد لثلاث تنقلت أخرى .

[الفرق بين المتشابهين]

ورأيت أبا الفتح ذا الكفایتين يسأل أبا الحسن العامري (٢) : لم طلبت النفس الفرق بين المتشابهين ؟ فقال العامري : لأنها في جوهرها وما هو لائق بها تأتي الكثرة وتنفرد منها وهي تحن إلى الوحدة بسوسها (٣) ، وتنزع نحوها وتتقبل كل ما أعانها على ذلك وبذلك الطريق لها ، والفرق يوضح سبيل الوحدة ، وكلما كان الاشتباه أشد كان الفرق أطف ، وكلما كان الفرق أطف كانت أشد بجثاً عنه ، وأتبع بطلبه ، لأن ظفرها به يكون أعز ، ونيلها مطلوبها يكون أجلى .

[الكلام بين الجد والهزل]

وقال أبو الفتح يوماً آخر لابن فارس المعلم : لم قال الجاحظ : فإن الكلام

(١) في الأصل « وأعاد بصارمها » .

(٢) أبو الحسن محمد بن يوسف العامري أحد فلاسفة الإسلام ذكره التوحيدي في المقابلات فقال : « كان من أعلام عصره » وكان العامري معنياً بكتب الأوائل وكتب أرسطو وله عليها شروح وتعليقات ، يقال بأنه نشأ في خراسان وقصد بغداد وأقام بها ثم اتصل بابن العميد فأكرمه وقرأ معه عدة كتب توفي سنة ٣٨١ هـ .

(٣) السوس : الطيبة والأصل .

قد يكون في لفظ الجد ، ومعناه الهزل ، كما يكون في لفظ الهزل ومعناه الجد . فلم يقل شيئاً ! فقال أبو الفتح : قد صدق أبو عثمان ، هذه خاصة مذاهب العرب ، ولكن لم عرض هذا في اختيارها ؟ وأدنى ما فيه أنه يدل على وضع الشيء في غير موضعه ، فلم يجر أحد شيئاً . فقال : هو أن إفراس / الجد من الهزل ، وتمييز الهزل من الجد حتى لا يوتى بهذا في هذا ، ولا بهذا في هذا النوع من الخطر على المتكلم البليغ ، والقائل البيّن . ولو جرى على ذلك كان الاقتدار يُبطل الجد الملزوم ، والسعة تضيق الغاية المبلوغة . ولما كان البيان لا يكون بياناً ، والبلاغة لا تصير بلاغة إلا بأن يكون المتكلم آخذاً في كل واحد ، قادحاً بكل زناد ، مستظهِراً بكل عتاد وجب أن يدخل الهزل في الجد إمتاعاً واستمتاعاً ، ويدخل الجد امتداداً واتساعاً . قال ابن فارس : وأي خصوصية يكون في هذا ، ونحن بالفارسية نرى هذا المذهب ، ولعل سائر اللغات على ذلك ؟ فقال : القول كما قلت ، ولكن أين مزية بيان العرب على جميع ما لأصناف العجم ؟ ثم قال : إن الغرض الأول في الكلام الإفادة ، وجل الأهم على هذا ، والثاني تحسين الإفادة ، ثم التحسين تارة يكون بمعاني التوكيد ، وتارة بمعاني الحذف ، وتارة يكون بوزن اللفظ ، وبتمديد الوزن ، وبتسهيل المطالع وتبديل المقاطع ، وهذه الأنواع وغيرها مما يطول إحصاؤه وحصره ، وهو للعرب خاصة ولباقي الأمم عامة ، ثم قال : وقد اشتمل القرآن على هذا كله ، وعلى ضروب أخر لم تكن في عادة القوم فاشية ولا كثيرة ، ولكن كالشيء البديع ، ألا ترى أنك لا تجد شوافع هذه المعاني التي في الكتاب غريبة في منشور كلامهم ولا في منظومه ، وأنت تعلم أنهم كانوا لا يسكتون .

[ولوع العرب بالكلام]

وكان ولوعهم بالكلام أشد من ولوعهم بكل شيء ، وكل ولوع كان لهم

بعد الكلام فالما كان بالكلام ، فهل تجد معنى قوله تعالى في الإبانة عن التوحيد:
« مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ^(١) » ، « وما كان معه من إله إذا لذهب
كل إله بما خلق ^(٢) » « ولعلي بعضهم على بعض ^(٣) » في شيء من
كلام؟. وكذلك أيضاً لا تجد ما يشبه قوله عز وجل « قل لو كان معه
آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً ^(٤) » وكذلك
أيضاً لا تجد ما يقارب قوله : « لو كان فيهما آلهة إلا الله
لفسدتا ^(٥) » وكذلك لا تجد ما يداني قوله : « وما ننزله إلا بقدر
معلوم ^(٦) » أو قوله : « وأنزلنا من السماء ماءً بقدر ^(٧) » ثم تدبر
قوله : « ثم شققنا الأرض شققاً ^(٨) » وقال : « إننا صببنا الماء
صباً ^(٩) » وقال : « فسالت أوديةً بقدرها ^(١٠) » وقال : « إن في
خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري
في البحر بما ينفع الناس ^(١١) » وقال : « وفي خلقكم وما

-
- (١) سورة المؤمنون .
(٢) » الأحزاب .
(٣) » المؤمنون .
(٤) » الإسراء .
(٥) » الأنبياء .
(٦) » الحجر .
(٧) » المؤمنون .
(٨) » عبس .
(٩) » »
(١٠) » الرعد .
(١١) » البقرة .

يَبْتُ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتُ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ^(١) ، وقال : « وَضَرَبَ لَنَا
 مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ
 يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ^(٢) ، وقال :
 « الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ
 تُوقِدُونَ^(٣) » ، وقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ
 فَإِنَّا خَلَقْنَا كُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن
 مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ
 مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ
 وَمِنكُمْ مَّن مِّن يَتُوقَىٰ وَمِنكُمْ مَّن يُرْدَىٰ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا
 يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عَالِمٍ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا
 عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِّن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ^(٤) »
 وقال : « وَمِن آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا
 عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ^(٥) » ، وقال : « إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا الْمُحْيِي
 الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٦) » ثم قال : وهذا سببك بدیع ،
 وأسلوبٌ معجز ، ولو كانت العرب نَعِمَتْ بهذه المعاني بعبارات دون

(١) سورة الجاثية .

(٢) » يس .

(٣) » »

(٤) » الحج .

(٥) » فصلت .

(٦) » »

عباراتها ، أو حامت بهذه العبارات بمكان دون معانيها لكننا نقف وترجع ،
ونرتاب ونضطرب فأما وشيء لا يصاب لهم لا على وجه التشبيه ، ولا على
التحقيق فماذا يبقى ؟ ثم هب أنهم كانوا مصرّوفين عنها في الأول وهم لا يابّهون
لها هلاً تصرّفوا فيها في الثاني وقد تحدّوا بها ! إن هذا لواضح .

[نبوغ ابن العميد]

وكان مع شبابه ، وكثرة اشغاله مليئاً بهذا الفن ، ولقّن أكثره من
معلمه ابن فارس، فإنه كان قد ذلّل هذا وأشباهه ، وكان ينتصب للناس في جامع
الريّ ويفسر القرآن ، ويتكلم على وجوهه ونظائره وتأويلاته ، وزاد هو
أيضاً - أعني أبا الفتح - بقوته كشافاً لقامضها، وإبانة لما خفي منها ، وكان على
كلّ حالٍ أمثل طريقة من والده أبي الفضل الذي سمع ينشد هازئاً :

ومدّع يدعى بالسيف حجة

ما حجة السيف إلا حجة البطل

وينشد :

لَعَنَ اللهُ ذَا الْعَصَا فَلَقَدْ كَا

نْتَ لِقْفَلِ النَّامُوسِ كَالْمَفْتَاحِ

[٣٨] / وهذا كله دليل على سوء الضمير ، وخبث العقيدة ، وشدة المجاهرة .

[النفس والذاكرة]

قال أبو الفتح يوماً لأبي سليمان : قال أبو عثمان في رسالته في التبريع والتدوير
إلى ابن عبد الوهاب : لم صرنا تذكّر النبيّ المهم فلا تقدر عليه حتى ندّعه

بأساً منه أجمع ما نكون نفساً ، وأحسن ما يكون تدبراً (١) ، ثم يعارضنا :
ويخطر على بالنا في حال شغل (٢) أو حال نوم وأسهى (٣) ما نكون عنه ، وأقل
ما نكون احتفالاً به ، وأنا أحبُّ أن أسمع من الشيخ فيه قولاً .

فقال أبو سليمان : ليست النفس على قدر إرادة الإنسان منها ، بل
الإنسان على قدر مراد النفس منه ، لأنَّ النَّفْسَ هي مالكتها ومدبّرتها ومقومته
ومتعمته ومحرّكتها ، فلو كان الإنسان إذا أراد إذكارها ذكرها ، وإذا
أراد إنسانها أنساها ، كانت النفس تحت ملكة الإنسان وجارية على إرادته ،
ومتصرفه بتصرفه ، وإرادته إنما هي منها ، ويقوم هو بها ، وكإله من جهتها ،
وتمامه من معوتها ، فلهذه الحال قد يتذكر الشيء فلا يجد من النفس إجابة له
في ذكر ذلك الشيء ، وقد يسئو عن ذلك الشيء فيلقى عليه أغفل ما يكون
عنه ، لأنه موجود عندها عتيداً (٤) قبلها . وإنما يكون هذا منها في الفينة بعد الفينة
ولو لم يتذكر الإنسان شيئاً جملةً لكانت نفسه الناطقة مغمورة ، ولو تذكر كلما
شاء لكان قد صفا كل الصفاء . فلما وقف من هاتين المزلتين يذكر مرة فذكر
وسها مرة فحضر .

وطال كلامه في حديث النفس ، واتسع في فنونٍ منه ، فلما انتهى قال له أبو
الفتح : عين الله عليك أيها الشيخ أنت كما قال الأحوص (٥) :

(١) في الترييع والتدوير طبعة شارل بلات C. Pellat ص ٧٩ : تذكرأ .

(٢) » » » » ص ٧٩ : سهر .

(٣) » » » » ص ٧٩ : أغنى .

(٤) عتيد : أي ميبأ .

(٥) عبد الله بن محمد بن عبد الله الأحوص الأنصاري شاعر أموي هجاء وكان معاصراً

لجرير والفرزدق توفي سنة ١٠٥ هـ . راجع أخباره في الأغاني ٤/٣٢٤-٢٦٨

إني إذا خفي الرجالُ وجدثني
كالشمس لا تخشى بكل مكانٍ (١)
إني على ما قد علمت محمداً
أنمي على البغضاءِ والشنآنِ
ما تعتريني من خطوبٍ مائةٍ
الآن تشرفي وترفع شاني (٢)
فإذا تزول تزول عن متخمطٍ (٣)
تُخشى بوادره لدى الأقرانِ (٤)
فله درك ودر زمان أنت من أهله .

[السجستاني وابن العميد]

فقال أبو سليمان : سعادة ذي الكفایتين هي التي تغشيتي عنده ، وهيات وصفي
على لسانه ، وزودتي فخراً بخدمته ، وأبقت ذكري منوهاً بذكره ، ولقد
كنت غضيب الطرف حتى رأته ، كليل اللسان حتى وصفته ، منحوس الحظ
حتى عرفته ، حامل الذكر حتى خدمته ، وإن فسح الله في المدة فسأستقبل
خلق العيش جديداً ، وألحق مفقود المنى موجوداً .

(١) رواية الأغاني : خفي اللثام رأيتي .

(٢) رواية الحماسة تعظم شاني .

(٣) متخبط : متكبر .

(٤) رواية الأغاني : وتزول حين تزول ، على الأقران .

[بخل أبي الفتح ابن العميد]

وحدثني الخليلي قال : أول ما عبتُ على هذا الفتى أنه بعد موت أبيه أبي
القضل أمر بأن ينقل المطبخ إلى دار النساء فقال الناس : الحمد لله صار
الطعام حرّاً ، والخبز عورة ، والقيدز والغضار^(١) حرّمة ، والله ما أراد
بهذا إلا أن يُصان الخبز كما تصان ذوات الخمر وصواحب المقانع ، وأن هذه
لغيرة وضعت في غير موضعها ثم أنشد لدِعبل^(٢) قوله^(٣) :

قد كان يُحزنتني إذ قال مجتهداً

إي والرغيف فهذا البرُّ من قسمه

(١) الغضار : الصفة المصنوعة من الطين اللازب الحر .

(٢) هو أبو علي دعبل بن علي بن رزين الخزاعي الشاعر المشهور ، عرف بهجائه المقنع
ولسانه السليط ، ولد في الكوفة سنة ١٤٨ هـ وتوفي سنة ٢٤٦ بالطيب بين واسط والأهواز
قال عنه ابن خلكان « كان بذيء اللسان مولعاً بالهجو والحط من أقدار الناس وطال عمره
فكان يقول : لي خمسون سنة أحمل خشبي على كتفي أدور على من يصليني عليها فما أجد ! »
ابن خلكان : ١٧٨/١

(٣) وردت هذه الأبيات في ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ١٨٥/١ منسوبة لأبي
تمام وهذا نصها :

صدق أليته إن قال مجتهداً

لا والرغيف فذاك البر من قسمه

وإن هممت به فافتك بخبزته

فان موقعها من لحمه ودمه

قد كان يعجبني لو أن غيرته

على جرادقة كانت على حرمه

أليته : قسمه .

وإن همت به فافتك بخبزه
فإن موقعا من لحمه ودمه
ما كان أحسنه لو أن غيرته
على جرادقة كانت على حرمة

قال الخليلي : كنت واقفاً في صحن داره خلف شجرة كبيرة والزمان
قيظ ، والمهاجرة (١) محدمة ، وهو أيضاً واقف تجاه تلك الشجرة لابلحقي
طرفه . فقال لخادم بين يديه : قد جعت ، أصلحوا الطعام ، وصيحوا بهؤلاء
الأكلة الطعام ! قال : فنزرت في نفسي أنفةً سدت ما بيني وبين السماء ،
فرجعت القهقري ألقط قدمي حتى صرت إلى الباب وقت إلى المنزل ، وطلبت
فاحتجبت ، ثم طلبت فاحتجبت وقلت : سقطت من عالي السطح وانكسرت
ساقِي وبقيت على هذه التعلّة حتى فرّج الله بالقبض عليه .

قال : هذا عرق كان ينبض فيه من أبيه ، فإن أباه كان عالياً في هذا
الخلق ، وكان يكابد من سرّ هذا الداء على نفسه أمراً عسيراً .
ولقد حضر ابن بندار يوماً وكان يأكل معه فنظر إلى غضارة (٢) قد
ملئت ثريداً وأنشد :

ثريدٌ كأنّ السّمَنَ في حجراته

نجوم الثريّا أو عيون الضياون (٣)

فقال : أف ! لعن الله قائله . فقال ابن بندار : قائله حسّان بن ثابت ،

(١) المهاجرة : وقت الظهر وشدة الحر .

(٢) الغضارة : الفصعة الكبيرة والجمع غضاثر « وهي فارسية » .

(٣) الضياون : مفردها ضيون وهو النور الذكر .

والنبي عليه السلام لا يرضى بلعن من يقول له حاضاً على جواب المشركين : قل
ومعك روح القدس، فسكت خزيان .

وكان ينجم من قلبه في الوقت بعد الوقت بغض العرب والأكلة . أنشد
يوماً بيتاً وقال : أحبُّ أن أعلم ما يريد الأعرابي بقوله :

تري وَدَكَ السَّدِيفِ على لحام

كلون الزاذ لبده الصقيع^(١)

[ابن بندار وأبو الفضل]

قال : وما اتصف منه أحد كأي العباس بن 'بندار فانه جرى ليلة
[٣٨ب] حديث العرب والقبائل والأنساب فقال أبو الفضل أسد^(٢) / عرق وشيخ،
وخارك^(٣) ونشيج^(٤)، وطراز^(٤) نسيج . فقال ابن بندار :

إذا أسديّ جاع يوماً بيلدة

وكان سمياً كلبه فهو آكله

فتفائل أبو الفضل كأنه لم يسمع ، وكان حليماً ، حمولاً ،
لثيماً ، ذلولاً !

(١) الزاذ : نوع من التمر والودك : الدم من اللحم والشحم وما يتحلب من ذلك .

السديف : شحم السنام .

(٢) أسد : أي قبيلة أسد .

(٣) خرك كعلم : ليج .

(٤) نشج : غص بالبكاء .

[أبو الفضل والطبيب]

وقال : أحدثك من حلمه بأعجب من هذا ، كنا بأذربيجان لما
افتتحناها لابراهيم بن المرزبان وقررناها في يده ، اتفق أننا ظفرنا هناك بطبيب
نصراني بغدادي ، حسن الحِذْق ، بارع الصناعة ، مشهود له بصواب
الرأي ، وجودته التدبير ، فأدناه أبو الفضل ، ورضي هديته ، وحمد قوله
ورأيه ، وكان يخصه بالبرِّ والتُّحفة . فكان من أمره أن أبا الفضل
شرب غداً تئذٍ قدحاً من شراب الرُّمان وبقي في أسفل القدح قليلاً ومدَّ
يده إلى الطبيب يناوله تكريمةً له ويقول له : اشرب هذه البقية ! فقال له
الطبيب : نهى نبيكم عن سؤر الكلب^(١) وأمسك عن القدح فاصفر وجهه
أبي الفضل ولم ينطق بكلمة ، ولا أساء إليه ، ولا اعتذر ذلك
من قرطته .

[اعتذار]

ولتدافع الحديث ما أخرج من ذكر هذا إلى شأن ذلك ، ولهذا اضطرب
عليّ نسخ الرسالة على مذهب المصنفين ، ولكن عذري يتبن ، لأنني نقلت
ما نقلت في وقتٍ صعبٍ ، وحالٍ عوزاء .

[الصاحب والشراب]

سأل العتّابي شيخاً من أهل أصفهان ، وكان صحب ابن عبّاد في أيام

(١) السُّور : البقية .

الحدائثة عن ترك ابن عبّاد الشراب فقال : والله ! ما ترك ما ترك الله ،
ولكن تركه لأنه كان إذا سكر افتضح ودعا إلى الفجور .
ولما فشا هذا ، وفتحت القالة ، هجره وأظهر ذلك لتقوى الله أو
لوجه الله تعالى .

[حرج الصدر والنفس]

ورأيت ابن عبّاد يوماً يقول لابن أبي هشام : لا تَقُلْ حَرَجْتُ
نَفْسَهُ ، إنما الحرج للصدر . قال الله تعالى « فَلَائِكَُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ
مِنْهُ »^(١) ، فقال له : فأين أنت عن قول الله تعالى : « ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي
أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ »^(٢) ، فرق جبينه خجلاً ، وكان ذلك سبب
لمراضه عن هذا الشيخ وانقلابه عنه بالحرمان .

[شيطان صغير]

وقال لي المتّابي : كان هذا - يعني ابن عبّاد - يقال له في المكتب « ديوجه »
وتفسيره شيطان صغير !

[الطلاقة والانطلاق]

وقال لي ابن الرازي : كلمته في شيء يوماً ، وقلت في عرض الكلام :
وكان ذلك لانطلاق لسانه ، فقال له : إخساً ، الانطلاق في الشيء ، والطلاقة

(١) سورة الأعراف .

(٢) سورة النساء .

في اللسان . قال : فقلت له : فما تصنع بقول الأول . وهو يزيد بن الصعق يخاطب
النايفة الدياني :

وأبيُّ الناس أعذرُ من شأمٍ

له صُرَدانٌ منطلقا اللسان (١)

قال : فحَمَدَ وحقد . هكذا قال بفتح القاف . وكان فصيحاً .

[حقد الصاحب على التوحيد]

وقال يوماً في المجلس وهو يحدث عن رجل أعطاه شيئاً فتلكأ
في قوله :

لا بدَّ من شيءٍ يُعينُ على الدهرِ

ثم قال : قد سألتُ جماعة عن صدر هذا البيت فما كان عندها ذلك . فقلت :
أنا أحفظُ ذلك ، فنظر بغضب وقال : فما هو ؟ قلت : قد نسيتهُ ، قال :
ما أسرعَ ذكركُ من نسيانك ! قلتُ : ذكرته والحال سليمة ، فلما حالت
عن سلامتها نسيتُ ، قال : وما حيولتها ؟ قلت : نظر الصاحب بغضب
فوجب في حسن الأدب أن لا يقال ما يثيرُ الغضب . فقال : ومن تكون حتى
تغضبَ عليك ! دَع هذا وهات ، قلت : قال الشاعر :

أُلامُ على أخذِ القليلِ وإنما

أصادفُ أقواماً أقلُّ من الذرِّ

فإن أنا لم آخذ قليلاً حرمتهُ

ولا بدَّ من شيءٍ يعينُ على الدهرِ

فسكت !

(١) الصردان : عرقان أخضران يستيطان اللسان . اللسان (صرد) .

[الصاحب ومسكويه]

وكان ابن عبّاد ورّاد الرّبيّ سنة ثمان وخمسين مع مؤيد الدولة ، وحضر مجلس ابن العميد أبي الفضل وجرى بينه وبين مسكويه كلامٌ ، ووقع تجاذبٌ . فقال مسكويه : فدعني حتى أتكلّم ، ليس هذا نصفة ، إذا أردت أن لا أتكلّم فدع عليّ في مخدّة ! فقال له : أنا لا أدع عليّ فك مخدّة ، ولكن أدع فك عليّ المخدّة . وطارت التادرة ، ولصقت ، وشاعت ، وبقيت .

[الصاحب وأبي عبد الله الحصري]

فأما حديث ابن عبّاد مع أبي عبد الله الحصريّ فمن الطرائف . كان هذا الحصريّ من أسقط الناس وأنذلهم . فلما ورد ابن عبّاد الرّبيّ تقرب إليه ، وعرض نفسه عليه ، وسأل أن يلقنه المذهب ، فحقره ابن عبّاد ، وكان لا يهشّ له ، فجعل الحصريّ يقف في الأسواق ، والشوارع العظام ، والمربعات الكبار ، وينادي بصوت جهير ويقول : أدعوا الله للصاحب الخليل اسماعيل ، الذي ليس له في الدنيا عديل . ثم يقول بالفارسية : فانه قد بسط العدل ، وأحيا العلم ، وبثّ المكارم ، وآوى الغرباء ، لا يشرب الخمر ، ولا ينفج الغلمان ، ولا يخلو بالمردان ، ولا يتحبّب بالنساء ، ولا يأخذ الرّشا ، ولا يقبل المصانعات ، نهاره في الملك ، وليله في دراسة العلم ، وأشبهه هذا الكلام الشنيع ، وكان المنظر عجباً ، والمسمع أعجب .

وكان أهل الرّبيّ يقفون ، ويسمعون ، ويضحكون ، ويسخرون ، والبلد يغلب على أهله التواذر والعيارة^١ ، فلما توالى ذلك منه نغي إلى ابن عبّاد ، وشنع

(١) العيار : الرجل الذي يتردد ويكثر التطواف مخلياً نفسه وهوها لا يزرها .

به على الحصري ، واستؤذن منه لينهى عنه ويُزجر ، فقال : لا تفعلوا فإن باله ينكسر ، ونشاطه يذهب ، دعوه على شدة المذهب ، وحدته على أهل الكذب .

[دعاة الصاحب]

[١٣٩] / وكان له آخر يلقنه المذهب بالفارسية ، ويقال له : اجلس في الأسواق عند الباقلاني ، وعند الصيدلاني ، وعند المراق^(١) ، وعند المرأس ، واطرح له حسن العدل والتوحيد ، وادعه إلى المذهب ، ولك مشاهرة تدر عليك ، وبر في كل وقت يصل اليك ، ولك الجاه العريض في الوصول إلي ، والخلوة معي ، وكان يقال لهذا الرجل الفقاعي .

ورأيت آخر يقال له أبو علي الإسكاف ، وكان أشف من الفقاعي على هذا ، وكان يقال لهؤلاء دعاة الصاحب ، وخاصة الصاحب .

[تبشير الصاحب]

واجتهد بالحسين المتكلم الكلابي أن ينتقل إلى مذهبه ، فتلطف حسين وقال : أيها الصاحب ! دعني حتى أكون مشحذاً لك ، فما بقي غيري ، وإن دخلت في المذهب لم يبق بين يديك من تنشو^(٢) عليه قبجه ، وتبدي للناس عواره . فضحك من كلامه وقال : قد أعفيناك يا أبا عبدالله ، وبعد فما نبخلُ عليك بنار جهنم ، أصل بها كيف شئت . قال لنا حسين بعد ذلك : يا قوم ! أتراني أصلى بنار جهنم ، وعقيدتي وسيرتي معروفتان ، ويتبوا هو الجنة

(١) المراق : بائع المرق .

(٢) تنا الحديث : حدث به وأشاعه .

مع قتل الأنفس المحرّمة ، وركوبِ المخطورات العظيمة ، إنَّ ظنَّه بنفسه
لمَجَبِّ والله ! لو كان من المرجَّحة لكان مخوفاً عليه ، فكيف وهو يدَّعي
الوعيد ، ويخوِّف بالتخليد ، لحا الله الوقاح .

[صدر بيت]

وقال يوماً : ما صدرُ قول الشاعر :

والمشربُ العذبُ كثيرُ الزَّحامِ

فسكت الجماعة . فقال : قد والله فشا النقصُ ، وذهب الحفظُ ، ومات

الأدب . فقال ابن الرّازي : صدره :

يزدحمُ الناسُ على بابهِ

فأقبل عليه بغيظٍ ، وقال : ما عرفتكُ إلا متعجرفاً ، جاهلاً ، أما كان

لك بالجماعة أسوة .

[إعجاب أبي الفضل بالغزل]

وسمته يقول : كان أبو الفضل مطبوعاً على معرفة الشعر ، وكان لا يخفي

عليه جيده من رديته ، وكان يعجب بقول الشاعر :

وجاءت إلى بابٍ من السجف بيننا

مجاوٍ وقد قامت عليه الولائدُ

لتسمع شعري وهو يقرع قلبها

بوحى تؤديه إليها القصائدُ

إذا سمعت معنىً لطيفاً تنفستُ

له نفساً تنقدُّ منه القلائدُ

ثمَّ قال : هذا والله القول . وأنا أعجب بقول الآخر حين يقول :

مازلتُ أهواك سؤلاً قلبي
ما دمتُ بين الأنام حياً
وكيف يسألو هواك قلباً
سقيته من هواك ربياً
أولى لك الله ثم أولى
أما خشيت العقاب فيا
جئت إلينا بغير وعدٍ
يا حبيب من زارنا بدياً
حتى إذا ما ملكت قلبي
وازددت حسناً نعم وزياً
نقرت نقر الطباء عنا
فصار من دونك الثربياً

[التجربة والاعتبار]

وسنوسع هذه الرسالة بعد هذا التطويل ببعض ما يكون حجة أو عذراً ، وإن اعترض حديث سقناه على غيره ، وعرضناه على حلوه ومرّه . ولولا أن الفائدة - أبقاك الله - في سماع هذه الأشياء ، ومعرفة هذه الأحوال أضعاف الفائدة في الاضراب عنها لكان السكوت ممكناً ، والإسك مستطاعاً ، والسلم واقماً ، والاعفاء سهلاً ، ولكن الخيرة لا تقع ، واليقظة لا تحدث ، والتجربة لا تستحكم ، والطبع لا يرتاض حتى تتصفح الأمور ، وتتعبق الدهور وتأخذ

نصيبك من الاعتبار ، وتبعث همتك على محمود الاختيار . والشاعر يقول :

وَمَنْ يَطْلُبْ عَيْشَهُ لَا تَلْقَهُ غَمْرًا

وفي الحوادث والأيام تحريث (١)

وقال آخر :

أخو خمسين مجتمع أشدّي

ونجذني مداورة الشؤون (٢)

وقال الآخر :

ألم ترّ ما لا قيت والدهر أعصر

ومن يتملّ العيش يرأ ويسمع

[عواقب الطعن بالوزيرين]

وقال لي بعض أصحابنا حين وقف على جرّامة^٣ هذا الكلام: قد كشفت طائفتين كبيرتين وحملتهما على عداوتك والارصاد لك يعني المتكلمين والمتفلسفين ، فان هذه لا تصبر لك على ثلبك ابن عبّاد ، وهذه لا تسكت عنك في نيملك من ابن العميد ، فقلت له : متى كان الخصم منصفاً ، وكان مدلاً بالحق متوقفاً فان القول معه يسهل ، والجدال يخف ، والحديث يفيد ، وهل أنا إلا كمن قال لرسول الله ﷺ في حديث : يا رسول الله رضيت فقلت أحسن ما عرفت ، وغضبت فقلت أقبح ما عرفت ، فلم ينكر ذلك رسول الله ﷺ . وأنا أروي لك القصة لتكون القائدة أظهر ، والحجة أنور .

(١) دروس وعظات .

(٢) من قصيدة لسجيم بن وثيل الرياحي ، نجذني : حنكي . منجد : محك . مداورة معالجة ، الأصعبات ص ٦ .

(٣) الجرّامة : ما بقي من الزرع بعد الحصد ، ولعله يريد : ما وقف عليه من بقايا الكلام .

[بين الغضب والرضى]

قال عمرو بن الأهم للزبرقان حين ثار له النبي عليه السلام : ما علمتُك فيه؟ قال : أعلم أنه قد نَجَمَت له مروءة ، وأنه مُطاع في قومه ، وأنه مانع لما وراء ظهره ، فقال الزبرقان : أما والله لقد ترك ما هو أفضل من هذا ، فقال عمرو : أما إذ قال ما قال فهو ما علمتُ أحق الأب ، لئيم الخال ، زَمِرٌ (١) المروءة ، حديث الغنى ، ولقد صدقت في الأولى ، وما كذبت في الأخرى ، وضحك رسول الله ﷺ فقال عمرو : يا رسول الله لقد غضبت فقلت أقبح ما عرفت ، ورضيت فقلت أحسن ما عرفت . فقال النبي ﷺ : إن من البيان لسِحْرًا ، فهذا هذا على ما رواه ابن الأعرابي ، ومن أظلم ممن طلب من الساخط ما لا يوجد إلا عند الراضي ، وطلب من الراضي ما لا يُصَابُ إلا عند الساخط ، ومن كان كذلك فقد ردَّ الأمور على أعقابها . وأتى المطالب من غير أبوابها ، ولكل واحد من الراضي والساخط شاكلة يعمل عليها / ، وشيمة يظنُّرُ بها .

[٣٣٩]

[موقف التوحيدي من المتكلمين والمتفلسفين]

على أني ما بهرَجْتُ (٢) مذهب المتكلمين ، ولا زَيْفْتُ مقالة المتفلسفين ، وإنما قلت في أولئك أنهم ادَّعوا العدل ، وعملوا بالجور ، وأمروا بالمعروف وركبوا المنكر ، ودعوا الناس إلى الله بالقول ، ونفروا عنه بالفعل ، ولم

(١) الزمر : القليل المروءة .

(٢) بهرجه : أظهر ما فيه من زداة .

يرجعوا فيما نصره وذئبوا عنه إلى ورع ظاهر ، وتحرّج معروف ، ويقين
لاخلاج (١) فيه كما كان عليه سلفهم وأعلامهم واصل (٢) ، وعمرو (٣) ،
والحسن (٤) ومن جرى مجراهم ، وهذا ما لا أحتاج إلى الاعتذار منه ، فاني قد
سمعت الدّيانين منهم يقولون هذا فيهم ، ويرونه من الداء الذي قد أعضلّ عليهم ،
ثم اني ما رأيت أحداً سكت عن أحد من سفهائهم تغافلاً عنه ، أو حصراً (٥)
إله إلا ورأيته يقول ويطلب في ابن عبّاد غير خاشٍ ولا متحاشٍ ، لعظم الآفة
به على المذهب ، وتفاقم الأمر بمكانه على أهله . وما قولي هذا فيهم إلا
كقولك يوم اجتماعنا في مقبرة معروف الكرنخي لبعض الشيعة : لو كنت ذائباً
بجب آل الرسول ، معتقداً بشرف العترة (٦) ، راجعاً إلى صحة السريرة
والعقيدة لظهر ذلك في عفتك وورعك وصلاتك وصيامك وحجّك وجهادك
وعبادتك واجتهادك وصدقتك ومواساتك مع إحياء الليل وإظهار النهار ، واقتداء
بالبدين ، إياهم تحبّ ، وعنهم تندبّ ، ولم تكن تقنع من جميع محاسن المذهب
بسبّ السلف ، وتضليل الأمة ، وثلب الصالحين ، وتكفير السابقين ،
وتدنيس الطاهرين ، فقولك لهذا الرجل الشيعي هو قولي للمتكلم إذا كان دعياً ،
ولم يكن في مذهبه برّاً تقيّاً . وأما ابن العميد فمن هذا الذي يتفلسف على

(١) خاليج قلبه أمر : نازعه منه فكر . والخلاج : الشك .

(٢) واصل بن عطاء من رؤساء المعتزلة « ٨٠-١٨١ هـ » .

(٣) عمرو بن عبيد البصري شيخ المعتزلة « ٨٠-١٤٤ هـ » .

(٤) الحسن البصري إمام أهل البصرة ورأس علمائها الفقهاء « ٢١-١١٠ هـ » .

(٥) الحصر : العي في النطق .

(٦) العترة : ولد الرجل وذريته أو عشيرته ممن مضى .

بصيرة ومعرفة ، وهو يرضى سيرته ، ويحمد هديته ، ويراہ قدوة ،
ويعدّه سعيداً ، كأن الفلسفة إنما تكون بالدعوى باللسان من غير عمل ومعاناة
ورياضة وقمع الشهوة إذا غلبت ، وردع النفس إذا طغت ، واستصلاح الأمور
بالعدل المؤثر فيها ، وطلب السعادة والفوز في العاقبة على ما رسمه علماؤها ، وحققه
حكماؤها ، هيات ! ظنّ لا تسافر فيه العين ، وقول لا يصبر على لتفح (١)
الكبير (٢) ، فليت شعري بعد هذا ، من الخضم الذي يركب البهت ، ويدفع
العيان ، ويسحر العقول ، ويطرح الأذهان ويقول : ليس القول بالعدل
والتوحيد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر إلا ما هو عليه ابن عبّاد ،
ولا الفلسفة إلا ما كان يختاره ابن العميد ، هذا ما لا يقوله أحدٌ ممن له عقل
ونهي ، ولا يجترئ عليه من له حِجْر (٣) وحجى خاصة إن كان ممن يذبّ مروءته
بالحق ، ويصون كلمته عن الكذب ، ويفار على عقله من تعنيف معنف ،
ويأنف لنفسه من لومة لائم .

[بين التزكية والتجريح]

سمعت القاضي أبا حامد المرورودي يقول ، وكان سيد الفقهاء في وقته ، وإمام
أصحابه في عصره ، وعجيب الفضل في جميع أموره : لو أن رجلين طاهرين زكياً
رجلاً عند الحاكم ثم سأل الحاكم آخرين مرضيين عن ذلك المزكي بعينه فجزّاه له كان الحاكم
لا يقف ، ولا يتحير ، ولا يعيا ، ولا يحصر ولكنه يقدم الجرح على
التزكية ، ويعمل بها دونها ويصير إليها تاركاً لها . قال : فان قلت : ما الحكمة
في هذا ؟ قيل لك : إن اللذين زكياً قالوا بالظاهر ، وربما يكثر مثله ، ويغلب

(١) لفت النار فلاناً : أصابت وجهه وأحرقته .

(٢) الكبير : زق ينفخ فيه الحداد .

(٣) الحجر : العقل لحجره صاحبه عما لا ينبغي .

شبيهه ، وربما يتكلف نظيره بالرياء والسُّمعة والنفاق والخديعة والخيلولة ،
فلو لم يكن هذا لأَمْضِيَت التزكية على ظاهرها ، وعملت بها وسكنت إليها . فأما
إذا استظهرت فسألت آخرين مرضيين عن المزكي فجزَّحاه فكأنما علما من باطن
أمره ، وخافي حاله ، وكنهه عيبه ومطووي شأنه ما توارى عن عرفان من
زكاه ، وخفي على بحث من عدله ، وكان هذا عندي بالقبول أولى ، والعمل
به أخرى .

هذا ما قاله هذا الرجل العالم وهلك سنة ثلاث وستين وثلاثمائة .

[مواضع الهجاء والثناء]

وابنُ عبَّاد حفظك الله ليس بصغير القَدْر ، وابن العميد لم يكن خامل
الذكر ، وما فيها إلا من هو 'غرة' زمانه ، وتاريخ دهره ، لنباهته ،
وصيته ، وطول أيامه ، وامتداد دولته ، وموادة مراده ، وطاعة الناس له
وتوجه الأطماع إليه ، فكيف 'يجزف' (١) الحديث عنهما 'بجزف' ، ويلزق
الكذب بهما 'مئزق' ، أو يدعي الباطلَ عليها 'مدع' ، هذا ما لا يطمع فيه
'حصيف' ، ولا يعمل عليه عاقل ، ولكن حديث الدين ، والكرم ، والعقل ،
والجهد ، والسيرة ، والهدى ، والجود ، والبذل ، ليس من حديث الجَدِّ
والفَتْح ، والخيال ، والإنفاق ، والدولة ، والثناء ، والمرتبة في شيء .
اللهم إلا أن يكون الفصلُ كلُّهُ عند هذا المخالف في كتاب يُنشأ ومعنى
يقتضب ، وقصيدة 'تنشد' ، ورسالة 'تجبر' ، ومسألة 'تُتداول' بالعي

(١) جزف المي : باعه واشتراه بغير وزن ولا كيل وعلى التخمين .

والبيان ، ودعوى تناقل بالشبهة ، وغريبة تشققت تشقيقاً ، وكلمة تزويق
تزييقاً ، وباطل ينصر حاجة تدعو اليه ، وحق يرفض لأمر يحمل عليه ،
وخصم مفحّم بما غثّ وسمين ، وشبهة تركب بما ظهر وبطن ، أو يكون
الفصل عنده ، والتمام لديه / في الأمر والنهي ، والعزل والولاية ، والقبض
[٤٠أ] والمصادرة ، والكيد والغيلة ، والاستخراج والحيلة ، والغاشية والحاشية
والخدم ، والدور والقصور ، والمراكب والمواكب ، فيكون كلُّ
ما يدّعيه الخصم مقبولاً ، وكل ما يأباه مرذولاً . فأما أن يكون الفصل
باجتماع الأولين والآخريين ، والماضين ، والغابرين في الدينونة ، والتأثُّه والعفاه ،
والتحرج والتكرم ، والطهارة والتّقزز ، والتزاهة ، والركة والرحمة ،
والجود والعطية ، والحلم والعفو ، والإبقاء والإغضاء ، والوفاء والإرضاء ،
والتغافل والتسّمح '١' ، والبرّ والتمسّد ، والبشر والطلاقة ، والدمائة
والشجاعة ، وطلب الذكر الجميل من كل أحد ، إما للساعة وإما للأبد ،
فينبغي على هذا أن لا يكون لكلام الخصم سامع ، ولا لدعواه مُصدّق ،
ولا لحكمه مُحير .

[الصاحب كما يراه أبو الوفاء المهندس]

قلت لأبي الوفاء المهندس ، وكان قد رجع من عند ابن عبّاد لقيه بمرجان
مؤدياً اليه رسالة من بغداد ، لقيته بالمرج في ليلة سُمّياً بالمطر ، والبرد ،
والثلج ، والسيول العرم ، كيف شاهدت ابن عبّاد فانك صيرفي الناس

(١) سمح : ساهل ولان .

في الناس ؟ فقال : يقال لثله عندنا بنيسابور *طَبْلٌ هَرَمِي* ، ويقال لثله عند إخواننا ببغداد : *مادح* نفسه بقرئك السلام ، وهو مع هذا عند أصحابه رقيق *طَيْب* ، وعند الكتاب *أحمق غليظ* ، وعند سيفلة المعتزلة واحد الدنيا ، وعند الفلاسفة *طائر ظريف* ، وعند الصالحين *ظلم قاس* ، وعند الله *فاسق عاص* ، وعند أهل بلده *أفك أئيم* ، وعند الجمهور *شيطان رجيم* .

[أبو السلم الشاعر والوزيران]

وقلت لأبي السلم نحية بن علي الشاعر القحطاني : أين ابن عبّاد من ابن العميد فقد زُرّتها منتجماً ، *وَرَزُّرُتْهَا* ^(١) جميعاً ، فقال : كان ابن العميد أعقل ، وكان يدعي الكرم ، وابن عبّاد أكرم وهو يدعي العقل ، وهما في دعوتها كاذبان ، وعلى سجيتها جاريان . أنشدت يوماً على باب دار ذلك قول الشاعر :

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ ^(٢)

جمال ولا مال تمنى انتقالتها

وما ذاك من بفض لها غير أنه

يؤمل أخرى وهو يرجو زوالها

(١) راز يروز روزاً : الحجر وزنه ليعرف ثقله . وراز الرجل جرب

ما عنده وخبره .

(٢) في ياقوت ٢٢٧/٦ : في ظل دولة .

فرُفِعَ إليه إنشادي فأخذني وأوعدني وقال: انجُ بنفسك فاني إن رأيتك بعد
هذا أولعتُ^(١) الكلاب كدمك !

وكنت قاعداً على باب هذا منذ أيام فأنشدت البيتين على سهوٍ فرُفِعَ إليه
الحديث فدعاني ووهب لي دُرِيَّهَاتٍ وخُرَيْقَاتٍ وقال : لا تتمنُ انتقال
دولتنا بعد هذا .

وأبو السلم هذا من أغزر الناس في الشعر ، يحفظ الطمَّ ، والرَّمَّ^(٢) ، وكان
طيبَ الإنشاد ، رخيماً النعمة ، أنشدني لابن حسان :

إنَّ الجديدين في طول اختلافهما

لا يفسدان ولكن يفسد الناسُ

لا تطعما طمعاً يُدني إلى طبعٍ

إن المطامعَ فقرٌ والغنى اليأسُ

للناس مالٌ ولي مالانٍ مآلها

إذا تحارس أهل المال حراسُ

مالي الرضا بالذي أصبحتُ أملكه

وما لي اليأسُ مما يملكُ الناسُ

(١) ولغ يبلغ : الكلب الإناء وفي الإناء : شرب ما فيه بأطراف لسانه أو أدخل
فيه لسانه وحركه .

(٢) الطم : الشيء الكثير والبحر .

الرم : الترى .

[كلمات غريبة]

وقال لي الخليلي : الرجل مجنون - يعني ابن عبّاد - وفي طباع المعلمين .
وهو يقول للتميمي الشاعر : كيف تقول الشعر ، وإن قلته كيف تحيده ،
وإن أجدت كيف تغزُرُ فيه ، وإن غزرتَ فكيف تروم غاية وأنت
لا تعرف ما الزهلق (١) ، وما الهبلع (٢) ، وما العثلط (٣) ، وما
الجلعلع (٤) ، وما القهقَب (٥) ، وما الطرطُط (٦) ، وما القهْبَلِس (٧) ،
وما الخيسفوج (٨) ، وما الخنزَعْبلة (٩) ، وما القُدْعَمِلة (١٠) ، وما العرومط (١١)

-
- (١) الزهلق : الأملس والسريع الخفيف من الناس .
(٢) الهبلع كعملس : الأكل ، العظيم اللقم ، الواسع الخنجور .
(٣) العثلط : اللبن الخائر .
(٤) الجلعلع ، كسفرجل : من الأبل الحديد النفس والنفذ والحنفاء .
(٥) القهقَب ، كجعفر : الضخم المسن ، والطويل الرغيب ، والباذنجان .
(٦) الطرطُط ، كقنفذ : الثدي الضخم المسترخي ، والواحد طرطبي .
(٧) القهْبَلِس ، كجحمرش : الزب أو العظيم الغليظ والقمة . والصغيرة ، والمرأة الضخمة ،
والأبيض تعلوه كدرة .
(٨) الخيسفوج : حب القطن ، والخشب البالي .
(٩) الخزعبلة ، الخزعبل كشمردل : الأحاديث المستظرفة والباطل والخزعبلة العجب .
(١٠) القُدْعَمِلة : المرأة القصيرة الحسبية .
(١١) العرومط : لم نثر على معناها في المظان التي بين أيدينا .

وما الشُّرُومَط (١) ، وما الدودري (٢) ، وما المكرري (٣) ، وما
العَفْشَلِيل (٤) ، وما القَفْشَلِيل (٥) ، وما الجَلَمَبِي (٦) ، وما القِرَشَب (٧) ،
وما الصَقْعَل (٨) ، وما الجِرْدَجَل (٩) ، وما الدرديس (١٠) ، وما الطرطيس (١١) ،
وما العلطميس (١٢) ، وما الخَزَعْبِيل (٣) ، وما الخَنْعِيل (١٤) ، وما
العباريد (١٥) ، وما العبايد (١٦) ، وما العبايد (١٧) ، وما التَقَاب (١٨) ،

-
- (١) الشُّرُومَط : الجمل الطويل « اللسان » .
(٢) الدودري : الذي يذهب ويحيى في غير حاجة .
(٣) المكرري : لم نعر على معناها .
(٤) العفشليل : الرجل الجافي الثقيل ، والعجوز المسترخية اللحم ، والكساء الكثير الوبر .
(٥) القفشليل : المغرفة .
(٦) الجلعبي ، والجلعباء : الجافي الصرير .
(٧) القرشب ، كأردب : المسن ، والسبيء الحال ، والأكول ، والضحخم الطويل .
(٨) الصقعل : التمر اليابس يقع في اللبن الحليب .
(٩) الجرذجل : الوادي ، والضحخم من الإبل .
(١٠) الدرديس : الداهية ، والشيخ ، والعجوز الفانية .
(١١) الطرطيس : الماء الكثير ، والعجوز المسترخية ، والناقاة الخوارة عند الحلب .
(١٢) العلطميس : الأملس البراق .
(١٣) الخزعيل : الباطل .
(١٤) الخنعيل : لعلها من الخنعب وهو الطويل من الشعر أو من الخنعبة وهي الهنة المتدلية وسط الشفة العليا .
(١٥) العباريد : العبارد من الجواري البيضاء الناعمة .
(١٦) و (١٧) العبايد ، العبايد : بلا واحد من لفظها : الفرق من الناس ، والخيل الداهبون في كل وجه ، والأكارم ، والطرق البعيدة .
(١٨) التقاب : النافذ الأمور .

وما الجِرْفاس^(١) ، وما اللُّؤوس^(٢) ، وما النَّقِيل^(٣) ، وما الطَّرِبَال^(٤) ،
وما معنى انه لطريف ولا تباعه ، وما الفرق بين العَدَم^(٥) والرِّذَم^(٦) ،
والجذَم^(٧) والخدم^(٨) ، والخصم^(٩) والقضم^(١٠) ، والتَضْح^(١١) والرِّضْح^(١٢) ،
والقصم^(١٣) والقصم^(١٤) ، والقَصْع^(١٥) والقَصْع^(١٦) ، وما العُنَيْقَس^(١٧)

-
- (١) الجرفاس : والجرفاس : الرجل الضخم الشديد ، والجمل العظيم ، والأسد المصور .
(٢) اللؤوس ، واللواس والألوس : الذواقة للطعام من لاس : ذاق .
(٣) الثقيل : الغريب .
(٤) الطربال : علم يبنى وكل بناء عال وكل قطعة من جبل أو حائط .
(٥) العدم : اللوم .
(٦) الرذم : القسل .
(٧) الجذم : القطع .
(٨) الخدم : القطع وضرب الصقر بمخلبه .
(٩) الخضم : القطع ، وأكل الطعام ، وأكل الشيء الرطب .
(١٠) القضم : الأكل بأطراف الفم ومنه المثل « يبلغ الخضم بالقضم » .
(١١) التضح : رش الماء .
(١٢) الرضح : خبر تسمعه ولا تستيقنه ، والعطاء ليس بالكثير .
(١٣) القصم : الكسر مع بينونة .
(١٤) القصم : الكسر من غير بينونة .
(١٥) القصع : العصر بالأصبعين ، والدلك ، والعطاء ، والعطاء ، وحسر الهامة .
(١٦) القصع : ابتلاع جرع الماء ، ولزوم البيت ، وقتل القملة .
(١٧) العنيقس : تفسير العنقس وهو الدايمي الحيث .

والفُلَيْقَسَ^(١) ، وما الوكوالك^(٢) والزَّوْنُوكَ^(٣) ، وما الخيتعور^(٤) ،
وما الشيتعور^(٥) ، واليستعور^(٦) ، وما الحير ذون^(٧) ، وما الحزون^(٨) ،
وما القصدر^(٩) ، وما الجمليل^(١٠) .

قال الشاعر :

جاءت بخفّ وحنين ورحل جاءت تمشّي وهي قدام الإبل
مشي الجمعليلة بالحرف النقل^(١١)

قال : ورأيت بعض الجبال باللغة يصحّف في هذا ويقول :

بخفّ وحنين ورحل^(١٢)

قال الخليلي : من عني بهذا ؟ قال : ابن فارس معلم ابن العميد أبي الفتح .

-
- (١) الفليقس : تصغير الفلقس ، وهو البخيل الردي .
(٢) الوكوالك : المتدحرج في مشيه ، والفسار من الحرب .
(٣) الزونك : الرافع نفسه فوق قدرها .
(٤) الخيتعور : السبحة الخلق والسراب ، وقال الأزهرى : الناقة الهرمة ، وكل ما يضمحل ، والذئب .
(٥) الشيتعور : الشعر وقيل الشيتفور .
(٦) اليستعور : موضع ويقال شجر (السان) .
(٧) الحردون : ذكر الضب أو دويبة أخرى .
(٨) الحزون : دويبة .
(٩) القصدر : لم تقف على معناها .
(١٠) الجمليل : الضبع أو الناقة .
(١١) وفي رواية « الجرف » ، والحرف : طرف الجبل أو مسيل الماء ، والنقل : ككتف ، مكان ذو حجارة .
(١٢) الرخل والرجل : الأنتى من أولاد الضأن .

مثالبم (٢١)

تقال الخليلي :: أفهذا الضرب من الكلام مما يجب أن يفتخر به، ويتدفق به ؟ إنك يا أباحيان لو رأيتهم ميس وهو يهذي بهذا وشبهه ، ويتفوق فيه ، ويلوي شدقه عليه ، ويقذف بالبراق على أهل المجلس لمدت الله تعالى على العافية بما بُليَ به هذا الرجل .

[الفرق بين اللفظ الثقيل والشعر]

وَبَعْدُ فما بين الشاعر وبين هذا الضرب ، الشاعر يطلب لفظاً حرّاً ، ومعنى بديعاً ، ونظماً حلواً ، / وكلمة رشيقة ، ومثالاً سهلاً ، ووزناً مقبولاً . [٤٠ب]

[انقضاء أيام الخير]

قلت للخليبي : فما بال الناس مع علمهم برقاعته وجنونه ، قد لزموا فناءه ، وتزاحموا على بابه ؟ فقال لي : يا هذا خلّكت الدنيا من الكرم والكرام ، واصطاح الناس على قلة المباهاة بالفضائل ، وكان هذا منوطاً بالخلافة فانقضت أيام الصدر الأول بالدين الخالص ، وأيام بني مروان بالرياء والسمعة ، وأيام بني العباس بالمروءات والتوسع في الشهوات ولم يبق بعد هذا شيء . ولا بدءاً للناس من الانتجاع ، أخصبت البلاد أم أجدبت ، والحِرْف لا تسع الخلق، والمرتبة الواحدة لا تحفظ النظام ، ولا بدءاً للناس من التقسيم بين الرفعة والضعمة ، وعلى ما بينها من الأحوال . على أن الكرم والعطاء والبذل وحب الثناء والهزبة والأريحية أمور قد فُتقدت منذ زمان وقامت عليها النوادب في كل مكان ،

[أثر العطاء]

هذا تمامه : المتكلم يحكي بلسانه وهو صاحب المأمون . قال : دخل النوشجاني على المأمون فقال : يا أمير المؤمنين! ما في بيت مال الصدقات درهم، وقد

كثر الغارمون ، فقال المأمون : وكيف لا يكثرون وثلاثة أرغفة بدرهم ،
وها هنا أناس لا حرفة لهم ، ولا افضال من موسريهم على معسريهم ، أما والله
لقد شهدت أيام الرشيد والخراج أقل وأرذل ، وأن فيها لأكثر من مائة يد
بالخير طويلة ، وبالمطايا سائلة ، والمعروف باذلة ، ولالأرحام واصلة .

[كرم البرامكة]

ويروى عن سابق بني هاشم في هذا أعجب كلام قال : والله لو علم الله أن
غنى فقرائكم في أكثر من زكوات أغنيائكم لفرض ذلك لهم . فتبارك الله
رب العالمين ، أين أولئك البرامكة ، وأين منهم اليوم ، كان معروفهم يسع الصغير
والكبير ، ويعم الغني والفقير ، مرة يغرف ومرة ينزف ، ما لهم هم إلا
تسميره ، ومن أولئك زبيدة بنت جعفر وابنها ، إني والله لأحسبهما فرقاً من
المال فيمن لجأ إليها ، وطلب معروفها أكثر من ألف ألف دينار ، ولقد
كان لمن ذكرت بطانة ، وللبطانة بطانة ، وكان لهم من المعروف والبذل في
الجار والحميم والسائل وابن السبيل ما لو أحصي لطال ذكره ، وعظم قدره ،
فما بالعراق اليوم من يجود بدرهم ولا رغيف ، أو ليس من انقلاب الزمان أن
صار عبد الله بن بشير أحد أجواده ، وأحد أبواب المعروف ، فما ظنكم بنا
وقد حشرنا في زمرة واحدة ، ثم مُيِّزَ أهل كل زمان ، فاذا نظر إلى أهل
زماننا لم يقم في المباهاة إلا عبد الله ومالك بن شاهي ، إنا لله وإنا إليه راجعون .
اكتب لهم إلى البلدان ، وانظر من كان منهم محتملاً فارم به إلى الأطراف
وأجنحة الثغور ، ومن قل ماله ، ورث حاله ، وقعد به العدم عن الحركة
الشاسعة فلا تجاوز به الموصل والبصرة ، وفرق فيهم ألف ألف درهم وعجل
سراحهم الأول فالأول .

[بين الماضي والحاضر]

ثم قال لي الخليلي : حصل الآن زمانك من زمان المأمون حين قال هذا القول، وميّز هذا التمييز، وداو بهذا الدواء ، والله إن هذا لمجّب حصلنا في حديث ابن العميد على أن يقال : حمشك^(١) عميدي، وفي حديث ابن عباد على أن يقال : هذا ركاب صاحبي ، إني لأجد في صدري غليلاً لا يبرده شيء من ذهب الكرم ، وفقد الكرام ، وقلة المبالي بذلك .

[أسلوبا الوزيرين في الكرم]

قلت للخليلي أيضاً : ومع هذا كله أين ابن عباد من ابن العميد ، فقد خبرت ذلك بملازمتك ، وعرفت هذا بتعرضك فقال لي : أماذاك ، فكان لا يعطيك ، ولكنه كان لا يطمعك ، وأما هذا فإنه يطمعك حتى يستفرغك ثم يرميك بالحرمان ، أو بعتاء شبيه بالحرمان ، وتفسير هذا عندك يا أبا حيان . قلت : كيف كان علم ذلك من علم هذا ؟ قال : كان ذاك يدعي الفلسفة دعوى شديدة ، ولكن لا يتادي عليها في الأسواق ، وهذا يدعي علم الدين وهو يعرضه فيمن يريد ، قلت له : كيف كان ابن العميد في أمر الطعام ؟ قال : كان ملثوث^(٢) الأنفاس عند اختلاف الأضراس ، كدرا الإحساس عند دوران الكاس ، وهذا بما يخالف ما عليه كرام الناس .

[الصاحب وأهل العلم]

قلت : فكيف كان ابن عباد لأهل العلم قال : إن كذبوه وخذعوه وموهوا عليه ، وناقوه ، وتلقوه قرّبهم وأدناهم ، وأكرمهم ، وأعطاهم ،

(١) حمش : أي هيج وأغضب .

(٢) في الأصل غير واضحة ، ولعل الصحيح ما أثبتناه ، والملثوث : من ألك أي ألجم ، ولعلها (مكبوث) من كبث اللحم إذا أروح .

وإن صدقوه، وماتوه^(١) وثبتوا له أبعدهم وأقصاهم ، وحرّمهم ، وأخزاهم
فما ذنبي - أكرمك الله - إذا سألت عنه مشايخ الوقت ، وأعلام العصر ، فوصفوه
جميعاً بما جمعت لك في هذا المكان ، على أني قد سترت كثيراً من مخازيه إما
هرباً من الإطالة أو صيانة للقلم من رسم الفواحش، ونثّ العِصّة^(٢) ، وذكر
ما يسمع مسموعه ، ويُكره التحدث به ، هذا سوى ما فاتني من حديثه .

[مفارقة التوحيد للصاحب]

فاني فارقه سنة سبعين وثلاثمائة ، وما ذنبي إن ذكرت عنه ما جرّ عنه من
مرارة الخيبة بعد الأمل ، وحملني عليه من الإخفاق بعد الطمع ، مع الخدمة
الطويلة ، والوعد المتصل ، والظن الحسن ، حتى كأنني خصّصت بحساسته
وحدي ، أو وجب أن أعامل به دون غيري .

[حادث النسخ]

قدّم لي^١ نجاح الخادم ، وكان ينظر في خزانة كتبه ، ثلاثين مجلدة من رسائله
وقال : يقول لك مولاي : انسخ هذه فإنه قد طلب من خراسان ، فقلت بعد
ارتياح : هذا طويل ، ولكن لو أذن لخرجت منه فقراً كالغرر ، وشذوراً
تدور في المجالس كالشمّامات والدستويات^(٣) ، لو رُقّي بها مجنون لأفاق ،
ولو نُفث على ذي عاهة لبرأ ، / لا تمَلّ ، ولا تُسْتَعَثّ ، ولا تُعاب ، ولا
تُسْتَرَتْ . فرفع ذلك اليه على وجه مكروه ، وأنا لا أعلم . فقال ! طعن في
رسائلي وعابها ، ورغب عن نسخها ، وأزرى بها ، والله لينكرنّ مني
ما عرف ، وليعرفنّ خطئه إذا انصرف ، كأنني طمنت في القرآن ، أو رميت
الكعبة بخرق الحبيص ، أو عقرت ناقة صالح ، أو سلّحت في زمزم ، أو

[٤١أ]

(١) ماتن : عارض .

(٢) نث العِصّة : نشر القبح وإذاعته .

(٣) الدستويات : واحدها دستوية ، وهي بطيخ أصفر صغير مستطيل .

قلت كان النظام مأبوناً ، أو كان العلاف ديصانياً (١) ، أو كان الجبائي (٢) جبرياً ، أو مات أبو هاشم في بيت ختار ، أو كان عبّادُ معلم الصبيان . وما ذنبي يا قوم إذا لم أستطع أن أنسخ ثلاثين مجلدة ، ومن هذا الذي يستحسن هذا التكليف حتى أعذّره في لومي على الامتناع ؟ أي إنسان ينسخ هذا القدر وهو يرجو بعده أن يمتعه الله بصره أو ينفعه بيده ؟ ثم ما ذنبي إذا قال لي : من أين لك هذا الكلام المفوّف المشوف (٣) الذي تكتب إليّ به في الوقت بعد الوقت ؟ فقلت : وكيف لا يكون كما يوصف وأنا أقطف من ثمار رسائله ، وأستقي من قلب (٤) علمه ، وأشيم (٥) بارقة أدبه م وأردُّ ساحل بحره ، واستوكف قَطْرَ مَزْنِه ! فيقول : كذبت وفجرت لا أمّ لك ، ومن أين في كلامي الكُدَيْة (٦) والشحذ والضرع والاسترحام ! كلامي في السماء ، وكلامك في السّماء !...

هذا أيّدك الله ، وإن كان دليلاً على سوء جدّي ، فإنه دليل أيضاً على

-
- (١) الديصانية : أتباع ديسان وم فرقة من المحوس يشبه مذهبهم مذهب ماني ، ويقول ابن التديم : « وإنما بينهم خلف في اختلاف النور بالظلمة » ، راجع : الملل والنحل للشهرستاني ٨٨٨-٨٩ ، الفهرست : ٤٧٤ ، الجاحظ : الحيوان ٥/٦٤
- (٢) هو أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي من رؤساء المعتزلة وعلماء الكلام في عصره واليه تنسب طائفة الجبائية ، ولد سنة ٢٣٥ هـ وتوفي سنة ٣٠٣ هـ .
- (٣) المفوف : ثوب رقيق وقيل فيه خطوط يرض على الطول . المشوف : المجلو وشوف : زين .
- (٤) القلب : البئر .
- (٥) شام البرق : نظر إليه أين يقصد وأين يمطر .
- (٦) الكدية : التسول .

انحلاله وتخرقه وتسرعه ولؤمه ، والطرائف تستحيل معي عن مذهبه الذي هو عرقه النابض ، وسوسه الثابت ، ودَيْدنه المألوف ، وهذا أجزائي مجري التاجر المصري والشاذبائي ، وفلان وفلان .

[حسد الصاحب لابن العميد]

أو ما ذني إذا قال لي : هل وصلت إلى ابن العميد أبي الفتح بيغداد ؟ فأقول : نعم ، رأيته وحضرتُ مجلسه وشاهدتُ ما جرى له ، وكان من حديثه فيما مدح به كذا وكذا ، وفيما كفي فيه كذا وكذا ، وفيما تكلف من تقديم أهل العلم واختصاص أرباب الأدب كذا وكذا ، ووصل أبا سعيد السيرافي بكذا وكذا ، ووهب لأبي سليمان المنطقي كذا وكذا ، فيزوي وجهه ويتكره حديثه وينجذب إلى شيء آخر ليس مما شرع فيه ، ولا بما حرّك له . ثم يقول : اعلم أنك إنما انتجعت من العراق فأقرأ عليّ رسالتك التي توصلت إليه بها ، وأسببتَ مقرّظاً له فيها ، فأتمانع فيأمر ويشدّد ، فأقرؤها فينفر^(١) ، ويذْهَل وأنا أكتبه لك ها هنا ليكون زيادة في الفائدة .

[رسالة التوحيد لابن العميد يستعطفه]

بسم الله الرحمن الرحيم . اللهم هبّي لي من أمري رشداً ، ووقفني لمرضاتك أبدأ ، ولا تجعل الحرمان عليّ رسداً ، أقول وخير القول ما انعقد بالصواب ، وأجلب النفع^(٢) ما تعلق بالمزيد ، وخير المزيد ما بدا عن شكر ، وخير الشكر ما بدا عن إخلاص ، وخير الإخلاص ما نشأ عن إتقان ، وخير الإتقان ما صدّرَ عن توفيق ، لما رأيت شبابي هرماً بالفقر ،

(١) نفر : كفرح وضرب غضب وغلى جوفه حقاً .

(٢) يا قوت : وخير الصدق ما جلب النفع ، وخير النفع ... الخ.

وفقري غنياً بالقناعة ، وقاعتي عَجْزاً عند التحصيل (١) ، عَدَلْتُ إلى الزمان
أطلب إليه مكاني فيه ، وموضعي منه ، فرأيت طرفه عني نائياً ، وعنانه عن
رضاي مثنياً ، وجانبه في مرادي حشناً ، وإنفاقي في أسبابه سيئاً (٢) ،
والشامت بي على الحدثن متبادياً ، طمعتُ في السكوت تجلثداً ، واتحلت
القناعة رياضةً ، وتألّفت شارداً حرصي متوقفاً ، وطويت منشور أمري
متزهاً ، وجمعتُ شتيتَ رجائي سالياً ، وادّرعْتُ (٣) الصبر مستمراً ،
ولبستُ العفاف محموداً (٤) ، واتخذتُ الاقباض صناعةً ، ووقتُ بالعلاء مجتهداً ،
هذا بعد أن تصفحت الناس ، فوجدتهم عند كل قريب وبعيد أحد رجلين :
رجل (٥) إن نطق نطق عن غيظٍ ودمئنة (٦) ، وإن سكت سكت على ضغن
وإحنة (٧) ، ورجل إن بذل كدراً بامتئانه بَدَلَه ، وإن منع حصن
باختياله (٨) بخله ، فلم يَطلُ دهري في أثنائه متبرماً بطول الغربة ،
وشظف العيش ، وكَلَبَ الزمان ، وعَجَفَ المال ، وجفأ الأهل ، وسوء
الحال ، وعادية العدو ، وكسوف البال ، متحرراً من الحنق على لئيم ،

(١) يا قوت : أهل التحصيل .

(٢) يا قوت : وارتهائي في أسبابه نائياً .

والسي : اللين يكون في أطراف الأخلاف وينزل قبل الدرة .

(٣) يا قوت : وادعيت .

(٤) يا قوت : ضناً .

(٥) في الأصل رجلاً .

(٦) الدمئنة : الحقد القديم أو الحقد الثابت للأبد .

(٧) الإحنة : العداوة والحقد .

(٨) يا قوت : حسن باختياله .

لا أجد منصرفاً^(١) عنه ، منقطعاً من الشوق إلى كريم ، لا أجد سبيلاً إليه ،
حتى لاحت لي غرة الاستاذ ، فقلت : حل بي الويل ، وسال بي السيل ،
أين أنا عن ملك الدنيا ، والفلك الدائر بالنعيم ، أين أنا عن مشرق
الخير ، ومغرب الجميل ، أين أنا عن بدر البدور ، وسعد السمود ، أين أنا
عمن يرى البخل كفراً صريحاً ، ويرى الافضال ديناً صحيحاً ، أين أنا عن
سما لا تفتقر عن الهطلان ، وعن بحر لا يقذف إلا باللؤلؤ والمرجان ، أين
أنا عن فضاء لا يسق غبارُه ، وعن حرم لا يضام جواره ، أين أنا
عن منهل لا صدر لفرأطه ، ولا منع لورأده ، أين أنا عن ذوب
لا شوب فيه ، وعن صدق لا حداد^(٢) دونه ، بلى^(٣) ، أين أنا عمّن قد
أتى بنبوّة الكرم ، وإمامة الإفضال ، / وشريعة الجود ، وخلافة البذل ،
وسياسة المجد ، نسيمه مشيمة^(٤) البوارق ، ونفسه^(٥) نفيسة الخلائق ، أين
أنا عن الباع الطويل ، والأنف الأشم . والمثرب العذب ، والطريق
الأمم^(٦) ، لم لا أقصد بلادَه ، لم لا أقتدح زنادَه ، لم لا أنتجع جنابه ،
وأرعى مرآده^(٧) ، لم لا أسكن ربّعه ، واستدعي نفعه ، لم لا أخطب
جوده ، وأعتصر^(٨) عوده ، لم لا أستمطر سبحانه ، وأستسقى ربابه ، لم

[٤١ب]

(١) يا قوت : مصرفاً .

(٢) يا قوت : عن صوب لا جدد .

(٣) يا قوت : بلى .

(٤) يا قوت : بشيمة مشيمة .

(٥) يا قوت : نفس .

(٦) الأمم : الين الواضح من الأمر .

(٧) يا قوت : مزاده .

(٨) يا قوت : اقتصرو .

لا أستمع نيله وأستسحب ذيله ، لم لا أحج كعبته ، وأستليم ركنه ،
لم لا أصلي إلى مقامه مؤتمراً به ، لم لا أسبح بثنائه (١) مقدساً ، لم
لا أحكم في حالي :

فتى صيغ من ماء البشاشة وجهه

فألفاظه جوداً وأفاسه مجد

لم لا أقصد فتى بان للناس في كفه من الجود (٢) عينان نضاًختان (٣) ،
لم لا أمتري (٤) معروف :

فتى لا يبالي أن يكون بجسمه

إذا نال خللات الكرام 'شحوب'

لم لا أمدح :

فتى يشتري حسن الثناء (٥) بروحه

ويعلم أعقاب الحديث تدوم (٦)

نعم ، لم لا أتسي في تقرّيب فتى لو كان من الملائكة لكان من المقرّبين ،
ولو كان من الأنبياء لكان من المرسلين ولو كان من الخلفاء لكان نعمته اللائذ
بالله ، أو المنصف في الله ، أو المعتضد بالله ، أو المنتصب لله ، أو الغاضب لله ، أو

(١) يا قوت : بينانه .

(٢) يا قوت : في كفه من البحر .

(٣) عين نضاحة : فوارة غزيرة .

(٤) امتري : استخرج ، وامتري الريح السحاب : استترته .

(٥) يا قوت : المقال .

(٦) يا قوت : في غد .

الغالب بالله ، أو المرضي لله ، أو الكافي بالله ، أو الطالب بحق الله ، أو المحيي لدين الله ، أيها المنتجع قرن كلثه (١) ، المختبط ورق نعمته ، ارع عريض البطان ، متفينا بظله ، وكل خضماً ناعم البال ، متعوذاً بعزه ، وعش رخي اللبيب ٢١ متمصاً بجبله ، ولئذ بذراه (٢) آمن السرب ، واحض وذه بآنية القلب ، وق نفسك من سطوته بحسن الحفاظ ، وتخير له أطف المدح تفز منه بأيمن القيدح ، ولا تحرم نفسك بقولك : إني غريب الثوى ، نازح الدار ، بعيد النسب ، منسي المكان فانك قريب الدار بالأمل ، داني الشجع بالقصد ، رحيب الساحة بالمنى ، ملحوظ الحال بالحسد (٤) ، مشهور الحديث بالدرك ، واعلم علماً يلتحم باليقين ، وتدرأ من الشك أنه معروف الفخر بالمفاخر ، مأثور الأثر بالمآثر ، قد أصبح واحد الأنام ، تاريخ الأيام ، أسد الفياض يوم الوغى ، نور الرياض يوم الرضا ، إن حررك عند مكreme حررك غصناً تحت بارح ، وإن دعي إلى اللقاء دعي ليثاً فوق سابع ، وقل إذا أديتته بلسان التحكم : أصلح أديمي فقد حلّم (٥) ، وجدد شبابي فقد هرّم ، وأنطق لساني بمدحك فقد حصر ، واقنع بصري بنعمتك فقد سدر (٦) ، واتل سورة الإخلاص في اصطناعي فقد سردت صحائف النجح عند اتجاعي ، وقل : رش عظمي فقد برأه الزمان ، واكس جلدي فقد أعرأه الحدان ، وإياك

(١) قرن الكلا : خيره .

(٢) يا قوت : الحال . اللبب : الرضاء والحال الواسعة .

(٣) يا قوت : بداره .

(٤) يا قوت : الجدد .

(٥) حلم الجدد : فسد في العمل ووقع فيه دود فتتعب .

(٦) سدر : تخير ، وسدر البعير : تخير بصره من شدة الحر فلم يكذب بصره .

أن تقول : يا مالك الدنيا جُدْ لي ببعض الدنيا فإنه يحرمك ، ولكن قل :
يا ملك الدنيا هَبْ لي الدنيا . اللهم فأحي به بلادك ، وانعش برحمته عبادك ،
وبلغته مرضاتك ، وأسكنه فردوسك ، وأدم له العز النامي ،
والكعب العالي ، والمجد التليد ، والجَد السعيد ، والحق الموروث ، والخير
المبثوث ، والولي المنصور ، والشأن المتور ، والدعوة الشاملة ، والسجدة
الفاضلة ، والسرب المحروس ، والربع المأنوس ، والجناب الخصب ، والعدو
الحريب (١) ، والمنهل القريب ، واجعل أولياءه بأذلين لطاعته ، ناصرين لأعزته
ذابين عن حرّمه ، مرفرفين على حوائه (٢) .

أيها الشمس المضيئة بالكرم ، والقمر المنير بالجمال ، والنجم الثاقب
بالعلم ، والكوكب الوقاد بالجود ، والبحر الفيّاض بالموهب ، قد سقط
العشاء بعبدك على سرحك فأقره من نعمتك بما يضاها قدرك ، وزوج
هيئته ربّها من الغنى .

[لوم التوحيدى على مدحه ابن العميد]

/ ثم يقال لي من بعد : جنيت على نفسك حين ذكرت عدوه عنده بخير ،
ويئنت عنه وجعلته سيد الناس ، فأقول : كرهت أن يراني مُندرتاً على عرض
رجل عظيم الخطر ، غير مكترث للقمة فيه ، والإيناء عليه وقد كان يجوز أن
أشعث من ذلك شيئاً ، وأبصري من أثلته جانباً ، وأطير إلى جنبه شرارة ،
فيقال أيضاً : جنيت على نفسك ، وتركت الاحتياط في أمرك ، فإنه مَقْتَك

[٤٢أ]

(١) حرب : كلب واشتد غضبه .

(٢) الحوياء : النفس .

وعافك ، ورأى أنك في قولك عَدَوْتَ طَوْرَكَ ، وجهلت قدرك ،
ونسيت وزنك ، وليس مثلك من هجم على تَلْب من بلغ رتبة ذلك الرجل ،
وأنت متى جسرت على هذا دربت (١) به ، وجعلت غيره في قرنه ، فإذا
كانت هذه الحالات ملتبسة ، وهذه العواقب مجهولة ، فهل يدور العمل بعدها
إلا على الإحسان الذي هو علة المحبة ، والمحبة التي هي علة الحمد ، والإساءة
التي هي علة البغض ، والبغض الذي هو علة الذم ؟ فهذا هذا .

[حسد الصاحب لأهل البيان]

وكان ابن عباد شديد الحسد لمن أحسن القول ، وأجاد اللفظ ، وكان
الصواب غالباً عليه ، وله رفق في سرد حديث ، ونيقة (٢) في رواية خبر ،
وله شمائل مخلوطة بالدائمة ، بين الإشارة والعبارة ، وهذا شيء عام في البغداديين
وكالخاص في غيرهم .

[غيظ الصاحب من التوحيد]

حدثته ليلة بمحدث فلم يملك نفسه حتى ضحك واستعماده ، ثم قيل لي بعد:
انه كان يقول قاتل الله أبا حيان ! فانه نكد ، وإنه وإنه ، وأكره أن أروي
نمّي بقلبي ، وكان ذلك كله حسداً محضاً ، وغيظاً مجتأ .

[حديث أبي الحسن الجراحي]

وأروي لك الحديث فانه في نهاية الطيب ، وفيه فكاهة ظاهرة وعي

(١) دربت به : أولت به .

(٢) النيقة : اسم من التنوق وهو التجويد في اللبس والمطعم وبقية الأمور .

عجيب ، في معرض بلاغة طريفة في ملتبس فهاهه . حدثني القاضي أبو الحسن الجراحي قال : لحقتي مرة علّة صعبة ، فمن طريف ما مرّ على رأسي فيها أنه دخل عليّ في جملة من عادي شيخ الشونيزية (١) ، ودوّارة الحمار ، والتوتة ، وفقهها أبو الجعد الأنباري وكان من كبار أصحاب البرهاري (٢) فقال أول ما قعد: يقع لي فيما لا يقع إلا لغيري أو لثلي فيمن كان كأنه مني ، أو كأنه كان علي سني ، أو كان معروفاً بما لا يُعرف به ، إلا أني أنك لا تحتمي إلا حمية فوق ما يجب ، ودون ما لا يجب ، وبين فوق ما لا يجب ، وبين دون ما لا يجب فرق . الله يعلم أنه لا يعلمه أحدٌ ممن يعلم ، أو لا يعلم ، الطب كله أن يحتمي حمية بين حيتين ، حمية كلاحمية ، ولا حمية كحمية . وهذا هو الاعتدال ، والتعديل ، والتعادل والمعادلة . قال الله تعالى « وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٣) » ، وقال النبي ﷺ « خيرُ الأمور أوساطها ، وشرُّها أطرافها » والعلّة في الجملة والتفصيل إذا أقبلت لم تدبر ، وإذا أدبرت لم تقبل ، وأنت من إقبالها في خوف ، ومن إدارها في التعجب .

وما تصنع بهذا كله ، لا تنظر إلى اضطراب الحمية عليك ، ولكن انظر إلى جهل هؤلاء الأطباء الألباء الذين يشققون الشعر شقّاً ، ويدقّون البعر دقّاً ، ويقولون ما يدرون وما لا يدرون زرفاً (٤) وحّدقاً ، وإلى قلة نصحتهم مع جهلهم ولو لم يجهلوا ، إذا لم ينصحوا كان أحسن عند الله والملائكة ، ولو نصحوا

(١) الشونيزية « مقبرة مشهورة ببغداد بها قبور جماعة من المشايخ رضي الله عنهم بالجانب الغربي » ابن خلكان ١١٧/١

(٢) البرهاري: هو أبو محمد الحسن بن علي الفقيه شيخ الحنابلة بالعراق توفي سنة ٣٢٩ هـ

العبر : للذهبي ٢١٦/٢

(٣) سورة الفرقان .

(٤) في الأصل ذرفاً وهو تصحيف ، وزرف في الكلام : زاد فيه وكذب .

إذا جهلوا كان أولى عند الناس وأشبه الناس ، والله المستعان .
أنت في عافية ، ولكن عدوك ينظر إليك بعين الاست ، يقول : وجهه
وجنه من قد رجع من القبر بعد غدوة على حال ، فالرجوع من القبر خير
من الرجوع إلى القبر ، لمن الله القبر ، لا يزال ولا خباز ولا دراز ولا
تجاوز (١) ، إنا لله وإنا إليه راجعون عن قريب إن شاء الله ، « وما تدرى
نفسٌ بأبي أرضٍ تموت (٢) » ، « ولا يحقُّ المكثُرُ السَّيءُ إلاَّ بأهله٣ » ،
« وهو على جمعهم إذا يشاء قدير (٤) » ، « ومن الجبال جددٌ بيض
وحمرُّ٥ » . تأمر بشي السنة في العبادة خاصة عبادة الكبار والسادة التخفيف
والتطفيف وقلة الكلام . إنا إن شاء الله عندك بالعشي ، والحق الحق ، وأقوم
بما يجب على مثلك لمثلي ، وإن كان ليس لك شغل ، ولا لمثلي أيضاً مثل ،
هكذا إلى باب الشام ، وإلى قنطرة الشوك ، وإلى المزرقة . أقول : لك
المثوى ، أنا وانت اليوم كمثل كمثلين إذا عفتنا على رأس شجرة ، وكدولين
إذا خلقتنا على رأس بشر ، ودع ذا القارورة اليوم ، لا إله إلا الله ، وأمس
كان سبحانه الله ، وغداً يكون شيئاً آخر ، وبعد غد نرى من ربك العجب ،
والموت والحياة بعون الله ، ليس هذا مما يباع في السوق ، أو يوجد مطروحاً
على الطريق ، ولكن الانسان ولا قوة إلا بالله طريف أعمى كأنه ما صح له

(١) التجاوز : برد موسى والجمع تجاوز .

(٢) سورة لقمان .

(٣) » فاطر .

(٤) » الشورى .

(٥) » فاطر .

منام قط ، ولا خرج من السارية إلى الشط ، وكأنه ما رأى قدرة الله في البط إذا لقط كيف يتقطط .

والكلام في الانسان وعمى قلبه ، وسخنة عينه كثير ، لا يحمله تلّ عقروق ، ولا يسلم في هذه الدار إلا من عصر نفسه عصرة ينشق منها فيموت كأنه شهيد وهذا صعب لا يكون إلا بتوفيق الله وبعض خذلانه الغريب . على الله توكلنا، واليه التفتنا ورضينا، وبه استخرنا وإن شاء خرتنا وإن شاء الله أطعمنا . قال القاضي : فكدت أموت من الضحك على ضعفي ، وما زال كلامه لهوي إلى أن خرجت إلى الناس ، وكان مع هذا لا يعنيا ولا بكل ولا يقف ، وكان من عجائب الزمان .

[مسائل لغوية]

وقال لي ابن عباد : حدثني عن بعض لياليه ببغداد ، يعني ذا الكفایتين ، وعن مذاكرة الجماعة عنده ، ومشاركته لها . قلت : نعم ، حضرت ليلة في شهر رمضان سنة أربع وستين وثلاثمائة فسأل عن الغنى أيقصر أم يمد؟ قال ابن فارس : الغنى مقصور وهو اليسار والترفة . والغناء بالمد ما يسمع على الطريق المعروفة ، إلا أن الفرّاء قد حكى أن المد في هذا المقصور ، وهو حجة ولا سبيل إلى ردّ قوله . فقال أبو الفتح : هكذا هو ، وما أصحّ حكايتك ، ولكن قلبي لا يطعن إلى مدّ هذا الاسم ، لأنه لم يأت في كلامهم بمدوداً ، فقال ابن فارس قد أنشد الفرّاء قول الشاعر :

سيفنبي الذي أغناك عني

فلا فقر يدوم ولا غناء

فقلت : عندي في هذا شيء وما دَخَرْتُهُ إِلَّا لِمِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ ، وَقَدْ
حَانَ وَقْتُهُ . فَقَالَ : هَاتِ ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، إِنَّهُ لِحَبِيبٌ بِالْفَائِدَةِ مَا عَمِلْتَ . قُلْتُ :
الشعر على غير هذا الوجه ، والبيت الذي يتلوه يشهد له وهو :

سَيُفْنِنِي الَّذِي أَغْنَاكَ عَنِّي
فَلَا فَقْرِي يَدُومُ وَلَا غِنَاكَ
تَجَبَّيْتُ الذَّنُوبَ لِتَصْرَمِيَنِي
دَعِيَ الْعَلَاتِ وَاتَّبَعِي هَوَاكَ

فقال لي : أَحْسَنْتَ وَأَجَدَّتْ ! مَنْ أَنْشَدَكَ هَذَا ؟ قُلْتُ : أَبُو اللَّيْلِ الْعَلَوِي
بِالْمَدِينَةِ فِي مَجْلِسِ أَمِيرِهَا أَبِي أَحْمَدِ الْعَلَوِيِّ الْعَقِيقِيِّ . قَالَ فَحَدَّثَنَا عَنْ أَبِي اللَّيْلِ هَذَا
وَعَنْ غَيْرِهِ بَشِيءٌ . قُلْتُ : سَمِعْتُ شَيْخًا عِنْدَهُ مِنْ بَنِي حَرْبٍ قَدْ أَنْشَدَ آيَاتًا لَمْ أَعْلَقْ
مِنْهَا إِلَّا بَيْتًا وَاحِدًا وَهُوَ :

فَتَى خَلِقَتْ أَرْوَاحَهُ مُسْتَقِيمَةً
لَهُ نَفْحَاتٌ رِيحُهُنَّ جَنُوبٌ

وكان معنا إذ ذاك أبو صالح الرازي الصوفي ، وكان مفوهاً ، جَدِلاً
فقال له : ماذا أراد بقوله : أَرْوَاحُهُ مُسْتَقِيمَةٌ ؟ قَالَ : أَرَادَ / أَنْ أَخْلُقَهُ
لَا تَحُولَ عَنِ الْخَيْرِ ، وَعَادَتُهُ لَا تَزِيغُ إِلَى الْقَبِيحِ ، وَأَنَّهُ عَلَى دَيْدَانِهِ فِي الْكِرَامِ ،
وَخَصَّ الْجَنُوبَ لِاسْتِدْرَارِهَا السَّحَابَ ، وَجَعَلَ نَفْحَاتِهَا مَنَافِعَ لِهَذَا الَّذِي مُدَّحٍ بِهِ .
فَقَالَ : زِدْنَا مِنْ حَدِيثِ هَؤُلَاءِ الْمَدِينِيِّينَ ، قُلْتُ : وَسَمِعْتُهُ - أَعْنِي الْحَرْبِي -
يَقُولُ لِلْأَمِيرِ أَبِي أَحْمَدَ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ !

لِني وَلِيَّةٌ^(١) تَمْرَعُ جَنَابِي فَإِنِّي

لَمَّا نَلْتُ مِنْ وَسْمِي نُهْمَكَ شَاكِرٌ

قلتُ : أَعَدَ عَلِيٌّ بِنَسْخِ قَافِيَتِكَ . قَالَ : أَمَا ثَقَفْتَهُ ؟ قلتُ : مَا أَدْرِي مَا تَقُولُ .
قَالَ : لَعَلَّكَ مِنْ هَذِهِ الْفِرْقَةِ الطَّافِيَةِ . قلتُ : لَعَلَّهُ .

وسمعت هذا الحربي يقول، وكان يُكنى أبا الخصيب، لسيد حيه، وهما بالعقيق
على ضفة الوادي وقد مد^(٢) وهما ينطلقان بما أحصل ولا أحصل حتى قال
أبو الخصيب لصاحبه : يا هذا ! اسل عن طارفك وتالدك تسد بين صاحبك
ووافدك ، أما سمعت في هذه القوافي الأول :
ولو كنت تُعْطِي حِينَ تَسْأَلُ سَامَحَتُ

لك النفس واحلولاك كلُّ خليلٍ

فرددت القافية وقلت : واستحلاك كلُّ خليل ، فقال لي منكراً : ما هكذا
لغتي . فقال ذو الكفائتين : كيف كان إدراكهم لا يقع بالإعراب ؟ قلت :
سألت أبا الخصيب : هل أقول : إن قربي جعفرأ ؟ قال : نعم ، فما تبني ؟ قلت :
أفأقول : إن بعدي جعفرأ ؟ قال : لا ، فما تبني ؟ قلت : فما الذي يمنع من جوازهما ؟
قال : بينهما مُسَيِّفَةٌ لَا تُسَلِّكُ ، وَرُمَيْلَةٌ لَا تُعَلِّي ، وَمَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَإِنِّي عَلَى
يَنَّةٍ مِمَّا قلتُ ، وَعَلَى رَيْبٍ مِمَّا سَأَلْتُ . فسمع ابن عباد هذا كله على تغيظ
ما قصدت إثارته عليه، ولا علمت أن لي متقصي^(٣) من نيلي منه ، وكان ذلك
كله سبب الحرمان .

[رسالة ابن طرخان الى ابن العميد]

ولقد ظهر لذي الكفائتين بمدينة السلام فضل كبير على أنه لم يشخص ولا

(١) أي أمطرنى معروفاً بعد معروف . والولي: المطر يسقط بعد المطر، أو المطر بعد الوسمي .

(٢) مد : أي سال . (٣) المتقصي : مبلغ الغاية .

مَعْتُوباً عَلَيْهِ ، وَلَقَدْ كَتَبَ إِلَيْهِ ابْنُ طَرْخَانَ (١) الْوَرَّاقَ رِسَالَةً طَوِيلَةً أَطْلَعَنِي عَلَى فِصْلِ مِنْهَا يَقُولُ فِيهِ : وَإِنَّكَ أَيُّهَا السَّيِّدُ الْمُهَيَّبُ ، دَخَلْتَ هَذَا الْبَلَدَ إِذَا غَرّاً بِمَا تَرَى وَتَرَى ، وَإِنَّمَا عَلَى أَنْ تَبَيَّنَ فَضْلُكَ لِأَهْلِهِ ، وَإِنَّمَا لِأَنْ تَسْتَفِيدَ مِنْهُمْ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ ، فَإِنْ كَانَ دُخُولُكَ عَلَى غَرَارَةٍ فَمَا هَذَا بِمَشَاكِلِ لِمَرْتَبَتِكَ فِي هَذِهِ الدَّوْلَةِ الَّتِي غَرَّتْهَا بِجُلُوءِ يَدِكَ ، وَجَمَّتْهَا (٢) مَفْرُوقَةَ بَمِدْرَى (٣) تَدِيرُكَ ، وَأَذَاهَا نَمَاطُ بَدْبَتِكَ ، وَدَوَاؤُهَا مَأْمُونُ بَطْنِكَ ، وَعَدْوُهَا مَكْبُوتُ بَصُولَتِكَ وَدَوْلَتِكَ ، وَوَلِيَّتُهَا قَرِيرُ الْعَيْنِ بِحَسَنِ إِيْلَانَتِكَ (٤) وَكَفَالَتِكَ ، وَأَمَّا أَنْ تَبَيَّنَ فَضْلُكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ لَا يَمْتَرِفُونَ بِفَضْلِكَ إِلَّا مُوَصُولاً بِأَفْضَالِكَ ، وَلَا يَسْلَمُونَ لَكَ مَرَادَكَ فِيهِمْ إِلَّا بِأَنْ يَدْرِكُوا أَمَلَهُمْ مِنْكَ ، كَانَ ذَلِكَ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، سَلماً أَوْ حَرْباً . وَأَمَّا لِأَنْ تَسْتَفِيدَ مِنْهُمْ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ ، فَهَذَا لَا يَكُونُ مَعَ إِذَالَةِ (٥) الْقَاصِدِينَ ، وَالِاحْتِجَابِ عَنِ الطَّامِعِينَ ، وَالتَّكْبَرِ عَلَى الْحَاضِرِينَ ، وَلَوْ حَسُنَ التَّكْبَرُ بِأَحَدٍ لِحَسَنِ بَيْتِكَ لِأَبْوَتِكَ الشَّرِيفَةِ ، وَلِفِرَاتِكَ الصَّيْحَةِ ، وَلِكِفَايَتِكَ الظَّاهِرَةِ ، وَلِفَضَائِلِكَ الْكَبِيرَةِ ، وَلَكِنْ زِيَادَةُ التَّكْبَرِ عَلَى صَاحِبِهِ أَطْرَدُ لِحَاسِنِهِ مِنْ تَدَارُكِهِ بِتَكْبَرِهِ مِنْ غَيْرِهِ مَا يَزِيدُ تَجْلِدَهُ ، وَالنَّاسَ لَا يَرْضُونَ إِلَّا بِالغَايَةِ ، وَالغَايَةُ أَنْ يَظْلَمَ الرَّئِيسُ نَفْسَهُ تَكْرِماً عَلَى زَائِرِهِ ، وَتَجَرَّعَ الْغَيْظَ مِنْ كُلِّ مَنْ قَرَعَ بَابَهُ ، وَلَمْ يَسْ رُكَابَهُ . وَأَنَا - أَعْلَى اللَّهِ كَعْبِكَ - أَحْصِي أَشْيَاءَ جَعَلَتْهَا أَصْحَابُنَا جَوَابَ لِلْعَتَبِ عَلَيْكَ ، وَالْكَلامِ مِنْ وَرَائِكَ ، وَلَيْسَ لِي فِيهَا أَقْوَالٌ إِلَّا الْفَوْزُ بِجِهَالِ النَّصِيحِ ، وَإِلَّا

(١) أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ حَسَنِ يَقُولُ عَنْهُ ابْنُ النَّدِيمِ « حَسَنُ الْمَذْهَبِ فِي الْفَنَاءِ وَهُوَ بَضَاعَةٌ فِي

الْأَدَبِ » الْفَهْرَسْتُ ٢٢٢

(٢) الْجَمَّةُ : بِجَمْعِ شَعْرِ الرَّأْسِ .

(٣) الْمَدْرَى : الْمَشْطُ .

(٤) الْإِيَالَةُ : السِّيَاسَةُ .

(٥) أَذَالَهُ : أَهَانَهُ .

الليذ بالتنبيه على الكرم ، وإلا إيثار سلامة عرضك على قوم همهم المحك في كل حال ، وإلا التعرض لذكرك لهم بالجمل بعد الرحيل من هذه الربع . فمن تلك الأشياء سهوك الذي وقع قد أكد عليك في قبول من تقبل ، وإيصال من توصل ، وإبعاد من تبعد ، وتفضيل من تفضل بقول من حولك ، وحكم من أطاف بك استرسالاً مع الأنس بهم ، وثقة بما سلف لهم . وذهب عليك - أكرمك الله - أن هؤلاء الذين تنظر بأعينهم ، وتقبل وتردُّ بأهوائهم ماخلوا من حسدٍ / لمن يخفُّ على قلبك ، ويحلى بعينك ، ويلتاطُ بنفسك^(١) ، والعامَّةُ تقول : القاصُّ لا يحبُّ القاصِّ ، ولو كان قلبك لكلِّ من اسمه عندك لصيته البعيد ، وسؤالك لمن لا شهرة له قلبك بحسن التأتى في التقريب ، لكان حدك حينئذ مقبولاً بما يظهر لك من الزيادة والنقص ، وكانت الحجة تقوم بينك وبين من قد ضرمى على مالك ، أو وضع في نفسه أن ينال مراده منك بالخدع . على أن التغافل في هذا الباب أدلُّ على الكرم ، كما أن الاستقصاء فيه أجلبُّ للنكد ، فهذا هذا .

[٤٣]

وشيءٌ آخر ، وهو أصعبُ مما تقدّم ، وذلك أن حجابك قد بدد شمل الزوار عنك ، وقسم ظنونهم بك ، وطرح في قلوبهم اليأس منك ، ولست بأهل لذلك منهم ، كما أنهم ليسوا بأهل لشدة الحجاب منك ، وقلته رافعي أخبارهم اليك . وشيءٌ آخر ، وهو أصعبُ مما تقدّم ، والسهو فيه لاحقٌ بالظلم . لم يجب - أدام الله دولتك - أن لا يصل برئكَ إلا إلى الفاضل ، وإلا إلى الكامل ، وإلا إلى الذي هو في الشعر مُفلق ، وفي الكتابة بارع ، وفي الفلسفة غاية ، وفي الكلام نهاية ، وفي الفقه آية ، وفي النحو مذكور ، وفي الطب مشهور . وهذا ظلم لأن الله تعالى جعل لكل شيء قدراً ، وأظهر له خطراً ، وكلُّ متاعٍ وغنمته ، وكلُّ بدنٍ وسمته ، والمتناهي كان في

(١) التاط بنفسك : لصق بنفسك وأجبعه .

الأول مبتدئاً، ثم في الثاني متوسطاً، ثم في الثالث الذي لا رابع له ، وقاصدوك
بفضائلهم كالعارضين عليك بأمتعتهم ، وأنت تشترى كل متاع بقيمته ،
وتمدله يبدله ، فهكذا ينبغي أن تفعل بأبناء الأمل ، وأصحاب العمل ،
فليس يحتمل أن يحظى بصلتك وبرك وجائزتك ونظرك أبو سعيد السيرافي ،
وأبو سليمان السجستاني ، وعليّ بن عيسى الرمّاني ، وأصحاب القلائس ،
ويُحرّمَ بعض ذلك فلان وفلان ، ممن ليس لهم سَمْعٌ ^(١) هؤلاء ولا حالهم ،
على أنك قادرٌ على إلحاق الصغار بالكبار بالاصطناع والتفضّل ، فإن الرجال
هكذا يتلاحقون ، وفي حلبة الرؤساء يتسابقون ، فكُن سبباً للساكن
حتى ينطق ، وعله للساكن حتى يتحرك ، وبأباً للنائم حتى يستيقظ ،
وطريقاً للخامل حتى ينتبه ، وجدّاً سعيداً للميت حتى يحيا . فأما من عدا
هذه الطبقة فقد سلف له بغيرك ما هو له أشكر ، وبه أبصر ، وله أنصر ،
على أنك إذا عمّمت الجميع بالخير كنت أشدّ اقتداءً بالله ، وأجْحَهم إلى
هُدى أولياء الله ، وآخذهم بعادة خلفاء الله .

وشيء آخر ترجحت بفكري في طيّه ونشره ، فرأيت طيّه سخماً
لوجه النصيحة ، وذكره بالإطالة فتحاً لباب الفضيحة ، فذكرته مختصراً ،
فقد يُفهم من الكلام القصير المعنى ، العريض الطويل ، وهو حديث
المائدة والطبق ، وما يحصر الأكل ويُجمع عليه الرفيع والوضيع والنزّه
والجشع ، فجذب الاهتمام بذلك فإن القالة فيه طائفة ، والحال فيه دائرة ،
والحاجة إلى التحزّم فيه ماسّة ، والتغافل عنه مجلبة للدم . وقد رأينا

(١) السمع : الذكر الجميل وحسن السمعة .

قوماً كراماً تهاونوا في هذا الباب ، إما رفماً لأنفسهم عنه ، وإما شغلاً
بمهماتٍ آخَرَ دونه ، فأكلتهم الألسنة ، وأعلقتهم الملامة ، وأحوجتهم إلى
الاعتذار الطويل بالاحتجاج الكثير . والكرم والمجد لا يبتان بالدعوى ،
ولا يسلبان بالحجة ، ولكن يشعان بالفعل الذي نطقه كالوحي في
الحال التي تتصب للعين ، ولا يؤنفن من ضعة الأكلنة ، فان لؤم
الأكلة دليل ناصع على كرم المطعم ، وهذا بابٌ يزَلّ فيه الرئيس ،
ويظلم فيه الخدم ، فان الرئيس لا يقدر على أن يتولى كل ذلك بنفسه ،
ويراعيه بلحظه ولفظه ، إلا أنه متى أحكم الأساس فقد أمن البأس، وأرضى
جمهور الناس .

وشيء آخر لا بد من الإفاضة فيه على وجه الذكري ، أن لقاءك
الناس بالبشر بأسرهم لك ويريضهم عنك ، فتكلف ذلك إن لم يكن التهلل
سجية ، وبالزاج المستعد ، / وما أكثر ما يلحق المتخلق بذئ الخلق . [٤٣ب]
وبعد فبين عبوس وجهك ، وقد ظهرت للناس لتركب ، وبين عبوسه
وقدرجت إلى دارك لتنزل فرق ، أعني أنك ربما عذرت في العبوس
في الثاني لأن النهار قد نصف ، ولأنك قد تجشمت إلى ذلك
الوقت مصاعب الدولة بالأمر والنهي ، والقبض والبسط ، ولست
تُعذِر في 'غرة' نهارك ، وأنت جامٌ ^(١) ومتوجهٌ ومنتصب للتدبير
في الأمور .

وشيء آخر قد يسبق إلى عينك إزدراء من عليه مرقعة ، أو عليه

(١) جام : مستريح .

بِذَاذَةٍ^(١) وقد اعترأه عيٌّ إما للهيئة ، وإما لسوء العادة . فلا تصدق العين ،
فإنها تكذب أحياناً ، واعمل على أنك تعتقده بفضلك ، فإن كان من أهل
الفضل فهو شقيقك بالطبيعة ، وإن كان من أهل النقص فهو مستحق منك
الرحمة ، والإحسان إلى مثله شكرٌ منك لله على ما خصَّك به من دونه .

[رسالة أخرى ، لابن طرخان]

هذا ما حصل لي من ذلك الفصل ، ثم إني سنة سبعين وجدت هذه الرسالة
في مسوِّدة ابن طرخان فيما يباع من ميراثه فكان في أولها :

السعادة أيها الأستاذ الجليل ضرَّبان ، والسعيد رجلان ، وإحدى السعادتين
للدنيا ، والثانية للآخرة ، وأحد السعدين من هو سعيدٌ في هذا المكان ،
والثاني هو السعيد في مكان آخر ، ومن كمال فضيلة أحد السعدين أن يُعاش
الناس بالمعروف ، ومن تمام إحدى السعادتين أن تتصل بالأخرى ، ولما رأيتك
أيها الأستاذ سعيداً في هذه العاجلة بالمال والولاية والعز والمرتبة ، آثرت أن
تكون سعيداً في تلك الآجلة بالإحسان والمعروف ، والبيرِّ والمكرمة ،
فكُتبت حروفاً قصدت بها إذكارك لا تعليمك ، لأنك تجلُّ عن التعليم لما
أوجب الله لك علينا من التعظيم ، وإنما ساغ الازدكار وحسن التنبيه لأشغال قد
اكتفتك من تهذيب الدولة ، وأعباء قد تحملتها في حماية البيضة ، وأمور أنت
وليها في بث المعدلة في الرعيَّة ، وإقامتها على سواء الحجَّة ، ولو سكت عن
هذا كله لأمكن ، وكان لا يتشعث لك حال قد تولى الله صلاحها ، ولا
ينآد^(٢) عليك مستقيم قد أذن الله بدوامه ، ولكن كنت أحرمُ القربى اليك ،

(١) البذاذة : الهيئة الرثة .

(٢) ينآد : من أود ، أي انحنى وانعطف .

ويفوتُ النظر إلى مثلي ، ومخرومي ألدعُ لقلبي من فائتكَ ، لأنك سيّدُ وأنا
عبد ، وأنتَ رئيسُ وأنا مرؤوس ، فنعمتُ دالاً على نفسي بما قدمته من نفسي ،
فإن كنتُ لم أخرج من حد الأدب المرضي ، وعادة أهل الحكمة العالية ، فما
أولاك بعرفان ذلك لي ، وإن كنت قد خرجت عن ذلك بمُجِبِّ حالِ بيبي وبين
صوابي ، وخطأَ قمدني عن مرتبة أصحابي ، فما أولاك بستر ذلك علي ، وما
بسَطَ اللهَ باعك ، وما وسَّعَ ذرعك إلا ليقينك خطأَ غيرك بشكلِ صوابك ، وإلا
لنعتمدُ إساءتهم بإحسانك ، وإلا لينقلب الظن في الجميل ، ولا يغب الظن فيما
خالف ذلك . وأنتَ كالسما ذات الآفاق المسارحة ، والكواكب المزدهرة ،
والحركات اللطيفة والآثار الشريفة ، والأسرار المكنونة والمعجائب المثيرة ،
والغرائب المشهورة ، فلكل ناظر اليك تعجب ، ولكل عين نحوك تقلب ،
ولكل عقل عنك بحث ، ولكل قلب فيك أمل ، ولكل أمل عندك رجاء ،
ولكل عمل عندك جزاء ، وأنا أسأل الله الذي رفعك إلى هذه الذروة والقلبة
إلا يحطك إلى شيء من الذلة والقلبة .

هذا ما صحَّ لي بالاستخراج من مسودته أتيت به على ما ترى .

[قصيدة النمري في مدح ابن العميد]

وأروي لك ها هنا قصيدة أبي عبد الله النمري ^(١) يمدح بها أبا الفتح، وكان
يُحِبُّها ويحفظها وينشدها ، ومرادى بذلك تكثير الفائدة ، وتحليل الحديث
بمتعة مرة ، وبنفع مرة ، وهي :

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن علي النمري ، انظر ربيعة الدهر ٢/٣٥٨ تحقيق محيي الدين
عميد الحميد ، ط التجارية .

سرتِ التجائبُ بالنجائبُ ترمي الكواكب بالكواكبُ
ترمي 'تجاهات المشا رق من تُجاهات المنارب
قصداً إلى ملك تحمكُ كم في رغبته الغرائب (١)
ملك تبوأ من خزيه مة في النواصي والذوائب (٢)
حيث السوابق والسوا ابغُ والنجائب والجنائب (٣)
[يهب المنعمة الكوا عب والطهمة السلاه (٤)]
في سورة المجد التلي دِ وسورة القلب الفواربُ
يابن العميد عميد دَو له الموطدة المراتبُ
الألمي اللدّ تحر دته الشواهد بالغرائب
زرنك من أرض البصية رة شاحين على شواحب
نردُ المناهل كالحجا هل والسباسب كالسكاسب (٥)
نطوي الجبال إلى جبال العلم والحلم المنقالبُ
الآن قد قرأ القرا رُ بنا وأطلبت المطالب
[لا ريّ دون الري والبحر الغظامط ذي الفوارب
يحر جواهره طوا ف في سواحه رواسب (٦)]

(١) اليتيمة : « رغياً ... الرغائب » .

(٢) « : « ... من علاه ... »

(٣) « : « حيث السوابغ والسوابق ... » .

(٤) زيادة في اليتيمة .

(٥) اليتيمة : « السبابب » .

(٦) زيادة في اليتيمة .

لا دونها ليج الكوا / رب لا ولا حجج الكواذب (١)
يرمي بنا تيارها قبد الأبعاد والأقارب
والبحر لا تندي به إلا السواحل والجوانب
لما نهضت إلى الرجا وحنّت البيض الكواعب
وتنازرت عبراتهم ندى يدي وحلتي
فجعلته مالا وقلد ندى الدموع بذوي المواهب
ولئن تلافيتي يد ال أستاذ من أيدي النواذب
وأقت في الظل الظلي لم ولم تسعيني السواغب
ليشرن أحبتي بمواهي شتي المذاهب
ويحلين لآثا أضاعف أدمعها السواكب
ولأقضى من العشي رة كل حق واجب
حتى يقال أعاده ال أستاذ مكربة الضرائب
كم من ظباء بالبصية رة في المقاصر والسباب
إنس ووحش يشتم ن سوى الذواذب والحقائب
أدم يقاسمن الأرا ك جناه والقضب الرطائب
فلأنسها [أغصانه تجلو به برد السحاب
ولوحشها (٢)] غض الجنى عبث المغازل (٣) والملاعب
نصطاد وحشياتها وتصيدنا الأنس الخراعب

(١) اليتمة : « ... دونها اللجج ... ولا اللجج الكواذب » .

(٢) زيادة في اليتمة .

(٣) اليتمة : « ... عبث المغازل ... » .

ياربُّ يومٍ لي كظلمٍ
رقتُ حواشيه وعضتُ
قصرت لنا أطرافها
وتبرجت لذاته
زلت به حاجتنا
يا ليت سعداً من سعو
ملك يضيء بوجهه
لَوْ سامه أعداؤه
وهب الذوابل المَطْطَا
ومن السخاء مذاهب
لما رآه الطالع الـ
ويراه ركن الدولة الـ
ومظفر الأعلام والـ
كأبيه خير أبٍ وأنجبه
إذا عدُّ المناجب
ردَّ الأمور إليه ردَّ
حتى إذا انتظمت له
وكفى أمير المؤمنين
بكفائتين أقامتا
اشتقَّ من أفضاله
مثل الفِرْنْدِ على القوا
لله توفيق الإمام
يا خير من ركب الجيا

لك أو كظلمك أو يقارب
ضت عين واشيه المراقب
قصر القيناع عن الذواب
للخاطبين وللخواب
بين المهاجر والحواجب
دك ردَّ أيامي الذواهب
وترى به الظلم الغياهب
ما يريهم واليوم عاصب
عن والقواضب للمضارب
يُعددن في جمل العجائب
مأمون مأمون المعائب
غرام ركننا ذا مناكب
أعلام ميمون النقائب
د مفوضين على التجارب
بثقوب آراء ثواقب
عري الكتابة والكتائب
أود المسلم والمحارب
لقباً له بكر المناقب
ضب والفريد على الترائب
م العدل في اللقب المناسب
د وقادها قباً شواذب

أغيتني كل الغنى وكسبتني أسنى المكاسب
شرفاً تلقبه العدا سرفاً فيالك من معايب
وكسوتي حلاً صقل نَ خواطري صقل القواضب
حلاً كدياج الحدو دِ مطر زاتٍ بالشوارب
فلتشكرون رياضنا جدوى سحائبك الصواب
ولننظمن لك القصا ند كالقلائد للكواعب

[أبو عبد الله النمري]

والنمري هذا مليح الشعر والأدب والخلق ، ولما توجه إلى ذي الكفایتين من البصرة وصف بعض ما عناه فقال :

لما رأيت كرمهم أطمأ (١)
وشجر البلوط خضراً عمماً
وفتية عن الفصيح صمماً
ذكرت بالبصرة نخلاً جما
وفتية يبيض الوجوه شمماً
ناديتُ باللهم فرج غمماً
ما أسرع النبيء إذا ما شمماً

(١) في الأصل : كرام الأصما ، وأطم : علا وغلب .

[حديث عن ابن العميد]

فأما الجملة التي تمت في أمر أبي الفتح ذي الكفایتين فقد كنت في أول الكتاب قد وعدت بروايتها ، وهذا موضعها على ما سنح الرأي فيه ، ولعلها تفيده ، وإن لم يكن من خاص ما في هذه الجملة لأن هذه الرسالة قد صارت كتاب خرافة.

[استطراد الى الكلام عن الوزيرين]

وذاك أن القصد الأول لم ينحرف إلى هذه الفنون والشعب ، ولكن الحديث ذوشجون ، وله زهوة من القلب على اللسان ، وديب على اللسان من القلب ، والاحتراس منه بقل ، والغلط فيه يعرض ، وحفظ الكلام على سننه من الكلف الشاقة ، والأمور الصعبة ، واللسان فيه أكثر انصافاً من القلم ، واللفظ أعدل من الخط ، وبعد وقبل فالكلام في نشر العيب ، وكشف القناع ، وتدنيس العريض ، وهجو الإنسان ، ووصفه بالخباثت أكثر استمراراً ، والمتكلم فيه أظهر نشاطاً ، وأمرناً عادةً ، وأوقد هاجساً ، وأحضر عاطساً ، وهذا لأن الشر طباع ، والخير تكاتف ، والطينة أغلب .

وقد قال بعض فتيان خراسان : الإحسان من الإنسان ذلة ، والرحمة من القادر أعجوبة ، والظلم من المذل مألوف . وقد قيل لبعض من اتجع مأمولاً ، وأدرك حاجته منه ، كيف انقلبت عن فلان ؟ فقال : منغني لذة هجائه ، وأكرهني على حسن الثناء عليه ، والقلوب مجبولة على حُب

الإحسان، والألسنة تابعة للقلوب كما أن العيون ناطقة عن الضمائر ولهذا قال الشاعر :

تحدثني العينان ما القلبُ كاتمُ

ولا جنُّ بالبغضاءِ والنظرِ الشَّرُّرِ

أي لا حائل ولا ستر ، والالحظُّ رائدٌ ، والقلبُ شاهدٌ ، والرائدُ لا يكذبُ أهلهُ ، والشاهد لا يكذبُ نفسه . وقلت لأبي سليمان شيخنا ببغداد، وكان يُتهادى كلامه وينساح على ما يسمع منه: لم صار السبُّ والهجاءُ وذكر كل عورة وفحشاء أخفَّ على من حُرِّم مأموله ، ومنع ملتصقه من الوصف الحسن ، والثناء الجميل ، والمدح الأغرَّ المحجَّل ، والتقريض البليغ المتقبل / على من صدقه ظنه، وتحقق رجاؤه ، وحضرته أمنيته ، فقال : لأن الذي [٤٤ب]

يمدح لعلم من نفسه عندها كالعتيد ، والذي يثلب يأخذ لنفسه ما ليس عندها كالمتقبل فالفصل بينها كالفصل ما بين الغارم ما يملكه ، وبين الغانم ما يطلبه ، وهذا كما قال ، وهو راجع إلى شفاء النفس ، وبرد الغليل ، وإلى بلوغ الغاية ، والاستيلاء على النهاية ، ولولا أن هذين الرجلين - أعني ابن عبَّاد وابن العميد - كانا كبيرين زمانها ، وإليها انتهت الأمور ، وعليها طلعت شمس الفضل ، وبها ازدانت الدنيا ، وكانا بحيث ينتشر الحسن منها نشرًا ، ويؤثر القبح عنها أثرًا ، لكن لا اتسكع في حديثها هذا التسكع ، ولا أنمي عليها بهذا الحد ، ولكنَّ النقص ممن يدَّعي الكمال أشنع ، والحرم من السيد المأمول فاقرة ، والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب (١) . ولو أردت مع هذا كله أن تجد لهما ثالثاً من جميع من كتب للجبل والديلم إلى وقتك هذا المؤرخ في الكتاب لم تجد .

(١) في ياقوت ٦/٢٣٢ زيادة: والجبل من العالم منكر والكبيرة ممن يدعي العصمة جاثمة.

[عودة الى الحديث عن ابن العميد]

كان من الحديث الذي زللنا عنه قليلاً الى هذا الموضع ، أن ركن الدولة بما مات في أول سنة ست وستين وثلاثمائة اجتمع أبو الفتح ذو الكفائتين وعلي بن كآمة^(١) وتعاهدا وتعاقدا وتوافقا وتحالفا وبذل كل واحد منها لصاحبه الاخلاص من المودة في السر والجهر ، والذب في الظاهر والباطن ، والتوقيع عند الصغير والكبير ، واجتهدا في الأيمان الغامسة^(٢) ، والعقود المؤرّبة^(٣) ، والاسباب المغارة القتل ، ودبراً أمر الجيش ، ووعدا الأولياء ، وردّ النافر ، وركنا أُلحظ الحاضر ، وعانقا الخطب العاقر ، واستبر^(٤) جل ذلك أبو الفتح خاصة بجدّ من نفسه ، وصريّة من رأيه ، وجودة فكره ، وصحة نيته ، وتوفيق ربّه . فلما ورد مؤيد الدولة الرزي من أصبهان ، وعان^(٥) الأمر متسّقاً ، ولحق كل فتق مرتقاً بما تقدم الحزم به ، ونفذ الرأي فيه^(٦) أنكر الزيادة الموجبة للجند ، وكرها ودمدم^(٧) بها فقال له أبو الفتح : بها نظمت لك الملك ، وحفظت الدولة ، وصنت الحريم ، وإن خالفت هذه الزيادة هواك اسقطت باليد الطولى^(٨).

(١) في ياقوت : أحد أمراء الديلم والأعيان .

(٢) الأيمان الغامسة والغموس التي تغمس صاحبها في الإثم والنار .

(٣) في ياقوت : الموثقة والأرّبة ، العقدة التي لاتحل حتى تحل .

(٤) استبر الشيء : اختبره وجربه .

(٥) في ياقوت : صادف .

(٦) في ياقوت : ونفذ من الرأي الصائب عنده .

(٧) في ياقوت : بذكرها .

(٨) في ياقوت : فأسقطها فاليد الطولى لك .

[بداية الصاحب في أمور الدولة]

وكان ابن عبّاد قد ورد ، وحبّطه رطب ، وتنوره بارد ، وزرقه (١) غير نافذ ، هذا في الظاهر فأما في الباطن فكان يخلو بصاحبه ويوثبه على أبي الفتح بما يجد إليه السبيل من الطعن والقَدْح ، فأحسّ بذلك كله ابن العميد فألّب الأولياء على ابن عبّاد (٢) ، وهم بقتله ، وقال للأمير : ليس من حق كفايتي في الدولة وقد انتكثَ حبلُها ، وقويت أطماع المفسدين فيها أن أسامَ الخسفَ والأحرار [لا] يصبرون على نظرات الذلِّ وغمزات الهوان ، فقال له في الجواب : كلامك مسموع ، ورضاك متبوع ، فما الذي يُبرِّدُ فورتكَ منه ؟ قال : ينصرف إلى أصفهان موفوراً ، فوالله لئن أنصفته في مطالبته برفع حساب ما نظر فيه ليعرِّقنَّ جبينه ، وليغدقنَّ حينه ، ولئن أحسَّ الأولياء الذين اصطنعهم بهالي وإفضالي ، بكلامه في أمري ، وسميه في فساد حالي ليكوننَّ هلاكه على أيديهم أسرع من البرق إذا حَظف ، ومن المزن إذا نَطَف ، فقال له : لا تخالف لرأيك ، والنظر لك ، والزممام بيدك .

[تَلَطَّف الصاحب]

وتلطّف ابن عبّاد في عرض ذلك لأبي الفتح وقال : أنا أتظالمُ منك اليك ،

(١) الزرق : الطعن مصدر زرق .

(٢) في ياقوت بزيادة : « حتى كثُر الشغب ، وعظم الحطب » .

وأتحمل بك عليك ، وهذا الاستيحاش العارض سهل الزوال إذا تألفتُ الشاردَ
من حلمك علي بشائع كرمك .

ولّتي ديوان الانشاء ، واستخدمني فيه ، وربّنتي بين يديك ،
وأحضرتني بين أمرك ونهيك ، وسمّيتي برضاك فاني صنيعة والدك ، والجدد
بهذا صنيعة لك ، وليس بجميل أن تكرّ علي ما بنى ذلك الرئيس فتهوره
وتنقضه ، ومتى أجبتي إلى ذلك ، وأمتتي أكون خادماً بحضرتك ،
وكتاباً يطلب الزئلفة عندك ، في صغير أمرك وكبيره ، وفي هذا إطفاء
الثائرة التي قد تأرثت بسوء ظنّك ، وتصديقك أعدائي علي . فقال في
الجواب : والله لا تجاورني في بلد السرير ، وبحضرة التدبير ، وخلوة
الأمير ، ولا يكون لك إذن علي ، ولا عينٌ عندي ، وليس
لك مني رضا إلا بالعود إلى مكانك ، والسؤال عما تحدّث
به نفسك .

[فرار الصاحب]

فخرج ابن عبّاد من الريّ على صورة قبيحة ، خرج متكرراً بالليل ،
وذاك أنه خاف الفتك والغيلة ، وبلغ أصفهان ، والتقى عصاه بها ، ونفسه
تغلي ، وصدرة يفور ، وانخوف شامل ، والوسواس غالب ، وهم
أبو الفتح بانفاد من يطلبه ويؤذيه ، ويهينه ويمسّف به ، فأحسن
هو بالأمر .

فحدّثني ابن المنجم قال : وعمل علي ركوب المغازة إلى نيسابور لما
ضاق عطشُه ، واختلف علي نفسه ظنُه .

مثالبم (٢٣)

[ثورة خراسان]

[١٤٥]

وإنما لني هذا وما أشبهه حتى بلغهم أن خراسان / قد أزمعت الدلوف^(١) اليهم ،
وتشاورت في الإطلال عليهم ، فقال الأمير لأبي الفتح : ما الرأي ؟ قد غمي اليسا
ما تعلم من طمع خراسان في هذه الدولة بعموت ركن الدولة ، فقال أبو الفتح :
ليس الرأي إلي ولا إليك ، ولا المهم علي ولا عليك ، ها هنا من يقول :
أنت خليفتي ، ويقول لي : أنت كاتب خليفتي ، يُدبّر هذا بالمال والرجال ،
وهو الملك ، قال : فاكتب اليه وأشعره بما قد منينا به ، وسلكه دواء هذا
الداء ، وأبلغ في ذلك ما يوجهه الحزم الصحيح ، ويُؤذّن بالسعي النجيج ،
فكتب وتلطّف ، وصدر في الجواب أن هذا الأمر عجب ، رجل مات
وخلف مالا وله ورثة وابن ، فلم يُحمل اليه شيء من إرثه زوياً^(٢) عنه ،
واستثاراً به دونه ، ثم خوطب بأن يفرم شيئاً آخر من عنده قد كسبه بجده ،
وجمه بسعيه وكدحه ، هذا والله حديث لم يسمع مثله ، ولئن استفتي الفقهاء
في هذا لم يكن إلا التعجب والاستطراف ، ورحمة هذا الوارث المظلوم من
وجّهين : أحدهما أنه حرم ماله بحق الإرث ، والآخر أنه يطلب بإخراج
ماله عليه ، وإن أبي قولي حاكمت كل من سام هذا إلى من نرضى به .

فلما سمع مؤيد الدولة هذا ، وقرأه أبو الفتح قال : ما ترى ؟ قال : قد
قلت وليس لي سواه ، أقول : هذا الرجل هو الملك والمُدبّر ، والمال كله
ماله ، والبلاد بلاده ، والجند جنده ، والكل عليه ، والمهنا له ، والاسم
والجلالة عنده ، وليس ها هنا إرث قد زوي^(٢) ، ولا مال استؤثر به دونه ،

(١) دلف : مثنى مشياً قارب الخطو ، وقيل : مثنى مشياً فوق الديب .

(٢) زوى النبي عنه زوياً : جرفه وقبضه .

والنادرة لا وجه لها في الجَد ، وفيما لا يتعلق باللعب ، أما خراسان فكانت منذ
عشرين سنة تطلبنا بالمال ، وتهددنا بالمسير والحرب ، ونحن مرة نسالم ومرة
نحارب ، ونحن في خلال ذلك نفرق المال بعد المال على وجوه مختلفة، فأحسب
أن ركن الدولة حيّ باق ، هل كان له إلا أن يدبّر بماله ورجاله، وذخيره
وكنزه . أفليس هذا الحكم لازماً لمن قام مقامه ، وجلس مجلسه ، وألقي
إليه زمام الملك ، وأصدر عنه كل رأي ، وأورد عليه كل دقيق وجليل ،
وهل علينا إلا الخدمة والنصرةُ والمناصحة بكل ما سهل وصعب ، كما كان ذلك
عليه بالأمس من جهة الماضي .

[الحاجة إلى المال]

فقال الأمير : إن الخطب في هذا أراه يطول ، والكلام يتردد، والمناظرة
تربو ، والحجة تقف ، والفرصة تفوت ، والعدو يستمكن ، وأرى في
الوقت أن نذكر وجهاً للمال حتى نحتج [به] ، ثم نستمدّ في الثاني منه ، ونرضي
الجند في الحال ، ونخزم في الأمر ، ونظهر المرارة والشكيمة بالاهتمام
والاستعداد ، حتى يطير العين^(١) إلى خراسان مجدنا واجتهادنا، وحزمنا واعتمادنا،
فيكون في ذلك مكسرة لقلوبهم ، وجمّاً لأطماعهم ، وباعثاً على تجديد القول في
الصلح ، وإعادة الكلام في المواعد ، وردّ الحال إلى العادة المعروفة فقال:
أسأل الله بركة هذا الامر ، فقد نشيت^(٢) منه رائحة منكورة، وما أعرف للمال

(١) العين : الجاسوس .

(٢) نشيت : اشتم .

وجهاً . أما أنا فقد خرجت من جميع ما كان عندي مرة بما خدمتُ به الماضي
تبرعاً حِدْثَانٌ^(١) موتِ أبي ، ومرة يا طالبني به سرّاً ، وأوعدني بالفضل
والاستخاف من أجله ، ومرة بما عزمْتُ في المسير إلى العراق في نصرة الدولة،
وهذه وجوه استنفدت قَلْبِي وكَثْرِي ، وأتتْ على ظاهري وباطني ، وقد
غرمتُ إلى هذه الغاية ما إن ذكرته كنت كالمتمنِّ على أولياء نعمتي ، وإن سكتُ
كنت كالمتمنِّهم عند من يتوقع عثرتي وهذا هذا .

وأما أحوال النواحي فأحسن حالنا فيها أننا زرجنا إلى الأولياء في نواحيها
مع النفقة الواسعة في الوظائف والمهمات التي تنوبها . وأما العامة فلا أَحْوَجَ اللهُ
إليها ، ولا كانت دولة لا تثبتُ إلا بها ، وبأوساخ أموالها .

[الاستدانة من ابن كامة]

فقال الأمير ، وكان ملقّباً^(٢) : هذا ابن كامة وهو صاحب الذخائر
والكنوز ، والجبال والحصون ، ويده بلاد، قد جمع هذا كله من نعمتنا ،
وفي مملكتنا وأيامنا وبدولتنا وهو جامٌ^(٣) ما شَيْكَ^(٤) ، ومختوم ما فُضِّ
مذ كان . ما تقول فيه ؟ قال : مالي فيه كلام ، فإن بيني وبينه عهد

(١) الحدثان : أول الأمر وابتدأؤه .

(٢) الملقن : السريع الفهم الذكي .

(٣) جام : أي جامع .

(٤) شَيْكَ : آله بالشوك كناية عن نقص المال . ولعلها : جام ما سبك أي إناه من

فضة لم يعد سبكه بعد كسره والمقصود لم يصب بأذى .

ما أخيس^(١) به ولو ذهبت نفسي ! فقال اطلب منه القرض لا يبلغ حد الحاجة ، فإن الحاجة ماسة إلى خمسمائة الف دينار على التقريب ، ونفسي أنفع لنا ، وأردت على دولتنا من موقع ذلك المال ، وبعد فرأيه وتدبيره واسمه وصيته وبداره إلى الحرب فوق المطلوب .

قال : فليس ههنا وجهٌ سواه ، والرأي أن يطالع فارس بهذا لا يكون الخبر من ثم . فقال : أنا لا أكتب بهذا فإنه غدرٌ ، قال : يا هذا فأنت كاتب ، وصاحب سري وثقتي ، / والزمام في جميع أمري ، ولا سبيل إلى إخراج [٤٥ب] هذا الحديث إلى أحدٍ من خلق الله ، فإن أنت لم تتولَّ حارهُ وقاره ، وغثه وسمينه ، ومحبوبه ومكروهه ، فمن قال أيها الأمير ! لا تسمني الخيانة فإنني قد أعطيتك عهداً نقضه يدّر الديار بلاقع ، ومع اليوم غدٌ ، ولعن الله عاجلة تفسد آجلة . فقال : إني لست أسومك أن تقبض عليه ، ولا أن تسيء إليه ، أشر بهذا المعنى على ذلك المجلس وخلاك ذم ، فإن رأي الصواب فيه تولاّه دونك كما تراه ، وإن أضرب عنه أعاضنا رأياً غير ما رأينا ، وأنت على حالك ، لا تنزل عنها ، ولا تبدل بها ، وإنما الذي يجب عليك في هذا الوقت أن تكتب بين يدي حرفين انه لا وجه لهذا المال إلا من جهة فلان ، ولست أتولى مطالبته به ، ولا مخاطبته عليه وفاء له بالعهد ، وثباتاً على اليمين ، وجرياً على الواجب ، ولا أقل من أن تجيب الى هذا القدر ، وليس فيه ما يدل على شيء من النكث والخلاف والتبديل . فما زال هذا وشبهه يتردد بينها حتى أخذ خطّه بهذا النص على أن يصدره إلى فارس .

(١) غاس بالعهد : غدر ونكث .

[اطلاع ابن كامه على خيانة ابن العميد]

فلما حصل الخط ، وجن الليل وسئل ابن كامه وحضر وقال له الامير :
أما عندك حديث هذا الخنث فيما أشار به على الملك في بابك ، وأورد عليه في
أمرك ، من إطاعه في مالك ونفسك ، وتكثيره عنده ماتحت يدك وناحيتك
مع صاحبك ؟ فقال علي بن كامه : هذا الفتى يرتفع عن هذا الحديث ، ولعل
عدواً قد كاده ، وبينى وبينه ما لا منفذاً للسحر فيه ، ولا مساعً لظنٍ
سيء فيه . قال : فما قلت ما سمعت إلا على تحقيق ، ودع هذا كله يذهب
في الريح ، وهذا كتابه إلى فارس يا عرفتُك وخطه . قال علي : فاني
لا أعرف الخط ولكن كاتي يعرف ، فان أذنت حَضَرَ ، قال : فليحضر ،
فجاء الخشعمي الكاتب وشهد أن الخط خطه ، فحال علي بن كامه عن
سجيته ، وخرج من مسكه^(١) ، وقال : ما ظننت أن هذا الفتى بعد الايمان التي بيننا
يستجيز هذا ، قال الامير : أيها الرجل إنما أطلعك الملك على نية هذا الغلام فيك ،
لتعرف فساد ضميره لك ، وما هو عليه من هنات أخر ، وآفات هي أكبر
من هذا وأكبر ، وقد حرّك خراسان علينا ، وكاتب صاحب جرجان ،
وألقي إلى أخينا بهمدان - يعني فخر الدولة - أخبارنا ، وهو عين ها هنا لبختيار
وقد اعتقد أنه يعمل في تخليص هذه البلاد له ، ويكون وزيراً بالعراق ،
وقد ذاق بينغداد ما لا يخرج من ضرسه إلا بنزع نفسه .

(١) المسك : بفتح الميم الجلد لأنه يمك ما وراءه من اللحم والعظم ، وبضمها: العقل.

[وشاية أبي نصر المجوسي]

وكان المجوسي أبو نصر قد قدم وهو يفتل الجبل ويبرم ، ويؤخر مرة
ويقدم أخرى ، ويهاب مرة ويقدم . وكان الحديث قد بُيت بليل ، واهتم
به قبل وقته بزمان ، فقال علي بن كاتمة : فما الرأي الآن ؟ قال : لا أرى
أمثل من طاعة الملك في القبض عليه ، وقد كنا على ذلك قادرين ، ولكن
كبرهنا أن يُظنّ أنا هجمنا على نصيحتنا وكافينا ، وعلى ريب نعمتنا ، ونائسنا
دولتنا ، فهبتنا عندك العذر ، وأوضحنا لك الامر ، قال : فأنا أكفيكموه ،
ثم كان ما كان .

قال الخليلي : وكل هذا جرّة عليه الاستبداد بالرأي ، والغرارة والتواني
وقلة التجربة ، والركون إلى وصيّة الميت ، وسوء النظر في العواقب ، ومجانبة
الحزم والرأي الثاقب ، وكان أمر الله مفعولا .

ورأيت الخليلي والهروي والشاعر المغربي وجماعة من خلفاء أبي الفتح
كابن فارس وابن عبد الرحيم يخوضون في حديثه وقالوا : كان الرأي كذا
وكذا ، فقال المغربي : أجود من هذه الآراء كلها إن كان يضرب عنق المجوسي
جهاراً أتى الدهر بما أتى وما كان ليكون أشدّ مما كان ولعله كان يطرح هيئه ،
ويصير سبباً إلى خلاص .

وذهبنا في القول كل مذهب ، وفي الجملة القدر لا يسبق ، والقضاء
لا يملك ، ومن استوفى أكله استغنى أجله ، والسلام فضل ، والرأي الدبري (١)

(١) الرأي الدبري : هو الذي يسبق أخيراً عند فوت الحاجة .

مردود ، ومن ساور الدهر غلب ، ومن لجأ إلى الله فقد فاز فوزاً عظيماً .
ما وصلنا - حاطك الله - حديثاً بحديث ، وكلمة بكلمة إلا لتكثر الفائدة
ويظهر العلم ، ويكون ما صرفنا القول فيه مرفوداً بالحجة الناصعة
والامتاع المونق .

[التوحيد يخطب القاريء]

أيها السامع ! قد سمعت صريح الحديث ودعيته ، وعرفت مسخوطه
ومرضيته ، فان كان الله قد ألهمك العدل ، وحبب اليك الانصاف ، وخفف
عليك الرفق ، ووفّر نصيبك من الخير ، ورفع كعبك في الفضل ، فقد
رضيت بحكمك ، وأمنت عداوتك ، ووثقت بما كتب الله لي على لسانك ،
وجعل حظي منك . واعلم أنك إن كنت تريد الاعتذار فقد أسلفت الواضح فيه ،
وإن كنت تطلب الاحتجاج فقد أتى البيان عليه ، وإن كنت تغضب لابن عباد
أو لابن العميد فقد شحنت هذا الكتاب من فضلها وأدبها وكرمها ومجدها بما
إذا ميّزته وأفرده ثم اجتليته وأبصرته واقع نفسك ، وشفى غليلك ، وبلغ
آخر مرادك ، وإلا فعرفني من جمع إلى هذا الوقت عشر ورقات في مناقبها
وآدابها ومكارمها وما ينطق عن اتساعها وقدرتها ويدعو إلى تعظيمها وتوقية
حقوقها ومعرفة أقدارها وهممها ممن لها عليه الاصبع الحسنة ، واليد الخضراء ،
والنعمة السابقة ومن لم يذكر إلا بها ، ومن لم يعرف إلا في أيامها ، ومن لو
لم يلتفت إليه واحد منها لكان يحرس في الدروب ، أو يلقط النوى في الشوارع ،
أو يوجد في أواخر الحمامات .

وَدَعَ الشعر جانباً فإِذَا ذاك عن حسبِ دنيءٍ ، ومذهبِ زريٍّ ، وطمعِ
خسيسٍ ، ومقامِ مذلٍّ وموقفِ مخجلٍ ، ولكن هاتِ رسالةَ محررةٍ ، وأديباً
فاضلاً ، وعالماً مذكوراً تجرّد لنصرتها ، ودلٍّ على خفي فضلها ، أو عجب من جلي
فعلها ، فإذا كنت لا تجرّد ذلك فدع الكلب ينبع ، وإِذَا الكلب نبّاحٌ ، على أني
- حفظك الله - لا أبرئ نفسي في هذا الكتاب الطويل العريض من ديب
الهوى ، وتسويل النفس ، ومكايد الشيطان ، وغريب ما يمرض للانسان ، فان
وقفت على شيء من ذلك ، فقر^(١) بالمذل علينا ، وسل في اللائمة
من أجابه ، وإياك أن تجرّد جلدك لا تدمي بشفرتك ، أو تنسم
إلى جمّة لا تقشعرّ ذوائبها بريحك ، وأن تمتحن جوهرأ لا يخاص^(٢)
عيه ببارك .

واستيقن أن من ركب سنام هذا الحديث كما ركبتَه ، وسبح في غامر هذه
القصة كما سبحت ، وقال ما قلت ، وعرضَ بما عرضت فغير بعيد أن يحكم له
وعليه ، بمثل ما يحكم به لي وعليّ ، وإذا كان الحكم لازماً ، وهذا القياس
مطرّداً ، فالرضا بها عزٌّ ، والصبر عليها شرف وإني لأحسد الذي يقول :

أعدُّ خمسين عالماً ما عليّ يدُّ

لأجنبيٍّ ولا فضلٌ لذي رحِمِ

(١) العبارة غير واضحة في الأصل ، ولعل الصحيح ما أثبتناه .

(٢) خصوصت العين : أي غارت .

الحمد لله شكراً قد قنعت فلا
أشكو لثيماً ولا أطوي أخا كرم
لأنني أتخى أن أكونه ، ولكن العجز غالب ، لأنه مبذور في الطينة ، ولقد
أحسن الآخر أيضاً حين يقول :

ضَيِّقَ العُدْرَ في الضَّرَاعَةِ أَنَا
لو قنعتنا بقِسْمِينَا^(١) لَكَفَانَا
مَالَنَا نَعْبُدُ العِبَادَ إِذَا كَا

ن إلى الله فقرنا وغنانا
وأدعوها هنا بما دعا به بعض النساك : اللهم صنْ وجوهنا باليسار ،
ولا تبتذلها بالإقتار ، فنسترزق أهل رزقك ، ونسأل شرار خلقك ، فنبتلى
بحمد من أعطى ، وذم من منع ، وأنت من دونها وليُّ الإعطاء ، وييدك خزائن
الأرض والسماء ، يا ذا الجلال والإكرام .

انتهت رسالة أخلاق الصاحب بن عباد وابن العميد .

(١) القسم : النصيب .

الفهارس

- ١ - الأعلام
- ٢ - القوافي
- ٣ - الأماكن والبلدان
- ٤ - الاقوام والمذاهب
- ٥ - أسماء الكتب

1872

1 - 100

2 - 100

3 - 100

4 - 100

5 - 100

١ - الأعلام

- أبو اسحاق التصبي ١٩٦،١٤٢
اسماعيل « عليه السلام » ٢٩٠
أبو الأسود الدؤلي « ظالم بن عمرو » ٦٤
أشجع السلمي « أبو الوليد » ٣٢
الأشل « الكاتب » ١٠
أبو العباس أحمد بن الطيب ١٦٣
ابن الأعرابي « محمد بن زياد » ٢٤٦،٦١
٣١١،٢٧٩
ابن الأعرج النمري ٢٧٠
أعشى همدان ١٧١
أفلاطون ٢٤١،٢١٥
الأقطع « المنشد الكوفي » ١٢٨،١٢٧
ابن الإمام الطفيلى ٢٦٠
أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد ٢٤٢
ابن الأنباري ١٦ « ح » ٢٠٤
ب
البحثري « الشاعر » ٢٥٣،١٢٦،١١٩
البخاري ١٧٦
بختيار ٣٥٨
البدهي « الشاعر » ٢٠٩،١١٥
البربري « الخطاط » ٢١٩
١
ابراهيم بن العباس الصولي ٥١،٣٩
٢٦٠،٢١٩
ابراهيم « عليه السلام » ٢٩٠،٢٤٤
ابراهيم المسلم ٢٦٤
ابراهيم المرزبان ٣٠٣
ابليس ٣١
الأبهري المتكلم « أبو سعيد » ١٣٨،٤٨٦
أحمد بن محمد « ابن ثوابة » ١٥٨،١٥٦
١٦٣
أحمد بن أبي دؤاد القاضي ٣١،٥١،١٩١
أحمد بن بندار ٢٣١،٢٢٩
أحمد بن الطيب ١٥٧
أبو أحمد العلوي ٣٣٧
أبو الحسن إسحاق الطبري ١٥١
الأخفش ١١٥
ادريس بن أبي حفصة ٢٠٦
أرسطوطاليس ٢٤١،٢١٧،٢١٥
أبو اسحاق الصابي ٢٧٣، ٢٠٩، ٩٨
٢٧٤
أبو اسحاق الفارسي ٢٣١

ت

ابو تمام «الشاعر» ٣٠٠، ١١٩
التميمي «الشاعر» ٣١٨، ٢١١
التميمي «الشاعر المصري المعروف
بالرغيب» ٨٣
التميمي «المعروف بسطل» ٢٠٤
أبو حيان التوحيدي ٢٧، ١٨٤،
٣٣ «ح» ٣٨ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٥٧
٥٨ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٨٢
«ح» ٩٠ ، ١٠٢ ، ١٣٧، ١٢٦
١٩١ «ح» ١٩٥ «ح» ٢٠٣ ، ٢٠٤
٢٠٧ ، ٢٩٣ ، ٣٠٥ ، ٣١١
٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٣٢
٣٣٤ ، ٣٥٩

ت

ابن ثابت ١٩١، ١٧٦، ١٤٨، ١٢٠
ابن ثابت «الكاتب الهمداني أبو
الفضل» ٢١٦
ابن ثابت الجويني ١٥٣
ثعلب ١١٥ ، ١٧٣ ، ٢٦٦
الثقيف المتكلم ٢٤٥
ابن التلاج المتكلم ١٣٦ ، ١٤٣
ابن أبي الثياب البغدادي ٢٢٨

البرقوقي ٧ «ح»

برهان الصوفي ٣٣
بروكلهان ٦ «ح»
البرزاز «غلام الصاحب» ١٣٧
بشار بن برد ٤ «ح» ، ٣٢
بشر الحافي ٣٣
البصري جعل ١٤٠، ١٤١، ١٤٣
بصلة يراليك ١٠٦
ابن البغل ٢٢٨
ابن البقال «الشاعر» ١٣٢، ٢٧٠
ابن بقية «محمد بن بقية الملقب بنصير
الدولة» ١٦
ابن بقية «أحمد بن ثابت بن بقية البغدادي

المحدث» ١١٣

أبو بكر الرازي ١٣٨
أبو بكر الجرفادقاني ٨٤، ٨٥
أبو بكر الصديق ٥٤، ١٥٣، ١٩٣
أبو بكر الصيمري ١٥٧
البلخي ١١٧
بلقيس ٢٩٠
بليناس اليوناني ٢٩١
ابن بنان الوراق ١٤٢

أبو جعفر الوراق ٢١٠
أبو جعفر الخازن ٢٢٨
أبو الفتح جعفر بن الفرات ٢٧٣
الجفائي «الحافظ» ٢٠٦
ابن الجلبات «الشاعر» ٢٠٨، ١٦٤
أبو الحارث حمّيز أو حمّين ١٠٦، ٥٢
الجواليقي ١٥٦
أبو الجوزاء الرقي ٩٠
أبو جهل ٥٤
أبو الجيش الخراساني «شيخ الشيعة»
١٤٠ ، ١٣٨
الجيلوي «الشاعر» ١٣١ ، ١٣٥
١٧٥ ، ١٨٧

ح

الحاتمي «أبو علي محمد بن الحسن بن
المظفر» ١٦ «ح» ٢٠٨، ١٦
الحاجب النيسابوري ٢٥٣
حامد بن العباس ١٣٠
الحامدي الشاعر ٨٠
أبو حامد المرورودي «أحمد بن بشر»
١٩١ ، ١٥٣ ، ١٥١ ، ١٣٧
١٩٢ ، ٣١٣
أبو حامد الصاغاني ٨١
«حبيشة الزبيدي» ٦٢
ابن الحجّاج «أبو عبد الله الحسين بن
أحمد» ١٠٣

ج

الجاحظ «عمرو بن بحر أبو عثمان»
٣١ ، ٢٢ ، ٤٢ ، ٥٠ ، ٥٢
«ح» ١٠٦ ، ١٢١ ، ٢١٨ ،
٢٣٧ «ح» ٢٩٧
جحشويه ١٢٢
جحظة «أبو الحسن أحمد بن جعفر
البرمكي» ١٠٥ ، ١٠٦
الجرجاني ٢٢٥
الجرجاني «محمد بن الفضل»
١٦ ، ١٨
الجرمي «أبو عمر صالح بن اسحاق»
١١٥
جريح المقل «الشاعر» ٢٨٧ ، ٢٤٩ ،
٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢١٦
جرير «الشاعر» ١٧٥
الجريري ٨٠
جستان «الوزير» ٢٢٩
أبو الجعد الأنباري ٣٣٤
جعفر بن حرب الهمداني ١٠٨
أبو جعفر العتيبي «الوزير» ١٠٦
جعفر بن مبشر الثقفي ١٠٨
جعفر بن يحيى البرمكي ٣٢ «ح»

ابن حماد ٤٧
الحسن بن وهب ١١٩
أبو الفرج الكاتب «محمد بن محمد»
٢٧٨
حمزة المصفى ٥١ ، ٢٣٥
ابن حمزة ١٧٣
أبو حنيفة ١٥٢ ، ٢١٨
الحواش ١١٩
أبو حيان البصري ٢٠٩
أبو حيان الدارمي ٢٠٥

خ

ابن خارجه ٢٧٩
ابن أبي خالد الخطاط ٢١٩
الخالع ١٦٤
الخشعمي الكاتب «محمد بن عبد الله» ١٠٠
١١١ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥
١١٦ ، ٣٥٨
الخراطي ٧٤
الخراساني ١٢٣
ابن أبي خراسان «الفقيه الشافعي» ٧٢
أبو الخريش ٢٣٦
الخشوعي ١٥٤
أبو الخصيب الحربي ٣٣٨

حجاج «الكاتب» ١١١
الحربي «أبو الخصيب» ٣٣٧
حرثان ٢٤٢ ، ٢٤٣
الحرفاني ٨٢
الحزنبيل «أبو عبد الله محمد» ٦١
حسان بن ثابت ٧ «ح» ٦٧
الحسن بن رجاء ٥١
الحسن البصري «أبو سعيد الحسن بن
يسار» ٤٨ ، ١٦٨ ، ٣١٢٠
الحسن بن رشيق القيرواني ٢٦٢
الحسن البربهاري «أبو محمد» ١٩٥
٣٣٤
أبو الحسن الهمداني القاضي ٦٦
أبو الحسن الجراحي ٣٣٣ ، ٣٣٤
أبو الحسن بن شاذان ١٨٤
أبو الحسن بن المنجم ١١٢
أبو الحسن الأنصاري ٢٧٠
أبو الحسن البغدادي ٥١
أبو عمران الحسنكي ١٧٣ ، ١٧٤
١٧٦ ، ١٨٣
أبو موسى المعلم «الحسنكي» ٢٦٤
٢٦٥
الحسين المتكلم «أبو عبد الله» ١٧٢
٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٣٠٧
أبو الحسن العامري ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٩٣

٢٩٣، ٢٧٨ ، ٢٢٨ ، ٩٣

١١٧ ، ٣٥٤ ، ٣٥١

رويين « صديق ابن العميد » ٢٢٠

ز

الزرقان بن بدر ٣١١

زبيدة بنت جعفر البرمكي ٣٢٣

الزبيدي « صاحب طبقات النحويين » ١١٤

الزبير بن العوام ١٩٦

الزعفراني « الشاعر » ٧٤ ، ٩٩، ٧٨

١٤٦ ، ١٩٥ ، ٢٠٤ ، ٢١١

الزعفراني « رئيس الزعفرانية » ٦٩، ٦٨

أبو زكريا الصيمري ٢٠٠

زكي مبارك ١٩٧ « ح »

زهير بن أبي سلمي ٢٤٣

زياد « ابن سليمان الأعجم » ٦١

ابن الزيات « محمد بن عبد الملك الوزير »

١١٩ ، ١٩١

ابن الزيات « المتكلم » ١٣٠

زيد بن علي ١١٧

أبو زيد الكلابي ٨٠

س

ابن أبي السباب ٢٨٢

سحبان وائل ٢٣٧

سحيم بن وثيل الرياحي ٣١٠

سعد « مولى أبي بكر » ١٧٦

ابن سعدان « الوزير » ٢٠٨

مثالب م (٢٤)

الخضيري ١٦٩

أبو جعفر الخطيب النيسابوري ٢٨٢

الخليل بن أحمد ١٤٨

الخليلي ٨٨ ، ٨٩ ، ٢١٦ ، ٢٣٦

٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤

٣٣٩ ، ٣٥٩

الخوارزمي « أبو بكر » ٧٧ ، ٧٨

١٣١ ، ٢٤٦ ، ٢٦٥

ر

الدامغاني « غلام الصاحب » ١٣٧

١٦٧ ، ١٦٨

دعبل الخزاعي ١٠٦ « ح » ٣٠٠

أبو دلف الخزرجي ١٢١ ، ٢٨٩

٢٩١ ، ٢٩٢

دعيميص الرجل ١٧١

ديك الجن « عبد السلام بن رغبان » ١٠٩

ر

الرازي « غلام الصاحب » ١٣٧

ابن الرازي ٣٠٤

راس الجالوت اليهودي ١٩٨

الراضي « الخليفة » ٥٦ « ح »

أبو راعب « فتى من آل أبي جعفر

العتبي » ١٠٦

ابن الراوندي « أبو الحسن أحمد بن يحيى »

١٢٦

ابن الربيع ٩٥

ركن الدولة البويهبي ٥٦ ، ٩١ ، ٩٢

سهل بن هارون « ابن راهبون » ٥٠
 سيبويه ١١٥ ، ٢١٨

س

ابن شاذان ١١٧ ، ١٧٣
 ابن شاذان « الزعيم » ٢٣٨
 الشاذبائي ١٩٩ ، ١٣٤ ، ٧٢ ، ٣٢٧
 شارل بلات ٢٩٧ « ح »
 ابن الشجري ٤ « ح »
 الشمردل ١٨٤
 شمسويه ٢٢٥
 الشيباني « القاضي عمر بن الحسن »
 ٥٦ « ح »
 ابن أبي شيان ١٣٨

ص

الصاحب بن عباد ٧ ، ٣٦ ، ٥٤
 ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ٧٣ ،
 ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ،
 ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٨ ،
 ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٦ ،
 ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١١٢
 ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨

سعيد بن حميد « أبو عثمان » ١٠٢٤٥١
 ٢٣٧

أبو سعيد الأبهري ٢١١
 أبو سعيد « الحسن بن أبي الحسن » ٣٠٠
 أبو سعيد السيرافي « الحسن بن عبد الله
 المرزبان » ٤٨ ، ١١٤ ، ١٦٣
 ٢٣١ ، ٣٢٧ ، ٢٠٤ ، ٢٤١
 ٢٦٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣
 سقراط ٢١٥

السلامي « صاحب تاريخ طبرستان » ٣٦٥
 أبو السلم « الشاعر » ٨٧
 أبو السلم نحية بن علي ١٨٦
 سلمان البصرة « أبو فرعون الأعرجي »
 ١٠٤

سليمان بن علي ١٤٨ ، ١٤٩
 سليمان بن علي الهاشمي ٥٠
 أبو سليمان السجستاني « محمد بن طاهر
 المنطقي » ١٤٣ ، ١٦٩ ، ٣٠٠
 ٢٠١ ، ٢٧٠ ، ٢٩٨ ، ٢٩٧
 ٢٩٩ ، ٣٢٧ ، ٣٤١ ، ٣٥٠
 ابن سمكة ١٥٧
 سنان بن ثابت بن قرّة الحرّاني ٥٠

صالح الوراق ١٢٨	١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،
أبو صالح الرازي ٣٣٧	١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،
صفوان بن المعطل ١٧٧	١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٣ ،
صقلاب ١٢١	١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،
الصولي « أبو بكر » ٣٩ ، ٥١	١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،
٥٢ « ح » ، ١٣٧ ، ١٧٥ ،	١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ،
٢٠٧ ، ٢٠٧	١٧٦ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،
	١٨٩ ، ١٩٠ ، ٩٥ ، ١٩٧ ،
ض	١٩٨ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ،
الضبي ٢٠٩	١٧٣ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٢٢٩ ،
الضري النحوي ١٧٣	٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٧ ،
	٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،
ط	٢٦٦ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٩٢ ،
ابو طالب الجراحي ٢١٤ ، ٢١٣	٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ،
ابو طالب العلوي ١٣٣ ، ٧٠	٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ،
ابو طاهر الخنفي ٦٩	٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٤ ،
ابو طاهر الوراق ٢٢٩ ، ٢١٧	٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ،
ابو طاهر الانماطي القطان ٢١١ ، ١٥٤	٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٩ ،
الطبري (ابو صادق) ١٧٢	أبو صادق الطبري ٢١٠
ابن طرارة ١٣٨ ، ٨٠	صالح « عليه السلام » ٢٩٠
	صالح بن عبد القدوس ٢٥١

ابن عبدان الاصفهاني ٢٤١
ابن عبد ربه «ح» ٥٠
ابن عبد الرحيم ٣٥٩، ٣٢٠، ٢١٩
عبد الرزاق بن الحسين البغدادي «ابن
ابي السباب» ٢٨٠، ٢٧٩
العبيسي ١٧٦
عبد العزيز بن نباتة السعدي ٢٢١
عبد العزيز بن يوسف ٢٠٨
عبد كان الكاتب ١٩٧
عبد الله بن بشير ٣٢٣
عبد الله بن دينار ٣٤
عبد الله بن العباس ١٤٩
عبد الله المعلم ٩٨
عبد الله بن محمد الاحوص ٢٩٨
ابو عبد الله الحصري ٣٠٦
ابو عبد الله المذهب ١٤٠
ابو عبد الله المصري ١٣٦
ابو عبد الله البصري ١٣٧
ابو عبد الله النمري «انظر الحسين»
ابو عبد الله الزعفراني ٩٠
ابو عبد الله البصري ١٤٣
عبيد الله بن زياد ٦٤

ابن طرخان «غلام الصاحب» ١٣٧،
٣٤٣
ابن طرخان «الفيلسوف الفارابي» ١٤١
ابن طرخان الوراق «ابو الحسن علي
ابن حسن» ٣٣٨
طلحة ١٩٦
ابو الطيب النصراني ٧٨

ع

عائشة «السيدة» ١٩٦
ابو عاصم البصري ١٦٩
عامر بن الظرب العدواني ١٤
العباداني ٧٠
عبادة ١٢٢، ١٠٥، ١٠٢
عباد بن أحمد ٢٠٩
عباد ١٠٦
ابن عباس ٥٤
ابن العباس بن بندار ٣٠٢، ٣٠١
العباس بن عبد المطلب ١٤٩
ابو العباس القاضي الضرير ٩٠
العباس بن الحسن ١٣٠
ابو العباس الضبي ١١٩

علي بن ابي طالب ١٩٦، ١٩٤، ١٤٩، ٦٤	عبد الملك بن نوح ٢٦٥
ابو علي الاسكاف ٣٠٧	عبد الملك بن محمد الرقائشي «ابو قلامه»
علي بن الحسن العلوي ١٠٢	٢٠٦
الحسن الكاتب ١٢٥	عبد الملك بن مروان ٣٠ «ح» ٦٤
سليمان الاخفش ٧٦	٢٤٣ ٢٤٢
ابو علي الصاغاني ٢٢٨	ابن عبد الوهاب ٢٩٧
علي بن عيسى «ابو الحسن» ١١٤	ابو عبيد الكاتب النصراني ٩٣
الحشوي ١١٩	العتابي ٣٠٣، ١٩٦
١٣٩، ١٣٨	ابو العتاهية «الشاعر» ٢٠
الوزير ٥٠، ٤٣	العتبي «محمد بن عبد الله» ٢٤٢، ٤٣
الرماني ٢٤١، ١٧٠	عدي بن حاتم ٢٤٨، ٦٤
القاسم العارض ٢٩٣	العروضي «ابو محمد» ٤٧
المنجم ٢٤٨	عروة بن الورد ١٤٦
القاسم الكاتب ٨٨	عز الدولة البويهبي ١٦ «ح» ، ٣٧ ،
كلمه ٣٥٨، ٣٥٦، ٣٥١، ١٠٠	١٤٠، ١٣٩
٣٥٩	المسجدي ٢٥٢
علي بن محمد ابو الحسن «البيهي» ٨٤	عضد الدولة «ح» ٧٧، ٦٨، ٦٦، ١٨
علي بن هشام ٥١	٢٧٥
العامري ٢٠٧	ابن العطار ١١٧
العتابي ١٦٧	عقيل بن علقمة ١٧٥
ابو عمرو «كاتب فخر الدولة» ١٤٢	ابو العلاء المعري ١٢٦
عمرو بن الأهم ٣١١	العلاف ٣٢٦

عيسى بن صبيح ١٠٨
عيسى بن فرخان شاه ٣٣
عيسى بن مريم « المسيح » ١٨١، ١٩٢
ابو عيسى المنجم ١١٢
ابو العيلاء ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٩، ٥١، ١١١
العوني ١٩٥

ف

ابن فارس ١٢، ٩٧، ٥٤، ٢٢٨٤
٢٧٣، ٣٣٦، ٣٥٩
ابن فارس « أبو الحسين أحمد » ١١٧
الفتح بن خاقان « احمد بن غرطوح الوزير »
١١٩
ابو الفتح بن المنجم ٢
ابو الفتح الرازي ١٤٢
فخر الدولة الاصبهاني ١٤٢
فخر الدولة البويهي ٣٥٨
الفراء ١٢٦، ٣٣٦
ابن الفراء ع « ح »
ابن الفرات « ابو الفتح الفضل بن جعفر »
١١٩
ابو الفرج البغدادي الصوفي ١٨٥،
١٨٨، ١٨٦

عمرو بن العاص ١٤٧
عبيد ١٠٧، ٢١٢
ابو عمرو الاندلسي ٢٦٢
العمري ٥
العميد « والد ابي الفضل بن العميد »
٢٣٥، ٢٣٦
ابن العميد « ابو الفتح » ٥٥، ٨٩، ٣٩٤
٢٢٦، ٢٥٤، ٢٦٧، ٢٩٣، ٢٩٧، ٣٠٠
٣٢٧، ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٩
٣٥١، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٩
ابن العميد « ابو الفضل » ٧، ١٠، ١٨٤
٥٤، ٥٦، ٥٦، ٦٣، ٨٠، ٨٨، ٨٩، ٩٢، ١١٨
١٨٦، ١٩٠، ٢٠٢، ٢٢٠، ٢١٦
٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٧
٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٧، ٢٣٩
٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٢
٢٥٣، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣
٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨٢، ٢٨٦، ٢٨٧
٢٨٩، ٢٩٢، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٢
٣٠٣، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٣
٣١٤، ٣١٦، ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٥٠، ٣٥١
٣٥٢، ٣٥٩
ابن عياش ١١٩

ك

- ابن أبي كانون ١٤١
الكسائي ١٢٦
ابن كعب الأنصاري ١٣٨
ابن كعب ٢٧٠
ابن كلس « صاحب مصر » ٨٣
الكلواذي « صاحب الديوان » ٢١٩

ل

- ليبيد العامري ٦
أبو الليث العلوي ٣٣٧
ليكونت « ج » ٣١ « ح »
أبو القادي الصوفي ٢٣٥
ابن الغازي « غلام صاحب » ١٣٧
الكتاب الأعرج الاصفهاني « أبو غالب »
٢٧٨ ، ٨٧ ، ٢٨٩
الغوري ٢١٨

م

- مالك بن شاهي ٣٢٣
المأمون « الخليفة » ١٩ ، ٢٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٤
المأموني ٨٧ ، ٢١٠

الفرغاني ١٤٣

- الفضل بن سهل ٥١
الفضل بن يحيى ١٧٥
ابو الفضل الكيمائي ١٥٣
ابو الفضل الملعمي ٢٥٦
ابو الفضل المهروري ٢١١
فيروزان الهجوسي ٧٤

ق

- أبو القاسم « أخو صاحب بن عباد » ٢٥٥
أبو القاسم الواسطي ١٤٣
القرميسي ٧٦
ابن قزعة ١٣٨
قس بن ساعدة ٢١٨ ، ٢٣٧
ابن القصّار الفقيه ٩٩
ابن القطان القزويني الحنفي ٦٩
ابن القطان « أبو الحسن الفقيه » ١٢٤
القلانسي ٩٩
ابن قتّاش المصري ١٣٣
القنبري ١٩٥
قوري ١٥٧

محمد بن العباس « ابو الفرج » ١٥١
محمد بن عبد الوهاب الجبائي « ابو علي »
٣٢٦
محمد بن عبد الله بن طاهر ٧٢
المرزباني « محمد بن عمران » ٣٩
محمد بن علي بن الحسين موسى « ابن بابويه »
١١٧
ابو بكر محمد بن فرح ٢٦٠
ابو محمد الفرغاني الحنفي ١٤٠
محمد بن القاسم ٣٣ « ح »
محي الدين عبد الحميد « ح » ٣٤٤
ابو محمد النباتي ١٩٢
ابو محمد بن المنجم ١١٢
ابو محمد « كاتب الشروط » ٧١
ابو محمد المهلب ١٥٢
محمد بن محمد الدقاق القاضي « ابو بكر » ٢٠٤
محمد بن يحيى ٥٩
محمد بن يوسف « ابو الحسن العامري » ٨٢
محمد « تلميذ ابي حنيفة » ٢١٨
الخزومي ابو سعد ٥
المرار الفقي ١٧٣
ابن المراغي ٢١٠، ١٧٤، ١٦٧
المراغي « ابو عبد الله المغربي » ١١٥، ١١٤

ماني « صاحب المانوية » ٣٢٦
البردد « ابو العباس محمد بن يزيد » ٥١
المبرمان « ابو بكر » ١٧٠
ابو بشر متى بن يونس ٢٧٣
المتقي « الخليفة » ٥٦ « ح »
المتنبي ٢٣٢
المتوكل « الخليفة » ٣١، ١٦ « ح » ٣٣٤
« ح » ١٠٢
ابو المخواش ٢٣١، ٢٣٠
محرز المدلجي ٧٨
الحسن التنوخي « صاحب نشوار الحضرة »
١٣٣ « ح »
محمد بن ابراهيم « صاحب الجيش بنيسابور »
٧٧
ابو محمد الاندلسي ٢٦٠
محمد الجهم البرمكي القاضي ٣١
محمد بن الجراح ٢٥٠
محمد بن المرزبان ١٥٣
ابن شنب « محمد » ١٤٦ « ح »
محمد بن زكريا ٢٨٩
محمد بن صالح الهاشمي ١٤٠
محمد بن عبد الله ^{صلى الله عليه وسلم} ٥٤، ٤١، ٣٣، ٤٦
٣٠٢، ١٧٧، ١٧٥، ١٩٧، ٦٥
٣٣٤، ٣١١، ٣١٠

ابن المقفّع « عبد الله » ٥٠
ابن مقلة الكاتب « محمد بن علي بن الحسين »
٢١٩، ١١٩، ٤٧
ابن مكرم الكاتب ٣٩
محمّيه الشاعر ٢٢
ابن المنجم ٣٥٣
المنصور « الخليفة » ١٠٨
المنصوري القاضي ٣٤
المهلب بن ابي صفرة ٦١، ٣٠
المهلي الوزير ٢٥٨، ١١٨
مؤيد الدولة البويهي ٩٥، ٨٧، ٣٤٥
موسى عليه السلام ٢٩٠، ١٦٨
ن
الناطقة الذيباني ٣٠٥، ١٠٣
الناشيء الشاعر ١٩٥
ابن ناصح ٢٠٥
النافع الشاعر ١٩٥
ابن نباتة ١٦٤
ابن نهان ١٣٨
نجاح « خازن كتب الصاحب » ٣٢٥، ٢٦٢
النجار ١١٧
نجية بن علي « ابو السلم » ٢٥٨، ٢٥٧
٣١٧، ٣١٦، ٢٥٩

مرداويج الجبلي ١١٨
المرزباني ٢٦٦، ٢٦٠
المرزبان بن محمد « ملك الديلم » ٢١٤
المرقش الأكبر ٣ « ح »
مريم بنت عمران « عليها السلام » ٢٩٠
امرؤ القيس ١٠٣
مروان بن المهلب ٣٠
مزبّد « ابو اسحاق » ١٠٢
المستعين « الخليفة العباسي » ٥١ « ح »
مسكويه « ابو علي احمد بن محمد » ١٨
٣٠٦، ٢٢٨، ١٣٧
مسلم الاعرابي « أبو السلم » ١٤٧
مسلم بن الوليد ٤٥ « ح » ٢١٨
المسيني ١٢٠، ١٨٤، ٨٨، ٧٦
مطرف « ابو نصر مطرف بن احمد » ١١٨
ابن المعتز « الخليفة » « ح » ٢٥٥، ٣٣
المعتصم « الخليفة » ٣١ « ح »
معد بن عدنان ١٤٩
ابن معروف ١٩٨
معز الدولة بن بويه ١٥٦، ١٦
المغربي « الشاعر » ٣٥٩
المقتدر بالله العباسي ١١٩
ابن مقسم العطار التجوي ٢٦٦

ابو هلال العسكري ٣٠٠
الهمداني « غلام الصاحب » ١٣٢، ١٣٧
ابن هندو ٢٥٣

و

الواثق « الخليفة » ٣١، ٢٠٥
الواسطي ١٣٧
واصل بن عطاء « ابو حذيفة » ١٠٧، ١٣٣
الوراق الطرسوسي ١٧٤
ابو الوفاء المهندس البوزجاني ١٣٨، ١٣٩
٣٠٨، ٣١٥

الوليدي ١٧٨، ١٨١

ي

يزيد بن معاوية ٢٠٦
يزيد بن الصمق ٣٠٥
اليزيدي « ابو عبد الله بن محمد » ٦٢
ابن ماسويه « يوحنا » ١٢٢
يوسف « عليه السلام » ١٦٧، ١٨٠
٢٩٠، ٢٩١
ابن يوسف ٧٧
ابو يوسف « صاحب كتاب الخراج » ٢١٨

ابن النديم « صاحب الفهرست » ٣٣٩ « ح »
النصيبى « ابو اسحاق » « غلام الصاحب »
١٣٧

ابو نصر المجوسي ٣٥٩

النضر بن الحرث ٢٥١

النظام المعتزلي ٢١٨، ٢٢٦

النعمان بن المنذر ٢٩ « ح »

نوح « عليه السلام » ٢٩٠

التوشجاني ٣٢٢

ه

هارون الرشيد ٣٢ « ح »

ابو هاشم ٣٢٦

هبة الله المنجم ١١٢

ابو الهذيل العلاف ٢٠٥

الهروي « ابو الفضل » ٧١٤، ٨٠

الهروي ٨٩، ٩٢، ١١٩، ٢٢٥، ٢٢٨؛

٢٥٥، ٣٥٩

هشام بن الحكم ١٥٤، ١٥٦

ابن ابي هشام ٣٠٤

ابو هفان « عبد الله بن احمد بن حرب »

٢٤٤، ٢٤٥، ١٠٢٤

١ - القوافي

الشاعر	القافية	الصفحة	الشاعر	القافية	الصفحة
شاعر	بتأنيب	١٤٥		١	
شاعر	اعجابه	٥٥٢	شاعر	ابنائها	٤٦
الاجفش	تعب	٧٦	شاعر	عناء	٢٣٦
	ت			ب	
شاعر	الموتى	٢٤٠	التابغة الذيباني	المهذب	٢٩
مسكويه	المنابت	٢١٦	شاعر	وألباب	٢٦
شاعر	شئيت	١٨٢	=	ذبا	٦٥
البصير الشاعر	ذمته	٢٦٦	=	طلبه	٤٤
	ث		=	فاغضب	٣٨
شاعر	تحريث	٣١٠	=	جنوب	٣٣٧
	ج		=	حاديه	١٨٧
شاعر	ويعرج	٦٠	=	اعتبا	٢٠٩
	ح		=	مذهب	٢٧٢
شاعر	للفضائح	٤٦	=	حاطبه	٢٧٢
=	وقاح	٢٥٠	=	بصوابه	٢٦٦
=	كالفتاح	٢٩٧	قريب	نظير بن منظور القمعي	٢٤٦
ابن ابي السباب	سافح	٢٨٢	انبوبا	ابو الفتح بن العميد	٢٦١
عقبة بن كعب	الأباطح	١٢٣	الكواكب	ابو الفتح بن العميد	٢٦٧
			شعوب	شاعر	٣٣٠
			يدوب	ابو الفضل بن العميد	٢٤٦

الشاعر	القافية	الصفحة	الشاعر	القافية	الصفحة
شاعر	تشور'ها	٢٥٩	ر		
المهندي	عار'ها	٢٥٥	شاعر	الحميد'	٢٧
شاعر	الاقدار	١١٠	=	بجماليود	١٧٢
عمرو بن الاهم	وخير'	٥٨	=	انجد	٢٦
شاعر	عسري	٦١	=	المردي	١١١
=	الكرم'	٦٤	=	يُحَمَد'	٥٨
=	الصبر	٦٤	=	يُعْجَد'	٦٣
=	الحمار	٣٨	=	أقود'	٦٥
=	الدهر	٥	=	سعيد'	٤
=	البحر	٥	=	مجد'	٣٣٩
ابو الخصيب الحربي	شاكر	٣٣٨	=	الولائد	٣٠٨
الشردل	وينحفر	١١٤	=	بابسناد	١٧٦
ابو حيان البصري	خساره	٢٠٦	ابن الحجاج	شديدا	١٠٣
شاعر	الشزّر	٣٥٠	شاعر	قصدا	١٠١
شاعر	الكفار	٢٤٥	شاعر	يجدي	٧٥
الصاحب بن عبّاد	بختيار	٢٦٧	حرثان	الترائد	٢٤٢
شاعر	ساحر'	٢٦٣	ز		
شاعر	الذرة	٣٠٥	شاعر	وبغذاذ	١١٦
ابو اسحاق الصابي	عطّارا	٢٧٤	=		
=	والاثار	٢٨٤	شاعر	خيرها	٢٧٢
ابن ابي السباب	حرار	٢٨٢			

الشاعر	القافية	الصفحة	الشاعر	القافية	الصفحة
ابي رشيق القيرواني	بيؤسي	٢٦٣	غمر صالح بن عبدالقدوس		٢٥١
شاعر	أبا العباس	١٧٥	بالدهر	== ==	٢٥١
حسان بن ثابت	الناس	٣١٧	متنور	شاعر	١٧٣
ابن أبي الثياب	اليُبُس	٢٣٧	وزور	عروة بن الورد	١٤٦
ابن عبدان الأصفهاني	حسيس	٢٤١	منشورا	شاعر	١٦٤
	س		بالنظر	=	١٦٥
شاعر	يطيش	١٨٦	بشر	=	١٣٥
	ص		والنسر	=	١٢٠
الأعشى	خمائصا	٢٤٢	مختار	=	١٠١
	ض		هجر	مجهول	٦٨
ابن الرومي	بعض	١٩٢	كفهر	أبو فرعون الأعرابي	١٠٥
ابن البغل	فرضاً	٢٢٨	ذخر	شاعر	٢٤٤
ابن الحجّاج	رابض	١٠٣	البشر	أبو هفان	٢٤٥
	ع		الفقير	عروة بن الورد	٢٠١
شاعر	المطامع	٢٦	ز		
شاعر	الأصابع	٢٦	يجوز	الصاحب بن عبّاد	١٨٧
عامر بن الظرب	ضائع	١٥	س		
شاعر	وَقَعَ	١٠٩	أطلس	شاعر	٢٥٥
شاعر	الصقيع	٣٠٢	والناس	الحطيئة	١٩
			يابس	الأول	٣

الشاعر	الصفحة	القافية	الشاعر	الصفحة	القافية
		ل			
	٦	وعَجَلٌ	شاعر	٣١٠	ويسمع
شاعر	٦٠	نقولا	شاعر	٢٥٠	البدائع
شاعر	٤٥	جليل	أبو الفضل بن العميد	٢٥٣	مصراعاً
شاعر	٣٩	لا تبالي			فـ
ابو سعد الخزومي	٥	مشغول	شاعر	٢٩٢	يخلف
"	٥	سبيل			قـ
شاعر	٤	الرحل	شاعر	٢٦	الورق
"	٤	حامل	أعرابي	٢٦	فتفق
"	٤	مزحل	حسان بن ثابت	٧	صدقا
"	٣٣٨	خليل	حسان بن ثابت	٧	حمقا
"	١٨٨	اعاقه	شاعر	٥٩	ينحرق
ابو حيان الدارمي	٢٠٥	سبيل	"	٦٥	الشرق
شاعر	٤٠٦	وكل	"	٤	حمق
"	٢٧٢	الماحل	"	١٨٢	متفرق
"	٢٧٢	قيلها	"	١٨٧	لاق
"	٢٧١	مختالا	الصاحب بن عباد	١٨٧	القلق
"	٢٤٥	يطول	شاعر	٧٥	جلتي
التنزيل ابو عمرو الاندلسي	٢٦٢	انتقالها	"	٨٧	مرموقا
شاعر	٣١٦	آكله			كـ
ابن بندار	٣٠٢	البطل	شاعر	٣٣٧	غناك

الشاعر	الصفحة	القافية	الشاعر	الصفحة	القافية
=	١٦٦	عظيم	=	٢٥٠	والبخيل
=	٩٠	العجم	=	١٤٤	البز
=	١٠٧	التام	=	١٦٦	مثله
=	٩٣٠	الحرم	حسان بن ثابت	٩٧	فضلاً
=	٢٢٣	كردما	رهير بن أبي سلمى	٢٤٣	يقولوا
ن			م		
شاعر	١٧٠	وتمدريتا	شاعر	٣٠٨	الزحام
ذو الاصبع العدواني	٦٠	يفغيني	علقمة بن عبدة	٥٩	معلوم
حاجب بن حبيب	٥٨٠	باثمان	شاعر	٤٣	المذمما
الأسدي			=	٤١	الدم
شاعر	١٨٣	حينا	=	٤	بقائم
=	٣٦٢	لكفانا	بشار بن برد	٤	بقائم
ابوبكر محمد فرح	٢٦١	دخان	شاعر	٢٧٢	يتكلمها
شاعر	٢٦٠	لم تكن	=	٢١٠	اقوام
حسان بن ثابت	٣٠١	الضياون	ابو حيان الدارمي	٢٠٥	المكرم
يزيد بن الصعق	٣٠٥	اللسان	شاعر	٣٦١	تدوم
الشؤون سخيم بن وثيل الرياحي	٣١٠		ابو تمام	٣٠٠	قسيمة
الأحوص	٢٩٩	مكان	دعبل	٣٠٠	قسيمة
شاعر	١٦٤	ابن سيرين	ابو الفرج السكاتب	٢٧٨	المعدم
ي			النضر بن الحرث	٢٥١	وهام
عبدالله بن معاوية	١٤	المساويا	شاعر	١٧٤	ونعم
شاعر	٣٠٩	حيّا	=	١٤٣	الأدم

٣ — الأماكن والبلدان

١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٦٧

١٧٠ ، ١٥٤ ، ٢٠٣ ، ٢٢٧

٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٩٣ ، ٣٢٧

٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٣٦ ، ٣٥٨

ت

التوتة «محلة» ٣٣٤

ج

جرجان ٣١٥ ، ٣٥٨

جيان «مدينة» ٢٦٢

جيروف «بلد» ١١٥

خ

خراسان ٣٠ ، ٣٤ ، ٦١ ، ٩١

٩٢ ، ١٤٢ ، ٢٧٩ ، ٢٩٣

٣٢٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥

٣٥٨

الخلد ١٢١

خوارزم ٧٧

الخنق «مكان» ١٢١

١

أصفهان ٦١ ، ١٤٢ ، ١٦٧ ، ٢٣٢

٣٥٣ ، ٣٥٢ ، ٣٠٣

أرجان ٣٤ ، ٢٢٩ ، ٢١٤

٢٢٩ ، ٢١٦

أذربيجان ٣٠٣

اسداباذ ٦٧

اشيلية ٢٦٢

—

باب الشام ٣٣٥

البصرة ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٤٤

٤٨ ، ٥٠ ، ٦٤ ، ٨٠ ، ١٣٣

١٤٨ ، ١٩٤ ، ٣٢٣

باب المسلحة «سوق» ٨٧

بغداد ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٤

٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٧٤

٧٥ ، ٧٧ ، ٩٣ ، ١٠٥

١٠٨ ، ١١٤ ، ١٣٣ ، ١٣٧

مكة ١٠٨	قنطرة الشوك « محلة »
الموصل ٣٢٣	قوهستان ١١٥
هـ	ك
ن	كرمان ١١٥
نجران ٢٦٢	الكوفة ٣٠٠، ١٩٤، ٦١، ٤٦
نيسابور ٣٥٣، ٣١٦، ١٨٢، ١١٥، ٧٧	م
هـ	ماذرايا ٤٠
هراة ١١٥	المدينة ٣٣٧، ١٠٧، ٤٨
همدان ٣٥٨، ٢٠٨، ٦٦	مدينة السلام ٣٠٧، ١٣٢، ٥٨
الاهواز ٣٠٠	المرج ٣١٥
و	حران ١٠٠
ورامين ٢٤٨، ٧١	المزرقة « مكان » ٣٣٥، ١٢١
واسط ٣٠٠	مزلة « مدينة » ٢٤٨
ي	مصر ٢٨٠، ٢٠٩
اليامة ٣٢	مقبرة معروف الكرخي ٣١٢

٤ - الأقبام والمذاهب والفرق

الجبائية ٣٢٦	آل الجراح ١٣٠ ، ٢١٥
الجعفرية « مذهب » ١٠٨	آل برمك ٢٥٠
بنو حرب ٣٣٧	آل العميد ١١٢
الحنابلة ٣٣٤	آل القرات ١٣٠
الخوارج ٣٠ « ح »	آل مكرم ٤١
الديسانية ٣٢٦	آل الملب ١٠٤
الديلم ٥٦ ، ١١٧	آل وهب ٢٥٠
الرازيون ٢٣٩	الأزارقة ٣٠ « ح »
الرافضة « مذهب » ٥٥ ، ٢٦٠	بنو إسرائيل ٢٩٠
بنو زيار ٢٨٥	الاشناني « مذهب » ٥٦
الزيدية ١١٧	الاعتزال « مذهب » ١٩٦
بنو سلمة ٣٣	الإمامية « مذهب » ٢٦٥
الصابئة « دين » ٩٨	بنو أمية ٢٤٢
بنو العباس ٣٢٢	الأنباط ٢١
العلوية ١٩٥	أهل البيت ٢٦٦
القرس ٢١٨	أهل الشام ٣٠
الكرامية ١٥٥	البرامكة ١٣٠ ، ٣٢٣
المجوس ١٩٩	بنو ثوابة ١٠٦ ، ١٢٢

بنو هاشم ٣٢٣	المرجثة ٣٠٨
بأجوج ومأجوج ٢٩٠	بنو مروان ٣٢٢
اليزيديون ١٠٦	المعتزلة ١٠٨ ، ٣٢٦
اليهود ١٩٩	بنو المنجم ٥١ ، ١١٢
	النصارى ١٩٩

★ ★ ★

٥ - فهرس أسماء الكتب

- | | |
|----------------------------------|----------------------------------|
| ديوان الحماسة للبحثري ٤ «ح» | الأصمعيات ٢٦ «ح» ٣١٠ «ح» |
| » » لأبي تمام ١٨٣ «ح» | الأغاني ٥ «ح» ١٤ «ح» ٥٢ «ح» |
| » زهير بن أبي سلمى ٢٤٣ «ح» | ١٠٦ «ح» |
| » المعاني لأبي هلال العسكري | أمالي ابن الشجري ٤ «ح» |
| ٣٢ «ح» ٣٠٠ «ح» | أمالي المرتضى ١٢٣ «ح» |
| رسالة التريغ والتدوير للجاحظ | الامتاع والمؤانسة ١١٧ «ح» |
| ٢٩٧ | الأوراق للصولي «كتاب» ٥٦ «ح» ١١٢ |
| الرسالة الحاتمية ١٦ «ح» | البصائر والذخائر للتوحيدي ٣٨ «ح» |
| سمط الآلي ٣٣٥ «ح» | ٢١٧ |
| شذرات الذهب لابن العماد ١٠٣ «ح» | تاريخ بغداد ٤٤ «ح» ١٠٥، ٨٤ «ح» |
| شرح شواهد سيويه ١٧٠ «ح» | ١٠٨ |
| الصدقة والصديق للتوحيدي ٣٣ «ح» | تاريخ الحكماء للقفطي ٤٧ «ح» ٨٠ |
| طبقات النحويين للزبيدي ١١٥ «ح» | ١٢٢ «ح» |
| الفرج بعد الشدة للتنوخي ١٣٣ «ح» | تتمة اليتيمة للثعالي ٨٠ «ح» |
| الفصل في الملل والنحل لابن حزم | تجارب الأمم «كتاب» مسكويه |
| ٦٨ «ح» | ١٨ «ح» |
| كتاب الفصيح لأحمد بن زيد بن سيار | الحيوان للجاحظ ١٠٦ «ح» |
| المعروف بشعرب ١١٥ | ديوان حسان بن ثابت ٦٧ «ح» |
| فوات الوفيات للصفدي ١٠٢ «ح» | |

- | | |
|----------------------------------|-------------------------------------|
| معجم الأدباء لياقوت الرومي ١٠٢ ، | الفهرست لابن النديم ٥ «ح» ٤٣ «ح» |
| ١٠٣ «ح» ١٠٥ «ح» | ٦١ «ح» ١١٧ «ح» ١٢٢ «ح» |
| المفضليات للضي ٣ «ح» ٥٨ «ح» | القاموس المحيط ٥٢ «ح» |
| ٦٠ «ح» | كتاب الخيل لأبي عبيدة ١٨ «ح» |
| الموشح للمرزباني ٥ «ح» ٣٩ | كتاب سيويه ٢٦٤ «ح» |
| النثر الفني لزكي مبارك ١٩٧ «ح» | كليلة ودمنة ٥٠ «ح» |
| نشوار المحاضرة للتنوخي ١٣٣ «ح» | كتاب محمد بن الجهم البرمكي ليكونت |
| ابن خلكان ١٠٥ «ح» ١٠٧ «ح» | ٣١ «ح» |
| ٢٢١ «ح» | مختصر الجرمي لأبي عمر صالح بن إسحاق |
| يتيمة الدهر للثعالبي ٨٤ «ح» ، | البجلي الجرمي ١١٥ |
| ١١٢ «ح» | المستجد من فعلات الأجواد ١٣٣ «ح» |
| | معجم الشعراء للصولي ٣٩ «ح» |

فهرست الكتاب

ص	ص
١٥- الإسراف في المدح والذم.	١ - مقدمة المؤلف.
الحرمان والتأميل.	٢ - باب أدب النفس .
١٦- الحرمان والشم.	٣ - الإنسان الكامل .
المدح والمدوح .	٥ - الشعراء والحكمة .
١٧- ثمن المدح.	٦ - الشعر والنثر .
١٨- العطاء والمنع .	٧ - أسباب تأليف الرسالة .
بين التوحيد ومسكويه .	٨ - التزام الصراحة.
١٩- البذل والمنع .	- وضع الأمور في نصابها
٢٠- الطاعة والتوفيق .	٩ - نتائج الإحسان والإساءة
الحاسن والمساويء .	١٠- العتب على ابن العميد.
٢١- الدين والخلق والعلم .	- ذكر محاسن الوزيرين
٢٢- أنصباة الناس من الأركان.	ومساوئها .
الثلاثة .	١١- التوفيق بين المعنى والمبنى.
٢٣- جزاء التقصير .	صلاح الماضي .
السعادة في العطاء .	١٢- فساد الحاضر
٢٤- دواعي القول .	حسن الاستعداد للقول .
٢٥- مساويء الطمع .	١٣- موقف الناس من المدح
مساويء الفقر .	والذم .
٢٧- التوحيد ومدوحه .	١٤- الهوى والرأي .
التزويد والتقصير في المدح	
والذم .	

ص	ص
٥٨ — التوحيدى والصاحب.	٢٨ — التوحيدى والوزيران .
٥٩ — دوافع حقد التوحيدى .	٣٠ — أبو سعيد الحسن ومروان ابن المهلب .
٦٣ — التوحيدى وابن العميد .	٣١ — المتوسط والمتناهى .
٦٤ — شروط السؤدد .	رسالة للجاحظ .
٦٥ — معاملة الناس بالمثل .	٣٢ — أخلاق الناس .
٦٦ — التزام التوحيدى للبرهان والعيان .	٣٣ — ابن فرخان شاه وأبو العيناء .
رقاعة الصاحب وسخفه .	٣٤ — محمد بن طاهر .
٧٢ — الصاحب وابن أبي خراسان .	رسالة لابن دينار .
الصاحب والشاذبائى .	٣٦ — هجاء الصاحب .
٧٣ — صورة هزلية .	٣٩ — ابن مكرم وأبو العيناء .
الصاحب والفلام .	٤٢ — من رسالة للجاحظ .
٧٤ — الصاحب وفيروزان المجوسى .	٤٣ — تحذير العتبى .
رأى الزعفرانى فى الصاحب .	٤٤ — بين أبى هفان وابن مكرم .
٧٦ — رأى المسيبى فى الصاحب .	٤٧ — رسالة العروضى فى ابن مقلة .
٧٧ — رأى الخوارزمى فى الصاحب .	حمد المحسن وذم المسيب .
أبو بكر الخوارزمى .	٥٠ — رسائل .
٧٨ — رأى الزعفرانى فى الصاحب .	٥١ — الشعراء والصدق .
الخوارزمى والصاحب .	٥٣ — غرض رسالة الوزيرين .
رأى أبى الطيب النصرانى فى الصاحب .	٥٤ — نزاهة التوحيدى وحياده .
٨٠ — رأى ابن العميد فى الصاحب .	٥٥ — صفات الوزيرين .
رأى الصاحب فى الطب .	٥٧ — احتمال تكذيب التوحيدى .

ص	ص
أنواع الكتاب .	٨١ - صاحب وعلم النجوم .
٩٦ - مكان صاحب .	٨٢ - قلة دين صاحب .
٩٧ - رأي في القرآن .	مساويء صاحب .
٩٨ - ولع صاحب بالسجع .	٨٣ - رأي التميمي الشاعر في الصاحب .
٩٩ - صورة هزلية .	عطاء صاحب .
١٠٠ - مخازي صاحب .	٨٤ - حديث أبي بكر الجرفادقاني .
١٠٢ - نوادر مجونية .	٨٦ - شتم صاحب للأبهري .
١٠٤ - أحاديث صاحب .	٨٧ - حديث المأموني .
١٠٦ - رسالة أبي راجب العتيبي إلى صاحب .	٨٨ - صاحب والسجع .
١١١ - نوادر صاحب .	استرقاع ابن العميد صاحب .
عودة إلى مخازي صاحب .	أبو الفضل بن العميد .
١١٢ - صاحب وبنو المنجم .	٨٩ - ابن العميد والصاحب .
١١٣ - علم صاحب .	طالع صاحب .
١١٤ - ادعاءات صاحب .	٩٠ - التوحيد عند صاحب .
١١٥ - صاحب والعروض .	صاحب والشاب السمرقندي .
صاحب والتحو .	٩٢ - ركن الدولة والخراساني .
١١٦ - سخف صاحب .	مقارنة بين صاحب وابن العميد .
صاحب وأهل القصص والحديث .	٩٣ - كتابة صاحب .
١١٨ - ابن العميد وابنه في نظر الصاحب .	٩٥ - الأسلوب المثالي .

ص	ص
١٣٣ - ركاكة الصاحب .	١١٩ - تفاخر الصاحب .
١٣٤ - حديث الشاذبائي .	١٢٠ - المسيبي والصاحب .
١٣٦ - بين العامة والحجاب .	كلام بذيء .
حديث ابن التلاع المتكلم .	١٢١ - التقيح عند الصاحب .
١٣٧ - مناظرة في مجلس عز الدولة .	انكار الجبر .
١٤٠ - البصري جعل .	١٢٢ - الصاحب وبنو ثوابة .
١٤١ - حديث ابن أبي كاتون .	دفع التهم .
١٤٢ - حديث ابن بنان الوراق .	كلام المجانين .
أبو اسحاق النصيبي .	١٢٣ - الابتلاء بالصاحب .
١٤٣ - حديث أبي سليمان السجستاني .	١٢٤ - فلسفة الحق .
الفرعاني والمعتزلة .	١٢٥ - اقطاع الصاحب .
١٤٤ - عودة الى الصاحب .	علي بن الحسن الكاتب
١٤٥ - كفاءة الصاحب .	والصاحب .
١٤٦ - الصاحب والنحو والشعر	١٢٧ - الصاحب والأقطع الصوفي .
١٤٧ - حسد الصاحب للموهوبين .	١٢٨ - نوادر الأقطع .
حسد الصاحب للشعراء .	١٢٩ - حفظ شعر الصاحب .
١٤٨ - غرور الصاحب .	تصرف مشين .
حسده للمجيدين .	١٣٠ - حية ابن الزيات المتكلم .
الخليل وسليمان بن علي .	١٣١ - رأي الجيلوي في الصاحب .
١٥٠ - مسألة نحوية .	١٣٢ - غرور الصاحب .
١٥١ - أبو حامد المرور وذي .	
تعريفات شتى .	

ص	ص
١٧٥ - مسائل نحوية وفقهية .	١٥٣ - عبث أبي حنبل .
الحث على الكرم .	١٥٤ - مناظرة بين الخشوعي
المدح والمهجاء .	والصاحب .
١٧٦ - تساؤل ينيء عن جهل .	٥٥ - بين ملحد وموحد .
هجاء صاحب .	١٥٦ - نوادر عن التشبيه .
خبت اللسان وطيب القلب .	١٥٧ - الهندسة في رسالة الى ابن
١٧٧ - تجهيل السائل .	ثوابة .
مسائل .	١٥٨ - جواب الى ابن ثوابة .
١٨٢ - مسائل لغوية ونحوية وشعرية	١٦٤ - الكلام المكسر .
١٨٤ - الاعتراف والاعتراف .	١٦٥ - صورة هزلية .
١٨٥ - الصاحب وأبو الفرج الصوفي	١٦٦ - عجب الصاحب .
١٨٦ - أبو السلم والوزيران .	١٦٧ - خلق القرآن .
١٨٧ - رأي الجيلوي في الصاحب .	تفسير آية .
شعر الصاحب .	١٦٨ - تفسير آيات .
١٨٨ - كلام الصاحب في الزهد .	١٨٩ - حد الظلم .
ابن العميد في نظر الصاحب .	الرزق والمرزوق .
١٩٠ - كلام الصاحب في العلم والحكمة .	صفة المتكبر .
١٩٠ - تشنيع الصاحب على ابن العميد	١٧٠ - معرفة لغة العرب وأقوالهم .
١٩١ - تعليل الالقاء .	١٧٢ - عمرو بن عبيد .
تعليل المخاطبات .	أقوال للصاحب .
١٩٢ - الصداقة والمصارفة .	١٧٣ - تفسير لغوي .
	١٧٤ - نوادر للصاحب .

ص	ح
٢٢٩ — حادث محزن .	١٩٣ — الحماقة والرعاية والرعوننة والجنون .
٢٢٥ — مفاضلة بين الوزيرين .	١٩٥ — صاحب واحتقار الناس .
٢٢٦ — أدب ابن العميد .	بذاعة لسان صاحب .
٢٢٧ — أبو الفتح بن العميد والعامري	١٩٦ — أبو اسحاق النصيبي .
٢٢٨ — ابن العميد وأعلام عصره وحاشيته .	١٩٧ — صاحب والتاجر المصري .
٢٢٩ — افساد صاحب للعطاء .	١٩٨ — صاحب واليهودي .
٢٣٠ — بخل ابن العميد .	٢٠٠ — سعادة صاحب ونحسه .
٢٣٢ — أبو الفضل ابن العميد وأبوه .	٢٠١ — الانسان والاجرام السماوية .
رسائله الى قاضي أصفهان بالتبرؤ من ولده .	٢٠٢ — سوء طالع ابن العميد .
٢٣٥ — جواب القاضي على الرسالة .	٢٠٣ — التوحيد والصاحب .
٢٣٦ — الأصل والفرع .	٢٠٤ — بعض من سمي أبا حيان .
٢٣٨ — الشيخ الطبري .	٢٠٧ — مفارقة التوحيد للصاحب .
٢٣٩ — أبو الفتح وابنه .	الصاحب والتفسير .
٢٤٠ — عود الى بخل ابن العميد .	٢٠٨ — صاحب وأعلام عصره .
٢٤١ — ابن العميد والفلسفة اليونانية .	٢١٢ — أبو الفضل بن العميد .
٢٤٢ — السمعة الطيبة .	٢١٣ — ابن العميد وأبو طالب الجراحي .
٢٤٤ — حب الثناء .	٢١٦ — صبر ابن العميد على ابن ثابت .
٢٤٥ — هجاء صاحب .	٢١٨ — حديث الغويري عن صاحب .
٢٤٦ — غضب صاحب .	٢١٩ — طباع الوزيرين .
	ابن العميد والشاعر .

ص	ص
٢٦٦ - شعر في الحجاب .	٢٤٧ - الجنون والحمق والسيادة .
استطراد .	٢٤٨ - العقل والبخل والحمق .
٢٦٧ ابو الفتح بن العميد وشعره .	غلبة البخل على المتفلسفين .
٢٧٠ - تفقده لأعلام زمانه .	٢٥٢ - ابن العميد وجريح المقل .
٢٧١ - مجالس ابن العميد .	٢٥٣ - ابن العميد والبحري .
٢٧٣ - رأي ابن العميد في الصابي .	موعظة أبي الفضل الكيائي
٢٧٤ - رأي الصابي في ابن العميد .	لابن العميد .
٢٧٥ - نموذج من رسائل ابن العميد .	٢٥٤ - اللغة والكناية
٢٧٦ - كلام لابن العميد يرويه	٢٥٥ - تفسير بيتين .
الصاحب .	فقر لابن المعتز .
٢٧٨ - ابو الفرج السكاك وباب العميد	٢٥٧ - الوزيران بين الحب والبغض
٢٧٩ - رسالة ابن أبي السباب الى	٢٥٨ - الصاحب في نظر الناس .
ابن العميد .	كلام أبي السلم .
٢٨٢ - قصيدة ابن أبي السباب في	٢٥٩ - أبو السلم يهجو ويمدح .
ابن العميد .	غضب الصاحب .
٢٨٧ - رأي جريح المقل في ابن العميد	٢٦٠ - أشياء لا حقيقة لها .
حديث أبي غالب الاصبهاني .	محفوظات الصاحب .
٢٨٩ - كتاب ابن العميد لأبي دلف	٢٦٤ - الصاحب وحسين المتكلم .
الخرزجي	تعصب الصاحب لسيرافي .
٢٩٢ - وصف بندا .	٢٦٥ - تعلل الصاحب بالحجاب .
	الصاحب والإمامية .

ص	ص
٣٠٨ - صدر بيت .	٢٩٣ - نكتة .
إعجاب أبي الفضل بالفضل .	الفرق بين المتشابهين .
٣٠٩ - التجربة والاعتبار .	الكلام بين الجد والمزل .
٣١٠ - عواقب الطعن بالوزيرين .	٢٩٤ - ولوع العرب بالكلام .
٣١١ - بين الغضب والرضى .	٢٩٧ - نبوغ ابن العميد .
موقف التوحيد من المتكلمين	النفس والذاكرة .
والمفلسين .	٢٩٩ - السجستاني وابن العميد .
٣١٣ - بين التزكية والتجريح .	٣٠٠ - بخل أبي الفتح بن العميد .
٣١٤ - مواضع الهجاء والثناء .	٣٠٢ - ابن بندار وأبو الفضل .
٣١٥ - صاحب كما يراه أبو الوفاء	٣٠٣ - أبو الفضل والطبيب .
المهندس .	اعتذار .
٣١٦ - أبو السلم الشاعر والوزيران .	الصاحب والشراب .
٣١٨ - كلمات غريبة .	٣٠٤ - حرج الصدر والنفس .
٣٢٢ - الفرق بين اللفظ الثقيل	شيطان صغير .
والشعر .	الطلاقة والانطلاق .
انقضاء أيام الخير .	٣٠٥ - حقد الصاحب على التوحيد .
أثر العطاء .	٣٠٦ - الصاحب ومسكويه .
٣٢٣ - كرم البرامكة .	الصاحب وأبي عبد الله
٣٢٤ - بين الماضي والحاضر .	الحصيري .
أسلوب الوزيرين في الكرم .	٣٠٧ - دعاة الصاحب .
الصاحب وأهل العلم .	تبشير الصاحب .

ص	ص
٣٥٢ - بداية صاحب في أمور الدولة .	٣٢٥ - مفارقة التوحيدي للصاحب. حادث النسخ .
تلفظ صاحب .	٣٢٧ - حسد صاحب لابن العميد .
٣٥٣ - فرار صاحب .	رسالة التوحيدي لابن العميد يستعطفه .
٣٥٤ - ثورة خراسان .	٣٣٢ - لوم التوحيدي على مدحه ابن العميد .
٣٥٥ - الحاجة إلى المال .	٣٣٣ - حسد صاحب لأهل البيان .
٣٥٦ - الاستدانة من ابن كامة .	غيبظ صاحب من التوحيدي .
٣٥٨ - اطلاع ابن كامة على خيانة ابن العميد .	حديث أبي الحسن الجراحي .
٣٥٩ - وشاية أبي نصر المجوسي .	٣٣٦ - مسائل لغوية .
٣٦٠ - التوحيدي يخاطب القاري .	٣٤٣ - رسالة أخرى لابن طرخان .
٣٦٣ - الفهارس .	٣٤٤ - قصيدة النمري في مدح ابن العميد .
٣٦٥ - الأعلام .	٣٤٨ - أبو عبد الله النمري .
٣٧٩ - القوافي .	٣٤٩ - حديث عن ابن العميد .
٣٨٤ - الأماكن والبلدان .	استطراد إلى الكلام عن الوزيرين .
٣٨٧ - الأقوام والمذاهب .	٣٥١ - عودة إلى الحديث عن ابن العميد .
٣٨٩ - أسماء الكتب .	

تصويب

	سطر	صفحة
ما يحبطها	١٧	٢٠
ما يفتتها	١	٢١
مقيظ	٢	٣٠
خيراً	١٣	٣٩
دانوا لها	٨	٥٥
أمن المدل	٣	١١٨
فرجوت مع ذكره للاسلام خيراً	١٤	١٦٠
باللوح	٨	١٦٢
أذن	٧	٢٣٠
ابن	٦	٢٤٨
جريح	٢٢	٢٤٩
المهدي	١٠	٢٥٥
بخاص	٩	٣٦١

Epitre

MAṬĀLIB AL WAZĪREIN

(Les défauts des deux ministres)

Par

Abū Ḥayyān At - Tawḥīdī

(Ecrivain arabe du IV^e siècle de l'Hégire X^e S.)

Editée et Annotée

Par

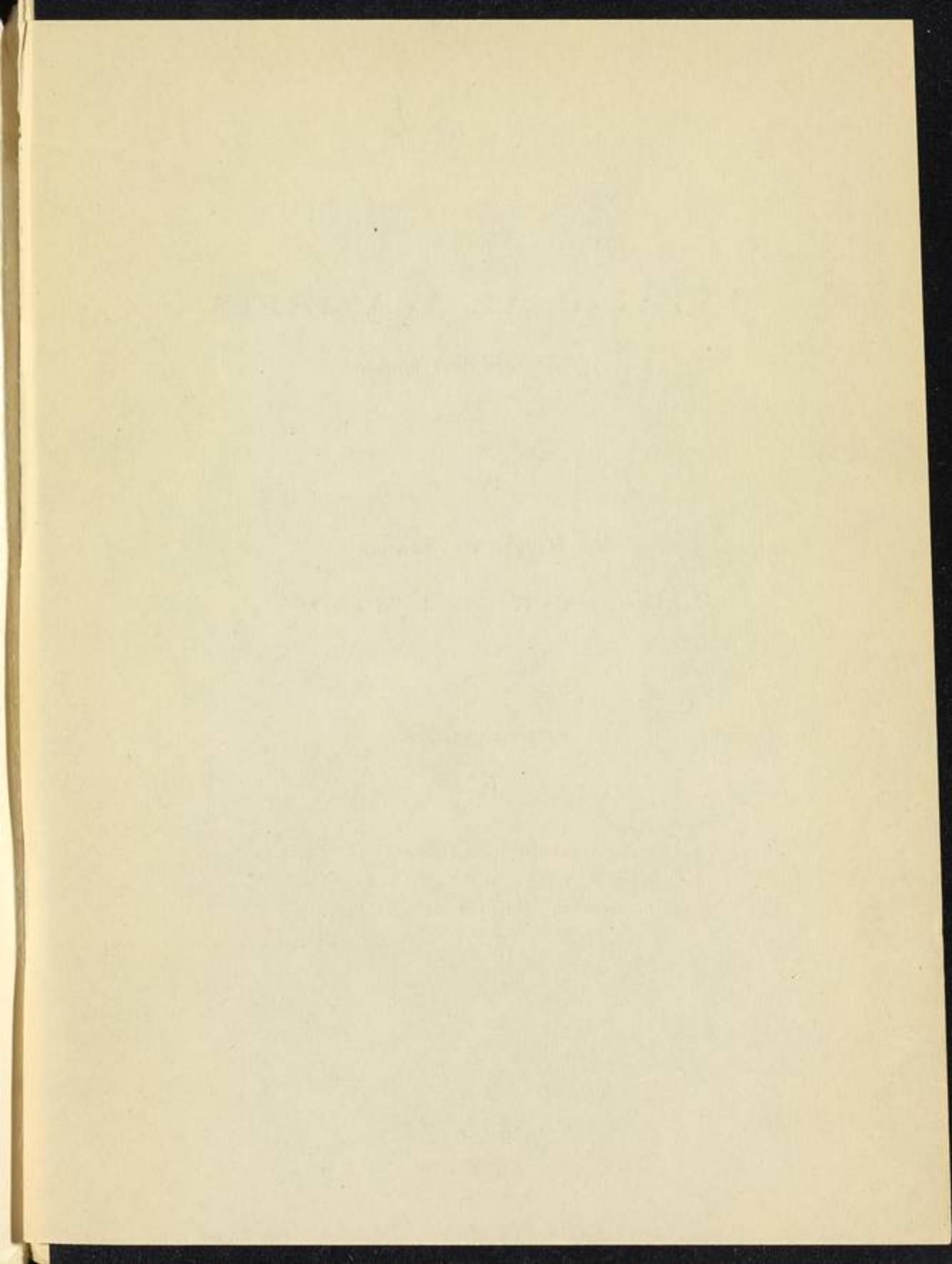
Ibrahim Kailani

Directeur au Ministère de la Culture

a Damas (syrie)

D A M A S

1 9 6 1





**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**



NYU - BOBST



31142 01332 5512

DS288.6 .A2

Mahalib al-wazirayn

Epitre

MATĀLIB AL WAZĪREIN

(Les défauts des deux ministres)

1-800-GO-AVERY



NYU

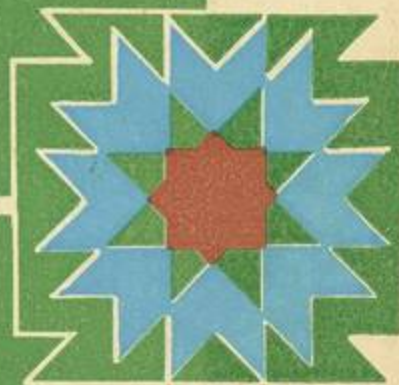
BOBST LIBRARY
OFFSITE

Directeur au Ministère de la Culture

a Damas (syrie)

D A M A S

1 9 6 1



دار الفسك بمشق